بارنابي ردج

تشارلز ديكنز

الجزء الأول

◆ المؤلف: تشارلز ديكنز

◆ العنوان: بارنابي ردج - حكاية أحداث شغب عام ثمانين - الجزء الأول

◆ ترجمة: محمد سالم عبادة

◆ الطبعة: الأولى 2023

◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

◆ مستشار النشر: سوسن بشير

◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
١٧٢٥٧ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 354 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

تشارلز ديكنز

بارنابي ردج

حكاية أحداث شغب عام ثمانين

ترجمة

محمد سالم عبادة

الجزء الأول

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

ديكنز، تشارلز

بارنابي ردج – تشارلز ديكنز

ترجمة: محمد سالم عبادة

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2023

512 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17257 / 2022

الترقيم الدولي 1 – 354 – 765 – 977 – 978

1 – روايات

2 – العنوان

هذه ترجمة كتاب:

Barnaby Rudge

By: Charles Dickens

All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© **Afaq** *Publishing House* 2023

مقدمة المترجم

هي في الغالب صفحاتٌ يضرب القارئ عنها صفحًا، مقررًا أن يخترق مباشرة إلى متن الكتاب المترجم، إلا أن لكتابتها إغراء يصعب أن يقاومه من أفنى شطرًا من حياته يحاول أن يكون جسرًا على قدرٍ معقولٍ من الكفاءة لعبور الكتاب من لغته الأصليَّة إلى المترجَم إليها. وذلك أنَّ أسئلة معيَّنة تثور لا محالة في ذهن المترجم في أثناء قيامه بمهمَّته، فإذا بلغت درجة من القوة حرجة لا يجد مفرًّا من بسطِها ومحاولة الإجابة عنها على الملأ. وهذا ما أحاوله هنا، مرتكنًا إلى الإيجاز ما استطعتُ إليه سبيلًا.

*ديكنز الآن؟! لماذا؟!

نعم! بعد أن جرت في نهر الرواية مياه أكثر من أن يلمَّ بها إنسان نذر حياته لدراسة تاريخ هذا الفنِّ السَّردي، وبعد أن قام في الناس من جرَّبوا في الرواية ما لا يحيط به الحصر من وجوه التجريب، يبقى أساتذة الرواية التاريخيُّون ذوي عطاء متجدِّد لمن بعدهم. والإجماع على أنَّ ديكنز واحد من أساتذة فن الرواية في العالم، وأن أجيالًا ممَّن تلوه تأثرت به. لهذه الأستاذية وجوه كثيرة، فمنها ذلك الاستقصاء لتفاصيل المشهد الواحد والشخصية الواحدة، وهو استقصاء لا نجد كثيرين في تاريخ الرواية يطاولون فيه ديكنز، وربما يكون (أونوريه دو بلزاك) أحد أهم هؤلاء طرًّا. فعند كليهما نجد غوصًا في مستويات المرئي وغير المرئي من المشهد والشخصية، غوصًا أقل ما يوصف به أنه غوص متوحِّش، لا يكاد يرضى

غاية دون التمام، كأن صاحبيه -أعني ديكنز وبلزاك- حريصان على هداية القارئ في مجاهل هذا العالم الخيالي المسرود على الورق بحيث لا يتركان علامة قد تساعده على الوصول إلى القصد إلَّا وأناراها له. بالطبع نجد نقدًا متحيِّزًا ضد هذه الإفاضة في التفاصيل، يعتبر أسلوبًا كأسلوب ديكنز حشويًّا يلفُّ ويدور حول المهم ولا يتجه إليه من أقصر الطرق، بعكس أسلوب روائي آخر مهم مثل (إرنست هِمِنجوِاي) يعتمد على الجمل القصيرة للغاية ولا يلجأ إلى الصور البيانية إلَّا في أضيق الحدود، فهذا الأسلوب الأخير من وجهة نظر هؤلاء هو الجدير بالمتابعة والتقدير. ولا ننكر أن أسلوب الطلقات السريعة -أو فلتكن اللكمات الخاطفة حتى يكون أسلوب هِمِنجوِاي مرآة لهمنجواي الرجل الملاكم- يبتغي الوصول من أقرب الطرق. إلَّا أنَّ سحر استقصاء (ديكنز) يكمن في ثنائية (التوحش والافتراس) كما أحب أن أسمِّيها.

فالتوحش -من الوحشة- هو انفلات من ألفة الاجتماع، وبهذا المعنى فإن ديكنز حين يفيض في وصف التفاصيل ينفلت من قبضة الكلام اليومي المألوف بين بني البشر، الذي لا يحتوي على غير الضروري المهم لاستمرار الحياة غالبًا، فهو بذلك يفارق العادة ويؤسِّس لتفرُّده و(توحشه) من خلال لغة أدبية نموذجية متعالية على ضرورات اللغة اليومية. وللتوحش ظلٌّ آخر من المعنى بالنسبة إلى ما يفعله ديكنز، نقصد به إحساسه باستيحاش قارئه لذلك العالم المجهول الخيالي الموجود أساسًا في عقل المؤلِّف والمصوِّر على بياض الصفحات. وانطلاقًا من إحساسه هذا يقبض على كلِّ علامة قد تساعد القارئ على الوصول إلى هدفه في مجاهل النّصِّ، وينيرها. لكنَّ هذه الإنارة للعلامات توسِّع النَّصِّ أكثر

وأكثر وتزيد مجاهله، ممَّا يدفع بالقارئ إلى الشعور بالوحشة من جديد. فكأن هذه التفاصيل تلقي بالقارئ في مجاهل الوحشة ثم تنتشله منها، ثم ما تلبث أن تلقي به فيها من جديد، وهكذا، خالقة توتُّرًا حيويًّا صحيًّا، يجعل من الرواية حياة بديلة، يدخلها القارئ بمحض إرادته ويغيب فيها إلى نهايتها، ليعود منها إلى حياته الحقيقية بخبراتٍ لم تكن لتتاح له على نحو آخر.

أمَّا الافتراس فأعني به ذلك الإدراك المركَّب الذي تتمتع به قلَّة من العقول المبدعة، والذي بمقتضاه تستطيع الغوص في كل ظاهرة ماثلة أمامها، سواء أكانت هذه الظاهرة شخصًا أو حدثًا أو تتابعًا من المشاهد أو أيَّ شيء. هو إدراك مجدول دائمًا من ضفائر ثقافية عديدة أو مركَّب من طبقات معرفية مختلفة، وحين يجابه صاحبه الظاهرة لا يكتفي بقضمة عابرة منها ليتذوَّقها، وإنما يأتي على الظاهرة إلى آخرها، فكأنه يفترسها بهذا الوعي الأكول. هذا هو بالضبط ما يفعله ديكنز في سردياته العظيمة. ولنا في مشهد اكتشاف مستر هِاردِال لقاتل أخيه وسط أطلال منزل (وُارِن) في الفصل السادس والخمسين مثالٌ حيٌّ على ثنائية التوحُّش والافتراس. لا يكاد ديكنز يفلت ظلًّا يظهر أو يختفي في محيط المشهد أو على وجه أحد شخوصه الثلاثة دون أن يصوِّره لنا. وفي تقديري المتواضع أنه بعمله هذا يطاول أعظم مخرجي السينما، فإن ما يفعله ليس حتى شبيهًا بما يتميز به السيناريو من بعض التفصيل لمرئيات المشهد، وإنما يتجاوزه حقًّا إلى مرحلة تقطيع المشهد إلى لقطاتٍ من زوايا التصوير المختلفة Decoupage. فإذا ما اعترض معترضٌ بأن فن الرواية لم يعُد بحاجة إلى مثل ذلك الإيغال في التصوير وقد أخذت السينما على عاتقها أن تقوم بهذا

الدور، رددنا بأنَّ محض قراءة نصٍّ روائي يسهب هذا الإسهاب التصويري يدرِّب مخيلة القارئ تدريبًا فريدًا، ويعده إعدادًا محترمًا للخروج من بين دفَّتي الكتاب إلى حياته العادية محمَّلًا بقدرة استثنائية على الرؤية، ومن ثم على التَّروِّي.

وقد يثور اعتراضٌ آخر على فكرة قراءة ديكنز الآن –رغم احتلال أدبه مكانة بالغة الفرادة في الأدب المكتوب بالإنكليزية، حتى ليجد المرء دوريات كاملة منذورة لتقديم القراءات والدراسات فيما تركه من أعمال، ورغم أن رواياته قد أصبحت بحقٍّ سجلًّا تاريخيًّا للندن، ومعادلًا أدبيًّا لعالمها، لا سيما في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وعمقًا إنسانيًّا لا يجحد لها– ومفاد هذا الاعتراض أن الأدب قد تجاوز ما كان يحرص عليه ديكنز من إعلان موقفه من أحداث العالم بوضوحٍ، وهو حرص لا يتناقض وما ستحدِّثنا عنه مقدمة إصدارات وردزورث من حياد في الرواية، إذ إن كاتبنا يعطي أشخاصه فرصتهم كاملة في التعبير عن دواخل نفوسهم، بل ويشير من طرفٍ خفيٍّ أحيانًا إلى مبرراتهم ودوافعهم التي قد تمنحهم بعض العذر، إلَّا أنه يحتفظ لنفسه بوضوح الموقف في النهاية وفي التحليل الأخير، فلا سبيل مثلًا أمام قارئ هذه الرواية إلى أن يدَّعي في ثقة أنَّ كاتبها يحبِّذ الخروج العنيف على النظام الاجتماعي أو أنه يقف موقفًا سلبيًّا من الدين. والرد على هذا الاعتراض أن الموقف الفكري ليس ترفًا في الأدب، وليس شيئًا قد يغيب وقد يحضر، وإنما هو ضرورة لا تنفصل عن بنية العمل الأدبي، وإلَّا فهذا الأخير لن يصبح إلا محض لغو فارغ. فسواء التصق الكاتب بموقفه أو أومأ إليه من بعيدٍ، يظل الموقف حاضرًا دائمًا وأبدًا. وفي رأيي أن ديكنز يعلِّمنا قدرًا من الجسارة في التعبير عن

الموقف، يبدو لي مهمًّا جدًّا إن كان ثمَّ أمل في أن يُحدِث الأدب شيئًا من تغيير العالم إلى الأفضل، حتى ولو كان تغييرًا تدريجيًّا غير مباشر يحدث في نفوس القراء ويتراكم رويدًا رويدًا.

*** عن الخلفية التاريخية ومكانة الرواية:**

لا يفوتنا أن نشير إلى فرادة الحقبة التاريخية التي يتناولها هذا العمل، فكما أشار ديكنز في مقدمته، لا نجد عملًا آخر معروفًا قد تناول أحداث شغب (غوردن) Gordon Riots قبله، وربّما الاستثناء الوحيد هو رواية (هارنـگـتون Harrington) للروائية (ماريا إدچورث Maria Edgeworth). وهي أحداث بالغة الأهمية في سياقها الوطني الإنگليزي، حيث وقعت على أرض طالما أنهكها الاحتراب الطائفي، ولا تقل أهمية في درسها الإنساني العالمي، حيث يبدو أن البشرية لا تتعلَّم بسهولة من أخطائها المتكررة كما يقول ديكنز. وملخص هذه الأحداث أن صدور مرسوم البابويِّين Papists› Act عام ١٧٧٨ الذي هدف إلى تقليل التمييز ضد الكاثوليك البريطانيين –وهو التمييز الذي رسَّخه مرسومٌ أقدم هو مرسوم البابوية Popery Act عام ١٦٩٨– قد دفع السّير (چورچ غوردن) رئيس الرابطة الپروتستانتية إلى التحذير من أنه يحوِّل كاثوليك الجيش البريطاني إلى تهديد حقيقي، ومن ثم ثارت تظاهراتٌ عنيفة في لندن ضد المرسوم، مدفوعة بشعورٍ مناهض للكاثوليكية، تحوَّلت بعد ذلك إلى أعنف أحداث تخريبٍ ونهبٍ في تاريخ لندن، ونقش على جدار سجن نيوغِات Newgate Prison بيان يقول إن المسجونين أُطلِق سراحهم بأمر (جلالة الملك الجماهير His Majesty King Mob). ومعروف أن اصطلاح (الملك الجماهير King Mob) تحوَّل بعد ذلك إلى إشارة إلى

البروليتاريا الجامحة المخيفة. والمهم أن الأحداث لم تهدأ حتى تدخَّل الجيش وبدأ قنص المتظاهرين، مما تسبَّب في موت ثلاثمائة إلى سبعمائة منهم، واستمرت الأحداث أسبوعًا، من الثاني إلى التاسع من يونيو/ حزيران عام ١٨٨٠. أضرَّت أحداث الشغب بسمعة بريطانيا في أوربا، حيث بدأ كثيرون يرون نظام الملكية الدستورية البريطاني نظامَ حكمٍ يفتقر إلى الاستقرار. وقد جاء هذا في وقتٍ كانت بريطانيا تبحث فيه عن حلفاء أقوياء، لاسيَّما النمسا الكاثوليكية، لتجابه التحالف القوي الذي قادته فرنسا في حرب استقلال أمريكا. كذلك أبرزت هذه الأحداث المشكلات التي واجهتها بريطانيا جرَّاء امتناعها عن نشر قوة شرطة محترفة، حيث كان يُنظر إلى مثل هذا الإجراء باعتباره أثرًا من آثار الملكية المطلقة.

بالطبع تتجلَّى عبقرية ديكنز السردية في مقدرته على تضفير حيوات أبطاله بهذه الخلفية المجتمعية العنيفة، ونسجه روايته من هذه الخيوط المتشابكة دون أن يخلَّ بما ألزم به نفسه من تشريح شخصياته وأحداث حياتهم على الوجه الأمثل. وقد تصوَّرتُ حين قرأتُ في مقدمة إصدارات وردزورث أن هذه الرواية بالتحديد لم تنصف بين روايات ديكنز أنها لم تحظَ بطبعاتٍ عديدة كغيرها من أعماله، لكني اكتشفتُ أن طبعاتها لا تقل غزارة عن غيرها، وكذلك ترجماتها، ومنها ترجمات إلى لغاتٍ مجاورة لنا في النطاق الجغرافي، فلها ترجمة فارسية معتمدة مثلًا، لكني لم أفلح في العثور على أي ترجمة إلى العربية، وهو أمرٌ غير متوقَّع بالطبع. ومن ثمَّ اقترحتُ ترجمتها، ولاقى اقتراحي قبولًا وترحيبًا من دار (آفاق) التي تصادف أن كانت قد بدأت مشروعًا لإعادة ترجمة أعمال ديكنز إلى العربية.

*** بارنابي وغرابه:**

من المثير أن نعرف أن الشخصية التي يحمل اسمها عنوان الرواية هي شخصية شاب معاق ذهنيًّا. فيلوح لي أن للقارئ العربي حقًّا في أن يعرف كيف تناول أديبٌ في قامة ديكنز شخصية المعاق ذهنيًّا، وأن يقارن هذا التناول بتناول (وليام فوكنر) مثلًا لشخصية (بنچامين/ بنچي) في روايته الأشهر (الصخب والعنف The Sound & The Fury) حيث أفرد فصلًا من فصولها الأربعة لبنچامين يتحدث فيه بنفسه عن الخبرة العائلية محور أحداث الرواية. في رواية فوكنر، جاء كلام بنچامين جملًا مبتورة مضطربة البناء كأنه يقدِّم معادلًا لغويًّا للعبث الذي أراد فوكنر أن يجسِّده، وصدَّر الرواية بذلك الفصل ليقلب التراتب القيمي الذي اعتدناه في ممارستنا الإنسانية، فيجعل العبث/ الفوضى يبدو أصلًا، والنظام/ العقل فرعًا. فكيف جاء تناول ديكنز؟ في الحقيقة لا يطمح ديكنز إلى مثل هذه الرؤى الجذرية، وذلك أنه -كما تقول مقدمة إصدارات وردزورث- مؤمن أصلًا بالنظام إلى أبعد مدى ممكن، لكنه يستطيع أن يفسح مكانًا لبطل روايته، يسعه، وأن يبدي تجاهه تسامحًا متوافقًا مع قناعاته العميقة. وليس ذلك فحسب، وإنما يلوح لي أنَّ (بارنابي) هو بطل العمل من زاوية معينة، كما أنَّ (غابرييل ڤاردن) صانع الأقفال هو البطل من زاوية أخرى. بالنسبة إلى ڤاردن، فمن الواضح أنه صاحب أكثر الشخصيات اتساقًا في ذاتها ومحبة للناس وتسامحًا معهم، كما تذهب إلى ذلك كثرة من آراء المعلقين على الرواية، وأرى أنَّ اختيار مهنته قد يضطلع بمهمة رمزية في سياق الرواية، فهو صانع الأقفال الذي يؤمِّن الناس على ممتلكاتهم

ويؤمِّن المجتمع بأسره على اطراد نظامه واستقراره، حتى إنه يرفض في أثناء أحداث الشغب أن يكون أداة في أيدي المتمردين لفتح أقفال السجن لتهريب أسراهم، ولا يفتأ ديكنز يشير إليه بمهنته في ثنايا الرواية، كما يشير إلى (دِنِس) بمهنته (الشانق) ليلفتنا إلى متعته الشاذة في إزهاق أرواح المحكوم عليهم بالإعدام، وكما يشير إلى (غاشفورد) بوظيفته (صاحب السر Secretary) ليلفتنا إلى مفارقة التصاق الخيانة بشخصيته إلى النهاية، وإلى أنه ليس صاحبًا إلَّا لسرِّ نفسه هو. ومن غريب الاتفاق في ذهني أن تحيلني هذه الرمزية التي أدَّعيها لـ(غابرييل ڤاردن) إلى كتاب (قفل الفتنة) الذي ألَّفه الكاتب المسرحي المصري الأستاذ (محمد سيد عمَّار) عن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، فقد اختار له هذا النعت الغريب بالتحديد ليشير إلى حيلولته دون نشوب الفتنة في مجتمع الإسلام الوليد الذي كان يشهد بداية انفتاحه زمن خلافته، فكذلك كان (ڤاردن) هنا قفلًا للفتنة إلى مدى كبيرٍ.

أمَّا (بارنابي) فإعاقته الذهنية ليست من النوع الشديد الذي نجده عند (بنچي) في (الصخب والعنف)، وإنما هو تأخُّر عقلي ذو طبيعة خاصة، رأى فيه الطبيبان (دارن إبلوڤي) و(كرستوفر كلاردي) -في ورقة بحثية قدَّماها إلى دورية حوليَّات طب الأطفال عام ٢٠١٦- أول وصف تفصيلي دقيق لما سمي منذ عام ١٩٦١ بمتلازمة وليامز [1] Williams Syndrome

(١) هو اضطراب تكوينيّ ينجم عن حذف سبعة وعشرين مورّثًا (چينًا) من الذراع الطويلة لأحد زوجي الصّبغيّين رقم ٧ من المادّة الوراثيّة البشريّة. أما الورقة البحثيّة المشار إليها فهذه بياناتها لمن أحبّ الاطّلاع عليها: February 2016
Pediatric Annals 45(2):e67-e69 - DOI:10.3928/00904481-20160113-03

وهي اضطراب يتميز بإعاقة عقلية متوسطة، تصاحبها مهارات لغوية قوية وشخصية مغرقة في الانفتاح على المجتمع، فضلًا عن ملامح وجه يشار إليها تقليديًّا بأنها (عفريتية) Elfin Facies حيث الجبهة بارزة والمسافة بين العينين كبيرة والأنف منحن إلى أعلى والفك السفلي والأسنان لا تبدو مكتملة النمو والشفتان مفترشتان. ويعود اسم هذه الملامح إلى المخلوق الأسطوري الموجود في الأساطير الجرمانية Elf. والمهم أنَّ ديكنز يصف وجه بطله بهذا النعت تحديدًا، ولا نجهد لنلاحظ تلك السمات في شخصيته بطول الرواية. والحق أنَّ إلهام ديكنز لمتون المعرفة الطبيَّة معروفٌ من قبل ذلك، فكل طالب طبٍّ قد اصطدم لا محالة بالمتلازمة الپكوِكيَّة Pickwickian Syndrome التي تتميز بالسمنة واضطراب التنفُّس في أثناء النوم والارتفاع المزمن في مستوى ثاني أكسيد الكربون بالدم في أثناء اليقظة، والمهم أنَّ اسم المتلازمة مأخوذٌ أصلًا من وصف ديكنز لشخصية تدعى (چو) في روايته (أوراق پكوك The Pickwick Papers).

نعود من الاستطراد لنقول إن السمات الشخصية المذكورة في بارنابي تجعل منه شخصًا نبيلًا بالفعل، جديرًا بالبطولة رغم إعاقته. وفي مشهد في معسكر المتمرِّدين ينظر إليه رفيقاه (دنس) و(هيو) بنوعٍ من الإكبار لاهتمامه الفريد بهندامه وولائه المخلص للقضية المزيفة التي انطلت عليه وشجاعته النادرة. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أنه ابن أب مجرم قتل مخدومه ليسرقه وقتل معه رجلًا آخر وهرب، وشاء القدر أن يولد ابنه بصبغة دم على رسغه كأنَّها ختم جرم الأب، فإنَّ (بارنابي) -إن لم نكن مسرفين في التأويل، ولا أظننا كذلك- يقف رمزًا على جيل من البسطاء الفقراء السذُّج الذين ورثوا عمَّن سبقهم أحقادًا لا معنى لها بين طائفتين دينيَّتين

وتاريخًا من إجرام كل طائفة في حق الأخرى، فحملوا على أيديهم ختم ذلك الإجرام، ولم يكن بدٌّ من أن يتورَّطوا في مثل تلك الأحداث الدامية المجنونة. أي أنه باختصار ضحية إرث الكراهية والدم والجنون. ويعزز ذلك اختيار ديكنز لاسمه -وديكنز مشهورٌ بتعالق أسماء شخصياته بمعانٍ معيَّنة يقفون رموزًا عليها- فهو نسخة إنكليزيّة من اسم (بارناباس) الذي يقول سفر أعمال الرسل من العهد الجديد في نسخته اليونانية (إصحاح ٤ : آية ٣٦) إنه اسم يعني **υἱὸς παρακλήσεως** (إيوس پاراكليسيوس) أي (ابن السّلوان). ويعيد أحد التفاسير أصل الاسم إلى الآرامية، حيث يعني تركيب (بر نحمه המחנ רב) ابن السلوان، ويعيده تفسير آخر إلى العبرية حيث (بر نبيء איבנ רב) تعني (ابن النبي). وبطلنا من ناحية هو حقًّا ابن سلوان تمُنُّ به السماء على أمِّه في وضعها الاجتماعي المحزن، ومن ناحية أخرى هو ابن نبي مقلوب -إن جاز التعبير- فأبوه ارتكب جرائمه دون مبرر يسوغها -على الأقل من وجهة نظر الرواية- وأتبع هذه الجرائم بهرب أبديٍّ لا يقطعه إلَّا ليبتزَّ امرأته الصابرة، كأنه شخصٌ قرَّر أن يقف في وجه السماء كارهًا لها إلى النهاية. والشاهد أنَّ بارنابي البطل هو ابن ذلك النبي المقلوب كما أن جيله من الفقراء السذج ابن لأسلاف بالغوا في نعراتهم الدينية ظانِّين أنفسهم أنبياء، فلم يورثوا ذلك الجيل إلا بؤسًا عقليًّا واستعدادًا كاملًا للتخريب باسم الدفاع عن العقيدة. بقي أن أشير إلى ذلك الرسم التخيُّلي لشخصية بارنابي، وهو الذي صُدِّرت به نسخة ووردزورث التي اعتمدتُ عليها أساسًا في الترجمة. هو رسمٌ مأخوذٌ من رسوم چورچ كاترمول وهابلُت نايت براون[1] لمشهد

(١) George Cattermole & Hablot Knight Browne (Phiz)

إسعاف غابرييل ڤاردن لإدوارد تشستر حين أصابه قاطع الطريق، حيث كان ثالثهما بارنابي رافعًا شعلة ليضيء لهما. هذا التصدير يستدعي على الفور أشهر متحامق رفع شعلة في تاريخ الثقافة الغربية، وهو الفيلسوف الكلبيّ الإغريقي ديوجين صاحب المصباح الشهير الذي كان يسير به في شوارع أثينا في وهج الصباح، وحين يُسأل عن دافعه إلى ذلك يقول إنه يبحث بين الناس عن رجلٍ صادقٍ. هكذا يقف بارنابي متفلسفًا –وإن كان لا يعي تفلسفه– ليبحث بين الناس عن رجلٍ صادقٍ، وفي تشرُّده وصراحته وخياله الجامح وجنونه المحبَّب إلى النفس ينطق بأنه أصدق من يمكن أن نصادفهم هنا، هو بطل الرواية صدقًا.

أخيرًا، نجد الغراب (غرپ) الذي يرافق بارنابي، والذي يقول عنه ديكنز إنه قد بنى شخصيته على نموذجين واقعيين لغرابين اقتناهما بنفسه في مرحلة ما من حياته. نعرف أنَّ الأديب الأمريكي العظيم (إدجار آلن پو) كتب مراجعتين عن هذه الرواية، وأنه انتقد دور الغراب والمساحة الصغيرة التي يشغلها من متن الرواية، وقال إنه يتمنى لو كان ديكنز عهد إلى الغراب بقيمة رمزية أكبر في هذا العمل. ثم إنَّ (پو) بعد ذلك استلهم غراب (بارنابي) في قصيدته الأشهر (الغراب The Raven) التي كتبها في الوزن التروخائي الثماني Trochaic Octameter. وفي رأيي أنَّ قرَّاء العربية الذين التقوا بغراب (پو) من حقِّهم أن يعرفوا الأصل الذي استلهمه، وأن يقرروا بأنفسهم ما إذا كان ثمة حمولة رمزية لهذا الغراب في رواية ديكنز أو لا، وهذه أتركها لرأي القراء.

* **المنزل والحانة والخان والفندق:**

بهذه الأسماء المختلفة تشير هذه الترجمة إلى كلٍّ من ثلاثة أماكن، رجوعًا إلى ما فعله ديكنز نفسه بطريقة ما في متن السرد، وهذه الأماكن هي (مايپول) و(الأسد الأسود) و(البوت)، فإنّ كلًّا منها كان مكانًا متعدد الأغراض، فهو حانة قد يمرُّ بها طالبو الشراب، وفندق/ خان يستريح فيه المسافرون خلال أسفارهم، ومنزل لمن يعيشون فيه.

* **كلمة عن كتابة أسماء الأعلام:**

آثرتُ أن أحافظ على الطريقة التي ينطق بها الإنجليز هذه الأسماء بقدر الإمكان، ولم أجِد عن ذلك إلا لشيوع لطريقة معينة في كتابة اسم بالعربية رأيت أنَّ له ما يبرّره. وفي سبيل ذلك لجأتُ إلى حركات التشكيل العربية، خاصة في أول ذكرٍ لكلِّ اسم علَم، مقتصدًا في استخدام حروف المدِّ، ومثال ذلك اسم مدير نزل مايپول Willet إذ كتبته (وِلِت)، واسم ابنة صانع الأقفال Dolly إذ نأيتُ عن النقل الحرفي العربي الشائع (دوللي) إلى اختيار يشبه أسماء الإناث المصوغة في صيغ أفعال الأمر مثل (جودي)، فكتبت اسمها (دُلِّي).

وكان هناك تحدٍّ يتمثَّل في كيفية كتابة معادلٍ لصوت G، فهناك من ينقلونها بالجيم على أساس أن تُنطَق جيمًا قاهرية، وهناك من ينقلونها غينًا بصفة مطردة، وهناك الطريقة المشرقية (العراقية بالتحديد) في كتابتها كافًا معلّمة بعلامة من فوقها، مستعارة من الفارسية التي أضافت هذه العلامة لتعبِّر عن صوت G غير الموجود في العربية الفصحى. فآثرتُ أن أنقل معظم الأسماء التي ترد فيها G مكتوبة بالغين، ومثالها (غابرييل) و(غاشفورد) واسم الغراب Grip (غرپ) الذي رأيتُ أنه يتجاوب صوتيًّا

مع مفردة (غراب). إلَّا أني احتفظتُ بالحل المشرقي للأسماء التي يرِد فيها الحرف المُشكِل مزدوجًا، فنقلت اسمي Stagg وMiggs هكذا (ستاگ) و(مـگـز)، إذ رأيت في التكرار تأكيدًا على صفات ذلك الصوت المسمَّى جيمًا مصرية، وأعني بها الجهرية والحلقية والانفجارية Voiced velar plosive. لكني آثرتُ أن أنقل اسم البلد England بهذه الطريقة أيضًا (إنگلترا)، وذلك أني رأيتُ في طرق نطق المصريين أنفسهم لاسمها من يقولونه بالكاف (كان جدي لأبي ينطقه: إنكلترا، وأظن أن ذلك كان شائعًا في ريف مصر بعيدًا عن القاهرة)، فكان الأولى في رأيي أن أستخدم الحرف المستعار الذي يعبِّر بطريقة أدق عن ذلك الصوت غير العربي.

وأخيرًا فقد استفدت من إمكان إمالة ألف المدِّ في النطق العربي لأعبِّر عن أسماء مثل Haredale وDaisy فكتبتهما هكذا (هِاردِال) و(دِايزي)، كاسرًا ما قبل ألف المد لتبدو الإمالة واضحة، كما عمدت إلى ضمِّ ما قبل الألف للتعبير عن صوت حرف المدِّ كما يأتي في كلمة War فنقلت اسم Southwark هكذا (ساوثوُارك).

ولا يبقى إلا أن أشير إلى أنَّ الهوامش المنثورة في ثنايا الرواية هي بالكامل هوامش المترجم، لم يَبتغِ من ورائها إلا أن يوضِّح غامضًا هنا أو يسلِّط الضوء على إشارة أشارها ديكنز هناك ليستعرض في إيجاز ما وراءها مما قد يفيد القارئ. وما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو نسيان فمن نفسي، والله ولي التوفيق.

محمد سالم عبادة

الثاني من ذي القعدة ١٤٤٣ هـ - غرّة حزيران/ يونيو ٢٠٢٢م

مقدّمة نسخة إصدارات وردزورث

(بارنابي ردج) أول رواية تاريخية كتبها ديكنز، والثانية هي (قصة مدينتين) سنة ١٨٥٩، ولم يكتب رواياتٍ تاريخية غيرهما. ورغم اعتزامه إصدارها في مجلَّد واحد إلَّا أنَّ الظروف قد اضطرَّته إلى إصدارها مسلسلة بين فبراير ونوفمبر من عام ١٨٤١م في (ساعة السيد همفري Master Humphrey's Clock) وهي مجلة المنوعات الأدبية الأسبوعية التي بدأ إصدارها في العام السابق. لم تحظَ الرواية بقبولٍ جماهيري فائقٍ كسابقاتها، لكنَّها مع ذلك تنطوي على كتابة عظيمة، كما أنها مهمة كعلامة في التطور الفني لديكنز. فثمَّ نسقٌ جديدٌ على كتابته نستشعره بطول هذه الرواية، كما تظهر فيها أستاذيَّته في مزج وإكمال الحقيقة التاريخية بالخيال. وهو يقدِّم شخصيات من كل طبقات المجتمع، وينجح في ربط شخصياته -حتى أغربهم أطوارًا- بشخصيات وأحداث تاريخية حقيقية في الرواية. ومن خلال تركيزه على الأشخاص الذين يجرفهم الفعل الجمعي للجماهير يعري هذا الفعل أمامنا كاشفًا مدى قوته ورعبه. الخلفية التاريخية للرواية هي أحداث الشغب السيئة السمعة المعروفة بأحداث (لا للبابوية No Popery)، تلك التي أثارها اللورد (چورچ جوردون Lord George Gordon) وروعت لندن لأيامٍ عدة في مطلع صيف عام ١٧٨٠. ومن السهل تقسيم الرواية إلى جزأين. يبدأ أولهما

عام ١٧٧٥ ويهتم بموضوع علاقة الحب والرغبة في الاستقلال اللتين تنغصهما السلطة الأبوية. والحق أن موضوع الآباء الزائفين أو غير الأكفاء يتكرر على نحوٍ ملحوظٍ في أعمال ديكنز، وسنقابل منهم كثرة بأشكالٍ متعددة في (بارنابي ردچ). فهناك (چون وِلت) حارس نزل مايپول، حيث يقوم بدور الوالد الطاغية لـ(چو وِلت) أحد الأبطال الرومانسيين في حبكة الرواية. كذلك هناك (سير چون تشستر) الأرستقراطي المتحكم الپروتستانتي والد (إدوارد تشستر) البطل الآخر. أمَّا الكاثوليكي (چفري هاردال) فلا يطاول هذين في الغباء والنذالة، لكنَّه مستعدٌّ للتضحية بسعادة (إمَّا) ابنة أخيه في سبيل بعض الأحقاد الشخصية. خلال كل ذلك يرسم ديكنز الآباء الفاسدين بأستاذية ويشبك في نسيج حكايتهم حكاية أخرى غامضة عن جريمة قتل (روبن هاردال) التي ارتكبت قبل عشرين عامًا ولم تُحل إلى وقت أحداث الرواية. وهذه الجريمة تتمحور حول شخص (مستر ردچ) الهارب الغامض، وهو الوالد الغائب لـ(بارنابي ردچ) المعاق ذهنيًّا. أمَّا أمّ (بارنابي) فهي في المقابل أمٌّ مثالية، تقف طيبتها الصادقة على قدم المساواة مع طيبة (غابرييل ڤاردن) صانع الأقفال الذي يُعد البطل الحقيقي للعمل. وڤاردن أب مخلص وإن يكن متساهلًا لابنته (دلّي)، بيد أن بيته محكومٌ بأوهام ونزوات امرأته وخادمتها اللاذعة السادرة في خداع نفسها (مگز) اللتين وقعتا في أسر المؤسسة الپروتستانتية. يرمز الاضطراب القائم في بيت (ڤاردن) وبيوت (تشستر) و(ردچ) و(هاردال) كذلك إلى اضطرابٍ أعظم. وتعزّز هذا الإحساس حبكة فرعية تخلق بعضًا من أفضل المواقف الكوميدية في الرواية، وتتمحور حول (سايمن تاپرتت) صبي صانع الأقفال الطيب، والعمليات التي تقوم

بها جماعته السرية المكونة من صبيان يخططون لتدمير سادتهم. ويتسم وصف ديكنز لاجتماعات هؤلاء الصبيان بالكوميديا الصاخبة، وإن كان مشوبًا بالإيحاءات المشئومة، فالتهكُّم هنا لا يرحم. لقد كان ديكنز عميق الإيمان بالنظام الاجتماعي، ومن ثمَّ فقد رأى هذا السلوك الثوري شرًّا حقيقيًّا. وهو يوحي إلينا باضطرابٍ مجتمعي عميق من خلال أنشطة هذه الشخصيات الخيالية.

أما النصف الثاني من الرواية فيتناول أحداث الشغب نفسها وانتهاءها بتخريب سجن نيوغات Newgate Prison وهو ما يستدعي على الفور مقارنتها بالثورة الفرنسية. ويمضي ديكنز بسلاسة من الاهتمامات الشخصية الخاصة إلى الاهتمامات العامة. يقدِّم ديكنز إلينا اللورد (چورچ غوردن) ومساعده المتوعِّد (غاشفورد)، لكن لكل لاعب من اللاعبين الأساسيين في أحداث الشغب دوره في الحبكة الرومانسية للرواية. والحق أن استحضار ديكنز لعنف الجماهير هنا يقدم صورة نابضة بالحياة، ويمثِّل نموذجًا من أفضل نماذجه السردية. وهو يصف لنا غرضه بهذه الكلمات: «كان هدفي أن أوصل فكرة الجموع والعنف والهياج، حتى ولو غامرت بفقد أشخاص روايتي في خضم هذا الزحام الهائج».

يتمتع كثيرٌ من شخصيات روايتنا بأهمية رمزية أو وظيفة تمثيلية ما، بحيث تشير إلى موضوعات أوسع مدى بكثيرٍ من حكاياتها الخاصة، وتثير مسائل حسَّاسة كانت جديرة بالإثارة وقت صدور الرواية. وبإمكاننا أن نلمس مشاعر ديكنز الشخصية التي وثَّقها جيدًا هنا فيما يخصُّ عقوبة الإعدام، خاصة العلنية، ولاسيَّما في شخصية (دنس) الشانق، الذي يجسِّد في سياق الرواية كل ما تولِّده هذه الممارسة من وحشية وعدم اكتراث

للإنسانية. وإنَّ الصورة الحساسة التي رسمها للورد (چورچ غوردن) المتعصِّب ذي الشخصية المختلة رغم جاذبيتها -بما تنطوي عليه هذه الصورة من تعاطفٍ واضحٍ- لتنقل وجهة نظر ديكنز في تلك المسألة التي كثر الجدل حولها في عصرنا، والتي تتعلَّق باعتبار الجنون عذرًا مقبولًا لإعفاء المجرم من العقاب. كذلك جاء هجوم ديكنز على الپروتستانت في وقته (رغم أنَّ ديكنز في الحقيقة لم يكن لديه كثير وقت للكاثوليك)، إذ إنّ الرابطة الپروتستانتية التي تأسَّست عام ١٨٣٩ -أي قبل صدور الرواية بعامين فقط- كانت عرضة لكثيرٍ من النقد العلني لنفاقها وافتقارها إلى التسامح. ويجسِّد ديكنز بقوة تأثير مثل تلك المؤسسات في شخصيَّتي السيدة (ڤاردن) و(مـگز).

كذلك تتضح في الرواية مشاعر ديكنز الملتبسة تجاه الحركة الرومانسية. فالشخصية التي تحمل عنوان الرواية (بارنابي ردچ) مستقاة من مصادر رومانسية متنوعة. فهو يحمل تلك القيم الجديدة بالإعجاب التي نجدها في الشخصيات البسيطة التي تمتلئ بها روايات (والتر سكوت)، كما في الأبطال الطبيعيين الذين نصادفهم في أناشيد ووردزورث الغنائية Lyrical Ballads. كما يتشارك (بارنابي) آثارًا من نموذج (المتوحِّش النبيل) مع الشخصية الأكثر تعقيدًا للصبي (هيو). وبعد، فإنَّ خيال (بارنابي) هذا الذي لا يتقيَّد بعقل ينتهي به إلى سوء المآل. ويتبع ديكنز طريقًا أكثر مباشرة في الهجوم على ما يرى أنه جانب الرومانسية المضاد للمجتمع، وذلك في تصويره شخصية (سايمن تاپرتت)، حيث يظهر مسلَّمات هذا الأخير بصورة الافتراضات الخطيرة التي ليست في محلِّها.

الحياد سمة صادمة في حضورها الكثيف في هذه الرواية، وهو أوضح ما يكون في شخصية (هيو) الفوضوي بالسليقة، وكذلك في تعاطف ديكنز الموزَّع في وضوحٍ على كثيرٍ من الاهتمامات المركزية للرواية. وعلى خلفية استخدام ديكنز المتكرر للسجون في أعماله رموزًا للمعاناة، يبدو وصفه الحي لأحداث الشغب -الذي لا يخلو من مسحة احتفال بهذه الأحداث- فضلًا عن تعاطفه الجزئي مع اثنين على الأقل من الشخصيات المثيرة لهذه الأحداث في الرواية، نقول يبدو تعبيرًا عن تخوُّفه الحقيقي من الأناركية واحترامه العميق لنظام وبنية المجتمع. كما يواجه كراهيته لعقوبة الإعدام اعتقاده الواضح في حاجة المجتمع إلى قوى القانون والنظام كأدواتٍ لتحقيق العدل والقصاص. والخلاصة أنه يرى السُّلطة ضرورة يُساء استغلالها بكل بساطة للأسف.

تعرَّضت هذه الرواية لإهمالٍ غير مستحقٍّ. إنها رواية جديرة بالقراءة، مبنيَّة بناءً جميلًا، غنية بالهمِّ التاريخي، مفعمة بالعاطفة والكوميديا والموضوعات الجادَّة جنبًا إلى جنب، وهي نموذج كاشف لفن ديكنز في مناطق كثيرة، كما تمثِّل علامة مهمّة في منجزه. ولو بدا هذا التقريظ جافًّا، فإن مضحكات شخوص الرواية ضمان أكيد لتسلية استثنائية، بدءًا من الآنسة (مـگز) المتباكية، مرورًا بتصنُّع (سايمن تاپرتت) وانتهاءً ببارنابي ردچ المعاق ذهنيًّا.

وُلِد تشارلز ديكنز في (لاندپورت) قرب پورتسموث في هامپشير يوم ٧ فبراير ١٨١٢، ثاني إخوة ثمانية، لأبيه (چون) الذي كان موظّفًا في مكتب محاسبات البحرية في پورتسموث. عاشت عائلة ديكنز -رغم أنها لا تعدّ فقيرة بمعايير عصرها- سلسلة من الأزمات المالية بما ترتَّب عليها

من فقدان الأمان الاجتماعي. قضى ديكنز طفولته في پورتسموث ولندن وتشاثام في كنت حيث وُجِد هناك حوضٌ عملاقٌ لبناء السفن. تحت ضغط الانهيار المالي اضطرَّت الأسرة عام ١٨٢٢ إلى الذهاب إلى لندن. وفي ٥ فبراير ١٨٢٤ ابتدأ (تشارلز) عمله في مصنع لدهان الأحذية في (هنغرفورد ستارز) حيث كان عليه أن يثبِّت بطاقات العلامة التجارية على زجاجات الدهان في مقابل ستة شلنات في الأسبوع. قبل ذلك بقليلٍ قُبِض على أبيه عاجزًا عن تسديد ديونه، وانتقلت الأسرة باستثناء تشارلز مع الأب إلى سجن مارشالسي للغارمين Marshalsea Debtors' Prison. وقد أثَّرت هذه الأزمة العائلية الطاحنة بالإضافة إلى حقارة وظيفة تشارلز في حياته ورؤيته للعالم، كما ظلَّتا تطاردانه طيلة حياته. أُفرج عن (چون ديكنز) بعد ثلاثة أشهرٍ قضاها في السجن بإعلانه نفسه مدينًا مفلسًا. أُرسِل تشارلز إلى المدرسة في الثانية عشرة حيث أبلى بلاءً حسنًا، وفي الخامسة عشرة بدأ العمل في مكتب قانوني في غرايز إن Gray›s Inn. في هذا المكتب عكف على تعلُّم الكتابة الاختزالية القانونية، وبعد ذلك بثمانية عشر شهرًا بدأ العمل كمراسلٍ مستقلٍّ في محكمة (دكترز كمنز Doctor's Commons) للقانون المدني. عام ١٨٢٩ وقع تشارلز في حب (ماريا بيدنل) واستمرَّت علاقتهما معلّقة غير محسومة حتى صيف ١٨٣٣. خلال ذلك انتعش تشارلز مهنيًّا، حيث تميَّزت تقاريره عن سجالات مجلس العموم لصحيفة (مورننج كرونكل Morning Chronicle) بالدقة والسرعة، فضلًا عمَّا حظيت به أعماله الأدبية من مراجعات إيجابية، ما أدَّى إلى سعي الناشرين (تشابمان وهول Chapman & Hall) إلى التعاقد معه ليرسل إليهم نصًّا مسلسلًا في أعدادٍ شهرية ليصاحب رسومات الفنان (سيمور) للمشاهد

الرياضية. كانت هذه هي الطريقة التي نُشِرت بها (مذكرات پكوك) التي حظيت بنجاحٍ كبيرٍ عام ١٨٣٦/ ١٨٣٧. انفصل ديكنز عام ١٨٥٨ عن زوجته التي أنجب منها عشرة من الولد، وطوَّر صداقته بممثلة شابة تدعى (إلن ترنان). تأثَّرت صحة ديكنز سلبًا تحت ضغط جلسات القراءة ذات الشعبية الواسعة التي بدأها عام ١٨٥٨، فضلًا عن رحلة شاقَّة قام بها في أمريكا عام ١٨٦٧/ ١٨٦٨، فبدأت حالته الصحية تنهار في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، فعانى سكتة دماغية في بيته في (جادز هل) Gad's Hill قرب رتشستر في كنت يوم الثامن من يونيو عام ١٨٧٠، وانتقل إلى جوار ربه في اليوم التالي.

* * *

مقدمة المؤلِّف

حيث إنَّ من رأي السيد (وُاترتن)[1] أنَّ الغربان موشكة على الانقراض في إنگلترا، فإنني أثبت هنا رأيي في كلماتٍ قليلة.

الغراب في هذه القصة مركَّبٌ من أصلين عظيمين كنتُ أنا مالكًا لهما في أوقاتٍ مختلفة، فخورًا بملكيَّتي هذه. أولهما كان غرابًا في ريعان شبابه حين اكتشفه أحد أصدقائي في بقعة متواضعة منعزلة في لندن وأهداني إيّاه. كان يتمتَّع منذ البداية بـ(مواهب طيِّبة) كتلك التي ينسبها السير (هيو إڤانز) إلى (آن پِادچ)[2]، وقد أفلح في صقلها بالدرس والانتباه، وكان نموذجًا يُحتذى في سعيه هذا. كان ينام في حظيرة للخيول على ظهر حصان غالبًا، وكان ذكاؤه الاستثنائي قد زرع مهابته في صدر كلبٍ لدينا من طراز (نيوفاوندلاند)، لدرجة أنه قد عرف بأنه ينهب عشاء الكلب أمام ناظريه من دون أن يخشى انتقامه، معتمدًا فقط على عبقريته المتفرِّدة. وبينا هو في دأبه في اكتساب الفضائل والمزايا من هذا النوع، إذا الحظيرة التي يبيت فيها تُطلى طلاءً جديدًا في ساعة نحسٍ؛ بدأ يلاحظ العمَّال من قريبٍ، ورأى حرصهم الزائد على مسحوق الطِّلاء، فتحرَّق شوقًا إلى

(١) تشارلز واترتن Charles Waterton (١٧٧٢–١٨٦٥): عالم طبيعة إنگليزيّ ومستكشف ورائد في مجال المحميّات الطبيعية (المترجم).

(٢) السير هيو إفانز Hugh Evans وآن پادچ Anne Page شخصيتان محوريتان في مسرحية (زوجات وندسور المرحات The Merry Wives of Windsor) لشِاكسپير (المترجم).

امتلاك هذا المسحوق. انتهز انصرافهم إلى عشائهم، وأكل كلَّ ما أبقوه وراءهم من الطِّلاء، وكان هذا يحتوي على أوقية أو اثنتين من الرصاص الأبيض، وبالطبع أدَّى هذا التسرُّع الصبياني إلى موته.

وبينما أنا غارقٌ في حزني لفقده، اكتشف صديقٌ آخر لي في يوركشير غرابًا آخر أسنَّ وأغزر في مواهبه من الأول، اكتشفه في حانة بقرية، وأفلح في إقناع صاحب الحانة بالتخلِّي عنه مقابل مبلغ من المال، وأرسله إليَّ. وكان أول إنجازات هذا الحكيم أن التفت إلى آثار سلفه، فأخرج كلَّ ما دفنه الغراب الأول من الجبن وأنصاف البنسات في الحديقة، وهي مهمة تنطوي على الكثير من المشقة والبحث، نذر لها كلَّ طاقاته الذهنية. وحين انتهى من هذا العمل، عكف على اكتساب لغة الحظيرة، حتى إنه تضلَّع فيها إلى درجة أن أصبح ينفق يومه رابضًا خارج نافذتي، يسوق أحصنة من خلق خياله بمهارة عظيمة. ربما لم يتح حتى لي أن أراه في أحسن حالاته، فإن سيده السابق أوقفني في رسالة أرسلها معه على طبيعة قدراته: «وإذا أردت الطائر أن يظهر كأقوى ما يكون، فإنني سأريه رجلًا سكران»، وهو شيء لم أقم به أبدًا لأنني (لسوء الحظ) لا يحيط بي إلَّا الصاحون! بيد أنني لا أتصوَّر قدرًا أكبر من الاحترام يمكن أن أكنَّه لشخص هذا الغراب، أيًّا كانت طبيعة التأثيرات المثيرة لمثل ذلك المشهد الذي أشار إليه سيِّده السابق. ويؤسفني أن أقول إنَّ الغراب لم يكنّ لي أيَّ قدرٍ من الاحترام في المقابل، ولا لأيّ شخص آخر بخلاف الطاهي الذي كان متعلِّقًا به، لكنه كان يبدو لي تعلُّقًا من قبيل ما يظهره الشرطي! أذكر أني قابلته ذات مرة بشكلٍ مفاجئ على مبعدة نصف ميلٍ من منزلي، وكان ماشيًا في منتصف شارع عامٍّ، يتبعه زحامٌ من الناس، وكان يعرض عليهم في تلقائية كلَّ حيله

وأفانينه. لا أملك أن أنسى تجلُّده تحت الظروف الصعبة التي تعرَّض لها في ذلك الموقف، ولا فروسيَّته وهو يدافع عن نفسه خلف طلمبة ماء -إذ رفض أن يعود إلى البيت من تلقاء نفسه- حتى تكاثر عليه الناس فغلبوه. ربما كان أذكى من أن يعمَّر طويلًا، وربما التقط مادة خبيثة ما بمنقاره ذات يومٍ، ومنه إلى حوصلته، وهو احتمالٌ لا يبعد، لا سيَّما أنه كان قد نقر بالفعل الجزء الأكبر من سور الحديقة حيث أخرج المِلاط بمنقاره، كما كسر مربعات زجاجية لا تُحصى بأن كشط المعجون الذي يمسك أطرها بعضها ببعض، كما عمد إلى سلّمٍ خشبي من ست درجات وأرضية فمزق شطرًا كبيرًا منه إلى شظايا وابتلعها. لكنَّه مرض هو الآخر بعد ثلاث سنوات ومات أمام نيران المطبخ. ظلَّ يتابع بعينيه اللحم وهو يُشوى إلى آخر لحظة يومذاك، وفجأة انقلب على ظهره صائحًا في جنائزية: «كوكو!». ومذ ذاك وأنا بلا غرابٍ.

أمَّا بالنسبة لقصة (بارنابي ردج) نفسها، فلا أظنني قائلًا شيئًا أكثر مناسبة من هذه المقاطع من المقدِّمة الأصلية:

على حدّ علمي، لم يقدَّم إلى الآن أيُّ شيء عن أحداث شغب (غوردن) في أيِّ عملٍ سرديٍّ، وأخذًا في الحسبان ما يميِّز هذا الموضوع من سماتٍ استثنائية جديرة بالالتفات، أجدني مدفوعًا لتقديم هذه الحكاية.

من نافلة القول إن هذه الاضطرابات المخزية -رغم وصمها العصر الذي حدثت فيه وكل من شاركوا فيها بوصمة عارٍ لا تُمحى- تعطينا درسًا جيِّدًا. فحواه أنَّ ما ندعوه زيفًا (صرخة دينية) ربما يكون صادرًا ببساطة عن أناس لا دين لهم، يجدِّفون في ممارساتهم اليومية بكل ما يمت بصلة إلى مبادئ ما يجب وما لا يجب. وأنَّ هذه (الصرخة)

إنما تولد من رحم التعصُّب والاضطهاد، فارغة من المعنى، مسلوبة العقل، مجبولة على العناد والقسوة، وهو درس يلقِّننا التاريخ كله مدى صدقه. غير أننا ربما لم نستظهره بما يكفي لأن نستفيد بمثلٍ واحدٍ متواضعٍ على صدقه كأحداث «لا للبابويّة» التي طبعت عام ١٧٨٠. ورغم ما قد يلمُّ بالصورة التي سنرسمها لهذه الأحداث في الصفحات التالية من نقص، فإنَّ من أخذ على عاتقه رسم هذه الصورة رجلٌ لا يتعاطف من قريبٍ أو بعيدٍ مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، رغم إقراره ككثيرين غيره بأنَّ له أصدقاء غاية في الاحترام من أتباع تلك الكنيسة.

وربّما سيلاحظ القارئ أنني آثرتُ الرجوع إلى أفضل مراجع ممكنة عن عصر هذه الأحداث كلما تعلَّق الوصف بأيٍّ من الاضطرابات الأساسية فيها، وأنَّ تقريري للسِّمات الأساسية لهذه الأحداث في متن الرواية دقيقٌ تمامًا.

وربما يحسن بنا أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنَّ إشارات السيِّد (دِنِس) إلى ازدهار مهنته في تلك الأيام مبنيَّة على وقائع مثبتة، لا على خيال المؤلِّف. وعلى من يريد التثبُّت من صدق هذه الدعوى أن يرجع إلى أيِّ ملفٍّ من الجرائد القديمة أو أي مجلَّد شارد من مجلدات السجل السنوي(١).

وحتى قضية (ماري چونز) التي أفاض السيد (دنس) واسترسل في ذكر

(١) السجل السنوي The Annual Register: عمل مرجعي سنوي بريطاني يُكتَب ويصدر كلَّ عام، يسجِّل ويحلل أهم أحداث وتطورات ذلك العام. كُتِب أول مرة بإشراف وتحرير الفيلسوف والسياسي الإيرلندي (إدموند بيرك Edmund Burke) عام ١٧٥٨، ومنذ ذاك الوقت يصدر كلّ عام بانتظامٍ. و(دنس) هو شخصية في الرواية، عشماوي يتحوَّل إلى قارع أجراسٍ للمتظاهرين (المترجم).

تفاصيلها، أبعد ما تكون عن الاختلاق. فحقائق هذه القضية مثبتة في مجلس العموم كما هي مثبتة هنا. أما ما ليس مثبتًا فهو ما إذا كانت هذه التفاصيل مسلية للسادة المرحين المجتمعين في المجلس آنذاك كتفاصيل أخرى مشابهة مؤثرة للغاية ذكرها السير (صمويل روميلي)[١]، أو لم تكن مسلية! ولأنَّ قضية (ماري چونز) ربما تعبِّر عن نفسها أفضل مما أستطيع أن أعبِّر عنها، ألحقتها بهذه المقدمة كما رواها السير (وليام مردث) في خطبة ألقاها عام ١٧٧٧ في الپرلمان بعنوان (عن الإعدامات المتكررة):

«تحت هذا القانون (قانون سرقة المتاجر) أُعدمت امرأة تدعى (ماري چونز)، سأورد تفاصيل قضيتها الآن: كان هذا في الوقت الذي صدرت فيه التفويضات لقادة البحرية بتجنيد ما يكفيهم من الرجال إبَّان تصاعد القلق البريطاني بخصوص جزر فوكلاند. جُنِّد زوج هذه المرأة، وصودرت بضاعتهما لتسديد بعض ديونه، واضطرَّت مع طفليهما الصغيرين للتسوُّل في الشوارع. ولا يفوتنا أنها كانت إذ ذاك امرأة شابة لم تبلغ التاسعة عشرة، على قدرٍ بالغٍ من الجمال. ذهبت ذات يومٍ إلى محل تاجر أقمشة واختلست بعض القماش الكتَّاني من على منضدة البائع وأخفته تحت عباءتها، فرآها

(١) Samuel Romilly (١٧٥٧ – ١٨١٨): سياسي ومحام ومصلح تشريعي بريطاني وعضو في الپرلمان. عُرِف بمعارضته الشديدة لتجارة العبيد ومؤازرته لحملة (وليام ولبرفورس William Wilberforce) لإلغاء الرِّق، كما عُرِف بسعيه إلى إصلاح القانون الجنائي وقضى اثني عشر عامًا من حياته في محاولة تمرير حزمة من الإصلاحات لهذا القانون في الپرلمان. وكان من رأيه أنَّ ما عُرِف لاحقًا بالنظام الدموي Bloody Code – وهو نظام عقوبات الجرائم في إنكلترا في القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر، وسُمِّي بهذا الاسم للتزايد الحاد في عدد المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم تُعتبر تافهة بمقاييس مجتمع اليوم – يحتاج إلى إصلاحاتٍ جذرية، لكنه صرَّح في مذكَّراته بأنَّ الثورة الفرنسية قلَّلت فرص تمرير الپرلمان لمثل هذه الإصلاحات. وربما يشير ديكنز هنا إلى أمثلة ساقها (روميلي) في مذكراته أو خطبه الپرلمانية (المترجم).

البائع وأعادتها إلى مكانها. ولهذا السبب أُعدِمت شنقًا. وكانت حجَّة الدفاع (وفي جيبي نصُّ المحاكمة)، «أنها لطالما عاشت في أمانٍ ماليٍّ ولم تكن تفتقر إلى شيء، حتى وصلت إلى بابها عصابة التجنيد واختطفت منها زوجها، ومذ ذاك لم يعُد لديها فراشٌ تنام عليه، ولا شيء تطعم به أولادها، وأوشكوا أن يسيروا عراة من الفقر، وربّما تكون قد اقترفت خطأً ما، وذلك أنَّها بالكاد تعرف طبيعة ما فعلته».

صادق موظفو الدائرة على هذه الشهادة، بيدَ أنه يبدو أنَّ (لَدغِات Ludgate) كانت قد شهدت الكثير من حوادث سرقة المتاجر، وكان من الضروري أن يبرز مثالٌ قاطعٌ على العقوبة المنتظرة، فأُعدِمت هذه المرأة إيثارًا لراحة باعة شارع لدغات وشراءً لرضاهم. وحين أحضرت لتتلقَّى العقوبة تصرَّفت بشكلٍ مجنونٍ أثبت تدهور حالتها العقلية، وكان أحد طفليها متعلِّقًا بثديها وهي في طريقها إلى تايبرن[١].

* * *

(١) Tyburn: قرية في مقاطعة (مدلسكس Middlessex) تقع قرب الموقع الحالي لقوس النصر الرخامي Marble Arch، والنهاية الجنوبية لطريق (إدچوار Edgware Road) في لندن الحالية. اسمها مشتقٌّ من (غدير تايبيرن Tyburn Brook) وهو أحد روافد نهر وستبورن Westbourne River). وقد ظلَّ اسمها مرادفًا لعقوبة الإعدام لعدة قرون، حيث كانت مكانَ تنفيذ العقوبة في مجرمي لندن والمدانين بالخيانة، ومنهم عددٌ ممَّن اعتبروا شهداء للملّة فيما بعد، كما عُرفت خلال القرن الثامن عشر بمحكمة الرب God's Tribunal (المترجم).

الفصل الأول

عام ١٧٧٥ كانت هناك حانة تُسمَّى (مِايبول)[(١)]، تنتصب على حافة غابة (إِينْغ) على مبعدة ما يقرب من اثني عشر ميلًا من لندن، وهذا إذا قسنا من طلمبة مياه ستاندرد في كُورنْهِل[(٢)]، أو -إذا شئنا الدقة- من البقعة التي كانت تشغلها الطلمبة في الأيام الخوالي. كانت الحانة تعلن عن نفسها حتى للمسافرين الذين لا يجيدون القراءة والكتابة (وفي ذلك العهد كانت كثرة من المسافرين والماكثين في بيوتهم على هذه الشاكلة) من خلال الشِّعار الذي ينتصب على الطريق في مواجهة

---

(١) Maypole (الناغط): هو قضيبٌ خشبيٌّ طويلٌ يُنصب في كثيرٍ من المهرجانات الشعبية الأوربية، حيث تقام حوله رقصة بنفس الاسم. وقد تقام هذه المهرجانات في اليوم الأول من شهر أيّار/ مايو (ومن هنا جاء الاسم)، أو يوم عيد العنصرة (الخمسين) Pentecost (الذي يُحتفَل به في الأحد السابع بعد عيد القيامة) لكن في بعض البلاد يُحتفل به مع البداية الفلكية لفصل الصيف (من ١٩ إلى ٢٥ يونيو). وأحيانًا يكون هذا الناغط موجودًا طيلة العام لكن لا يُستغل للاحتفال إلا في تلك الأيام الموسومة. وهو بصفة عامة سمة مميزة للشعوب الجرمانية وتلك التي تأثَّرت بثقافتها. أما الاسم العربي (الناغط) فهو واحد (النّغط) وهي لفظة تعني الطّوال من الناس، في إشارة إلى طول هذا القضيب الخشبي (المترجم).

(٢) The Standard in Cornhill قرب اتصال شارع كورنهل بشارع ليدنهال Leadenhall Street في لندن، كانت توجد أول طلمبة مياه تدار ميكانيكيًّا للاستخدام العام في لندن، وقد أنشئت عام ١٥٨٢ مكان الطلمبات الأقدم التي كانت تُدار باليد. كانت هذه الطلمبة تدار بواسطة ساقية أسفل القوس الشمالي لجسر لندن، وكانت تنقل الماء من نهر التامز عبر مواسير من الرصاص إلى أربعة مخارج، وقد توقَّف العمل بهذه الطلمبة عام ١٦٠٣، لكن البقعة نفسها أصبحت علامة تقاس بها المسافات من وإلى لندن (المترجم).

الحانة، الذي وإن لم يتمتَّع بتلك النسب الجيدة التي اعتادت النغط قديمًا أن تتحلى بها إلَّا أنه كان شجرة دردار شابة جميلة طولها ثلاثون قدمًا، مستقيمة كأفضل سهم يستطيع أن يرسمه مزارع إنگليزي. كانت (مايپول) -وسنشير بهذا الاسم من الآن فصاعدًا إلى الحانة لا إلى شعارها- بناية قديمة، لها من القمم المسنمة على سطحها أكثر مما يحرص رجلٌ كسولٌ على عدِّه في نهارٍ مشمسٍ، ولها مداخن ضخمة متعرِّجة يتصاعد منها الدخان في أشكالٍ أجمل من الطبيعية، يكتسبها بفعل مساره المتعرِّج في هذه المداخن ولا يبدو أنه يملك تغييرها، وفيها أخيرًا زرائب واسعة خربة موحشة فارغة. كان يقال إنَّ الحانة قد بُنيت أيام الملك هنري الثامن، وكانت هناك أسطورة دائرة لا تكتفي بأن تقول إنَّ الملكة إليزابث نامت هنا ذات ليلة خلال قيامها برحلة صيدٍ، بالتحديد في غرفة مبلَّطة جدرانها بخشب السنديان ذات نافذة شديدة البروز للخارج، وإنما تذهب الأسطورة أبعد من ذلك لتضيف أنَّ الملكة العذراء في الصباح التالي -بينما تقف على سلَّم ركوب أمام الباب وإحدى قدميها في الرّكاب- لكمتْ وصفعتْ خادمًا سيِّئ الحظِّ بسبب إهماله أحد واجباته. وكانت القلة من الواقعيين والشكَّاك من نزلاء (مايپول) -ولسوء الحظِّ يوجد هؤلاء في كل مجتمعٍ صغيرٍ- كانت تنظر إلى هذا التراث الشفاهي باعتباره أقرب إلى الزيف، لكنَّ صاحب الحانة العتيقة كان كلما لجأ إلى سلَّم الركوب نفسه دليلًا وأشار إلى المكان الذي يقف فيه السلَّم منذ تلك الوقعة إلى يومنا هذا، كانت الغالبية المصدِّقة تخمد ثورة الشكَّاك، وينتهي الأمر بأن المصدقين يظهرون فرحة الانتصار! وبغض النظر عن مدى صدق مثل تلك الحكايات فإنَّ (مايپول) كانت حانة

قديمة، موغلة في القدم، فربما كانت قديمة كما تدَّعي أو حتى أقدم مما تدَّعي، وهو أمرٌ يحدث أحيانًا مع البيوت غير المحدَّدة العمر، كما يحدث مع السيدات حين يبلغن سنًّا محددة! كانت نوافذها قديمة مصمَّمة بشكل المعيِّنات المتقاطعة، وكانت أرضياتها واطئة غير مستوية، وكانت يد الزمن قد سوَّدت أسقفها التي تنوء بما يحملها من أعمدة ضخمة! في المدخل رواقٌ قديمٌ منحوتٌ على طرازٍ غريبٍ طريفٍ، دأب النزلاء المميزون التدخين والشَّراب فيه في ليالي الصيف، بل كانوا يغنون أغاني جيدة كذلك أحيانًا، متَّكئين على مقعدين خشبيين كالحين ذوي ظهرين طويلين، يحرسان المدخل إلى حانة (مايپول) كتنِّينين توأمين في حكاية خرافية. في مداخن الغرف المهجورة دأبت السنونوَّات في بناء أعشاشها لأعوامٍ طويلة، ومنذ أقدم ربيعٍ إلى آخر خريفٍ دأبت مستعمرات كاملة من العصافير الدورية في الخفق والشقشقة حول الطنف. وكان هناك من الحمام بين حظائر الخيل الموحشة وملحقات المبنى ما لا يحيط بكثرته خيال أي إنسان سوى صاحب الحانة. ربما لم يكن التحليق الدائري الذي يقوم به الحمام الروماني والحمام المروحي الذيل والحمام البهلوان والحمام النفَّاخ متوافقًا تمامًا مع شخصية المبنى الصارمة الرصينة، لكنَّ السجع الرتيب الذي لا يتوقف عن الصدور من هذه الثلة طيلة اليوم كان يبدو مناسبًا جدًّا للمكان، كما لو كان يهدهد الحانة حتى تطمئنَّ. كانت هذه الحانة القديمة -بطوابقها البارزة وألواحها الزجاجية الصغيرة الناعسة وواجهتها الناتئة المشرفة على الممشى- تبدو كما لو كان رأسها يساقط من النُّعاس. والحق أنَّ الأمر لم يكن يتطلَّب خيالًا بالغ السعة ليلاحظ المرء تشابهاتٍ أخرى بين الحانة وبين بني البشر.

فالطوب الذي بُنيت به كان في الأصل أحمر قاتمًا، لكنه اصفرَّ وفقد لونه كجلد رجلٍ عجوزٍ، وعوارضها الخشبية المتينة تسوَّست كالأسنان، أما اللبلاب فقد لفَّ أوراقه الخضراء هنا وهناك حول الجدران التي أكل عليها الزمان وشرب، كما لو كان ثوبًا دافئًا يحنو عليها في سنِّها المتقدِّمة. لكنها كانت سنًّا سليمة ما زالت مملوءة حماسًا رغم ذلك: ففي أماسي الصيف أو الخريف حين كان بريق الشمس المائلة إلى المغيب يسقط على أشجار السنديان والقسطل في الغابة المجاورة، كانت الحانة تأخذ نصيبها من هذا البريق فتبدو رفيقة مناسبة تمامًا لهذه الأشجار، ما زالت لها في جيب الزمان أعوامٌ كثيرة طيبة ملأى بالحياة.

أما المساء الذي سندخل فيه الحانة فلم يكن صيفيًّا ولا خريفيًّا، وإنما هو غسق يومٍ من شهر آذار، تعوي فيه الريح عواءً موحشًا بين أغصان الأشجار العارية، وتدمدم في المداخن الواسعة، وتسوق المطر ليصطدم بنوافذ حانة (مايپول)، فتعطي نزلاء الحانة الذين شاءت الصدفة أن يكونوا موجودين هناك في تلك اللحظة سببًا لا يجحد لإطالة مكثهم، وتغري صاحب الحانة بأن يتنبَّأ بأنَّ الليلة ستصفو في تمام الحادية عشرة بالضبط، وهي الساعة التي توافق دائمًا -في صدفة غريبة- ميعاد إغلاقه حانته!

كان هذا الذي تنزَّلت عليه روح النبوءة يُدعى (چون وِلت)، وهو رجلٌ متين البنيان ضخم الرأس ذو وجه سمين يوحي بالعناد البالغ وبطء الفهم، ممتزجين باعتماده القوي على مؤهلاته الشخصية. وكان من عادة (چون ولت) حين يصفو مزاجه أن يفخر بأنه -وإن كان بطيئًا- رجلٌ واثق الخطوة، وهو تأكيدٌ من جانبه لا يمكن لأي إنسان أن يدحضه في أحد جوانبه على الأقل، وذلك بالنظر إلى أنه كان أبعد ما يكون عن

السرعة في كل شيء، فضلًا عن أنه كان نموذجًا للتشبُّث بالرأي يصعب أن نجد له نظيرًا، واثقًا دائمًا بصحة ما يعتقده أو يقوله أو يفعله، مؤمنًا بأنه كان أمرًا مسلَّمًا به، حتَّمته العناية الإلهية وقوانين الطبيعة، أنَّ من يقول أو يفعل أو يعتقد غير قوله وفعله واعتقاده هو بالضرورة مخطئ. سار مستر (چون ولت) ببطء إلى النافذة ولصق أنفه السمين بزجاجها البارد فتفلطح، وبينما يظلُّ عينيه بكفَّيه لئلَّا يتأثَّر بصره ببريق نار المِدفأة الملتهبة، نظر إلى الخارج، ثم عاد ببطء إلى مقعده القديم في ركن المدفأة، وبينما يطمئن جلسته برجفة خفيفة كتلك التي يفتعلها المرء ليتزايد شعوره بلذَّة الدفء، قال وهو ينظر حوله في وجوه نزلائه:

– ستصفو في الحادية عشرة، بالضبط، لا قبلها ولا بعدها.

ردَّ رجلٌ ضئيلٌ في الركن المقابل:

– كيف استنتجتَ ذلك؟ لقد جاوز القمر مرحلة البدر، والقمر يسطع في التاسعة.

نظر (چون ولت) في صرامة إلى سائله حتى استطاع أن يحمل عقله على استيعاب ملاحظته كاملة، ثم أجاب في نبرة موحية بأن القمر من اختصاصه هو ولا دخل لأحدٍ غيره به:

– لا تكترث أبدًا للقمر، لا دخل لك به، دع القمر وشأنه وسأدعك وشأنك!

ردَّ الضئيل:

– أرجو ألَّا تكون قد شعرت بأي إساءة من جانبي.

انتظر (چون ولت) مرة أخرى حتى اخترقت الملاحظة الجديدة الحجب إلى عقله، ثم أجاب:

- لا إساءة إلى الآن!

أشعل غليونه وبدأ يدخِّن في صمتٍ راضٍ، بينما يلقي نظرة جانبية بين الفينة والفينة على رجلٍ متدثِّرٍ بمعطف ركوبٍ فضفاضٍ ذي أساور ضخمة مزيَّنة بأشرطة فضيَّة متَّسخة وأزرار معدنية كبيرة، كان يجلس على مبعدة ممَّن يتردَّدون بصفة منتظمة على الحانة، مرتديًا قبَّعة يغطي طرفها جزءًا من وجهه، وتغطي يده التي يسند عليها جبهته بقية وجهه، فكان يبدو منطويًا على نفسه.

كان هناك ضيفٌ آخر يجلس منتعلًا حذاءه الطويل، وفي يده مهماز الركوب على مسافة من المدفأة هو الآخر، ويبدو من ساعديه المعقودين أمامه وحاجبيه المشتبكين والشراب الموضوع أمامه ولم يتذوَّقه أنَّ تفكيره كان منشغلًا بأمورٍ غير التي يناقشها الحاضرون. إنه شابٌّ في نحو الثامنة والعشرين، ربعة في طوله، ورغم أنه يميل إلى النّحول فإنه كان يتمتع بقوامٍ ممشوقٍ. لم يكن يلبس شيئًا فوق شعره الأسود، وكان مرتديًا زيَّ ركوب تآمر مع حذائه الطويل (الذي يشبه في شكله ونمطه تلك الأحذية التي ينتعلها حرَّاس الحياة في زماننا هذا)[1] على إظهار آثار لا تجحد لسوء أحوال الطرق. لكنه رغم آثار السفر البادية عليه كانت ملابسه تشي بحسن حاله وثرائه، وبدا سيِّدًا نبيلًا صاحب ثروة من دون أن يبالغ في التَّأنُّق. كان قد ألقى في لا مبالاة إلى جواره على المنضدة سوط ركوب ثقيلًا وقبَّعة جوخ عريضة الحافة، لا شكَّ أنه ارتداها لمناسبتها للجو العاصف.

---

(١) Life Guardsmen حرَّاس الحياة: هي الوحدة العليا من الجيش البريطاني، وهي جزءٌ من سلاح الفرسان Household Cavalry (المترجم).

كان هناك كذلك مسدسان في جرابهما ومعطف ركوب قصيرٌ. لم يكن يرى من وجهه إلا القليل، باستثناء أهدابه الطويلة السوداء التي تغطي عينيه الناظرتين إلى أسفل، لكن كيانه كان يشعُّ شعورًا بالتلقائية واللطف يشمل حتى تلك الإضافات الصغيرة الجميلة المعتنى بها في ثيابه وهيئته.

لم تتجه عينا السيد (ولت) إلى هذا السيد الشاب إلا مرة واحدة، كما لو كان يتساءل وهو مطبق فمه إن كان قد لاحظ جاره الصامت. كان واضحًا أن (چون ولت) والسيد الشاب قد تقابلا أكثر من مرة فيما قبل. وحين وجد (چون ولت) أن هذا الشاب لم يبادله نظرته هذه، بل لم يلاحظها من الأساس، ركَّز تدريجيًّا كل قوة عينيه في نظرة أخرى وجَّهها إلى ذلك الرجل ذي القبعة التي يغطي طرفها وجهه، حتى إنه بمضي الوقت أصبح يحدقِّ إليه تحديقًا بالغ الشدة لدرجة أن جيرانه حول المدفأة تأثَّروا به فأخرج كلٌّ منهم غليونه من فِيه وحدَّقوا جميعًا إلى الغريب فاغرين أفواههم.

كانت لصاحب الحانة المتين عينان متبلِّدتان كأعين السمك، وكان للضئيل الذي غامر بإلقاء الملاحظة العابرة عن القمر (وهو كاتب الأبرشية وقارع الأجراس في قرية «تشغول» القريبة) عينان صغيرتان مدورتان سوداوان مضيئتان كحبَّتي سبحة. وإضافة إلى ذلك فإن أزرارًا صغيرة غريبة لا تشبه شيئًا إلَّا عيني هذا الضئيل كانت تزيِّن سرواله الأجرب عند الركبتين ومعطفه الأسود الصدئ وصداره الطويل الفضفاض من أعلاه إلى أسفله. لكن هذه الأزرار كانت تشبه عينيه شبهًا قويًّا جدًّا، لدرجة أنها حين كانت تتألَّق وتبرق بالنور المنعكس من نار المدفأة التي كانت تنعكس كذلك على إبزيم حذائه اللامع، كان

هذا الرجل يبدو كله أعينًا مفتوحة من رأسه إلى قدميه، وأنه يحدِّق بها جميعًا إلى النزيل المجهول. لا عجب أن يضطرب المرء وهو عرضة لفحصٍ كهذا، لا سيَّما أننا لم نقل شيئًا بعد عن عيني (توم كُب) صانع الشمع وحارس مكتب البريد القصير، ولا عيني (فِل پاركِس) حارس الغابة الطويل، إذ إنَّ كليهما كان قد التقط العدوى من رفاق الحانة، فبدآ يحدِّقان إلى ذي القبعة الجوخ بنفس الضراوة.

اضطرب الغريب، ربما لتعرُّضه لتلك النار المطلة من أعين الآخرين، وربما كان اضطرابه لأمرٍ يتعلَّق بطبيعة تأملاته التي كان غارقًا فيها، والأقرب إلى الصواب هو السبب الأخير، حيث إنه حين غيَّر مكانه ونظر حوله نظرة خاطفة جزع إذ اكتشف أنه هدف هذا التحديق الضاري، وألقى نظرة غاضبة مرتابة على الرفقة الجالسة بجوار المدفأة. كان لهذه النظرة أثرها إذ حوَّلت أنظار الجميع إلى المدخنة، إلا (چون ولت) الذي حين انتبه لنفسه في هذه الوضع وقد وعى لتحديقه الغريب ظلَّ يحدِّق إلى ضيفه في ارتباكٍ أخرق، لا سيَّما أنه كما أسلفنا القول لم يكن يتمتع بطبيعة تميل إلى السرعة. ابتدره الغريب:

– حسنًا؟

حسنًا. لم يكن هناك الكثير في هذه المفردة! لم تكن خطابًا طويلًا. وبعد صمتٍ لدقيقتين أو ثلاث حاول فيه أن يستجمع أفكاره، ردَّ:

– ظننتُ أنك طلبتَ شيئًا ما!

خلع الغريب قبَّعته فأفصح عن ملامح صارمة لرجلٍ في نحو الستين من عمره، هدَّه الزمن، ولم يخفِّف المنديل القاتم المربوط بقوة حول رأسه

من حدَّة التعبير الذي تحمله ملامحه بطبيعتها. أما هذا المنديل فبينما قام مقام الشعر المستعار، فقد أظلَّ جبهته وكاد يخفي حاجبيه. ولا يمكننا الجزم بالنيَّة الكامنة وراء ربط هذا المنديل، فربما كان المقصود منه أن يخفي جرحًا غائرًا التأم وتحوَّل إلى ندبة قبيحة، أو على الأقل أن يحوِّل الأنظار عنه، وهو جرحٌ يوحي منظره بأنه كان عميقًا بحيث عرَّى عظم وجنته وقت تعرُّضه له. وعلى أي حالٍ إن كان هذا هو هدف المنديل فقد أخفق في تحقيقه، فقد كانت الندبة بحيث يصعب ألَّا يلاحظها المرء من نظرة عابرة. كانت بشرته شاحبة كالموتى، وذقنه نابتة خشنة رمادية ربما لم تُحلَق منذ ثلاثة أسابيع. هكذا كان يبدو الرجل ذو الملابس الرثة الذي قام من مقعده الآن وعبر الغرفة في خطواتٍ متغطرسة ليجلس في ركن المِدفأة الذي أفسحه له كاتب الأبرشية الضئيل في تأدُّبٍ أو خوفٍ.

همس (توم كب) في أذن الحارس (پاركس):

– قاطع طريق!

ردَّ (پاركس):

– هل تفترض أن قطَّاع الطرق لا يلبسون ملابس أفضل من هذه؟ قطع الطريق عملٌ أفضل مما تعتقد يا توم، ولا يحتاج قطَّاع الطرق إلى أن يرتدوا ملابس رثَّة بالية كهذه، ولا يراهم المرء كذلك، ثِق بما أقوله في هذا الأمر.

في أثناء ذلك كان الرجل موضوع تخميناتهما قد أدَّى تحية الحانة حيث طلب شرابًا، أحضره (چو) نجل صاحب الحانة على وجه السرعة. وكان (چو) هذا شابًّا في العشرين ضخمًا عريض الكتفين، وكان يلوح أنّ والده ما زال يسعد باعتباره غلامًا صغيرًا ومعاملته على هذا الأساس. أدار

الرجل رأسه إلى الرفقة بينما يمدُّ يديه إلى النار المتَّقدة ليدفئهما، وبعد أن أجال عينيه في حدَّة في وجوههم قال في صوتٍ متناسبٍ وهيئته:

– أي بيت ذلك الذي يبعد عن هنا ميلًا أو نحو ذلك؟

ردَّ صاحب الحانة ببطئه المعهود:

– تقصد حانة؟

صاح (چو):

– حانة يا أبي؟! أين هي تلك الحانة التي تبعد ميلًا أو نحو ذلك عن (مايپول)؟ الرجل يقصد المنزل الكبير، منزل (وُارِن) بالطبع. أتقصد البيت القديم المبني بالطوب الأحمر يا سيدي؟ ذلك الذي يقف في أرضه وحيدًا؟

ردَّ الغريب:

– نعم.

تابع الشاب (چو):

– والذي منذ خمسة عشر أو عشرين عامًا كان يقف وسط حديقة أكبر خمس مراتٍ، أخذت تتناقلها الأيدي هي وغيرها من الأملاك الأكبر، حتى تضاءلت رويدًا رويدًا، يا للحسرة!

جاء الرد:

– ربما، لكنَّ سؤالي عن المالك. أنا غير مهتمٍّ بما كانه البيت في السابق، وأستطيع أن أرى بنفسي ما أصبح عليه.

وضع وريث (مايپول) إصبعه على فمه وأومأ بعينيه إلى السيد الشاب الذي تحدَّثنا عنه منذ قليلٍ والذي غيَّر وضعه حين ذكر البيت أول مرة، وقال في صوتٍ خفيضٍ:

- مالك البيت يُدعى هاردال، السيد چفري هاردال. وهو.».

ثم أومأ بعينيه إلى اتجاه السيد الشاب مرة أخرى وتابع:

- وهو رجلٌ فاضلٌ كذلك. إحم.

لم يلق الغريب بالًا لهذه السعلة التنبيهية كما لم يكترث كثيرًا للإيماءة التي سبقتها، وتابع أسئلته:

- «لقد انحرفت عن طريقي في مجيئي إلى هنا وعبرت الممشى الذي يخترق أرض ذلك البيت. مَن كانت الشابة التي رأيتُها تدخل عربة؟ ابنته؟».

ردَّ (چو) بينما يتشاغل ببعض التدابير حول المدفأة محاولًا أن يقترب من سائله ويمسك به من كمِّه:

- كيف لي أن أعرف أيها الرجل الصادق؟ أنا لم أرَ تلك السيدة الشابة كما تعرف. ووه! إنها الريح من جديدٍ. والمطر، حسنًا، يا لها من ليلة!.

ردَّ الغريب:

- طقس صعب بالفعل.

قال (چو) محاولًا التعلُّق بأي شيء ربما يمكِّنه من تغيير الموضوع:

- هل أنت معتادٌ مثل هذا الطقس؟

ردَّ الغريب:

- اعتدتُه بما يكفي. بخصوص تلك الشابة، هل للسيد هاردال ابنة؟

ردَّ چو مغتاظًا:

- لا لا، إنه سيِّدٌ أعزب. إنه - اصمت، ألا تستطيع أن تصمت يا رجل؟ ألا ترى أن هذا الحديث لا يروق ذلك الجالس هناك؟.

استمرَّ الغريب في تعذيب جو متجاهلًا هذا التوبيخ المهموس ومتظاهرًا بأنه لم يسمعه، وقال في لهجة مستفزَّة:

-كان للرجال العزَّاب بنات قبل اليوم، فربما كانت ابنته رغم أنه غير متزوجٍ.

ردَّ جو:

- ماذا تعني؟» ثم أضاف هامسًا وهو يقترب من الغريب: «ستدفع ثمن هذا توًّا، أنا واثقٌ بما أقول!.

ردَّ المسافر في وقاحة:

- لا أقصد الإساءة، ولم أقل شيئًا أعرفه يقينًا. إنني أسأل بعض الأسئلة كما يسأل أيُّ غريبٍ بشكلٍ طبيعي عن ساكني بيتٍ جدير بالملاحظة في بقعة جديدة عليَّ تمامًا، وأنت مضطربٌ ومذعورٌ كما لو كنت أحرِّضك على خيانة الملك چورچ. ربما تستطيع أن تخبرني بسبب هذا الذعر يا سيدي، حيث إنني غريبٌ كما قلت، وكل هذا غريبٌ بالنسبة إليَّ كما لو كان إغريقيًّا!

كانت هذه الملاحظة الأخيرة موجّهة إلى سبب اضطراب (چو ولت)، وهو السيد الشاب الذي نهض من مقعده وعدَّل هندامه معتزمًا الخروج من الحانة. أومأ الشاب إلى (چو) بينما يردُّ باختصارٍ على الغريب بأنه لا يستطيع أن يفيده بأي شيء، ثم ناول (چو) قطعة نقودٍ دفع بها حسابه وأسرع إلى الخارج يتبعه (چو) نفسه ممسكًا بشمعة لينير له الطريق إلى باب الحانة.

في غياب (چو) في مهمَّته تلك، استمرَّ (ولت) الكبير ورفاقه الثلاثة يدخِّنون في صرامة شديدة وصمتٍ عميقٍ، بينما يثبِّت كلٌّ منهم عينيه على غلَّاية نحاسية ضخمة معلَّقة فوق النار. مضى وقتٌ على هذه الحال قبل أن يهزَّ (چون) رأسه ببطء ثم يهز رفاقه رؤوسهم ببطء بعده، لكن لم يرفع أحدهم عينيه عن الغلَّاية ولم يغيِّر أحدهم التعبير المرتسم على ملامحه أقل تغيير.

عاد (چو) بعد وقتٍ مثرثرًا مسترضيًا كما لو كان لديه شعورٌ قويٌّ بأنه سيُتَّهم بإساءة التصرُّف، قال وهو يقرِّب كرسيًّا من المدفأة وينظر حوله مستدرًّا التعاطف:

– ذلك الحب! لقد انطلق معتزمًا أن يسير إلى لندن، يسير الطريق كاملة إلى لندن. لقد أضعفت حصانه كثرة الركوب هنا فأخذ يعرج ظهر اليوم، وهو الآن مُلقى في حظيرتنا ليستريح، أما هو فقد تخلَّى عن عشائه الساخن الطيِّب وعن أفضل فراشٍ في الحانة لأن الآنسة (هِاردِال) ذهبتْ إلى حفلٍ تنكُّري في المدينة، فعقد العزم على أن يراها! لا أظن في إمكاني أن أغري نفسي بفعل ما فعله رغم جمالها، لكنني لستُ متورطًا في الحبِّ (على الأقل لا أظن نفسي متورطًا فيه)، وهذا هو الفارق بيني وبينه.

ردَّ الغريب: «إذن فهو عاشقٌ؟».

أجاب (چو): «تمامًا! لا يمكنه أن يكون أكثر عشقًا، ويمكن ببساطة شديدة أن يصبح أقل عشقًا».

صاح والده: «صمتًا يا فتى!».

قال پاركس الطويل: «يا لك من فتًى يا چو!».

همهم توم كب: «يا له من صبي متهوِّرٍ!».

صاح كاتب الأبرشية في مجازٍ: «يتقدم في وقاحة ويلوي أنف أبيه!».

تساءل (چو) المسكين: «ماذا فعلت؟».

ردَّد والده: «صمتًا يا فتى! ماذا تقصد بالكلام بينما ترى من حولك رجالًا أسنَّ منك مرتين وثلاث مرات يجلسون ساكنين في صمتٍ ولا يحلمون بنطق كلمة واحدة؟!».

قال (چو) ثائرًا: «إنه الوقت المناسب لي لأتكلم، أليس كذلك؟».

ردَّ والده في حسمٍ: «الوقت المناسب! الوقت المناسب لكلامك غير موجودٍ!».

تمتم پاركس: «آه! مؤكد!» بينما يومئ في صرامة إلى الآخرين اللذين أومآ بدورهما وأكَّدا في صوتٍ خافتٍ أنَّ هذا هو الرد الصائب.

كرَّر (چون ولت): «الوقت المناسب لا يحين. حين كنتُ في مثل سنِّك لم أكن أتكلم، ولم أرد أبدًا أن أتكلم، كنت أستمع وأحسِّن من نفسي، هذا ما كنت أفعله».

قال پاركس: «ولو أنَّ أحدهم يا چو حاول وشدَّ أباك في مناقشة فستجده زبونًا لا يُستهان به في الحجاج».

قال مستر ولت بينما ينفث سحابة دخان طويلة رفيعة حلزونية من جانب فمه ويحدِّق إليها شاردًا وهي تطير: «في هذا الأمر يا فل .. في هذا الأمر، الحجاج هِبة من الطبيعة، فلو حبت الطبيعة إنسانًا بقوة الحجَّة، فإن لهذا الإنسان الحقَّ في استغلالها على الوجه الأمثل، وليس لديه الحق في أن يدَّعي التهذيب كالقرود وينكر هذه الهبة، حيث إنه بذلك يدير ظهره

للطبيعة، يتبرَّأ منها، يحطُّ من قدر هباتها، ويثبت أنه خنزيرٌ لا يستأهل ما بعثرته الطبيعة أمامه من درر».

توقّف صاحب الحانة هنا طويلًا جدًّا، فاستنتج مستر پاركس أنه أنهى خطابه عند هذا الحدِّ، ولذا التفت إلى ابنه الشاب في صرامة، وصاح: «أسمعتَ ما قاله أبوك يا چو؟ لا أظنُّك ستحب أن تشد ذيله في حجاج أيها السيد».

– ولو …

قالها (چون ولت) بينما يخفض عينيه من السقف إلى وجه مقاطعه، ونطقها بحروفٍ بارزة، ليعلم پاركس بأنه –كما يقول العامة– تسرَّع في وضع مجدافه في قارب (ولت)، ثم استأنف:

– ولو أن الطبيعة وهبتني القدرة على الحجاج، لماذا لا أعترف بها؟ بل لماذا لا أشعر بالفخر بهذه الهبة؟ نعم أيها السيد، أنا زبونٌ صعبٌ في الحجاج! أنت محقٌّ فيما قلته، وقد أثبتُّ أنني لا يستهان بي في هذه الغرفة مراتٍ لا تحصى، كما أعتقد أنك تعرف بنفسك، ولو كنت لا تعرف …

أضاف (چون) وهو يضع غليونه في فمه من جديدٍ: «فهذا أفضل بكثيرٍ، لأنني لستُ مغرورًا، ولن أخبرك بتلك المرات».

اطمأن چون ولت من الهمهمة التي تصاعدت من رفاقه الثلاثة ومن هزِّ الرؤوس جهة الغلَّاية النحاسية إلى أنَّ الحاضرين قد خبروا مقدرته على الحجاج ولا يحتاجون إلى المزيد من الأدلة على تفوقه. بدأ يدخِّن بقدرٍ أكبر قليلًا من الجلالة، ويمسح وجوههم بنظرته في صمتٍ.

همهم (چو) الذي كان يتململ في مقعده مصدرًا إشارات قلقة:

«كلام جميل جدًّا، لكنك لو كنت تقصد أن تخبرني بأن المفروض ألَّا أفتح فمي أبدًا..».

زمجر والده: «صمتًا يا سيدي». ثم أضاف: «لا، ليس لكَ أن تفتح فمك أبدًا، حين يُطلَب رأيُك قُلْه، حين تخاطب تحدَّث، أما حين لا يُطلب رأيك ولا تخاطب، لا تدلِ برأيكَ ولا تتحدث. من المؤكَّد أنَّ العالم تغيَّر كثيرًا مذ كنتُ صغيرًا، أعتقد أنه لم يعُد هناك صِبية، لم يعد هناك شيء يُسمَّى صبيًّا، لا توجد مرحلة وسطى هذه الأيام بين مولود ذكر ورجل ناضج، كل الصِّبية ذهبوا مع جلالة الملك چورچ الثاني المعظَّم».

ردَّ كاتب الأبرشيَّة الذي اعتبر نفسه ملتزمًا بأقصى درجات الولاء بصفته ممثِّلَ الكنيسة والدولة في هذه الرفقة: «إنها ملاحظة صائبة تمامًا، مع استثناء الأمراء الشبان دائمًا. فلو أنه من التقوى والصلاح بالنسبة إلى الصبية باعتبارهم في سنِّ الصِّبا أن يتصرَّفوا كصبية، إذن فالأمراء الشبان صبية ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك».

قال مستر ولت: «هل سمعت بحكايات عرائس البحر يا سيدي؟».

ردَّ الكاتب: «بالتأكيد سمعت».

قال (ولت): «طيِّب. حسب عُرف عرائس البحر، ما دامت عروس البحر ليست امرأة، إذن يجب أن تكون سمكة. وحسب عُرف الأمراء الشبان، ما دام الأمير الشاب ليس ملاكًا في الحقيقة، إذن ينبغي له أن يكون تقيًّا صالحًا. ولذا، لو كان من المناسب ومن التقى والصلاح للأمراء الشبان أن يكونوا صبية، فإنهم بالضرورة يكونون صبية ولا يمكن أن يكونوا شيئًا آخر».

استقبل إيضاح (ولت) لهذه النقطة المعقَّدة بعلامات الاستحسان، فصفا مزاجه، ورضي بأن يكرِّر أمره لابنه بالصمت، ثم قال مخاطبًا الغريب:

«لو أنك وجَّهتَ أسئلتك إلى شخصٍ ناضجٍ -إليَّ أو إلى أيٍّ من هؤلاء السادة- لَفزت بما يرضيك، ولما أضَعْتَ أنفاسك سدى. الآنسة هاردال هي ابنة أخ السيد چفري هاردال».

قال الرجل في لا مبالاة: «هل والدها على قيد الحياة؟».

ردَّ صاحب الحانة: «لا، ليس حيًّا، وليس ميتًا».

صرخ الآخر: «ليس ميتًا؟».

قال صاحب الحانة: «ليس ميتًا بالطريقة الشائعة».

أومأ الرفاق كلٌّ إلى صاحبه، وهزَّ مستر (پاركس) رأسه كما لو كان يقول: «ليمتنع الجميع عن معارضتي، لأنني لن أصدِّق أحدًا»، ثم قال في صوتٍ خفيضٍ إنَّ چون ولت يتمتع الليلة بقوة حجاج عجيبة، وإنه لقادر على حجاج رئيس محكمة.

توقَّف الغريب هنيهة ثم سأل بغتة: «ماذا تعني؟».

ردَّ چون ولت: «أكثر مما تعتقد أيُّها الصديق. ربما كان فيما نطقته من كلماتٍ معانٍ أكثر مما تظن».

قال الغريب في خشونة: «ربما، لكن لماذا بحق الشيطان تتكلَّم بالألغاز؟ تقول لي في البداية إنَّ أحدهم ليس حيًّا وليس ميتًا بعد، ثم تقول إنه ليس ميتًا بالطريقة الشائعة، ثم تقول إنَّك تعني أكثر مما أعتقد. سأخبرك أنا عمَّا أعتقده، فحسب ما يتراءى لي، أنتَ لا تعني أيَّ شيء، ماذا تعني؟ أكرِّر سؤالي».

ردَّ صاحب الحانة وقد أهبطته فظاظة الغريب من علياء ما كان يحسُّه من جلالة: «إنها قصة تتردد في مايپول. وقد حدثت خلال الأعوام الأربعة والعشرين الماضية، إنها قصة (سولومون دِايزي). إنها تنتمي إلى هذه الحانة، ولم يحكِها أحدٌ ولن يحكيها أحدٌ تحت هذا السقف إلَّا (سولومون دايزي)».

نظر الغريب إلى كاتب الأبرشية الذي وشت حركته المنتبهة وإحساسه المفاجئ بأهميته بأنه الشخص المشار إليه، وبعد أن لاحظ أنَّ (سولومون) أخرج غليونه من بين شفتيه بعد أن أخذ منه نفسًا طويلًا ليبقيه مشتعلًا، وأنه كان على أهبة الاستعداد لرواية حكايته من دون المزيد من التحريض، احتبى الغريب بمعطفه الفضفاض وانكمش في مقعده حتى كاد يختفي في ظلام ركن المِدفأة الواسع، إلَّا في اللحظات التي كانت النار فيها -بينما تصارع تحت وطأة حزمة حطب ضخمة تكاد تسحقها بثقلها- تتَّقد وتعلو ملقية بريقًا قويًّا مفاجئًا ينير شخص الغريب لحظة ليلقيه بعدها في ظلامٍ أعمق.

على خلفية هذه النار البارقة التي جعلت الغرفة القديمة بخشبها الثقيل وجدرانها المبلَّطة تبدو مبنية بالأبنوس المصقول، وعلى خلفية الريح المزمجرة العاوية في الخارج وهي تعبث بمزلاج الباب البلوطي المتين فيخشخش وبمفصَّلاته فتزعق وتدفع إطاره كما لو كانت ستطيحه داخل الغرفة، على هذه الخلفية المنذرة بدأ (سولومون دايزي) يحكي حكايته.

«لقد كان مستر (رُوبِن هِاردِال)، الأخ الأكبر لمستر (چِفْرِي).».

هنا توقَّف (سولومون) فجأة وظلَّ صامتًا فترة طويلة، حتى إنَّ (چون ولت) نفسه نفد صبره، وسأله لماذا لم يكمل، فقال (سولومون) خافضًا صوته وموجِّهًا كلامه إلى موظف مكتب البريد:

«(كب). في أيِّ يومٍ نحن من الشهر؟».

«إنه التاسع عشر».

فاستأنف (كب) مائلًا بجذعه إلى الأمام: «من آذار. التاسع عشر من آذار. يا لغرابة ذلك!».

همهم الجميع بالموافقة على ما قاله، ثم استأنف (سولومون) الحكاية: «لقد كان مستر (روبن هاردال)، الأخ الأكبر لمستر (چفري)، هو مالك قصر (وارن) منذ اثنين وعشرين عامًا. ذلك القصر الذي كما قال (چو) –ليس لأنك تتذكر ذلك يا چو، فصبيٌّ في مثل سنِّك لا يستطيع ذلك، وإنما لأنك سمعته مني كثيرًا– كان إذ ذاك أكبر وأفضل بكثيرٍ مما هو عليه الآن، وأعلى قيمة كذلك. لم يكن قد مرَّ وقتٌ طويلٌ على وفاة امرأته إذ ذاك، وقد تركت له ابنتهما الوحيدة، هي الآنسة (هاردال) التي كنتَ تسأل عنها، حيث لم يكن عمرها يتجاوز عامًا وقتذاك».

رغم أنَّ المتحدث كان يخاطب الرجل الغريب الذي أظهر منذ قليلٍ فضولًا كبيرًا بشأن تلك العائلة، ورغم أنه توقف هنا كما لو كان يتوقع صيحة دهشة أو تشجيع، فإنَّ ذلك الغريب لم يبدِ أي ملاحظة، كما لم يظهر ما يدلُّ على أنه ينصت إلى ما يقال أو يهتم به، لذا استدار (سولومون) إلى رفاقه القدامى الذين أضاء أنوفهم البريق الأحمر العميق الذي تشعُّه أوعية غلايينهم، وقد طمأنته الخبرة الطويلة إلى انتباههم لما يحكيه،

واستقرَّ عزمه على أن يظهر استهجانه لسلوك الغريب المتعجرف، فأولى الغريب ظهره واستأنف الحكي:

«ترك (مستر هاردال) هذا المكان حين ماتت امرأته لشعوره فيه بالوحدة، وانطلق إلى لندن حيث مكث هناك بضعة أشهر، لكنَّ الشعور بالوحدة صحبه إلى هناك –هكذا أتصوَّر وهكذا سمعته يردِّد– فما كان منه إلا أن عاد بصغيرته بغتة إلى (وارن)، ومعهما خادمتان ومدير أعماله وبستاني».

توقّف (سولومون) ليشدَّ نفسًا من غليونه الموشك على الانطفاء، ثم تابع، بصوت متقطِّع أولًا بحكم أنفاس الغليون التي كان حريصًا على الاستمتاع بشدِّها، ثم بوضوحٍ متزايدٍ:

«أحضر معه خادمتين ومدير أعماله وبستانيًّا، ظلَّ الباقون في لندن، على أن يتبعوهم في اليوم التالي. وقد حدث في تلك الليلة أن مات سيدٌ مسنٌّ فقيرٌ منذ أمدٍ بعيدٍ يعيش في (تْشِغْوِلْ رو)، فجاءتني الأوامر في الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل أن أقرع أجراس إعلان الوفاة من الكنيسة.

هنا ثارت حركة بين المستمعين القليلين، تشي بأنَّ أيًّا منهم كان سيتململ إن اضطرَّ إلى الخروج من بيته في مهمة رسمية في مثل تلك الساعة من الليل. وقد أحسّ كاتب الأبرشيَّة هذه الحركة وفهمها، وتابع موضوعه آخذًا إياها في حسبانه.

«لقد كان أمرًا كئيبًا، خاصة أنَّ حفَّار القبور كان طريح فراشه من أثر العمل الطويل في التربة الرطبة والجلوس لغدائه على حجارة القبور الباردة،

وهكذا كان عليَّ أن أتولَّى هذه المهمة وحدي، فقد كان الوقت متأخرًا بما لا يسمح لي بأن أطمع في رفقة إنسان آخر. رغم ذلك، لم أكن غير متهيِّئ لهذه المهمة، فقد دأب السيد العجوز أن يطلب أن تقرع الأجراس في أقرب وقتٍ بعد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقد كان من المتوقع لعدة أيامٍ أن تفيض روحه إلى بارئها. تظاهرتُ بقدر الإمكان بأنَّ المهمة لا تسبِّب لي مشكلة، ووضعتُ نفسي في معطفٍ ثقيلٍ، فقد كان البرد قاتلًا، وانطلقتُ وفي إحدى يديَّ مصباحٌ مسرجٌ، وفي الأخرى مفتاح الكنيسة».

عند هذه النقطة من الحكاية سمعت خشخشة ثوب الرجل الغريب، كما لو كان قد استدار في مجلسه ليسمع بمزيدٍ من الوضوح. رفع (سولومون) حاجبيه وأشار من فوق كتفيه وهو يومئ إلى (چو) في استفهامٍ صامتٍ إن كان الغريب قد استدار بالفعل. ظلَّل (چو) عينيه بيده وحدَّق إلى الركن الذي يشغله الغريب لكنه لم يستطع أن يتبيَّن شيئًا، فما كان منه إلا أن هزَّ رأسه.

«لقد كانت ليلة شبيهة بليلتنا هذه، يدوّم فيها الإعصار وتتساقط الأمطار ويخيِّم الظلام، حتى إنني ما زلت أعتقد إلى الآن أنها كانت أشدَّ ما مرَّ عليَّ من الليالي ظلمة. ربما كان هذا من مبالغة خيالي، لكن البيوت كانت مغلقة جميعًا، والناس في دورهم، وربما كان هناك إنسانٌ واحدٌ غيري يعرف مثلي كم كانت تلك الليلة مظلمة. دلفت إلى الكنيسة، وسلسلتُ بابها بحيث يبقى مواربًا، وذلك أني للأمانة لم يرقني أن أغلقه تمامًا وأنا وحيدٌ في الكنيسة. وضعتُ مصباحي على المقعد الحجري القابع في الركن الصغير حيث حبل الجرس، وجلست جواره لأشذِّب فتيل الشمعة.

«جلستُ لأشذِّب فتيل الشمعة، وحين انتهيتُ من ذلك فشلتُ في أن أقنع نفسي بالنهوض لأداء مهمَّتي. لا أعرف كيف كان ذلك، لكني فكرت في كل قصص الأشباح التي سمعتها، حتى تلك التي سمعتها وأنا بعد صبيٌّ في المدرسة ونسيتها منذ أمدٍ بعيدٍ، لم تتوارد إلى ذهني واحدة بعد أخرى، وإنما تزاحمت عليَّ دفعة واحدة. تذكَّرتُ قصة كانت دائرة في القرية، عن ليلة محددة من السنة –ربما تكون هذه الليلة المظلمة عينها– يخرج فيها الموتى جميعًا من الأرض ويجلسون على رؤوس قبورهم حتى الصباح. وقد جعلني هذا أفكر كم إنسانًا أعرفه دُفِن بين باب الكنيسة وبوابة فنائها، وكم سيكون بشعًا أن أضطرَّ إلى المرور من بينهم وأتعرَّف إليهم مجدَّدًا وهم متربون مختلفون عمّا كانوا عليه قديمًا. إنني أحفظ أقواس الكنيسة ومحاريبها مذ كنت طفلًا، ورغم ذلك لم أفلح في إقناع نفسي بأنَّ الظلال التي رأيتها تلك الليلة على الأرضية هي الظلال الطبيعية لتلك الأقواس والمحاريب، بل كنتُ متأكدًا أنَّ أشكالًا قبيحة كانت تختبئ بينها وتسترق النظر. وبينما أنا على هذه الحال بدأت أفكر في السيد العجوز المتوفَّى لتوِّه، وأستطيع أن أقسم أنني حين نظرت صوب مذبح الهيكل المظلم رأيته في مكانه المعتاد يحتبي بمعطفه ويقشعر كما لو كان يشعر بالبرد. طيلة هذا الوقت كنتُ جالسًا أتنصَّت وأتنصَّت، أكاد لا أجرؤ على أن أتنفَّس، وأخيرًا نهضتُ وأخذتُ حبل الجرس في يديَّ، في تلك اللحظة لم يرن جرس الكنيسة لأني بالكاد لمسته، وإنما رنَّ جرسٌ آخر!

«سمعت صلصلة جرسٍ آخر بوضوحٍ، وكانت صلصلة عميقة. استمرَّت لحظة فقط، وحملتها الريح بعيدًا، لكني سمعتها. تسمَّعت لفترة

طويلة، لكنها لم تتكرر. كنت قد سمعت بشموع الجثث[1]، وفي النهاية أقنعتُ نفسي بأنَّ ما سمعته كان من أجراس الجثث، يدوِّي من تلقاء نفسه في منتصف الليل لأجل الميت. قرعتُ جرسي - كيف ولأيِّ مدة فعلت؟ لا أدري- وأسرعتُ إلى بيتي بأقصى ما استطعتُ لآوي إلى فراشي.

«استيقظتُ في الصباح التالي بعد ليلة غير هانئة، وحكيتُ لجيراني ما جرى. أخذه بعضهم على محمل الجدِّ واستهزأ بعضهم به، ولا أظن أحدًا صدَّق أنه حقيقيٌّ. لكن السيد (روبن هاردال) وُجِد مقتولًا في غرفة نومه ذلك الصباح، وفي يده قطعة من الحبل المتصل بجرس إنذارٍ خارج سطح منزله، حيث كان هذا الحبل مدلًّى في غرفته، وكان مقطوعًا بفعل فاعلٍ، لا ريب أنه القاتل حين رأى المجني عليه يمسكه.

«كان هذا هو الجرس الذي سمعته».

«وُجِد مكتبه مفتوحًا، وفُقِد صندوق نقودٍ كان مستر (هاردال) قد أنزله في ذلك اليوم وكان يفترض أن يحتوي مبلغًا كبيرًا من المال. اختفى مدير أعماله والبستاني، وظلَّت الشكوك تحاصرهما لوقتٍ طويلٍ، لكن لم يُعثَر لهما أبدًا على أيِّ أثرٍ، رغم أنَّ البحث عنهما امتدَّ بعيدًا. وربما يكونون قد بحثوا عن مستر (ردچ) مدير الأعمال المسكين حتى وصلوا بعيدًا، إلى أن عُثِر على جثَّته بعد أشهر في قاع بركة ماء في أرض القصر، حيث لم يتعرَّف عليه إلَّا من خلال ملابسه وساعته وخاتمه، وفي صدره أثر طعنة سكين غائرة. لم يكن يرتدي ملابسه كاملة، واتفق الجميع على أنه كان

---

(١) Corpse Candles شموع الجثث هي ظهورات مضيئة تشبه ضوء الشّموع تُرى أحيانًا في أفنية الكنائس، ويظنُّ أنها تتنبأ بموت أحدهم.

جالسًا يقرأ في غرفته التي تلطخها الدماء، وأنه قد هوجم بغتة وقُتِل قبل سيِّده.

«والآن قد عرف الجميع أنَّ البستاني هو القاتل لا محالة، ورغم أنه لم يُسمع به منذ تلك الليلة إلى الآن، فإنه لا بُدَّ سيقع، وتذكّروا ما أقوله. لقد ارتكبت الجريمة في مثل يومنا هذا منذ اثنين وعشرين عامًا، في التاسع عشر من آذار عام ألف وسبعمائة وثلاثة وخمسين. وفي التاسع عشر من آذار من عامٍ ما، لا يهمُّ متى، أنا أعرف ذلك ومتأكدٌ منه -إذ إننا نعود قدرًا إلى هذا الموضوع بطريقة ما أو بأخرى في هذا اليوم منذ حدث ما حدث- في التاسع عشر من آذار من عام ما، إن عاجلًا أو آجلًا، سيُكتشَف ذلك الرجل».

* * *

الفصل الثاني

«قصة غريبة».

هكذا قال الرجل الذي تسبَّب في سرد هذه الحكاية.

«والأغرب أن تنتهي كما تتوقعها. أهذا كلُّ شيء؟».

أربك هذا السؤال المباغت (سولومون) جدًّا، فإنه بحكم كثرة روايته هذه القصة وزخرفته إيَّاها (كما يزعم أهل القرية) ببعض الحواشي التي اقترحها من سمعوها منه من وقتٍ إلى آخر، وصل تدريجيًّا إلى أن يرويها بطريقة بالغة التأثير، وكان سؤال «أهذا كلُّ شيء؟» بعد وصول القصة إلى ذروتها مخالفًا تمامًا لما اعتاده، ردَّ (سولومون):

«أهذا كل شيء؟! نعم هذا كل شيء أيُّها السيد، وهو كافٍ حسبما أعتقد».

«أنا أيضًا أعتقد ذلك. حصاني أيها الشاب! إنه ليس إلا حصانَ ركوبٍ استأجرته من بيت بريدٍ على الطريق، لكن ينبغي له أن يحملني إلى لندن الليلة».

ردَّ چو: «الليلة!»

كرَّر الغريب: «الليلة. إلي ما تحدِّق؟ هذا الخان يبدو كما لو كان بيت توظيف لكلِّ عاطلي الجوار الحمقى!».

عند هذه الملاحظة التي تشير في وضوحٍ إلى ما قوبل به الرجل من فضولٍ أتينا على ذكره في الفصل السابق، استدارت أعين چون ولت وأصدقائه في سرعة خارقة إلى الغلاية النحاسية مجدَّدًا. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى (چو) المتحمِّس؛ فقد جاوب نظرة الغريب الغاضبة بنظرة رصينة قائلًا:

«ليس من الوقاحة تمامًا أن يتعجَّب المرء من مواصلتك السير الليلة، من المؤكد أنك قد سُئلت مثل هذا السؤال البريء في خانٍ ما قبل الليلة، وفي طقسٍ أفضل من طقس الليلة. لقد فكرتُ أنك ربما تجهل الطريق، إذ إنك تبدو غريبًا على هذه البقاع».

كرَّر الغريب في عصبية: «الطريق.».

«نعم. أتعرفه؟».

ردّ الغريب ملوِّحًا بيده ودائرًا على عقبه: «سأ.. همم! سأعرفه! خُذ حسابك يا صاحب الخان».

استجاب (چون ولت) لرغبته فورًا، إذ إنه كان نادرًا ما يتباطأ إذا تعلَّق الأمر بأخذ الحساب، إلا في تفاصيل دفع الباقي واختبار صلاحية كل عملة معدنية تُقدَّم إليه بأسنانه أو لسانه أو أي وسيلة أخرى، وفي الحالات المريبة بسلسلة طويلة من الاختبارات التي تنتهي برفض العملة. هنا أحكم الضيفُ لفَّ ملابسه حول جسده محتميًا بقدر الإمكان من الطقس القاسي، وتوجَّه تلقاء حظيرة الخيل من دون كلمة أو إشارة وداعٍ. وهناك كان (چو) الذي ترك الغرفة حين انتهى حواره القصير مع الغريب يحتمي من المطر ويحمي حصان الرجل تحت سقف كُنَّة قديمٍ.

قال (چو) مربِّتًا عنق الحصان: «إنه يوافقني الرأي بدرجة كبيرة. إنني أراهن أنَّ مبيتك هنا الليلة سيسعده أكثر مما يسعدني».

جاءه الرد موجزًا: «أنا وهو مختلفان في الرأي، كما كنَّا أكثر من مرة خلال رحلتنا معًا إلى هنا».

ردَّ (چو): «هكذا خمَّنتُ قبل مجيئك إلى الحظيرة، إذ إنه أحسَّ اقتراب مهمازيك. يا لَه من حيوان بائس!».

عدَّل الغريب ياقة معطفه حول وجهه ولم يحر جوابًا.

«أرى أنك ستعرفني مرة أخرى» هكذا قال وقد لاحظ النظرة الجادة على وجه محدِّثه الشاب بينما يقفز إلى سرج حصانه.

«يا سيدي، إنَّ الرجل الذي يسلك طريقًا لا يعرفها على ظهر حصان منهك كهذا، ويترك مكانًا جيدًا في ليلة كهذه ليسافر، هو رجلٌ يستحقُّ المعرفة».

«أرى أنَّ لك عينًا وقحةً ولسانًا سليطًا».

«قد حبتني الطبيعة كليهما أو هكذا آمل، غير أنَّ هذا الأخير يصدأ حين أكفُّ عن استخدامه».

ردَّ الرجل: «قلِّل من استخدام عينك هي الأخرى، ولا تطلق وقاحتهما إلا على فتياتك أيُّها الصبي».

نفض الرجل يد (چو) من اللجام وضربه بمؤخر السوط على رأسه في غلظة، ثم انطلق مخترقًا الوحل والظلمة في سرعة لا يجرؤ على مثلها إلَّا قلَّة ممن لهم مثل حصانه المنهك، ولو كانوا على دراية تامة بالناحية التي يخترقونها، وهي ناحية يكتنفها الخطر في كلِّ خطوة، لا سيَّما بالنسبة إلى من لا يعرف شيئًا عن الطريق التي يرتادها.

كانت الطرق في ذلك العهد سيِّئة الرصف فقيرة التمهيد ولا تصلح إلَّا نادرًا، حتى على مبعدة من لندن لا تزيد على اثني عشر ميلًا. أمَّا الطريق التي ارتادها هذا الراكب فقد حرثتها عجلات عربات ثقيلة، وأفسدها تساقط جليد الشتاء الماضي ثم انصهاره، وربما شتاءات كثيرة. انزرعت في التربة ثقوبٌ كبيرة وحفرٌ، امتلأت بالماء من المطر الذي انهمر قريبًا، فأصبح تمييزها من الصعوبة بمكان، حتى في ضوء النهار، ولو أنَّ حصانًا أثبت قدمًا من هذا المنهك وقع في أيٍّ من هذه الحفر لانهار من فوره، فما بالك بهذا الحصان المسكين الذي يهمزه راكبه ليجري بأقصى ما في قوته؟! كانت الأحجار وشظاياها الحادَّة تتدحرج من تحت حوافره باستمرارٍ، ولم يكن الراكب يرى أبعد من رأس حصانه، ولا أبعد من ذراعه هو نفسه إذا مدَّها على أيٍّ من الجانبين. كانت الطرق في جوار العاصمة مبتلاة بقطَّاع الطرق في ذلك العهد أيضًا، سواء منهم الراكبون والمشاة. وفي هذه الليلة الظلماء من بين الليالي كان لأيٍّ شرير من تلك الطائفة أن يلبِّي نداء مهنته المحرَّمة في أمانٍ من أن يُضبَط أو يُقبَض عليه.

رغم ذلك انطلق المسافر بالسرعة المجنونة ذاتها، غير مبالٍ بما يتطاير حول رأسه من غبارٍ ورذاذٍ، غير عابئ بالظلام الدامس، ولا باحتمال أن يصادف قاطع طريقٍ مستيئسًا خلال رحلته. وهو في كل دوران وزاوية، حتى حيثما كان الانحراف عن الطريق المباشرة غير متوقع ولا يمكن أن يُرى إلا والراكب قد اقترب جدًّا منه، كانت يده لا تخطئ التحكُّم في لجام الحصان، ولم يكن يترك وسط الطريق. هكذا تقدَّمت به الطريق وهو يرفع جسده في الركاب ويميل إلى الأمام حتى يكاد يلامس عنق الحصان ويرفع السوط عاليًا فوق رأسه بحميَّة مجنون.

يحدث أحيانًا أن تصطخب عناصر الكون، فيشعر أولئك المقبلون على أفعالٍ مقدامة أو المعذَّبون بأفكارٍ عظيمة، سواء كانت خيِّرة أو شريرة، بتعاطفٍ غامضٍ مع اضطراب الطبيعة، فيدفعهم ذلك إلى عنفٍ يتجاوب وذلك الاضطراب. ففي صخب الرعد والبرق والعاصفة كثيرًا ما اقتُرِفت أفعالٌ جبَّارة، إذ إنَّ الرجال الذين دأبوا في امتلاك أنفسهم في العادة يذعنون لضغط عواطفهم في هذا الوقت ولا يملكون لها زمامًا. لقد جاهدت شياطين الغضب واليأس حتى تحاكي أولئك الذين يركبون الزوابع ويوجِّهون العاصفة، فأصبح الإنسان الذي تدفعه الريح المزمجرة والمياه المستعرة إلى الجنون في وحشية وقسوة عناصر الكون ذاتها.

وسواء كان المسافر فريسة لأفكار أجَّجها جنون هذه الليلة وزاد سرعة تواردها، أو كان مدفوعًا فقط بدافع قويٍّ إلى أن يصل إلى غاية رحلته، فقد مضى مسرعًا، أقرب في سرعته إلى شبحٍ مطاردٍ من إنسانٍ عادي، ولم يخفض هذه السرعة إلى أن وصل إلى مفترق طرقٍ يوصل أطولها إلى النقطة التي بدأ منها رحلته مؤخرًا، وهنا وجد نفسه بغتة في مواجهة عربة تقترب منه، حتى إنه في محاولته أن يتفاداها كاد يقلب حصانه وينطرح هو من فوقه.

سمعت صيحة رجل: «يوهو! ما هذا؟! من هناك؟».

ردَّ المسافر: «صديق».

كرَّر الرجل: «صديق! من ذا الذي يسمِّي نفسه صديقًا بينما يركب هكذا مسيئًا معاملة نِعَم السماء المتجسِّدة في صورة حصان، معرِّضًا للخطر حياته التي ربما كانت غير ذات قيمة، وكذلك حياة الآخرين؟».

ردَّ المسافر مترجِّلًا: «أرى أنَّ لديك مصباحًا، فهلَّا أعرتني إياه لحظة؟ أعتقد أنك جرحت حصاني، إما بعجلة عربتك وإما بقضيبيها».

صاح الآخر: «جرحته! لو أنني لم أقتله فهي ليست غلطتك. ماذا تقصد بالركض هكذا في طريقٍ من طرق الملك؟ هاه؟».

ردَّ المسافر مختطفًا المصباح من يد الرجل: «أعطني المصباح ولا توجِّه أسئلة كهذه إلى رجلٍ ليس في حالة تسمح له بالكلام».

قال الصوت: «لو أنكَ قلتَ آنفًا إنك لست في حالة تسمح بالكلام لوجدتني ربما في حالة لا تسمح بإعارتك المصباح، ورغم ذلك فما دام من جُرِح هو الحصان لا أنت، فلأحدكما نور المصباح على الرحب والسّعة، لكن ليس للفظِّ منكما».

لم يحر المسافر جوابًا، لكنه أخذ يتفحَّص جذع وأطراف حصانه اللاهث المنهك بينما هو ممسكٌ بالمصباح قريبًا منه. في هذه الأثناء كان الآخر جالسًا في رصانة في عربته الأقرب إلى حنطور به مكانٌ مخصصٌ لوضع حقيبة أدوات كبيرة، وكان يراقب في حرصٍ ما يفعله المسافر.

كان هذا الآخر رجلًا مدوَّر الجسد أحمر الوجه قويَّ البنية ذا ذقنٍ مشقوقة وصوتٍ أجشَّ ينضح بعيشٍ طيِّب ونومٍ جيِّد وخفَّة دم وصحة موفورة. كان قد جاوز عهد الشباب، لكنَّ أبانا الزمن ليس دائمًا أبًا قاسيًا، فرغم أنه لا يبطئ تمامًا لأيٍّ من أبنائه، فإنه يمسُّ من كانوا به أبرارًا مسًّا خفيفًا، حيث يجعلهم رجالًا مسنِّين ونساءً مسنَّات لا محالة، لكنه يترك قلوبهم وأرواحهم شابة موفورة القوة. مع مثل هؤلاء يصبح الشَّيب علامة على مباركة الزمن، وتغدو كلُّ تجعيدة ورقة في تقويم هادئ لحياة أفنيت كما ينبغي لها.

كان الشخص الذي لقيه المسافر هكذا بغتة ينتمي إلى ذلك النمط، ما في قلبه يظهر على لسانه، سليم الطويّة، ودودًا، وفي سنٍّ متأخرة خضراء: في سلام مع نفسه، وعلى ما يبدو كان أميل إلى أن يكون في سلامٍ مع العالم كلِّه. ورغم أنه كان ملتحفًا بعدة معاطف ومناديل، يغطي أحدها رأسه ويلتقي طرفاه في ربطة تستقر في الشق المريح الذي في ذقنه ليؤمِّن قبعته ثلاثية الأركان وشعره المستعار من أن يطيرا من فوق رأسه، فإنها جميعًا لم تكن لتخفي قوامه المدملك المستريح، كما لم تعط آثار أصابعه المتّسخة وجهه إلّا تعبيرًا غريبًا مضحكًا شفَّ خفَّة دمه الربانية.

أخيرًا قال المسافر وهو يرفع رأسه والمصباح معًا: «إنه لم يُصَب بسوءٍ».

ردَّ العجوز: «اكتشفتَ ذلك أخيرًا؟! لقد رأت عيناي ضوء النهار أيامًا أكثر من عينيك بكثيرٍ، إلّا أني لا يسعدني أن أكون في مثل سنِّك».

«ماذا تعني؟».

«أعني؟! كان باستطاعتي منذ خمس دقائق أن أخبرك أنه لم يصب، أعطني مصباحي أيها الصديق، وامضِ في طريقك بخطواتٍ أبطأ، وعِمَّ مساء».

وبينما يسلِّمه المسافر المصباح وقعت أشعته بالضرورة على وجه العجوز لتكشفه في تمامه، فالتقت أعينهما للحظة، أسقط المسافر على إثرها المصباح أرضًا بغتة وسحقه بقدمه.

صاح العجوز من حنطوره: «ألم ترَ في حياتك صانع أقفالٍ أبدًا من قبل حتى إنك تذعر كما لو كنتَ لقيت شبحًا؟» ثم تابع في عجلة وهو يدفع

يده إلى سلة أدواته ويجذب منها مطرقة: «أم أنَّ هذه خطة لكي تسرقني؟ أنا أعرف هذه الطرق أيها الصديق، وحين أسلكها لا أحمل معي إلَّا شلنات قليلة، ولا شيء آخر ذا قيمة تذكر. فأنا أقول لك بوضوحٍ، لنوفِّر على كلينا المتاعب، إنَّك لن تلقى مني شيئًا بخلاف ذراعٍ قوية بالنسبة إلى رجل في مثل سني، وهذه الآلة التي أصبحت من طول عشرتي لها أجيد استخدامها في سرعة، وأؤكد لك أنك لن تظفر بما تبغيه إذا لعبتَ معي هذه اللعبة». بهذه الكلمات نهض مدافعًا عن نفسه.

ردَّ المسافر: «لستُ من النوعية التي تظنني منها يا (غابرييل ڤاردن)».

قال صانع الأقفال: «إذن من أنتَ وماذا تريد؟ يبدو أنك تعرف اسمي، فدعني أعرف اسمك».

ردَّ المسافر: «لم أعرفه من أي معرفة سابقة بك، وإنما من حروفه المنقوشة على عربتك، تلك التي تخبر المدينة كلَّها باسمك».

قال ڤاردن وهو يترجَّل عن عربته في نشاطٍ: «إذن فقد كانت عينك أفضل في التقاط حروف اسمي مما كانت في رؤية حالة حصانك، من أنتَ؟ دعني أرى وجهك».

وبينما يترجَّل صانع الأقفال كان المسافر يقفز مجددًا إلى سرجه ليواجه العجوز من فوقه، وكان العجوز يحاول أن يبقى قريبًا من الحصان بمواكبة حركته، إذ يتحرك هذا الأخير في نفاد صبرٍ تحت وطأة عنانه المشدود.

«أقول لك دعني أرى وجهك».

«ابتعد!».

قال صانع الأقفال: «لا! تخفي وجهك الآن ثمَّ يلوك الناس غدًا في النادي حكاية غابرييل ڤاردن الذي أرهبه صوتٌ فظٌّ وليلة مظلمة، قِف؛ دعني أرى وجهك».

أدرك المسافر أن المزيد من المقاومة سيورِّطه في صراعٍ شخصيٍّ مع خصمٍ ليس من الحكمة الاستهانة به، فأرجع معطفه إلى الوراء وانحنى ناظرًا إلى صانع الأقفال في ثباتٍ. وربما لم يتواجه أبدًا من قبل رجلان مختلفان فيما بينهما إلى هذا الحدِّ. لقد زادت حمرة وجه صانع الأقفال شحوب الممتطي صهوة الحصان، حتى إنه بدا شبحًا بلا دماء، بينما بدت قطرات عرقه الداكنة الثقيلة التي نجمت عن طول الركوب كأنها قطرات عرق رجل مريض مرض الموت. ثم أنارت وجه صانع الأقفال ابتسامة رجلٍ توقَّع أن يرى في ملامح هذا الغريب الفظِّ نذرَ احتيالٍ تطل من عينيه أو على شفتيه لتكشف له فيه عن شخصٍ يعرفه، متخفيًا بهذه الطريقة، ولتفسد خدعته. كان وجه الآخر العابس المتجهِّم المنكمش على نفسه بعض الشيء وجه رجلٍ يلوذ باصطناع مسافة تبعده عن الناظرين، بينما بدا فكَّاه المطبقان في إحكامٍ وشفتاه المتوتِّرتان، وفوق كلِّ ذلك حركة يده الخفية في صدره، بدت جميعًا كأنها تفصح عن هدفٍ لا محيد عنه، ما أبعده عن التمثيل واللعب.

هكذا تبادلا النظرات لبعض الوقت في صمتٍ، ثم قال العجوز بعد أن تفحَّص ملامح المسافر: «ممم! لا أعرفك!».

ردَّ الآخر وهو يلتحف بمعطفه كما كان: «ألا تبغي أن تعرفني؟».

قال غابرييل: «لا أبغي، ولأكون واضحًا معك أيُّها الصديق، أنت لا تحمل في ملامح وجهك خطاب توصية».

قال المسافر: «ليست مشيئتي، إنَّ مزاجي حريٌّ بأن يتجنَّب».

قال غابرييل بصراحة: «حسنًا، لتحتفظ بمزاجك، لا شأن لي به!».

ردَّ المسافر: «سأفعل بأيِّ ثمنٍ، ولأثبت لك ذلك، فعليك أن توقن تمامًا بأنك لم تتعرض أبدًا لخطرٍ على حياتك كما تعرَّضت في اللحظات القليلة الماضية، إذ كنت على مبعدة خمس دقائق من آخر نفس لك، لن تكون أبدًا أقرب إلى الموت مما كنت الليلة!».

قال صانع الأقفال المتين البنيان: «ياه!».

«نعم! وموتة عنيفة كانت بانتظارك».

«بيد من؟».

ردَّ المسافر: «بيدي».

نطق هذه الكلمة وهمز حصانه وانطلق، بخطواتٍ متَّزنة في البداية وهو يخوض في الوحل، لكنَّ سرعته ازدادت تدريجيًّا حتى اختفى آخر أصوات حوافر حصانه مع الريح، وإذ ذاك كان يركض بنفس السرعة المجنونة التي كان عليها حين لقيه صانع الأقفال.

ظلَّ غابرييل ڤاردن واقفًا في عرض الطريق ممسكًا المصباح المكسور، يتنصَّت في صمتٍ غير مصدقٍ، إلى أن عمَّ السكون ولم يبقَ إلا أنين الريح وصوت انهمار المطر يطرقان أذنيه، وحينذاك ضرب صدره ضربة أو ضربتين ليوقظ نفسه من ذهولها، واستغرق في صياح ملؤه الدهشة:

«بحق كلِّ ما هو عجيب، ما ذلك الرجل؟! مجنون؟ قاطع طريق؟ انتحاري؟ لو أنه لم ينطلق بتلك السرعة لأريته من منَّا كان الخطر يحدِّق به حقًّا. أنا لم أكن أقرب إلى الموت مني في هذه الليلة؟ آمل ألَّا أكون أقرب إلى الموت لحفنة أعوامٍ مقبلة، فلو تحقَّق ذلك فسأرضى بألَّا أكون أبعد

من الموت مني في هذه الليلة. يا لنجومي! يا له من متبجِّح أمام رجلٍ متين مثلي. أفٍّ!».

عاد غابرييل إلى مقعده، ونظر في حزنٍ صوب الطريق التي أتى منها المسافر، مغمغمًا: «مايپول، يفصلني ميلان عن مايپول. لقد سلكت الطريق الأخرى من قصر (وارن) عن عمدٍ بعد يوم عملٍ طويلٍ قضيته بين الأقفال والأجراس، حتى لا أمرَّ بـ(مايپول) وأضعف أمام إغراء دخوله فأنكث وعدي لـ(مارثا) بألَّا أدخله، غير أنَّ هناك حلًّا! سيكون من الخطر أن أواصل رحلتي إلى لندن من دون مصباحٍ، وأنا الآن تفصلني أربعة أميالٍ ونصف الميل عن خان منتصف الطريق، وبين النقطتين يكون المرء أشدَّ ما يكون احتياجًا إلى مصباحٍ. ميلان فقط إلى مايپول، وقد قلتُ لمارثا إنني لن أذهب، وأنا لم أذهب، وهناك حلٌّ!».

وبينما يكرر «هناك حلٌّ» مرَّات عدة، كما لو كان يحاول أن يعوِّض الحل الصغير الذي كان موشكًا على إتيانه بدفع نفسه دفعًا إلى الحل الكبير الذي عقد العزم عليه، استدار غابرييل ڤاردن بعربته في هدوءٍ، وقد عزم على أن يأخذ مصباحًا من خان مايپول، ولا شيء غير المصباح.

غير أنه حين وصل إلى مايپول ووافاه (چو) مسرعًا إلى قرب رأس حصانه ردًّا على تحية غابرييل المعروفة، وقد ترك (چو) الباب وراءه مفتوحًا، كاشفًا مشهدًا لذيذًا في نوره ودفئه، وحين بدا أنَّ وهج نار المدفأة المنساب عبر الستائر الحمراء العتيقة للحجرة المشتركة يحمل معه كجزءٍ منه همهمة مبهجة، ورائحة عطرة لخمرٍ ممزوجة بالماء وتبغٍ نادرٍ، وكل هذا مغموس كما اتفق في الوهج المبهج، وحين وشت الظلال المتحركة من خلال الستار بأن أولئك الموجودين بالداخل قد نهضوا من مقاعدهم

المريحة ليفسحوا مكانًا في الركن الأفضل لصانع الأقفال الأمين، وكم كان يعرف هذا الركن جيدًا، وحين وشى كذلك وهج عريض انساب فجأة إلى أعلى بجودة الحطب المطقطق الذي تصاعد منه قطار رائع من الشرر في حركة دوَّامية عبر المدخنة، على شرف حضوره لا ريب، وحين طرق مسمعيه فوق كل هذه المغريات صوت قلي لطيفٍ آتٍ من المطبخ البعيد، ممتزجًا بقعقعة موسيقية للأطباق والصحون، ورائحة لذيذة حوَّلت الريح العاصفة نفسها إلى عطرٍ، شعر غابرييل بإصراره الأول يذوب سريعًا. حاول أن ينظر إلى الخان نظرة ترفُّع، لكنَّ ملامحه استرخت فأصبحت نظرة هيامٍ. أدار رأسه إلى الجهة الأخرى، وبدا أنَّ الريف البارد الأسود يقطِّب في وجهه، ويدفعه إلى الاحتماء بذراعي الخان المضيافتين.

قال صانع الأقفال: «الرحيم يا چو هو من يرحم حيوانه، سأترك السرج بعض الوقت».

وكم كان طبيعيًّا أن يترك السرج! وكم بدا غير طبيعيٍّ لرجلٍ عاقلٍ أن يخوض في الطرق الموحلة ليلقى ضربات الريح الوقحة وانهمار المطر، بينما هناك أرضٌ نظيفة مغطَّاة برملٍ أبيض هشٍّ، ومدفأة مكنوسة جيِّدًا، ونار متَّقدة، ومنضدة مزيَّنة بقماشٍ أبيض، وأباريق زاهية من القصدير، وتجهيزات أخرى مغرية لوجبة مطبوخة جيدًا. كان هناك كلُّ هذه الأشياء، وكانت هناك رفقة عازمة على أن تستفيد بها أقصى استفادة، وكلُّ ذلك تحت يده يرجوه أن يستمتع!

* * *

الفصل الثالث

تلك كانت أفكار صانع الأقفال أول ما أخذ مقعده في الركن الدافئ، وتعافى ببطء من خللٍ سار في بصره - كان سارًّا لأنَّه نجم عن هبوب الريح في عينيه- وهو خللٌ جعلها مسألة حكمة وواجب تجاه نفسه أن يحتمي من الطقس، وأغراه لنفس السبب بأن يبالغ في سعلة بسيطة فرضت نفسها، ليصرح بعدها بأنه يشعر بأنه ليس على ما يرام. وظلَّت تسيطر عليه الأفكار نفسها بعد مرور ساعة كاملة، حيث أنهى عشاءه وظلَّ جالسًا بوجه فرحٍ مضيء في الركن الدافئ نفسه، يستمع إلى زقزقة الضئيل (سولومون دايزي) الشبيهة بصوت صرَّار الليل، ويشارك بنصيبٍ ليس بالتافه أو القليل التقدير من الثرثرة حول مدفأة (مايپول).

قال (سولومون) خاتمًا تكهناتٍ عدة حول الغريب الذي قارن (غابرييل) ملاحظاته عنه بملاحظات الرفقة: «أتمنَّى أنه ربما كان رجلًا صادقًا، هذا كلُّ ما في الأمر».

ردَّ صانع الأقفال: «أظن أننا جميعًا نتمنى ذلك، أليس كذلك؟».

قال (چو): «أنا لا».

صاح (غابرييل): «لا؟!».

«لا؛ لقد ضربني بسوطه، ذلك الجبان، بينما هو على صهوة حصانه وأنا على قدميَّ، وأظنني سأكون أسعد إذا اتَّضح أنَّ حقيقته مطابقة لرأيي فيه».

«وماذا يمكن أن يكون ذلك الرأي يا چو؟».

«ليس رأيًا طيِّبًا يا مستر ڤاردن. لك أن تهزَّ رأسك يا أبي، لكنني أقول إنه ليس رأيًا طيِّبًا، وسوف أقول دائمًا إنه ليس رأيًا طيِّبًا، مائة مرة أقولها، لو أنَّ ذلك سيرجعه لينال ما يستحق من عقابي».

قال (چون ولت): «أمسك عليك لسانك أيها السيد».

«لن أفعل يا أبي، لقد تجرَّأ وفعل ما فعل بسببك. رآني أُعامل كطفلٍ وأُكتم كأحمق، فاستجمع شجاعته وقرَّر أن يهاجم شخصًا اعتقد أنه ليس فيه ذرَّة من روحٍ، وله الحق في أن يعتقد ذلك. لكنَّه مخطئ، كما سأريه، وكما سأريكم جميعًا قريبًا».

صاح (چون ولت) في دهشة: «أيعلم الصبيُّ ما يقوله؟!».

ردَّ (چو): «أبي. أنا أعرف ما أقول وما أعني، حسنًا، أكثر مما تعرف أنت حين تسمعني. أستطيع أن أحتمل ما تفعله معي، لكني لا أستطيع تحمُّل ما تجرُّه معاملتك إيّاي من ازدراء الآخرين كلَّ يومٍ. انظر إلى غيري من الشباب في مثل سنّي، أيفتقرون إلى الحرية؟ إلى الإرادة؟ إلى الحقِّ في الكلام؟ هل هم مجبرون على أن يجلسوا صامتين وأن يؤمروا في كل كبيرة وصغيرة إلى أن يصبحوا أضحوكة الكبار والصغار؟ لقد أصبحت كيانًا تافهًا في كلِّ ركنٍ من (تشغول)، وإنني أقول -وهو أفضل أن أقولها الآن من أن أنتظر وفاتك وانتقال مالك إلى يدي لأقولها- أقول إنني عمَّا

قليل سأجد نفسي مدفوعًا إلى أن أكسر هذه القيود، وإنني حين أفعل ذلك، فلن أكون أنا الملوم، بل أنت ولا أحد غيرك».

دهش (چون ولت) كثيرًا من غيظ وجرأة ابنه الطامح، حتى إنه جلس كالحائر، محدِّقًا بطريقة مضحكة إلى الغلَّاية، ومحاولًا -دون جدوى- أن يستجمع أفكاره الخرقاء ويخترع ردًّا. أمَّا الضيوف الذين لم يكونوا أقلَّ ارتباكًا فقد وقعوا في الحيرة ذاتها، وبعد وقتٍ نهضوا ليغادروا الخان مغمغمين بتعزياتٍ متنوعة ونصائح، وقد أضافت الخمر قليلًا إلى ما هم فيه من ارتباكٍ.

وحده صانع الأقفال الصادق من وجَّه بضع كلماتٍ مترابطة من النصيحة العاقلة إلى الطرفين، حاثًّا (چون ولت) على تذكُّر أنَّ (چو) كاد يبلغ مبلغ الرجال ومن ثمَّ فلا يجب أن يُعامَل بمثل هذا التقييد، وناصحًا (چو) نفسه أن يصبر على أهواء والده، وأن يحاول جهده أن ينحِّيها عنه بالاحتجاج المعتدل لا بالثورة المشتعلة في غير وقتها. واستقبلت هذه النصيحة كما تستقبل مثيلاتها، لم تترك على (چون ولت) من أثرٍ إلَّا كما تركت على العلامة خارج باب الخان. أمَّا (چو) الذي تقبَّلها بقبولٍ أفضل، فقد صرَّح لناصحه بأنه ممتنٌّ له فوق قدرة لسانه على التعبير، لكنَّه ألمح في أدبٍ إلى نيَّته في الاستقلال بأمره غير متأثِّرٍ بأي كائنٍ كان، فقال بينما يقفان خارج الخان في الرواق وصانع الأقفال يعد العدَّة لرحلته إلى داره:

«لقد طالما كنتَ لي صديقًا جيِّدًا جدًّا يا (مستر ڤاردن)، وإنني أعتبرها من طيبتك أن تقول كلَّ ما قلت، لكن أوشك وقت فراقي لـ(مايپول) أن يأتي».

قال غابرييل: «الحجارة الجوَّالة لا تجمع إليها الطحالب يا چو»[1].

ردَّ (چو): «ولا الكبيرة الثابتة! وأنا هنا حالي ليست أفضل كثيرًا من حال حجرٍ كبيرٍ ثابتٍ، ولا أرى من العالم إلَّا قدر ما يرى مثل ذلك الحجر».

تابع صانع الأقفال مداعبًا ذقنه في تأمُّل: «إذن ما تنوي أن تفعل يا چو؟ ماذا تستطيع أن تكون؟ إلى أين يمكن أن تذهب؟ أتفهم ما أعني؟».

«عليَّ أن أثق بالحظِّ يا مستر ڤاردن».

«بئس ما يوثق به يا چو، إني لا أحبه. لطالما قلت لابنتي ونحن نتحدث عن الزوج المناسب لها، ألَّا تثق أبدًا بالحظِّ، وإنما أن تتأكد مسبقًا من أنَّ زوج المستقبل رجلٌ طيِّبٌ وصادقٌ، ولا يضرُّها من بعد من أيِّ جهة جاءت رياح الحظ. عمَّ تبحث هناك يا چو؟ أتمنَّى ألَّا يكون قد ضاع من السرج أي شيء».

قال (چو) وهو يتظاهر بالانهماك في ربط السرج وتثبيت مشابكه: «هل الآنسة (دلّي) بخيرٍ؟».

«بخيرٍ، شكرًا لك، إنها تبدو جميلة بما يكفي لاعتبارها في حالٍ جيدة».

«هي دائمًا جميلة وفي حال جيدة يا سيدي».

«هي هكذا بالفعل، حمدًا للرب».

---

(١) Roving Stones gather no moss.: مثلٌ قديمٌ يُنسب أوَّل استخدام له إلى الكاتب اللاتيني (پبليليوس سيروس) الأنطاكي في عمله الأشهر (أقوال حكيمة Sententiae: والمثل يعني أنَّ أولئك المتنقِّلين باستمرارٍ من دون جذورٍ في أي مكانٍ يتحاشون الهموم والمسؤوليات، لكن ربَّما كان (غابرييل) هنا يلمح إلى الجانب السلبي الكامن في الجملة، أي أنَّ هؤلاء النَّقَّالين يعيشون حياة جدباء لا نماء فيها.

قال (چو) بعد بعض التردُّد: «أتمنَّى ألَّا تحكي أبدًا ما حدث لي - أعني أنني قد ضربت كما يليق بغلامٍ يفترضونني إيَّاه- إلى أن أقابل هذا الرجل مجدَّدًا وأصفِّي حسابي معه، ستكون حكاية أفضل حينئذٍ».

ردَّ غابرييل: «أوه! لمن يفترض أن أحكيها؟! إنهم يعرفونها هنا، ولا يحتمل أن أقابل أيَّ إنسان يفترض أن يهتمَّ بها».

قال الشاب متنهِّدًا: «هذا صحيحٌ. لقد نسيتُ ذلك، نعم، هذا صحيح!».

وبينما يقول ذلك رفع وجهه المحمرَّ -لا ريب مما بذل من جهدٍ في الربط وتثبيت المشابك كما قلنا- وتنهَّد مجدَّدًا وهو يناول العجوز الذي كان قد استوى على مقعده عنان حصانه، وتمنَّى له ليلة سعيدة.

صاح غابرييل: «طابت ليلتك! والآن فكِّر جيِّدًا فيما قلناه لتوِّنا ولا تتعجَّل، هذا هو الشاب الطيِّب الذي أعرفه! إنني مهتمٌّ بك، ولن أطيق أن تنفي نفسك بعيدًا هكذا! طابت ليلتك!».

ردَّ (چو ولت) تحية (غابرييل) بتمنيات طيبة، وتلكَّأ إلى أن اختفى صوت العجلات، ثم دخل الخان مجدَّدًا وهو يهزُّ رأسه في أسفٍ.

شقَّ (غابرييل ڤاردن) طريقه إلى لندن مفكِّرًا في أمورٍ عدة، أهمُّها أن يعثر على ألفاظٍ ملتهبة يحكي بها مغامرته، تعينه على الاحتجاج أمام السيدة (ڤاردن) لزيارته (مايپول) رغم ما آتاها من مواثيق صارمة بالامتناع عن زيارة ذلك المكان. والتفكير لا يقتصر على توليد الأفكار، وإنما قد يولِّد معها النُّعاس، وهكذا كان صانع الأقفال يوغل أكثر في النُّعاس كلَّما أوغل في التفكير.

وقد يكون المرء متيقِّظًا تمامًا -أو على الأقل واقفًا على تلك الأرض

الصلبة المحايدة الواقعة بين تخوم اليقظة التامة والسُّكر الطفيف- لكنَّه يشعر بميلٍ قويٍّ إلى خلط الظروف الحالية بأخرى ولا علاقة بينهما من قريبٍ أو بعيدٍ، وإلى إرباك كلِّ اعتبارٍ للأشخاص والأشياء والأوقات والأماكن، وإلى عجن أفكاره المهوشة بعضها ببعضٍ فيما يشبه المطياف الذهني، خالقًا بذلك أخلاطًا غير متوقِّعة بقدر ما هي وقتية. تلك كانت حال (غابرييل ڤاردن)، حيث إنه بينما يسَّاقط رأسه كلَّ حينٍ في نومه الكلبي، وحصانه متروكٌ ليسلك طريقًا يعرفها جيِّدًا، كان يقترب غير واعٍ من بيته. أيقظ نفسه مرة حين توقَّف حصانه إلى أن انفتحت بوابة الطريق، وصاح بالحارس محصِّل الأجرة في حيوية: «طابت ليلتك!»، لكنَّه حينذاك كان يصحو من حلم عن استخراج قفلٍ من بطن ألماسة المغول الكبرى[1]، وحتى حينما تيقَّظ خلط بين ذلك الحارس وحماته التي ماتت منذ عشرين عامًا! لذا لم يكن غريبًا أن راح في النوم مجدَّدًا وهو ماضٍ في طريقه غير منتبه أين وصل من رحلته.

والآن اقترب من المدينة العظيمة التي امتدَّت أمامه كظلٍّ داكنٍ على الأرض، والهواء الرَّخو يكتسي حمرة بفعل أضوائها العميقة الكئيبة التي تشي بمتاهاتٍ من الطرق العامة والحوانيت وأسراب من الخلق المشغولين. كانت هذه الهالة من الضوء تشحب تدريجيًّا كلَّما اقترب، بينما

---

(١) ألماسة المغول الكبرى The Great Mogul: ألماسة يُفترض أنها اكتشفت قرابة عام ١٦٥٠ في منجمٍ بالهند في أثناء حكم المغول المسلمين، وقد انتقلت من أمير (جملة) إلى (شاه جاهان)، وتناقلتها بعد ذلك أيدي الأمراء إلى أن وصلت إلى يد (نادر شاه) مؤسس الدولة الأفشرية في إيران، ثم اختفت رسميًّا باغتياله، ويرى الباحثون المحدثون أنها هي (ألماسة أورلوف) التي تحلِّي صولجان الإمبراطورة الروسية كاترينا العظمى آخر إمبراطورات روسيا، وهي عينها الألماسة المحفوظة الآن في أحد متاحف الكرملين.

تتضح مصادرها لعين الناظر. كانت خطوطًا طويلة من الشوارع المضاءة إضاءة فقيرة، تتناثر على مسافاتٍ منها بقعٌ أوفر حظًّا من الضوء، حيث تزدحم المصابيح حول ميدان أو سوقٍ أو مبنى كبيرٍ مستديرٍ. أصبحت هذه أوضح بمرور الوقت وظهرت المصابيح نفسها كبقعٍ صفراء باهتة كانت تنطفئ واحدة في إثر أخرى كلَّما حجبها عن عيني صانع الأقفال عائقٌ. ثم تصاعدت الأصوات: دقَّات ساعات الكنائس ونباح كلابٍ بعيد وهمهمة المرور في الطرقات. ثم اتَّضحت أخيرًا معالم المدينة: أبراج كنائس طويلة تلوح في الأفق، وأكوام من الأسطح غير المتساوية التي تقهرها المداخن. ثم تورَّمت الضوضاء الخافتة إلى أن أصبحت جلبة عالية، واتَّضحت المعالم وتكاثرت. ها قد وصل إلى لندن، تلك التي تعلن عن نفسها في الظلام بأضوائها الخافتة، لا بضوء السماء.

بيد أنَّ صانع الأقفال استمرَّ يخبُّ في طريقه، بين اليقظة والمنام، غير منتبه لأنه أوشك يدخل لندن، إلى أن أيقظته صيحة عالية قريبة.

وللحظة أو اثنتين ظلَّ ينظر حوله كرجلٍ انتقل في منامِه إلى بلدٍ غريبٍ، لكنَّه حين تعرَّف فيما حوله أشياء مألوفة لديه فرك عينيه في كسلٍ، وكان على وشك السقوط في النوم مجدَّدًا لولا تكرار الصيحة، لا مرة أو اثنتين، بل ثلاثًا، لا بل مراتٍ عدة، تزداد حدة كلَّ مرة. وحين انتبه (غابرييل) تمامًا، اتجه مباشرة ذلك الجريء غير الهيَّاب إلى البقعة التي علت منها الصيحة، حاثًّا حصانه الصغير القوي كما لو كانت مسألة حياة أو موت.

بدا الأمر بالفعل خطيرًا بما يكفي، إذ إنه حين وصل إلى البقعة التي

علت منها الصيحة رأى رجلًا ممدَّدًا على الممشى كأنَّ الحياة قد فارقت جسده، يحوم حوله شخصٌ آخر في يده شعلة يلوِّح بها في الهواء في نفاد صبرٍ، وهو يكرِّر خلال ذلك صيحات الاستغاثة التي أتت بصانع الأقفال إلى تلك البقعة.

قال العجوز مترجِّلًا: «ماذا هناك؟ ما هذا؟ بارنابي؟».

هزَّ حامل الشُّعلة شعره الطويل الطليق إلى الخلف بعيدًا عن عينيه، ودفع وجهه بلهفة في وجه صانع الأقفال، مثبِّتًا عليه نظرة أفصحت على الفور بما عنده.

قال (ڤاردن): «أتعرفني يا (بارنابي)؟».

لم يومئ إليه برأسه إيجابًا مرة أو مرتين، وإنما مرات عدة، في مبالغة عجيبة كانت كفيلة بأن تبقي رأسه في حالة حركة لساعة كاملة، لولا أن رفع صانع الأقفال إصبعه في وجهه، وحدجه بنظرة ثابتة جعلته يكفُّ عن الإيماء، ثم أشار إلى الجسد المسجَّى بنظرة متسائلة.

ردَّ (بارنابي) مرتعدًا: «إنَّ عليه دمًا، وهو ما يصيبني بالغثيان!».

سأله (ڤاردن): «كيف جاء إليه الدم؟».

ردَّ في عنفٍ وهو يقلِّد بيده حركة الطعن بالسيف: «الحديد، الحديد، الحديد!».

سأله صانع الأقفال: «أسرق؟».

أمسك (بارنابي) بذراعه وأومأ إليه بالإيجاب ثم أشار صوب المدينة.

قال العجوز منحنيًا على الجسد المسجَّى، ناظرًا حوله وهو يتحدث

في وجه (بارنابي) الشاحب الذي أضاءه شيءٌ غريبٌ ليس من الفطنة في شيء: «أوه! هل هرب السارق في هذا الاتجاه؟ حسنًا حسنًا، لا تلق بالًا إلى هذا الأمر الآن. أمسك شعلتك هكذا، بعيدًا قليلًا، هكذا. والآن قِف ساكنًا ريثما أحاول أن أرى ما لحق الرجل من ضررٍ».

قال هذه الكلمات وعكف على تفحُّص الجسد المسجى من قريبٍ، بينما (بارنابي) الممسك بالشُّعلة على النحو الذي أمر به يتابعه بعينيه في صمتٍ، مأخوذًا بالاهتمام بما يجري أو الفضول، لكنَّ رعبًا شديدًا غامضًا كان يدفعه بعيدًا ويرعد كلَّ خلجة من خلجاته.

وإذ كان واقفًا في هذه اللحظة، نصف مقدمٍ نصف محجمٍ، كان بريق الضوء ينير وجهه وجسده بالكامل، كما لو كان الوقت ظهرًا. كان في نحو الثالثة والعشرين، ورغم ميله إلى النحول كان طويلًا ذا بنية قوية. كان شعره الغزير الأحمر المنسدل في فوضى حول رأسه وكتفيه، يمنح هيئته المرتبكة تعبيرًا غريبًا عن هذا العالم، يعزِّزه شحوب بشرته وبريقٌ زجاجي في عينيه الواسعتين الجاحظتين. ورغم هيئته المفزعة إجمالًا، فقد كانت ملامحه جيدة، وكان في هيئته الشاحبة الرثَّة شيءٌ حزينٌ. غير أنَّ غياب الروح في إنسانٍ حيٍّ مخيف أكثر منه في إنسان ميت، وقد كانت أنبل قوى الروح غائبة في هذا الكائن التعس.

كان رداؤه أخضر، مقصوصًا في خرقٍ هنا وهناك، بيده هو فيما يبدو، محلًّى بأربطة مبهرجة، كأزهى ما تكون حيثما كان القماش متآكلًا متَّسخًا، وكأفقر ما تكون حيثما كان القماش في أفضل حالاته. عند رسغيه كذلك كان الرداء مكشكشًا متدلِّيًا في بهرجة، بينما كاد عنقه يكون عاريًا

من الثياب. أما قبَّعته فقد زيَّنها بحزمة من ريش الطاووس، لكنه كان ريشًا مكسورًا أعرج، والآن يعلق ظهره في إهمالٍ. في خاصرته عُلِّق مقبضٌ حديدي لسيفٍ قديمٍ بلا نصلٍ ولا غمدٍ، واكتملت زينة لباسه ببعض الأشرطة الملوَّنة واللعب الزجاجية الفقيرة. كان الوضع المرتبك لكلِّ تلك الخِرَق المتنوعة التي تكوِّن لباسه لا يكاد يقل عن أسلوبه المتلهِّف المضطرب تعبيرًا عن اضطرابه العقلي، كما كان يزيد ما يبدو في وجهه من جموح مؤثِّر متنافر مع ارتباك تلك الخرق.

وبعد فحصٍ سريعٍ لكنه يقظٌ، قال صانع الأقفال:

«بارنابي، هذا الرجل لم يمت، لكنَّ في خاصرته جرحًا، وهو الآن مغشيٌّ عليه».

قال (بارنابي) مصفِّقًا بيديه: «إنني أعرفه، أعرفه!».

كرَّر صانع الأقفال: «تعرفه؟».

قال (بارنابي) واضعًا أصابعه على شفتيه: «هششش، لقد خرج اليوم يسعى، لو كان الأمر بيدي لما جعلته يسعى ثانية أبدًا، حتى ولو كنتُ سآخذ جنيهًا خفيفًا، فهو إن فعلها ثانية سيخبو نور أعين هي الآن برَّاقة مثل – هل ترى؟! حين أذكر الأعين تظهر النجوم! أعين من هذه النجوم؟! لو أنَّها أعين الملائكة فلماذا تنظر إلينا في مكاننا هذا وترى رجالًا أخيارًا يصابون ولا تفعل شيئًا إلَّا أن تغمز وتتألَّق طيلة الليل؟».

غمغم صانع الأقفال الحائر: «فلتساعد السماء هذا الفتى الأبله. أيمكن أن يكون عارفًا حقًّا بهذا السيد المصاب؟ ليس بيت أمه ببعيدٍ من هنا، ولعل من الأفضل أن أرى إن كانت تستطيع أن تخبرني بهويَّته.

(بارنابي) العزيز، ساعدني في وضع المصاب في حنطوري، وسنركب معًا إلى بيتك».

صاح الأبله متراجعًا مرتعدًا كالمصروع: «لا أستطيع أن ألمسه! إنَّ عليه دمًا!».

غمغم صانع الأقفال: «إنه شيء في طبيعته، أعلم ذلك. من القسوة أن أطلب منه العون، لكني لا أستطيع أن أقوم بالأمر وحدي. بارنابي، بارنابي الطيِّب، بارنابي العزيز، إن كنتَ تعرف هذا السيد، فلأجل حياته وحياة كل إنسان يحبُّه، ساعدني في أن أرفعه وأضعه في العربة».

«إذن غطِّه. لفّه جيدًا، لا تدعني أراه أو أشمّه أو أسمع الكلمة! لا تنطق الكلمة، لا تنطقها!».

«لا لا لن أفعل، والآن، كما ترى هو مغطًّى تمامًا. بلطفٍ، أحسنتَ صنعًا، أحسنتَ صنعًا!».

وضعاه في العربة في يسرٍ، فقد كان (بارنابي) قويًّا نشيطًا، لكنَّه كان يرتعد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وهما منشغلان بهذه المهمة، وكان من الواضح أنه يمرُّ بنوبة رعبٍ عظيمٍ.

وبمجرد أن انتهيا وغطَّيا المصاب بمعطف (ڤاردن) الذي خلعه لهذا الغرض، انطلقا في طريقهما مسرعين، حيث أخذ (بارنابي) يعد النجوم في مرحٍ على أصابعه، بينما (غابرييل) في قرارة نفسه يهنِّئ نفسه أن حظي بمغامرةٍ ستُسكِت السيدة (ڤاردن) عن موضوع (مايپول) هذه الليلة، وإلَّا فلا إيمان لامرأة في العالم.

الفصل الرابع

في ضاحية (كْلِركِنْوِل) المهيبة -نعم، كانت ضاحية ذات يومٍ- في اتجاه ذلك الجزء من حدودها الأقرب إلى التشارترهاوس[1]، وفي أحد تلك الشوارع الظليلة الرطبة التي بقيت منها قلة مبعثرة على مسافاتٍ كبيرة بعضها عن بعض في الأجزاء العتيقة من العاصمة -حيث تقضي كلُّ بناية ما بقي من حياتها الهادئة كمواطنٍ عجوزٍ تقاعد من عمله منذ زمنٍ، نائمة في اعتلالها إلى أن تنهار ذات يومٍ ويأخذ مكانها وريثٌ شابٌّ يختال في زينته وزخرفه الجصّيِّ وكل الخيلاء المعمارية الحديثة- في ذلك الحي، وفي شارع له مثل ذلك الوصف، يقبع المكان الذي يتناوله هذا الفصل.

وفي ذلك الزمن الذي يتناوله فصلنا -رغم أنه منذ ستة وستين عامًا فحسب- لم يكن قد جاء إلى الوجود جزءٌ كبيرٌ من (لندن) كما نعرفها الآن. فحتى في خيال أكثر المتنبِّئين جموحًا، لم تكن قد ارتسمت بعد صفوفٌ طويلة من الشوارع لتربط (هايغِات) بـ(وايتّشاپِل)، ولا تجمُّعات من القصور في صعيد المستنقعات، ولا مدائن صغيرة في الحقول المفتوحة. ورغم أنَّ ذلك الجزء من المدينة كان إذ ذاك مقسَّمًا بالشوارع

(١) The London Charterhouse: تجمُّعٌ من الأبنية التاريخية في سمثفيلد بلندن، يعود تأسيسه إلى القرن الرابع عشر، ويحتلّ الأراضي الواقعة إلى الشمال من ميدان التشارترهاوس المُسمَّى باسمها.

مكتظًّا بالسكان كما هو الآن، فقط كان له سمتٌ مختلفٌ. كان لكثيرٍ من المنازل حدائق، وكانت هناك أشجارٌ على الأرصفة، ونسمة منعشة هفهافة، لا سبيل في زماننا إلى العثور عليها. كانت الحقول على مرمى حجرٍ، يخترقها النهر الجديد في مجراه المتعرِّج[1]، حيث ينخرط الناس صيفًا في صناعة التِّبن المبهجة. لم تكن الطبيعة قد استؤصلت إلى ذلك الحدِّ الذي نراه الآن، ولم تكن بعيدة المنال. ورغم وجود تجارات دائبة النشاط في (كلركنول)، وأعدادٍ غفيرة من الصاغة، فقد كانت على الجملة مكانًا أنقى مما هي الآن، وكانت البيوت الريفية قريبة إليها بدرجة لا يصدِّقها أيُّ لندني محدث، وطرقات العشَّاق على مسافة ليست بالكبيرة، تلك الطرقات التي تحوَّلت إلى أفنية قذرة قبل أن يولد عشَّاق زماننا هذا بزمان، أو كما يقولون، قبل أن يمرُّوا بخاطر آبائهم.

في أحد هذه الشوارع، أنظفها طرًّا، وفي الجانب الظليل من الطريق – إذ إنَّ ربَّات البيوت الجيدات يعلمن أنَّ ضوء الشمس يفسد أثاثهنَّ الأثير، ولذا يخترن الظل على وهجها المتطفِّل – كان يقف المنزل الذي ينبغي لنا أن نتعامل معه. كان مبنًى متواضعًا، ليس مستقيمًا تمامًا، ليس واسعًا، ليس طويلًا، ليس ذا واجهة وقحة، له نوافذ كبيرة محملقة، غير أنه منزلٌ خجولٌ يسترق النظر، ذو سقفٍ مخروطيٍّ يصاعد ليكوِّن قمة فوق نافذة العلِّيَّة ذات الألواح الزجاجية الأربعة الصغيرة، فيما يشبه قبعة مخروطية تزيِّن رأس سيدٍ عجوزٍ بعينٍ واحدة. لم يكن مبنيًّا بالطوب أو الحجر الشامخ، وإنما بالخشب والجصِّ، ولم يكن مصمَّمًا على اعتبارات التناسق المملة

(١) The New River: مجرى مائيٌّ صناعيٌّ افتتح عام ١٦١٣ ليزوِّد لندن بالماء العذب من نهر (لي) ومن ينابيع (تشاذْوِل) و(آمول) وغيرها.

المضجرة، إذ يعدم الناظر رؤية نافذتين متماثلتين فيه، ولا يبدو أنه في هيئته يحيل إلى مرجعية بخلاف نفسه.

كان الحانوت -إذ كان في هذا المبنى حانوت- في نفس الموضع الذي تشغله الحوانيت من الطابق الأول عادة، وهنا يقف كلُّ شبه بينه وبين أي حانوتٍ آخر. لم يكن الداخل إليه والخارج منه يصعد أو ينزل درجات سلَّم، كما أنه لم يكن ليدخل في يسرٍ من نفس مستوى الشارع، وإنما يحتاج الداخل إلى أن يغوص سلَّماتٍ ثلاثًا عميقة كما لو كان يدلف إلى قبوٍ. كانت أرضيَّته مبلَّطة بالحجر والطوب، كأرضية أيِّ قبوٍ آخر، وعوضًا عن النافذة المصقولة المؤطَّرة كان له مصراعٌ أسود كبيرٌ يعلو فوق الأرضية بمقدار صدر إنسان، وكان يُفتَح وقت النهار ليسمح بدخول النور ومعه الهواء البارد، وغالبًا يدخل من هذا الأخير أكثر مما يدخل من النور. خلف هذا الحانوت كانت قاعة مكسوَّة بالخشب، تطلُّ أولًا على ساحة مرصوفة، ووراء تلك الساحة تطلُّ على حديقة شرفة صغيرة مرفوعة فوقها بعدة أقدامٍ. ولأيّ غريبٍ أن يفترض أنَّ هذه القاعة المكسوَّة بالخشب معزولة تمامًا عن العالم كلِّه باستثناء الباب الذي دخل منه إليها، والحق أنه قد لوحظ أنَّ معظم الغرباء يغرقون في تفكيرٍ عميقٍ بمجرد دخولهم هذه القاعة لأول مرة، حيث يتأمَّلون فيما إذا كان الوصول إلى الغرف العلويَّة ممكنًا عن طريق سلالم من الخارج فحسب، ولا يشتبهون لحظة في إمكانية أن يكون هناك بابان متواضعان لا يخطران ببال بشرٍ يفتحان من هذه القاعة، بابان لا بُدَّ أنَّ أبرع ميكانيكيّي العالم سيظنَّانهما بابي خزانة على الأكثر، يفتح كلٌّ منهما من دون أدنى تحضيرٍ على ممرٍّ طوله ربع بوصة على أقصى تقديرٍ، يفضي إلى سلَّمٍ متعرِّج مظلم، حيث يصعد أحد

السلَّمين إلى أعلى بينما يهبط الآخر إلى أسفل، ليمثِّلا وسيلة التواصل الوحيدة بين هذه القاعة وبقية أجزاء المنزل.

ومع كلِّ هذه الغرائب، لم يكن هناك منزلٌ آنق ولا أدقّ ترتيبًا ولا أعظم تنسيقًا من هذا المنزل، لا في كلركنول فحسب ولا حتى في لندن وحدها وإنما في إنكلترا كلِّها. لم يكن ثَمَّ نوافذ أنظف ولا أرضيات أشدَّ بياضًا ولا مواقد أزهى ولا قطع أثاث من الماهوغني العتيق أنصع لمعانًا مما في هذا المنزل. لم يكن في الشارع كلِّه مجتمعًا فركٌ ولا غسلٌ ولا تلميعٌ ولا مسحٌ أكثر مما في هذا المنزل. بيد أنَّ هذا التميُّز لم يتوصَّل إليه إلَّا بثمنٍ من المتاعب والصوت العالي، وهو الأمر الذي كان الجيران يتذكَّرونه كثيرًا كلَّما أشرفت سيدة المنزل الطيِّبة على ترتيب الأمور وساعدت فيها في أيام التنظيف، تلك التي كانت تمتد عادة من صباح الاثنين إلى ليل السبت، مشتملة على اليومين المذكورين.

وقف صانع الأقفال مبكرًا في الصباح مستندًا إلى عضادة باب منزله بعد أن قابل الرجل الجريح، وهو يحملق مغمومًا إلى مجسَّمٍ خشبيٍّ كبير مدلًّى من واجهة المنزل -يمثِّل مفتاحًا- مدهون بالأصفر الفاقع ليشبه الذهب، يتأرجح يمنة ويسرة مصدرًا صريرًا مزعجًا كئيبًا، كما لو كان يشكو افتقاد ما يفتحه. كان يسترق النظر أحيانًا إلى الحانوت الغارق في الظلام والرطوبة، المكتظ بأشياء تشي بطبيعة عمله، المسود بدخان كير صغير كان صبيُّه مشغولًا بعمله بجواره، لدرجة يعسر معها تمييز أيِّ شيء في الحانوت بالنسبة إلى شخصٍ لم يعتد استراق النظر على هذا النحو، باستثناء بعض الأدوات الخشنة المظهر والصنع وأكوام كبيرة من المفاتيح

الصدئة وقطع من الحديد وأقفال لم ينته إعدادها بعد، وأشياء على هذه الشاكلة تزيِّن الجدران وتتدلى في عناقيد من السقف.

بعد تأمُّلٍ طويلٍ صبور للمفتاح الذهبي، ونظراتٍ كثيرة مسترقة كالمذكورة آنفًا، خطا (غابرييل) إلى الطريق واسترق نظرة إلى النوافذ العلوية. كانت إحداها مفتوحة بالصدفة في تلك اللحظة، والتقى وجهه بوجه محتالٍ تنيره أجمل عينين برَّاقتين رآهما صانع أقفال على الإطلاق، هو وجه طازجٌ ذو غمَّازتين ممتلئ عافية لفتاة جميلة ضاحكة، هي التجسيد الأتم لخفَّة الدم والجمال المزهر.

همست منحنية إلى الأمام مشيرة في مكرٍ إلى النافذة السُّفلية: «ششش! أمي ما زالت نائمة».

ردَّ صانع الأقفال بنفس النبرة: «(ما زالت) يا عزيزتي؟ إنك تقولينها كما لو كانت أمك قد نامت الليل كلَّه، لا أكثر قليلًا من نصف ساعة» ثم تمتم لنفسه: «لكنَّني ممتنٌّ جدًّا، فالنوم نعمة بلا شكٍّ».

قالت الفتاة: «ما أقسى أن تسهرنا هكذا إلى هذه الساعة من الصباح، دون أن تخبرنا بمكانك أو ترسل إلينا كلمة».

ردَّ صانع الأقفال هازًّا رأسه وهو يبتسم: «آه، (دُلِّي)، (دلّي)! ما أقسى أن تصعدي هكذا إلى سريرك في الطابق العلوي! انزلي لنفطر معًا يا طائشة، واحذري صوت أقدامك وإلَّا فستوقظين أمك. لا بُدَّ أنها متعبة، أنا متأكدٌ من ذلك».

تمتم هذه الكلمات الأخيرة لنفسه، وجاوب إيماءة ابنته بإيماءة وهو يخطو إلى داخل الورشة، بينما البسمة التي أيقظتها ابنته ما زالت تتألَّق على

وجهه، وإذا به يبصر قبعة صبيِّه الورقية البنية وصاحبها ينحني إلى أسفل لئلَّا يرى، عائدًا من الشباك إلى مكانه السابق منكمشًا على نفسه، وبمجرد أن وصل إلى هذا المكان انخرط في الطَّرق في شغفٍ.

قال (غابرييل) لنفسه: «تتنصَّت مجدَّدًا يا (سايْمن)! يا للسُّوء. بحقِّ الدهشة، ماذا ينتظر من الفتاة أن تقول حتى أضبطه يتنصَّت هكذا كلَّما تكلَّمت، بينما لا يفعل ذلك أبدًا في أي وقتٍ آخر؟! يا لها من عادة سيئة يا (سم)، وطريقة متسلِّلة مخادعة. آه! تستطيع أن تتظاهر بالانشغال بالطَّرق، لكنك لن تستطيع أن تخدعني، حتى ولو ظللت تطرق هكذا حتى ينتهي دوامك!».

دخل الورشة مجدَّدًا وهو يقول ذلك ويهزُّ رأسه في رصانة، مواجهًا الشخص موضوع تلك الملاحظات.

قال صانع الأقفال: «يكفي الآن ما قمتَ به من الطّرق، لست مضطرًّا إلى إحداث المزيد من هذه الجلبة اللعينة، الإفطار جاهز».

قال (سم) وهو ينظر إليه في تأدُّبٍ مدهشٍ وانحناءة صغيرة غريبة لا تجاوز العنق: «سيِّدي. سألحق بك على الفور».

تمتم (غابرييل): «أظنُّ أن هذا مقتبسٌ من (مختارات للصبي) أو (سعادة الصبي) أو (منشد الصبي) أو (دليل الصبي إلى المشنقة) أو أي مرجع على تلك الشاكلة. والآن سيتزيَّن. يا لي من صانع أقفال ثمين!».

طرح (سم) قبَّعته الورقية غير منتبه لمراقبة سيِّده له من الركن المظلم بجوار باب القاعة، وقفز من مقعده ليصل بخطوتين غير عاديتين بين التزلُّج ورقص (المينوت) إلى مغتسل في الطرف الآخر من الحانوت، وهنالك

أزال من وجهه ويديه كلَّ أثرٍ لعمله السابق، ممارسًا نفس الخطوة طيلة الوقت في صرامة بالغة. بعدها سحب كسرة مرآة صغيرة من مكانٍ مستترٍ، ورتَّب شعره بمساعدتها، وتحقَّق من حالة دمَّل صغير في أنفه. وبعد أن أكمل زينته وضع كسرة المرآة على دكَّة منخفضة، ونظر في تلك البوصلة الصغيرة إلى ما استطاع أن يراه من ساقيه راضيًا كلَّ الرضا عن نفسه.

كان (سِمْ) كما تدعوه عائلة صانع الأقفال –أو مستر (سايْمن تاپرتِت) كما يدعو نفسه وكما يطالب الجميع بتسميته خارج الورشة في العطلات وأيام الآحاد– رجلًا ضئيلَ الحجم قديم الطراز نحيل الوجه ناعم الشعر حادَّ الأنف ضيِّق العينين، يجاوز طوله الأقدام الخمسة بقليلٍ، مقتنعًا في نفسه تمامًا بأنَّ حجمه يفوق المتوسِّط وقامته تميل إلى الطول. كان شديد الإعجاب بقوامه الذي كان حسن التكوين رغم نحوله الشديد، كما كان فرحًا إلى درجة الحماس بساقيه اللتين كانتا المثال التام للضآلة في سروال الركبة. كانت لديه كذلك أفكارٌ جليلة غامضة عن قوة عينيه، لم يستطع أصدقاؤه المقرَّبون أبدًا أن يكتنهوا معناها. والحق أنه كان يذهب بعيدًا في فخره بتلك القوة لدرجة القول بأنه قادرٌ على إخضاع أشد الجميلات غرورًا بعملية بسيطة كان يسمِّيها (وضع عينه عليها)، لكن علينا أن نضيف أنه لم يبرز أبدًا أي دليلٍ مرضٍ ملموس على تلك القدرة ولا على القوة –النابعة كذلك من عينيه بزعمه– التي طالما ادَّعى أنها تمكِّنه من إخضاع العجماوات، حتى المسعورة منها.

ويجوز أن يستنتج من هذه المقدمات أن روحًا طلعة طموحًا حبيسة جسد مستر (تاپرتت) الضئيل. وكما أن بعض المشروبات الروحية المحبوسة في قنِّينات ضيقة يختمر ويثور ويهتاج في محبسه، فكذلك كان

الجوهر الروحي لمستر تاپرتت -أو فلنقل: نفسه- يثور غضبًا داخل قنّينته الثمينة التي هي جسده، حتى يندفع فائرًا بكثيرٍ من الزبد والرغوة والبقبقة، مطيحًا بكلِّ شيء أمامه. كان من عادته أن يقول في مثل تلك المناسبات إن روحه أصبحت في رأسه، وخلال هذا النوع الجديد من نوبات السّكر كان يحلُّ به الكثير من المصائب والأزمات التي دأب في إخفائها عن معلِّمه الفاضل بكثيرٍ من المشقَّة.

وبين الخيالات الأخرى التي دأبت نفس (سم تاپرتت) المذكورة آنفًا التغذي عليها والتلذُّذ بها (وهي خيالات كانت ككبد پروميثيوس، تنمو كلما قضمت) كان رأيه العالي في رتبته الاجتماعية، وقد سمعته الخادمة يصرِّح بأسفه لأن صبيان الورش لم يعودوا يمسكون عصيًّا يؤدِّبون بها الناس، ذلك كان التعبير الجامد الذي استخدمه. وقد أشيع عنه كذلك أنه كان يقول إنه في الأزمنة الغابرة وصم صبيان الورش عندما أعدم (چورچ بارنول)[1]، وهو شيء لم يكن ينبغي للصّبيان أن يستسلموا له بذلك الذل، لكن كان يتحتَّم عليهم أن يطالبوا التشريع بأن يعامل زميلهم بما ترتئيه حكمتهم لائقًا، مطالبة لطيفة أولًا، ثم باللجوء إلى السلاح إذا اقتضت الضرورة. كانت هذه الأفكار تقوده دائمًا إلى اعتبار صبيان الورش مشروعًا محتملًا لآلة محركة مجيدة، فقط لو أن روحًا قائدة تبوَّأت مكانها

---

(١) George Barnwell: بطل مسرحية (تاجر لندن) للكاتب الإنگليزي (چورج ليلو ١٦٩١-١٧٣٩)، حيث تقتفي أحداث المسرحية سقوط صبيّ أغنى تجار لندن (ثوروغود) كنتيجة لسقوطه في حبائل العاهرة (سارة ملوود) التي تستغل براءة (بارنول) في السرقة من معلّمه الثري ثم في قتل عمِّه الغني رغبةً في ثروته، وفي نهاية المسرحية يُحكَم على كليهما بالإعدام، ويتوب (چورچ) نادمًا على كلِّ ما اقترفه، وقد أصبحت المسرحية من أكثر المسرحيات شعبية في القرن الثامن عشر.

في مقدِّمتهم، ثم إنه كان يشير في لهجة منذرة تصيب سامعيه بالرعب إلى بعض المتهورين الذين يعرفهم، وإلى شخص ما يتمتَّع بقلب أسد، جاهز ليقودهم، شخص من شأنه إن تبوّأ مكانه ذاك أن يجعل اللورد عمدة البلد يرتجف على عرشه.

أما فيما يتعلق باللباس والزينة الشخصية، فلم تكن شخصية (سم تاپرتت) أقل جرأة ومغامرة، فقد رؤي بالفعل يخلع أكمامًا مكشكشة من النوع الأفخر في ركن الشارع في ليالي الأحد، ويضعها في حرصٍ في جيبه قبل أن يعود إلى بيته، كما كان معروفًا عنه أنه في كل مناسبات العطلات المهمة يستبدل بمشابك الركبة الحديدية العادية زوجين من المشابك المصنوعة من الألماس الاصطناعي البرَّاق، يغطيهما عمودٌ ودودٌ مشبوكٌ هو الآخر في البقعة نفسها بطريقة مريحة. أضف إلى ذلك أن عمره الفعلي كان عشرين عامًا، بيد أنَّ مظهره كان موحيًا بعمرٍ أكبر بكثيرٍ، أما في خياله فقد كان على الأقل صاحب قرنين من الزمان، ولم يكن يمانع في أن يمزح معه بخصوص إعجابه بابنة معلِّمه، بل إنه كان حين يُدعى في حانة مغمورة إلى أن يشرب نخب السيدة التي شرَّفها بحبِّه، كان بكثيرٍ من الغمز واللّمز يرفع كأسه في صحة مخلوقة جميلة يبدأ اسم تعميدها بحرف الدّال. وذلك كل ما تقتضي الضرورة أن يعرف عن (سم تاپرتت) الذي كان يتبع صانع الأقفال في هذه اللحظات داخلًا إلى حيث يتناولان معًا طعام الإفطار.

كانت وجبة قيِّمة، فغير طقم الشاي المعتاد كانت الصينية تنوء تحت ثقل قطعة مبهجة من لحم الكندوز، وقطعة ممتازة من لحم الخنزير، وعدد من أبراج كعكة يوركشير المزبودة، مكوَّمة قطعة فوق أخرى في ترتيبٍ مغرٍ للغاية. كان هناك كذلك إبريقٌ ضخمٌ من صلصالٍ محروق جيدًا، مصمَّم

على هيئة سيِّد عجوز، ليس ببعيد شبهه أبدًا عن صانع الأقفال، على رأسه الصلعاء زبدٌ أبيض ناعم يتجاوب وما يزين رأس صانع الأقفال من شعر مستعار، وينطق دون شكٍّ بجعة بيتيَّة متلألئة الحباب. أما الأحسن بكثيرٍ من الجعة المخمَّرة في البيت وكعكة يوركشير ولحم الخنزير والكندوز وأي مأكول أو مشروب يمكن للأرض أو الجو أو الماء أن يقدِّمه، فكان جلوس ابنة صانع الأقفال ذات الخدود الوردية مشرفة على الإفطار، حيث يفقد لحم الكندوز قيمته أمام عينيها السوداوين، وتصبح الجعة لا شيء.

على الآباء ألَّا يقبِّلوا بناتهم أبدًا أمام الشبان، فهذا كثيرٌ جدًّا! لاحتمال البشر حدود. هكذا فكَّر (سم تاپرتت) و(غابرييل) يجذب الشفتين الورديَّتين إلى شفتيه، هاتان الشفتان اللتان كانتا قريبتين منه كلَّ يوم، ولا أبعد منهما عنه رغم ذلك! كان يحترم معلِّمه حقًّا، لكنه تمنَّى أن يغصَّ بكعكة يوركشير في هذه اللحظة.

وعندما انتهت هذه التحية وأخذ كلٌّ مقعده إلى المنضدة قالت ابنة صانع الأقفال: «أبي، ما ذلك الذي سمعته عن ليلة أمس؟».

«ما سمعته حقيقيٌّ يا عزيزتي، وصادق صدق الإنجيل».

«سُرِق مستر (تشستر) الشاب، وتُرِك على قارعة الطريق جريحًا حتى بصرت به؟!».

«نعم. مستر (إدوارد تشستر)، وبجواره (بارنابي) يصيح مستغيثًا بكلِّ ما أوتي من قوة. الجيد في الأمر أنه حدث على النحو الذي بلغتك أنباؤه، فقد كان الشارع مهجورًا والساعة متأخرة، والليلة باردة و(بارنابي) المسكين كان أخفَّ عقلًا مما هو في العادة بفعل المفاجأة والرعب، ولكل ذلك كان السيد الشاب معرَّضًا لأن يلقى حتفه في وقتٍ قصيرٍ».

صاحت ابنته مرتعدة: «إنني أخاف محض التفكير في الأمر، كيف عرفت المصاب؟».

ردَّ صانع الأقفال: «عرفته؟ لم أعرفه، أكان باستطاعتي أن أعرفه؟ إنني لم أره من قبل أبدًا، بقدر ما سمعت به وتحدثت عنه. لقد أخذته إلى السيدة (ردچ)، وبمجرد أن رأته اتَّضحت لي هويَّته».

«لو أن هذه الأخبار يا أبي وصلت إلى الآنسة (إمّا)، مبالغًا فيها كما سيحدث بالتأكيد، فستذهل عن نفسها».

قال صانع الأقفال: «آه، تأمَّلي مليًّا كيف يعاني المرء، لكونه سليمَ الطّويَّة فقط. لقد كانت الآنسة (إمّا) مع عمِّها في الحفل التنكُّري في منزل (كارلايل)، ذلك المنزل الذي اضطرَّت إلى الذهاب إليه على رغمها كما أخبرني الخدم في بيت (وارن). ماذا بوسع أبيك الأحمق أن يفعل بعد أن يبحث الأمر مع السيدة (ردچ) إلَّا أن يذهب إلى هناك بدلًا من أن يأوي إلى فراشه، ويعقد صفقة صغيرة مع صديقه البوَّاب، يأخذ بمقتضاها قناعًا وعباءة وينخرط وسط روَّاد الحفل التنكُّري».

صاحت الفتاة محيطة عنقه بذراعها الجميلة مقبِّلة إيَّاه في حماسٍ بالغٍ: «وهو شيء يليق به تمامًا أن يفعل ذلك».

كرَّر (غابرييل) متصنِّعًا التذمُّر رغم كونه بادي السرور بالدور الذي لعبه وحظي بثنائها: «يليق به؟ يليق به تمامًا كما قالت أمك. رغم ذلك اختلط أبوك بالمتزاحمين في الحفل، وأؤكِّد لك أنَّه كان منزعجًا للغاية من أناس يزعقون في أذنه: «ألا تعرفني؟» و«لقد عرفت من أنت» وكل ذلك الهراء. وكان يمكن لأبيك أن يظلَّ يجول على غير هدى إلى الآن، لولا امرأة شابة في غرفة صغيرة كانت قد خلعت قناعها لشدة حرارة الجو

في ذلك المكان، وكانت تجلس هناك وحدها».

قالت ابنته عجِلة: «وكانت هذه هي؟».

ردَّ صانع الأقفال: «وكانت هذه هي عينها، وبمجرد أن أسررتُ إليها بما أحمله من أخبارٍ يا قطقوطتي، صرخت صرخة ناعمة تحمل من الفنِّ مثل ما قد تحمله صرخة تصرخينها أنتِ، وغابت عن الوعي».

سألت ابنته: «وماذا فعلتَ؟ ماذا حدث بعد ذلك؟».

ردَّ صانع الأقفال: «أوه، ازدحمت علينا الأقنعة من كلِّ جانبٍ، ومعها جلبة عامَّة وارتباك، وفكَّرتُ كم أنا محظوظٌ لأستطيع الإفلات من هذا الزحام، هذا كلُّ ما في الأمر. أمَّا ما حدث حين وصلت إلى البيت فلكِ أن تخمِّنيه إن لم تكوني سمعته. آه! حسنًا، يا له من قلبٍ مسكين ذلك الذي لا يفرح أبدًا، ضعي (توبي) هنا يا عزيزتي».

لم يكن (توبي) هذا إلَّا الإبريق البنيَّ الذي ذكرناه آنفًا. ألصق صانع الأقفال شفتيه بالجبين المعطاء لذلك السيِّد العجوز الثمين، وبعد أن ظلَّ طيلة الوقت السابق يأتي على أصناف المآكل التصقت شفتاه بالإبريق مدة طويلة وهو يرفعه في الوقت ذاته ببطء إلى أعلى، حتى إن (توبي) في النهاية أصبح يقف برأسه على أنف (غابرييل)، ثم أخذ يتمطَّق أخيرًا وهو يعيده إلى المائدة على مضضٍ.

رغم أنَّ (سم تاپرتت) لم يدلُ بدلوه في هذا الحوار –لا سيَّما أنه لم يكن المخاطب في أي جزءٍ منه– إلَّا أنَّه لم تنقصه أمارات الدهشة الصامتة على الوجه الذي اعتبره أكثر مناسبة لتعبيرات عينيه الأثيرة لديه. أما وقد اعتبر الصمت الذي تلا هذا الحوار فرصة جد ثمينة ليمارس سحر عينيه العظيم على بنت صانع الأقفال –التي لم يكن يرتاب في أنها تنظر إليه

في إعجابٍ صامتٍ– فقد شرع يلوي وجهه ويتعوَّج صانعًا أوجهًا مشوَّهة بالغة الغرابة والقبح، حتى إن (غابرييل) الذي كان بالصدفة ينظر نحوه دهش دهشة بالغة.

صرخ صانع الأقفال: «ما هذا! ماذا حدث للفتى بحقِّ الشيطان؟! هل يختنق؟!».

ردَّ (سم) في لهجة يشوبها الازدراء: «من؟».

قال معلِّمه: «من؟! إنه أنت! ماذا تعني باصطناع هذه الوجوه الفظيعة وأنت تتناول إفطارك؟».

قال مستر (تاپرتت) مرتبكًا، لا سيَّما وقد لاحظ ابتسامة الفتاة: «الوجوه مسألة ذوق يا سيدي».

ردَّ (غابرييل) ضاحكًا من قلبه: «(سم)، لا تكُن أحمق، فأنا أفضِّل أن أراكَ بعقلكَ»، ثم أضاف وهو يستدير إلى ابنته:

«هؤلاء الشبان لا بُدَّ أن يرتكبوا حماقة ما؛ في الليلة الماضية شبَّ شجارٌ بين (چو ولت) و(چون) العجوز، غير أني لا أستطيع أن أجزم بأن (چو) كان مخطئًا تمامًا. يومًا ما سيهجر أباه ليهيم على وجهه ويبحث عن حظِّه. أوه، ماذا هناك يا (دل)؟ أنتِ التي تصطنعين الوجوه الفظيعة الآن! يبدو أنَّ الفتيات لا ينقصن سوءًا عن الفتيان!».

قالت (دلّي) ووجهها يحمرُّ ويبيضُّ، لا ريب من أثر لسعة بسيطة: «إنه الشاي؛ إنه ساخنٌ جدًّا».

نظر مستر (تاپرتت) مليًّا إلى رغيفٍ ضخمٍ على المائدة وأخذ يتنفَّس بصعوبة.

ردَّ صانع الأقفال: «أهذا كلُّ شيء؟ ضعي فيه المزيدَ من الحليب.

نعم، أنا حزين من أجل (چو)، فهو يبدو شابًّا واعدًا، ويشعر المرء أنه يقترب منه أكثر في كل مرة يلقاه فيها، لكنه سيغادر، وستكتشفين هذا، لقد أخبرني بذلك بنفسه».

ردَّت (دلّي) بصوتٍ خافتٍ: «بالفعل، بالفعل».

قال صانع الأقفال: «أما زال الشاي يدغدغ زورك إلى الآن يا عزيزتي؟».

لكن قبل أن تستطيع ابنته أن تحير جوابًا هاجمتها نوبة سعالٍ مربكة، وقد كانت نوبة غاية في السوء، حتى إنَّ الدموع كانت تملأ عينيها البرَّاقتين وهي تترك المائدة. ظلَّ صانع الأقفال السليم الطويَّة يربِّت ظهرها ويحاول أن ينعشها متلطِّفًا، حتى وصلت رسالة من السيدة (ڤاردن) لتعلم كلَّ من قد يهمُّه الأمر بأنَّها تشعر برغبة شديدة في ألَّا تنهض من فراشها بعد قلق وسهر الليلة الفائتة، ولذا ترجو أن يصعد إليها على الفور بإبريق الشاي الصغير الأسود ذي الشاي المخلوط الشديد النكهة، وقرصين من الخبز المحمَّص المزبود، وصحن متوسط من شرائح رفيعة من لحم الكندوز والخنزير، وكتاب مواعظ الپروتستانتي ذي المجلَّدين من القطع الصغير. وكسيدات أخريات عشن على ظهر هذا الكوكب في أزمنة غابرة، كانت السيدة (ڤاردن) أكثر تديُّنًا حال اعتلال مزاجها؛ كلما كانت الأمور بينها وبين زوجها على غير ما يرام، كان (مواعظ الپروتستانتي) ملاذها.

انفضَّ الثلاثة المجتمعون، لعلمهم من طول خبرتهم بما وراء هذه الطلبات، فنهضت (دلّي) لتشرف على تنفيذ الأوامر بمنتهى السرعة، ونهض (غابرييل) لبعض شؤون عمله خارج الدار في عربته الصغيرة، وعاد (سم) إلى واجبه اليومي في الورشة، حاملًا معه تلك النظرة المتأمِّلة الكبيرة رغم

بقاء الرغيف الضخم في مكانه على المائدة. والحق أنَّ النظرة الكبيرة أخذت في الاتساع، حتى إنَّها تحوَّلت إلى نظرة عملاقة قبل أن يرتدي مريلة العمل. ولم تأخذ شفته في التجعُّد إلَّا بعد أن ذرع الورشة جيئة وذهابًا عاقدًا ذراعيه، حريصًا على أن تكون خطواته أوسع ما يكون، وركل الكثير من الأغراض الصغيرة بعيدًا عن طريقه. ارتسمت في النهاية على ملامحه سخرية كئيبة، وابتسم وهو ينطق في ازدراءٍ بالغٍ ذلك المقطع الواحد: «چو!».

ثم تابع لنفسه: «لقد نظرت إليها بينما كان يتحدث عن ذلك الشاب، وكان هو السبب وراء ارتباكها بالطبع، چو!».

أخذ يذرع المكان مجدَّدًا جيئة وذهابًا بخطوة أسرع من ذي قبل، وأوسع متى استطاع إلى ذلك سبيلًا، متوقِّفًا بين الفينة والفينة لينظر إلى رجليه أو ليرعد جسده صائحًا «چو!»، وبعد ربع ساعة أو نحوه ارتدى قبَّعته الورقية وحاول أن يستأنف العمل؛ لا، لا يمكنه أن يفعل!

قال مستر (تاپرتت) ملقيًا ما في يده: «لن أفعل شيئًا اليوم إلَّا السَّنّ. سأشحذ كلَّ الأدوات، السّنُّ مناسبٌ تمامًا لمزاجي الحالي. چو!».

وررر. أخذ حجر الجلخ يتحرك، وأخذ الشرر يتطاير عنه كالمطر. كان هذا شغل روحه المحمومة.

وررر.

قال مستر (تاپرتت) متوقِّفًا كما لو كان قد انتصر، ماسحًا وجهه المحموم على كمِّه: «سيسفر ذلك عن شيء ما، سيسفر عن شيء ما، وأرجو ألَّا يكون دمًا بشريًّا!».

وررر.

الفصل الخامس

بمجرد أن انتهى عمل صانع الأقفال، انطلق وحيدًا ليزور السيِّد المصاب ويطمئن على سير تعافيه. كان المنزل الذي تركه فيه يقبع في شارعٍ جانبي في (ساوثوُارك)، ولم يكن ببعيدٍ عن جسر لندن. أسرع إلى هناك عازمًا على ألَّا يتأخر في العودة وأن يأوي إلى فراشه مبكرًا.

كان طقس الليلة صاخبًا، ولم يكن بأفضل من الليلة السابقة إلَّا قليلًا. ولم يكن سهلًا على رجلٍ متين البنيان كـ(غابرييل) أن تحمله ساقاه في أركان الشارع أو أن يتابع سيره في وجه الريح العاتية التي كثيرًا ما صفعته وردَّته إلى الوراء بضع خطواتٍ أو أجبرته على الاحتماء بأحد أقواس الشارع أو بواباته ريثما تستنفد العاصفة قوتها التي تحدَّت بها طاقته.

كانت تتدحرج وتدور قريبًا منه بين الفينة والفينة قبَّعة أو شعرٌ مستعارٌ أو كلاهما، كما لو كانت أشياء مجنونة، أمَّا المشهد الأخطر المتمثِّل في الآجرّ والألواح الساقطة أو كتل الطوب والملاط أو كسر الإفريز التي ترتطم بالرصيف قريبًا منه ثم تتناثر كسرًا أصغر، فلم يكن بأي حالٍ يزيد متعة الرحلة أو ينقص كآبة الطريق.

قال صانع الأقفال لنفسه وهو يطرق باب الأرملة برفقٍ: «يا لها من ليلة عصيبة على رجلٍ مثلي ليمشي فيها، ليتني كنت الآن في ركن مِدفأة (چون) العجوز. بعض الإيمان!».

جاءه صوت امرأة من الداخل: «مَن بالباب؟»، فلمَّا أجاب أضاف صوتُها كلمة ترحيبٍ عجلى وفُتِح الباب. كانت في نحو الأربعين، وربما أكبر بعامين أو ثلاثة، مبهجة الإطلالة، ذات وجه تشي ملامحه بجمالٍ ذاوٍ، وترتسم عليه آثار المحن والهمِّ، بيد أنَّها كانت آثارًا قديمة تكفَّل الزمن بتلطيفها. وكل من ألقى نظرة عابرة على (بارنابي) يستطيع أن يدرك أنَّ هذه أمه لشدَّة الشبه بينهما، لكنَّ الهمجيَّة والخواء في وجه (بارنابي) يفسحان مكانهما لرصانة وصبر الجهاد الطويل والإصرار الهادئ في وجهها.

كان ثمَّ أمرٌ غريبٌ صادمٌ بخصوص هذا الوجه. لم يكن أحدٌ ليستطيع النظر إليه وهو في أسعد أحواله من دون أن يشعر أنَّ بهذا الوجه قدرة فائقة على التعبير عن الفزع. لم يكن هذا على السطح ولم يكن كامنًا في أيٍّ من ملامحه على حدة، فلن تقدر مثلًا أن تقول عن العينين أو الفم أو خطوط الوجنتين إنها لو كانت مختلفة لتغيَّر هذا الأمر. ومع ذلك فقد كان هذا الأمر موجودًا دائمًا، يتبدَّى باهتًا حقًّا لكنَّه لا يغيب لحظة. لقد كان هذا ظلًّا باهتًا تمامًا لنظرة ما، لا تستطيع أن تولِّده إلَّا لحظة فزعٍ عظيمٍ محال التعبير عنه، بيد أنَّ خفوت هذا الظل ووهنه يشيان بطبيعة تلك النظرة ويوحيان للمرء بأنها كانت نظرة في حلمٍ.

كان هذا الظل مطبوعًا كذلك على وجه الابن، لكنَّه كان أوهن، كما كان يفتقر إلى القوة والقصد بسبب ضعف عقله. ولو كان هذا الظل ماثلًا في صورة لكان من المحتَّم أن تكون وراءه أسطورة ما، ولظلَّ يطارد كلَّ من ينظرون إلى تلك الصورة. ومن يعرفون حكاية (مايپول) ويستطيعون تذكُّر حال تلك الأرملة قبل مقتل زوجها ومخدومه، يفهمون ما يعنيه ذلك الظل، فهم يذكرون كيف تغيَّرت أحوالها، ويذكرون كيف حمل صغيرها

المولود في نفس اليوم الذي عرف فيه الحادث على جلد رسغه ما بدا كأنَّه بقعة دم لم تُمحَ تمامًا.

قال صانع الأقفال بلهجة صديقٍ قديمٍ وهو يتبعها إلى داخل قاعة صغيرة فيها مدفأة بهيجة: «حفظك الله يا جارتي!».

ردَّت مبتسمة: «وحفظك. لقد أتى بك قلبك الطيِّب إلى هنا مجدَّدًا. لا شيء يقدر أن يبقيك في بيتك ما دام لك أصدقاء يحتاجون إلى عونك أو مواساتك، إنني أعرف هذا من قديمٍ».

ردَّ صانع الأقفال وهو يدفئ يديه: «لا عليكِ. إنَّكنَّ ربَّات كلام يا معشر النساء، ماذا عن المريض يا جارتي؟».

«نائمٌ الآن. لقد كان مضطربًا تمامًا مع بزوغ النهار، وظلَّ يتقلَّب في نومه لساعاتٍ في حزنٍ. غير أنَّ الحمَّى غادرته، ويقول الطبيب إنه سيصبح قريبًا على ما يرام. لا ينبغي له أن يتحرَّك من هنا حتى الغد».

قال (غابرييل) متخابثًا: «أزاره أحدٌ اليوم؟ هاه؟!».

«نعم. لقد ظلَّ مستر (تْشِسْتر) الكبير معه منذ أرسلنا في طلبه، ولم يغادرنا إلَّا قبل مجيئك بدقائق».

قال (غابرييل) رافعًا حاجبيه في إحباطٍ بادٍ: «لم تزره سيِّدات؟».

ردَّت الأرملة: «جاءته رسالة».

قال صانع الأقفال: «هاه، هذا أفضل من لا شيء. من كان حامل الرسالة؟».

«بارنابي بالطبع».

ردَّ (غابرييل): «بارنابي هذا جوهرة! إنه يروح ويغدو في يُسرٍ حيثما تعذَّر علينا نحن أن نفعل ذلك، نحن الذين نظنُّ أنفسنا أعقل منه بكثيرٍ، أتمنَّى ألَّا يكون بالخارج يتجوَّل مجدّدًا».

«حمدًا للربِّ، هو في فراشه بعد أن قضى الليل ساهرًا كما تعلم، وقضى النهار على قدميه؛ كان متعبًا للغاية. آه يا جاري، لو أنني أستطيع أن أراه على تلك الحال أكثر مما هو واقع، آه لو أستطيع أن أروض هياجه الرهيب!».

قال صانع الأقفال في طيبة: «الزمن كفيلٌ بذلك، لا تقلقي، أظنُّ أنه كل يومٍ يصبح أكثر تعقُّلًا».

هزَّت الأرملة رأسها. ورغم أنها كانت تعرف أنَّ صانع الأقفال يحاول أن يطمئنها، عن طيبة لا عن اقتناعٍ بما يقوله، فقد كانت سعيدة بكلمة مدحٍ تُقال في حقِّ ابنها المسكين الملقى في ليل العقل.

تابع صانع الأقفال: «سيصبح رجلًا لا بأس به. انتبهي، فإننا حين نشيخ ونصبح حمقى، فلن يخجلنا (بارنابي) بفطنة الشباب، وهذا كلُّ ما في الأمر»، ثمّ أضاف ناظرًا إلى أسفل المنضدة وحوله في أركان الأرضية: «لكن أين صديقنا الآخر، أدهى الدهاة وأذكى الأذكياء؟».

ردَّت الأرملة بابتسامة باهتة: «في غرفة بارنابي».

قال (غابرييل) هازًّا رأسه: «آه! إنه ابن جنيَّة! لو أنني تكلمت عن سرٍّ أمامه فعليَّ أن آسف لذلك. أوه! إنه ليس سهلًا أبدًا. لا أشكُّ في أنه يستطيع القراءة والكتابة وإنجاز الحسابات لو قرَّر أن يفعل ذلك! ماذا كان ذلك الصوت؟ هل هذا هو، يدق الباب؟».

ردَّت الأرملة: «لا، أظنُّ الصوت آتيًا من الشارع. أنصت! نعم، ها هو الصوت مجدَّدًا! أحدُهم يطرق مصراع النافذة طرقًا خفيفًا، من يمكن أن يكون الطارق؟!».

كانا يتكلمان بصوتٍ خافتٍ لئلَّا يزعجا المريض القابع في الطابق العلوي، فإن رقة الجدران والسقف وبؤس بنائها كانا كفيلين بأن يقطع صوت حديثهما نوم المريض. لكن ذلك الواقف خارج الدار -أيًّا من كان- كان يقف قريبًا من مصراع النافذة دون أن يسمع أيَّ شيء، وكان يرى الضوء متسلِّلًا خلال فرج المصراع ويشعر أن الهدوء يخيِّم على الدار، فلا غرو أن يثق بأنَّ شخصًا واحدًا بالداخل.

قال صانع الأقفال: «ربما هو لصٌّ أو أحد الأشرار، ناوليني المصباح».

ردَّت في عجالة: «لا لا، لم يزر هذا البيت الفقير أمثال هؤلاء أبدًا. ابقَ هنا، ففي أسوأ الأحوال ستكون قريبًا إن ناديتك. أفضِّل أن أرى من الطارق بمفردي».

قال صانع الأقفال وهو يناولها الشمعة التي أمسك بها من على المنضدة على رغمه: «لماذا؟».

ردَّت: «لأنَّ.. لا أدري لماذا! لكنَّ رغبتي قوية في أن أذهب بمفردي. لا تؤخِّرني، من فضلك!».

نظر إليها (غابرييل) متعجِّبًا من رؤيتها مضطربة إلى هذا الحدِّ لسببٍ تافه كهذا، وهي التي طالما بدت له مطمئنَّة هادئة النفس. غادرت الغرفة وأغلقت الباب وراءها، ثم وقفت لحظة كما لو كانت مترددة، ويدها على قفل الباب، وفي هذه الأثناء سمعت الطرقات مجدَّدًا، ومعها صوتٌ قريبٌ

من النافذة. كان صوتًا بدا أنَّ صانع الأقفال يتذكَّره ويربطه بشعورٍ غير مريح، يهمس: «أسرعي».

نُطِقت الكلمة بذلك الصوت الخفيض الواضح الذي يجد طريقه إلى أسماع النائمين في يُسرٍ، ويوقظهم فزعين. وللحظة أرعد الصوت صانع الأقفال الذي ابتعد عن النافذة مرغمًا وأخذ يتنصَّت. لم تتركه الريح التي تعوي في المدخنة يسمع ما يجري، لكنَّه استطاع أن يميِّز أنَّ الباب قد فُتِح، وأنَّ رجلًا كان يخطو فوق صرير ألواح الأرضية، ثمّ تبعت ذلك برهة صمتٍ قطعها شيء أخمد سريعًا، لم يكن صرخة ولا تأوُّهًا ولا صيحة استغاثة، وإن جاز أن يكون أيًّا من هذه الثلاثة أو كلَّها في ذات الآن، ثم سمع «يا إلهي!» في صوتٍ جمَّده مكانه.

انطلق خارجًا في تلك اللحظة، وأخيرًا كانت هناك تلك النظرة الرهيبة التي بدا كما لو كان يعرفها جيِّدًا وإن لم يرها أبدًا من قبل على وجهها. كانت واقفة وقدماها ملتصقتان بالأرض في جمودٍ، وخدَّاها شاحبان، وكلُّ ملامحها متجمِّدٌ فزعٌ، وعيناها محملقتان على اتّساعهما إلى الرجل الذي اصطدم به في الظلام ليلة أمس. قابلت عيناه عيني صانع الأقفال. لم يستغرق الأمر سوى لحظة خاطفة، كنفسٍ يقع على لوح زجاجٍ مصقولٍ، قبل أن يخرج الرجل من الدار. انطلق صانع الأقفال في إثره، وكاد يقبض على أطراف ردائه الفضفاض لولا أنه شعر بمن يمسك بذراعيه بقوة، وإذا الأرملة ترتمي أمامه على الأرض.

صاحت: «الجهة الأخرى، الجهة الأخرى، لقد انطلق في الجهة الأخرى، در، در».

ردَّ صانع الأقفال مشيرًا بيده: «الجهة الأخرى! إنني أراه الآن. ها هو هناك، وظلُّه يمرُّ بذلك الضوء هناك. ماذا؟ من ذلك الرجل؟ دعيني أذهب».

صاحت المرأة قابضة عليه: «ارجع، ارجع، وحياتك لا تلمسه، إنني آمرك أن ترجع. إنه يحمل حيوات أخرى بجانب حياته هو، ارجع!».

صاح صانع الأقفال: «ماذا يعني هذا؟!».

«لا تلتفت إلى ما يعنيه هذا، لا تسأل، لا تسأل، لا تفكِّر بالأمر، لا يجب أن يُطارد أو يوُقَف أو يُعرقَل. ارجع!».

نظر إليها العجوز في دهشة بينما ترتعد فرائصها وتتعلَّق به، ثم استسلم لعاطفتها وتركها تجرُّه إلى داخل المنزل. ولم تدر إليه نظرة الرعب الحجرية مجدَّدًا إلَّا بعد أن سلسلت الباب وأغلقته بالقفل وتثبَّتت من إغلاق كلِّ رتاجٍ في سعارٍ مجنونٍ وعادت به إلى الغرفة، ثم غطَّت وجهها مرتعدة وهي تغوص في مقعدها، كأنَّ يدَ الموت كانت تقبض عليها.

* * *

الفصل السادس

مشدوهًا بكلِّ الأحداث الغريبة التي جرت بسرعة وعنفٍ بالغين، نظر صانع الأقفال إلى الجسد المرتعد في المقعد أمامه كشخصٍ نصف مخدَّر، ولولا أن أطلقت لسانه إنسانيَّته وتعاطفه لظلَّ محدِّقًا لفترة أطول.

قال (غابرييل): «أنتِ معتلَّة. دعيني أستدعي أحد الجيران إلى هنا».

ردَّت مشيرة بيدٍ مرتجفة وهي تدير وجهها بعيدًا: «لا تفعل بحق كل شيء. يكفي أنكَ كنت هنا ورأيت ما كان».

قال (غابرييل): «نعم. أكثر ممَّا يكفي، وربما أقل».

ردَّت: «ليكن، كما تشاء. لا توجِّه إليَّ أسئلة، أتوسَّل إليك».

قال صانع الأقفال بعد هنيهة صمتٍ: «جارتي، أتعدِّين ذلك معقولًا أو عادلًا بالنسبة إليك؟ هل يتفق ومعرفتك بي طيلة هذا العمر؟ هل يتفق وما دأبت فيه من طلب نصيحتي في كل شؤونك؟ أيتفق وعقلك القوي وقلبك الصامد مذ كنت طفلة؟».

ردَّت: «إنني أحتاج إليهما. إنني أكبر في العمر وفي الهمِّ. ربما جعلهما هذا مع كثيرٍ من التجربة أضعف مما كانا، لا تحدِّثني الآن».

ردَّ صانع الأقفال: «كيف لي أن أرى ما رأيت وأحتفظ بسلامي؟ من كان هذا الرجل؟ ولماذا أحدث مجيئه كلَّ هذا التغيُّر فيك؟».

ظلَّت صامتة، لكنَّها تعلَّقت بمقعدها كما لو كانت تحتمي به من السقوط.

قال صانع الأقفال: «إنني أسمح لنفسي بما يسمح به صديقٌ قديمٌ يا ماري، صديقٌ ظلَّ دائمًا يكنُّ لك مشاعر دافئة، وربما حاول أن يثبتها لك ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، من كان ذلك الرجل التَّعس؟ وماذا يربطه بك؟ من هذا الشبح الذي لا يُرى إلَّا في الليالي السوداء والطقس البشع؟ كيف تسنَّى له أن يعرف هذا المنزل ولماذا يرتاده، هامسًا خلال الفرج والشقوق كما لو كان بينك وبينه ما لا يجرؤ أيٌّ منكما على الحديث عنه بصوتٍ عالٍ؟ من هو؟».

ردَّت الأرملة في خفوتٍ: «أحسنتَ إذ قلت إنَّه شبحٌ يرتاد هذا المنزل. لطالما جثم ظلُّه على هذا المنزل وعليَّ، في النور والظلمة، في عز الظهر وفي منتصف الليل، واليوم أخيرًا جاء بلحمه وشحمه!».

قال صانع الأقفال في شيء من الغضب: «لكنه لم يكن ليذهب هكذا بلحمه وشحمه لو كنتِ تركت ذراعيَّ وساقيَّ. أي لغزٍ هذا؟».

أجابت وهي تنهض من جلستها: «إنه لغزٌ ينبغي له أن يظلَّ كما هو إلى الأبد، إنني لا أجرؤ على أن أقول المزيدَ».

كرَّر صانع الأقفال في دهشة: «لا تجرؤين!».

ردَّت: «لا تضغط عليَّ، إنني سقيمة وأكاد يغمى عليَّ، وكلُّ أثرٍ للحياة داخلي يبدو ميتًا. لا! لا تلمسني كذلك!».

حين صاحت هذه الصيحة العجلى تراجع (غابرييل) بعد أن تقدَّم ليسندها، وطفق ينظر إليها في دهشة صامتة.

قالت في صوتٍ خفيضٍ: «دعني أمضي في طريقي بمفردي. وليحجم كلُّ رجلٍ شريف عن أن يلمس يديَّ بيديه الليلة».

وبعد أن وصلت مترنِّحة إلى الباب استدارت وأضافت بمزيدِ جهدٍ: «ذلك سرٌّ أستودعه إيَّاك بالضرورة. أنت رجلٌ أمينٌ، ولطالما كنت طيّبًا خيِّرًا معي، فاحفظ السرَّ. لو أنَّ من بالطابق العلوي قد سمع شيئًا من الجلبة التي شهدتها فاختلِق لها أيَّ مبرر، قل أيَّ شيء إلَّا ما رأيته بعينيك، ولا تدع كلمة أو نظرة بيننا تستدعي ما مرَّ بنا من ظرفٍ منذ قليلٍ. إنني أأتمنك. انتبه، أنا أأتمنك. لا يمكنك أن تخمِّن مقدار ما أأتمنك عليه».

انسحبت بعد أن ألقت عليه نظرة استغرقت لحظة، وتركته وحيدًا. وقف (غابرييل) حائرًا فيما ينبغي له أن يعتقده، محدِّقًا إلى الباب بملامح تنطق بالدهشة والفزع. لا يزيده تأمُّل الموقف إلَّا عجزًا عن ترجمته على وجه مُرضٍ، فقد كان اكتشافه أنَّ هذه الأرملة التي طالما ظنَّ الناس لأعوامٍ عديدة أن حياتها حياة وحدة وعزلة -والتي أكسبتها شخصيتها الصابرة على المعاناة في هدوءٍ احترامَ كل من عرفوها ورأيهم الجيد- مرتبطة على نحوٍ غامضٍ بذلك الرجل التعس، وأنها فزعت لمرآه ورغم ذلك آثرت هروبه سالمًا، كان اكتشافًا آلمه بقدر ما صدمه. وقد زاد كربه اعتمادها على حفظه السر وموافقته الضمنية على ذلك. لو كان أجرأ في حديثه معها وثابرَ على استجوابها وأرغمها على البقاء حين نهضت لتغادر الغرفة، ولو كان أظهر أيَّ احتجاجٍ بدلًا من توريط نفسه كما يشعر الآن أنه قد فعل، لكان الآن في سلامٍ أكثر مع نفسه.

قال (غابرييل) وهو يضع شعره المستعار على جانبٍ واحدٍ من رأسه ليهرش الجانب الآخر في يُسرٍ، وينظر إلى النار في كآبة: «لماذا تركتها تقول إنه سرٌّ، ولماذا ائتمنَتني عليه؟ أنا لستُ مستعدًّا لمثل ذلك أكثر من (چون) العجوز نفسه. لماذا لم أقل في ثباتٍ «أنتِ لا تملكين الاحتفاظ بأسرارٍ كهذه، وإنني أطالبك بأن تخبريني بما يعنيه كل هذا» بدلًا من أن أقف ناظرًا إليها في بلاهة كعجل القمر![1] لكن هنا موطن ضعفي. يمكنني أن أتعنَّت مع الرجال متى دعت الضرورة، أما النساء فأكون كالخواتم في أصابعهنَّ».

خلع شعره المستعار تمامًا حين انتهى من هذا التأمُّل، وأخذ يدفئ منديله أمام النار ثم مسح به صلعته وصقلها حتى عادت تلمع من جديدٍ. ثم قال وهو يلين تحت تأثير هذه العملية المريحة ويبتسم:

«وبعد، فربما يكون الأمر أتفه مما يبدو. فحريّ بأيِّ همجيٍّ سكران إن حاول أن يقتحم المنزل أن يقلق نفسًا مطمئنة كنفسها. بيد أنَّ ما يغيظ في الأمر هو أنَّ المقتحم هو ذلك الرجل بالتحديد، فكيف تسنَّى له أن يكون له مثل هذا التأثير فيها؟ وكيف آثرت هروبه مني؟ والأدهى من كلِّ ذلك، كيف لم تقل إذن أنَّ الأمر لا يعدو كونه فزعًا مفاجئًا، لا أكثر من ذلك؟

---

(١) Mooncalf: عجل القمر، هو جنين شائه مجهض لبقرة أو أيّ من إناث حيوانات المزارع، كما كان يطلق الاصطلاح أحيانًا على الأجنّة الآدمية المجهضة. وسرّ التسمية يكمن في خرافة تواترت في الموروثات الشعبية الأوربية، فحواها أنَّ مثل هذه المخلوقات الشائهة تنتج عن تأثير القمر على نمو الأجنَّة. ثم أصبحت الكلمة تستخدم لوصف أي شخص يفتقر إلى الفطنة والنباهة. وقد آثرت أن أنقل التعبير إلى العربية بدلًا من أن أستعيض عنه بتركيبٍ مثل «في بلاهة كأيِّ أحمق» إذ رأيت فيه فرصةً لتقديم تركيب يحمل في طيَّاته تاريخًا وزخمًا تراثيًّا له خصوصيته.

من المحزن أن يظهر في دقيقة واحدة سببٌ للشك في شخصٍ عرفته زمنًا طويلًا، والأدعى إلى الحزن أن الشخص حبيبة قديمة، لكن ماذا عساي أن أفعل وكل ذلك يدور في رأسي؟ هل هذا (بارنابي) بالخارج؟».

صاح ناظرًا إلى الداخل مومئًا بالإيجاب: «إيه! طبعًا هو (بارنابي)، كيف خمَّنت؟!».

ردَّ صانع الأقفال: «من ظلِّك».

صاح (بارنابي) مديرًا بصره فيما حوله: «أوهو! إنه رفيقٌ مرِح ذلك الظل، إنه يظل قريبًا مني رغم أنني أحمق. إنه يشاركني اللعب والمشي والجري والوثب على الحشائش! أحيانًا يغدو طويلًا، في نصف طول برج كنيسة، وأحيانًا ليس أطول من قزم. مرة يمشي أمامي، ومرة خلفي، مرة متخفِّيًا على هذا الجانب، مرة على الجانب الآخر، ويقف متى توقَّفت، وهو يظنُّ أنني لا أستطيع أن أراه، رغم أنني أراقبه جيدًا. أوه! إنه رفيقٌ مرِحٌ. أخبرني، هل هو أحمق مثلي؟ أظنه كذلك».

سأل (غابرييل): «لماذا؟».

«لأنه لا يتعب أبدًا من تقليدي. يظلُّ يقلِّدني طيلة النهار. لماذا لا تأتي؟».

«أين؟».

«إلى الأعلى. إنه يريدك. ابق. أين ظلّه؟ تعال، إنَّك رجلٌ عاقلٌ. أخبرني بهذا الأمر».

ردَّ صانع الأقفال: «بجانبه يا (بارنابي)، بجانبه، هكذا أظنُّ».

قال هازًّا رأسه: «لا! خمِّن مرة أخرى».

«ربّما يكون قد خرج يتمشَّى؟».

همس الأبله في أذنه: «لقد تبادل الظلال مع امرأة» ثم تراجع بنظرة منتصرة ثم أكمل: «ظلُّها دائمًا معه، وظلُّه معها. إنها رياضة على ما أعتقد، أليس كذلك؟».

قال صانع الأقفال بنظرة صارمة: «(بارنابي)، تعال هنا يا فتى».

ردَّ (بارنابي) مبتعدًا عنه: «أعرف ما تريد قوله، أعرفه، لكنني داهية، وصامتٌ! إنني لا أقول كثيرًا إلَّا لك. هل أنت مستعدٌّ؟».

والتقط المصباح وهو يتحدث وأخذ يلوِّح به فوق رأسه ضاحكًا في توحُّشٍ.

قال صانع الأقفال محاولًا التأثير فيه ليظلَّ هادئًا: «بهدوء، بنعومة! لقد ظننتك نائمًا».

ردَّ (بارنابي) بعينين محملقتين: «نعم لقد كنت نائمًا بالفعل، وكانت هناك وجوه كبيرة تغدو وتروح قريبًا من وجهي، ثم على مبعدة ميل –في أماكن منخفضة للزَّحف خلالها، سواء أقدمت على ذلك أو لم أقدم– كانت هناك كنائس عالية لنقع من فوقها، ومخلوقات غريبة مزدحمة متشابكة الأعناق والسيقان، لتجلس على السرير. ذلك هو النوم. أليس كذلك؟».

قال صانع الأقفال: «أحلام يا (بارنابي). أحلام».

كرَّر (بارنابي) في خفوتٍ وهو يقترب منه: «أحلام! هذه ليست بأحلامٍ».

ردَّ صانع الأقفال: «ما هي إذن إن لم تكن أحلامًا؟».

قال (بارنابي) متأبِّطًا ذراع (ڤاردن) ومقتربًا من وجهه وهو يهمس: «لقد حلمت، حلمت لتوِّي بأنَّ شيئًا على هيئة إنسان كان يتبعني في هدوءٍ ولا يتركني لشأني، لكنه كان دائمًا يتخفَّى ويربض كقطٍّ في الأركان المظلمة، منتظرًا إلى أن أمرَّ، ليزحف خارجًا من مكمنه ويتبعني من جديدٍ. هل رأيتني أركض من قبل؟».

«كثيرًا كما تعرف».

«لم ترني أبدًا أركض كما ركضت في هذا الحلم. لكنّه ظلَّ يزحف مقتربًا مني ليقلقني. أسرعت الركض وقفزت خارجًا من السرير، وإلى النافذة، وهناك في الشارع بالأسفل - لكن، هل ينتظرنا؟ هل ستأتي؟!».

قال (ڤاردن) متخيِّلًا أنه قد لمس خيطًا يربط بين هذه الرؤيا وما حدث بالفعل: «ماذا كان في الشارع بالأسفل يا (بارنابي)؟».

نظر (بارنابي) في وجهه وغمغم بشيء غير مفهوم، ولوَّح بالمصباح فوق رأسه مجدَّدًا وضحك، ثم صعد به السُّلَّم في صمتٍ بينما يحكم قبضته على ذراعه التي يتأبَّطها. دخلا غرفة نوم بسيطة، مزيَّنة بقليلٍ من المقاعد التي تشي سيقانها الرفيعة بقدمها، وأثاث غير ذلك قليل القيمة، لكنه نظيفٌ ومرتَّبٌ. كان (إدوارد تشستر) -وهو السيد الشاب عينه الذي كان أوَّل من غادر (مايپول) في الليلة السابقة- مستلقيًا في مقعدٍ كبيرٍ أمام المِدفأة، شاحبًا منهكًا لما فقد من دمه. مدَّ يده إلى صانع الأقفال مرحِّبًا به بصفته منقذه وصديقه.

قال (غابرييل): «لا تتحدث أكثر من ذلك يا سيِّدي، لا تتحدث أكثر من ذلك. لقد كان من واجبي أن أفعل ما فعلت لأيِّ إنسان في مثل تلك

الشدة، خاصة لك أنت يا سيدي»، ثم أضاف في بعض التردُّد: «كانت هناك سيدة شابة أسدت إلينا خدمة طيبة، ونشعر بالطبع ... أرجو ألَّا يكون كلامي يضايقك يا سيدي؟».

ابتسم الشاب هازًّا رأسه وهو يتحرك في مقعده كما لو كان يتألَّم، ثم قال مجيبًا نظرة صانع الأقفال المشفقة:

«لا عليك، إنه تعبٌ عابرٌ راجع إلى حبستي هنا بقدر ما هو راجعٌ إلى الجرح البسيط الذي بي، وربما إلى فقد الدم. استرح يا مستر (ڤاردن)».

ردَّ صانع الأقفال مناسبًا بين فعله وقوله وهو ينحني على الشاب: «دعني أتجرَّأ يا مستر (إدوارد) وأنحني على مقعدك، سأقف هنا لأتمكَّن من التحدُّث معك بصوتٍ خفيضٍ. (بارنابي) ليس في حالته الأهدأ الليلة، وفي مثل تلك الأوقات لا يحسن الحديث أمامه».

ألقى كلاهما نظرة على الشخص موضوع هذه الملاحظة، ذلك الذي جلس في مقعدٍ على الجانب الآخر من المدفأة، وأخذ يصنع ألغازًا بقطعة خيطٍ في أصابعه وهو يبتسم في خواءٍ.

قال (ڤاردن) في صوتٍ أخفض من ذي قبل: «أرجوك أخبرني يا سيدي، ماذا حدث بالضبط في الليلة الماضية؟ لديَّ ما يدعوني إلى التساؤل، هل تركت (مايپول) وحدك؟».

«ومشيت في اتجاه البيت وحدي، حتى اقتربت من البقعة التي وجدتني فيها، حيث سمعت صوت ركض حصان».

سأل صانع الأقفال: «آتيًا من خلفك؟».

«أجل، خلفي. كان راكبًا وحيدًا لم يلبث أن تجاوزني، وبينما يفحص جواده سأل عن الطريق إلى لندن».

قال (ڤاردن): «أكنت منتبهًا سيِّدي، وأنت تعرف كم من قطَّاع الطرق يجوبون طرقنا في كل الاتجاهات؟».

«كنتُ منتبهًا، لكن لم يكن معي إلا عصا، فقد تخلَّت عني الفطنة وتركت مسدساتي في جرابها مع ابن صاحب الفندق. أرشدت الراكب إلى الجهة التي يريدها. وقبل أن تترك الكلمات شفتيَّ دهمني بحصانه في هياجٍ كما لو كان عازمًا على أن تطأني حوافر حصانه. وبينما أحاول أن أتنحَّى جانبًا عثرت ووقعت. وجدتني أنت بهذه الطعنة وكدمة قبيحة أو اثنتين، مجرَّدًا من كيس نقودي، ذلك الذي لم يجد فيه من المال ما يكافئ ما بذله من مجهود».

ثم أضاف مصافحًا صانع الأقفال: «والآن يا مستر (ڤاردن)، أنت تعلم من أمر ما كان مثل ما أعلم، إلَّا فيما يخص مقدار امتناني لك».

قال (غابرييل) وهو يزداد انحناءً على الشاب ملقيًا نظرة حذرة على جارهما الصامت: «إلَّا فيما يخصُّ السارق نفسه. كيف كان يبدو؟ تحدَّث بصوتٍ خفيضٍ، أرجوك. (بارنابي) لا يضمر سوءًا، غير أني طالما راقبته أكثر مما رأيته أنت، وإنني على يقينٍ من أنه يستمع إلينا الآن، رغم أن هذا قد لا يخطر ببالك».

كان الأمر يتطلَّب ثقة كبيرة بما يدَّعيه صانع الأقفال ليقنع أيَّ إنسان بهذه الدعوى، فقد كان كل ما في (بارنابي) يبدو مركّزًا تمامًا في اللعبة التي بين يديه، غير منتبه لما يحيط به. كان في وجه الشاب الجريح ما ينطق بهذا

الرأي، ما دعا (غابرييل) إلى تكرار ما قاله لتوِّه في مزيد جدية، ملقيًا نظرةً أخرى إلى (بارنابي)، وهو يسأل مجدَّدًا عن هيئة السارق.

قال (إدوارد): «لقد كان ظلام الليل كثيفًا، والهجمة غير متوقعة، والرجل نفسه كان مبالغًا في الالتحاف حتى إنه ليصعب عليَّ أن أجيب سؤالك. يبدو أن ..».

قاطعه صانع الأقفال وهو يتبع نظرته إلى (بارنابي): «لا تنطق اسمه يا سيدي، أنا أعرف أنه رآه. لكنني أريد أن أعرف ما رأيته أنت».

قال (إدوارد): «كل ما أذكره هو أنَّ قبَّعته طارت بينما يتفحَّص حصانه. أمسك بها وأعادها إلى رأسه الذي لاحظت أنَّه كان ملفوفًا بمنديلٍ داكن. كان ثمَّ غريب قد دخل (مايپول) وأنا هناك، لم أره لأنني كنت منتحيًا جانبًا منعزلًا لأسبابٍ تخصُّني، وحين نهضت لأترك الغرفة ونظرت حولي كان هو في ظلِّ المِدفأة بعيدًا عن مجال رؤيتي. لكن إن كان هذا الغريب والسارق شخصين مختلفين، فإنَّ صوتيهما كانا متشابهين إلى درجة غريبة، فإنَّ الرجل بمجرد أن ناداني في الطريق تعرَّفت على صوته على الفور».

فكَّر صانع الأقفال ولونه يتغيَّر: «هذا ما كنتُ أخشاه، الرجل نفسه كان هنا الليلة، أيّ تاريخ أسود هذا؟!».

صاح في أذنه صوتٌ غليظٌ: «هالوا! هالوا هالوا هالوا! بو وو وو! ما الأمر هنا؟ هاللوا!».

لم يكن المتحدِّث الذي جعل صانع الأقفال ينخلع من مكانه كما لو كان قوة خارقة للعادة إلَّا غرابًا ضخمًا حطَّ على قمَّة المقعد الكبير في

غفلة منه ومن (إدوارد)، وأخذ يتسمَّع كلَّ كلمة قالاها حتى هذه اللحظة في انتباه مهذَّبٍ ومظهرٍ موحٍ تمامًا بأنَّه يفهم كلَّ كلمة، مديرًا رأسه بين الرجلين كما لو كانت وظيفته أن يقضي بينهما، وكما لو كان من الأهمية بمكان ألَّا تفوته كلمة.

قال (ڤاردن) ممزَّقًا بين الإعجاب بالطائر وشيء من الخوف منه: «انظر إليه، أكان في الدنيا كلِّها عفريت عليم كهذا؟! أوه! إنه رفيقٌ رهيبٌ!».

احتفظ الطائر بصمته المتأمِّل لثوانٍ بينما رأسه مائلٌ جانبًا وعيناه تبرقان كالألماسة، ثمَّ ردَّ بصوتٍ غليظٍ كأنه آتٍ من بعيدٍ، من خلال ريشه لا عبر فمه: «هالوا، هالوا، هالوا! ما الأمر هنا؟! ليكن لديكم أملٌ! لا تيأسوا! باو واو! أنا عفريت، أنا عفريت، أنا عفريت! هورّاه!»، ثم أخذ يصفر كأنه يحتفل بشخصيته الشيطانية!

قال (ڤاردن): «أنا أميل إلى تصديق ما يقوله في الحقيقة! أقسم أني أفعل! ألا ترى كيف ينظر إليَّ كما لو كان يعرف ما أقوله؟».

ردَّ الطائر وهو يتوازن واقفًا على أطراف مخالبه كيفما اتفق ويحرك جسمه إلى أعلى وأسفل فيما يشبه رقصة صارمة: «أنا عفريت، أنا عفريت، أنا عفريت»، ثمّ طفق يضرب جنبيه بجناحيه كما لو كان ينفجر من الضحك. صفَّق (بارنابي) بيديه وأخذ يتدحرج على الأرض في سعادة غامرة.

قال صانع الأقفال هازًّا رأسه ومنقِّلًا بصره بين (بارنابي) وغرابه: «رفيقان في غاية الغرابة يا سيدي، وكل الذكاء من نصيب الغراب».

قال (إدوارد) رافعًا سبَّابته إلى الغراب: «في غاية الغرابة بالفعل!»،

فما كان من الغراب إلَّا أن جاوب هذا الاهتمام شاكرًا بأن غاص بمنقاره الحديدي في الهواء ليلمس السبابة المرفوعة، ليتابع (إدوارد): «أهو عجوزٌ؟».

ردَّ صانع الأقفال: «ليس أكثر من غلامٍ يا سيدي، مائة وعشرين عامًا أو قرب ذلك، صِح به لينزل يا (بارنابي) العزيز».

قال (بارنابي) جالسًا على الأرض وناظرًا إلى (غابرييل) في خواء بينما يزيح شعره عن وجهه: «أصيح به! من ذا الذي يقدر أن يجعله يأتي؟ إنه هو الذي يصيح بي ويجعلني أتوجَّه إلى حيث شاء، هو يتقدَّم وأنا أتبعه، هو السيد وأنا تابعه، أليس كذلك يا (غرپ)؟».

زعق الغراب زعقة قصيرة مطمئنة واثقة معبِّرة كأقصى ما يمكن، بدا أنها تقول: «ليس عليك أن تدخل هؤلاء في أسرارنا، كلانا يفهم صاحبه، والأمر مستقرٌّ!».

صاح (بارنابي) مشيرًا إلى الطائر: «أنا أجعله يأتي؟! هو الذي لا ينام أبدًا ولا حتى يغمض له جفن؟! بإمكانك أن ترى عينيه تبرقان في غرفتي المظلمة كشرارتين في أيِّ وقتٍ من الليل. وفي كلِّ ليلة يظلُّ الليل كله ساهرًا يكلم نفسه، مفكِّرًا فيما سيفعله غدًا، وأين سنذهب وماذا سيسرق ويخفي ويدفن. أنا أجعله يأتي؟! هاه هاه هاه!».

بعد برهة تفكير بدا أنَّ الطائر يميل إلى أن يأتي من تلقاء ذاته. وبعد أن مسح الأرضية بعينيه في سرعة، وبعد القليل من النظرات الجانبية إلى السقف وإلى الحضور كل على حدة، صفق بجناحيه ليحطَّ على الأرض ثم ذهب إلى (بارنابي)، لا قفزًا ولا مشيًا ولا ركضًا، وإنما بخطوة سيد

منتبه لخطوه يرتدي حذاءين ضيقين ويحاول أن يمشي سريعًا على حصى منثورٍ. وبينما يخطو إلى يده الممدودة ويتنازل ليمسك به على مدِّ الذراع أطلق تتابعًا من الأصوات يشبه صوت سحب ثمان إلى عشر دستات من سدادات الفلين الطويلة، ثم عاد ليؤكد ميلاده الجحيمي ونسبه الشيطاني بصوتٍ شديد الوضوح.

هزَّ صانع الأقفال رأسه –ربما في شكٍّ من أنَّ هذا المخلوق ليس حقًّا أكثر من مجرد طائرٍ– وربما راثيًا لـ(بارنابي) الذي كان في ذلك الوقت يحتضن الغراب ويتدحرج معه على الأرض. وحين رفع عينيه من على الفتى المسكين التقتا بعيني أمه التي دلفت إلى الغرفة وظلَّت تنظر أمامها في صمتٍ.

كانت شاحبة الوجه تمامًا، حتى إنَّ الشحوب امتدَّ إلى شفتيها، لكنها تغلَّبت على انفعالها واستعادت هيئتها الوادعة المعتادة. حين نظر إليها (ڤاردن) تخيَّل أنها تنكمش بعيدًا عن مرمى بصره، وأنها تشغل نفسها بالسيد الجريح لتتجنَّبه. قالت إنَّ ميعاد نومه قد حان. سيُنقَل إلى بيته غدًا، وقد تجاوز بالفعل الوقت المسموح له فيه بالجلوس بساعة كاملة. من هذه الملاحظة استعدَّ (ڤاردن) للمغادرة.

وبينما يصافحه (إدوارد) وينقل بصره بينه وبين السيدة (ردج)، قال (إدوارد): «بالمناسبة، ماذا كانت تلك الجلبة بالأسفل؟ لقد سمعت صوتك خلالها، وكان ينبغي لي أن أسأل قبل الآن، غير أنَّ حوارنا الآخر طرد المسألة من ذاكرتي، ما كان ذلك؟».

نظر صانع الأقفال صوبها وعضَّ شفته، استندت هي إلى المقعد وخفضت بصرها إلى الأرض. كان (بارنابي) أيضًا يستمع. في النهاية أجابه (ڤاردن) وهو ينظر في ثباتٍ إلى الأرملة: «كان رجلًا مجنونًا أو سكران يا سيدي، أخطأ في المنزل وحاول اقتحامه».

تنفَّستْ بيسرٍ أكثر لكنها ظلَّت بلا حراكٍ. وعندما ودَّعهم صانع الأقفال بقوله «طابت ليلتكم»، وأمسك (بارنابي) بمصباحه لينير له الطريق وهما يهبطان الدرج، أخذته منه وأمرته -في عجلة وصرامة لا يبدوان مناسبين للموقف البسيط- ألَّا يتحرك. تبعهما الغراب ليطمئن إلى أنَّ كلَّ شيء على ما يرام بالأسفل، وحين وصلا إلى الباب المفضي إلى الشارع وقف على الدرجة السفلى للسلَّم يزعق، ساحبًا سدادات فلينية لا حصر لها.

حلَّت سلسلة الباب وأزاحت عارضته بيدٍ مرتجفة، وأدارت المفتاح. وبينما يدها على الرتاج ابتدرها صانع الأقفال بصوتٍ خفيضٍ: «لقد كذبتُ الليلة يا ماري لأجلك ولأجل زمننا الذي انقضى ومعرفتنا القديمة، بينما أزدري الكذب ولو كان لمصلحتي أنا، أرجو ألَّا أكون بذلك قد أضررتُ بأحدٍ أو تسبَّبتُ في ضررٍ. إنني لا أستطيع مقاومة الشكوك التي فرضتها عليَّ، وإنه على رغمي -أصارحك بهذا- أن أترك مستر (إدوارد) هنا. انتبهي لئلَّا يصيبه مكروه، إنني أشكُّ في أمان هذا السقف، ويسرُّني أنه سيتركه عمَّا قريبٍ، والآن دعيني أمضي لشأني».

دفنت وجهها في يديها للحظة وبكت، لكنَّها بعد مقاومة رغبتها القوية في الرد عليه فتحت الباب قليلًا بما يسمح بالكاد بمرور جسده إلى الخارج، وأشارت إليه أن يخرج. وبمجرد أن أصبح يقف على عتبة الباب

الخارجية سلسل الباب وأغلق خلفه، وعضَّد الغراب هذه الاحتياطات بأن نبح ككلب بيتٍ مجنونٍ.

قال صانع الأقفال متأمِّلًا: «أيمكن أن تكون تلك التي طالما حملت اسمًا نقيًّا مشتركة في مثل تلك الجرائم سرًّا، مع ذلك الذي كأنه ساقط من حبل مشنقة؟ لا سيَّما أن (بارنابي) المتنصِّت المختبئ كان أول من لقي المصاب في مكان الحادث ليلة أمس؟ فلتسامحني السماء إن كنت مخطئًا، ولترسل إليَّ أفكارًا عادلة، لكنَّها فقيرة، ولربما كان الإغراء كبيرًا، ولا يفتأ المرء يسمع بأشياء في مثل هذه الغرابة. هاي! انبح يا صديقي. أقسم أن لهذا الغراب نصيبًا من أي شرٍّ يحدث، لو كان هناك أي شرٍّ!».

* * *

الفصل السابع

كانت السيدة (ڤاردن) تنتمي إلى أصحاب ما اصطلح على تسميته المزاج غير المأمون، وهي تسمية حين تُتَرجم تشير إلى مزاجٍ من المؤكد أنه يجعل الجميع يفتقدون الراحة. هكذا كان يحدث بعامة، فحين يشعر الجميع بالسرور كانت هي تشعر بالكآبة، وحين تهيمن الكآبة على الجميع كانت هي تميل إلى الشعور بالغبطة على نحوٍ مدهشٍ. والحق أن ربة المنزل الثمينة هذه كانت ذات طبيعة متقلِّبة إلى درجة أنها لم تجاوز فحسب نغمة العبقرية التي حازها (ماكبث) -من حيث قدرة المرء على أن يكون عاقلًا ومندهشًا ومعتدلًا وعاصفًا ووفيًّا ومحايدًا في ذات الآن- وإنما كانت أحيانًا تقرع نغمات هذه التغيُّرات إلى الخلف وإلى الأمام مارَّة على كل الأمزجة الممكنة فيما لا يزيد على ربع الساعة، مؤدِّية -حسبما اتفق- حزمة رنين كبرى على مجموعة الأجراس التي يضمها برج أجراس الأنثى[١]، بمهارة وسرعة تنفيذ تبهر كلَّ من يسمعونها!

وقد لوحظ على هذه السيدة الطيبة -التي لم تنقصها الجاذبية الشخصية، فقد كانت ممتلئة ناهدة الصدر رغم ميلها إلى القصر كابنتها-

(١) Treble Bob Major: حزمة الرنين الكبرى هي طريقة في إصاتة أجراس الكنائس تتّسم بالإتيان على كل أو معظم النغمات المتاحة لمجموعة الأجراس في تنويعات كثيرة، وعادةً تُنفَّذ في الأعياد والمناسبات المبهجة الكبرى.

أن ذلك المزاج غير المأمون كان يقوى كلما كانت أمورها المالية على ما يرام، وقد ذهب بعيدًا كثيرٌ من الرجال العقلاء ومديرات البيوت -أصدقاء وصديقات صانع الأقفال وأسرته- إلى حدِّ تأكيد أنَّ سقطة من على سلَّم الحياة - كانهيار المصرف الذي يحتفظ فيه صانع الأقفال بأمواله، أو أي سقطة صغيرة من هذا النوع- تجعل من هذه السيدة امرأة أخرى، حتى إنها كفيلة بأن تحوِّلها إلى واحدة من أعذب الصحاب عشرة في الوجود. وسواء أصابوا أم أخطأوا في هذا التخمين، فالمؤكَّد أنَّ النفوس كالأبدان، قد تهوي إلى درك التضعضع وتكسوها الدمامل جراء الوفرة والرفاهية فحسب، وقد تنجع في شفائها كالأبدان كذلك أدوية كريهة في ذاتها وتبعث على الغثيان.

كانت المساعدة والمحرِّضة الأساسية للسيدة (ڤاردن) وفي الوقت ذاته ضحيَّتها الرئيسة وموضوع سخطها هي خادمتها المنزلية الوحيدة (الآنسة مـگز)، أو كما كانت تسمَّى تبعًا لتلك الانحيازات المجتمعية التي تسلب الخادمات المسكينات أشباه تلك الزوائد الرقيقة: (مـگز) وحسب. كانت (مـگز) هذه امرأة شابة طويلة، تدمن لبس القبقاب في حياتها الخاصة، نحيلة شكسة، ذات قوامٍ غير مريح، ورغم أنها لم تكن دميمة تمامًا، إلا أنَّ محياها كان لاذعًا حادَّ الملامح. وكمبدأ عامٍّ وفرضية مجرَّدة كانت تعتقد أنَّ جنس الذكور جديرٌ بالازدراء وعدم الالتفات إليه، وأنَّه جنسٌ متلوِّنٌ مزيَّفٌ وضيعٌ غبيٌّ يميل إلى الحنث باليمين ولا يساوي شيئًا على الجملة. وحين كانت تغتاظ من الذكور بشكلٍ شخصيٍّ -وهو ما يشاع أنه قد حدث حين أهانها (سم تاپرتت) إهانة بالغة- كان من عادتها أن تتمنَّى مع كثيرٍ من التأكيد أن يموت جنس النساء بكامله حتى يعلم الرجال القيمة الحقيقية

للنعمة التي لا يقيمون لها وزنًا يُذكَر، بل إنَّ إحساسها برتبتها كان عاليًا جدًّا حتى إنها كانت تصرِّح أحيانًا بأنها لو تضمن عددًا كبيرًا من العذارى يسلكن مسلكها لشنقت أو أغرقت أو طعنت أو سمَّمت نفسها في فرحٍ لا تعبِّر عنه الكلمات، لتحنق البشرية فقط.

كان صوت (مـگز) هو الصوت الذي حيَّى صانع الأقفال حين طرق باب منزله بصيحة حادَّة تقول: «من بالباب؟».

ردَّ (غابرييل): «إنه أنا يا بنت، أنا».

قالت (مـگز) وهي تفتح الباب وقد ارتسمت على ملامحها الدهشة: «ماذا؟ أنت بالفعل يا سيدي؟ لقد كنَّا أنا وسيدتي على وشك ارتداء قلانس النوم استعدادًا للسهر، أوه! لقد كانت في حالٍ سيِّئة جدًّا!».

قالت (مـگز) ذلك بلهجة مخلصة الاهتمام على غير العادة، غير أنَّ باب القاعة كان مفتوحًا، وحيث إنَّ (غابرييل) كان يعلم تمامًا إلى أي أذن أريد لهذه الكلمات أن تصل، فقد حدجها بنظرة ما أبعدها عن الاستحسان وهو يدلف إلى الداخل.

صاحت (مـگز) وهي تسبقه مسرعة إلى القاعة: «لقد وصل سيدي يا سيدتي. لقد أخطأتِ يا سيدتي وأصبتُ أنا، فقد فكرت أنه لن يسهرنا الليل كله ليلتين متتاليتين يا سيدتي، فسيدي يراعي شعورنا دائمًا، أنا سعيدة جدًّا يا سيدتي من أجلك. أنا فقط ..» وهنا اصطنعت (مـگز) ابتسامة متكلِّفة وأكملت: «أنا فقط أشعر بالنعاس قليلًا، أنا أعترف بذلك الآن سيدتي رغم أني أنكرته حين سألتني، لكن هذا بالطبع لا يهم يا سيدتي».

قال صانع الأقفال الذي تمنَّى مخلصًا في هذه اللحظة لو أنَّ غراب

(بارنابي) كان عند كاحلي (مـگز): «يحسن بك إذن.. يحسن بك أن تأوي إلى فراشك الآن».

ردَّت (مـگز): «أشكرك جدًّا سيدي. أنا لا أستطيع أن أستريح في سلامٍ، ولا أن أركِّز أفكاري في صلواتي قبل أن أتأكد أن سيدتي مستريحة في فراشها الليلة، فقد كان حقها أن تأوي إلى فراشها قبل الآن بساعاتٍ مضت».

قال (ڤاردن) وهو يخلع معطفه وينظر إليها شزرًا: «أنت ثرثارة يا بنت».

صاحت (مـگز) بوجه محتقنٍ: «أبتلع ملاحظتك وأشكرك عليها شكرًا جزيلًا يا سيدي، لكني أتجرَّأ وأقول إنني لو كنت أسوؤك باهتمامي بسيدتي فإنني لا أعتذر إليك، لكن أرضى بما أجلبه لنفسي من التعب والمعاناة».

هنا نظرت إلى ما حولها السيدة (ڤاردن) بوجهها المختفي في قلنسوة النوم الكبيرة، وقد كانت إلى تلك اللحظة مركزة تمامًا في كتيب الصلوات البروتستانتي، وأقرَّت بطولة (مـگز) بأن أمرتها بأن تمسك لسانها. إذ ذاك برزت كل عظمة صغيرة في حلق (مـگز) وعنقها، في حقدٍ مقلقٍ تمامًا وهي ترد: «حاضر يا سيدتي، سأفعل».

قال صانع الأقفال وهو يجلس على مقعدٍ جوار زوجه التي عادت إلى كتابها، وهو يدلِّك ركبتيه بقوة: «كيف تجدين نفسك الآن يا عزيزتي؟».

ردَّت السيدة (ڤاردن) وعيناها لا تفارقان السطور: «أنت قلقٌ بهذا الشأن؟ أليس كذلك؟ أنت الذي ظللتَ بعيدًا عني طيلة النهار، ولم تكن لتقترب حتى لو كنتُ أحتضر!».

قال (غابرييل): «عزيزتي مارثا..».

قلبت السيدة (ڤاردن) الصفحة ثم عادت إلى السطر الأخير في الصفحة السابقة لتستوثق من آخر كلماته، ثم تابعت القراءة بمظهر الاهتمام العميق والدراسة.

قال صانع الأقفال: «عزيزتي مارثا، كيف تستطيعين أن تقولي أشياء كهذه وأنت لا تعنينها؟ حتى لو كنتِ تحتضرين؟! لو كان بكِ شيء خطير يا (مارثا)، ألم أكن لأعتني بك باستمرارٍ؟».

صاحت السيدة (ڤاردن) وهي تنفجر في البكاء: «نعم! نعم كنتَ ستفعل، أنا لا أشك في ذلك يا (ڤاردن)، بالتأكيد كنت ستفعل. إنَّ ما تقوله يشبه بالضبط أن تخبرني بأنك ستكون حينئذٍ كالنسر، تحلِّق حولي، منتظرًا خروج آخر نفسٍ من جسدي، حتى تذهب وتأتي بامرأة جديدة».

تأوَّهت (مـگز) في تعاطفٍ آهة أنين قصيرة، أجهضتها في مهدها وحوَّلتها إلى سعلة، كان يبدو أنها تقول: «آهة لم أستطع كتمانها، أخرجتها من صدري وحشيَّة هذا السيد الوحش!».

أضافت السيدة (ڤاردن) بمزيد استسلامٍ: «لكنَّكَ ستكسر قلبي يومًا ما، وسيكون كلانا سعيدًا، رجائي الوحيد أن أرى (دلّي) مستقرَّة في بيتها، وحين يحدث ذلك، فلكَ أن تتركني حينما تشاء».

صاحت (مگز): «آه!»، وسعلت ثانية، بينما أخذ (غابرييل) المسكين يلوي شعره المستعار ويجدله في صمتٍ مدة طويلة، ثم قال بلطفٍ: «هل أوت (دلّي) إلى فراشها؟».

قالت السيدة (ڤاردن) وهي تنظر نظرة جانبية صارمة إلى الآنسة (مـگز) المنتظرة: «سيدك يتحدث إليكِ».

قال صانع الأقفال: «لا يا عزيزتي، لقد كنتُ أتحدث إليكِ».

صاحت السيدة في إصرارٍ وهي تخبط الأرض بقدمها: «هل سمعتني يا (مـگز)؟ أنت تبدئين الآن في ازدرائي، أليس كذلك؟ لكنَّ هذا مثال!».

عند هذا التوبيخ انخرطت (مـگز) ذات الدموع الجاهزة دائمًا لأيّ سببٍ كبيرٍ أو صغيرٍ، معقول أو غير ذلك، انخرطت في بكاءٍ عنيفٍ، وهي تشدُّ بيديها الاثنتين على قلبها، كما لو كان هذا هو الفعل الوحيد القادر على الحيلولة دون انكسار قلبها إلى شظايا صغيرة. بكت كذلك السيدة (ڤاردن) التي كانت تملك هذه الموهبة امتلاكًا تامًّا، متنافسة مع (مـگز) التي استسلمت أمام بكاء سيدتها المؤثِّر وتركت لها المجال، إلَّا شهقات عابرة بدت مهددة بنيَّة بعيدة للانفجار في البكاء مجدَّدًا. وحيث إنَّ تفوُّق السيدة (ڤاردن) قد ثبت في هذا التنافس تمامًا، فقد كفَّت عن البكاء كمنافستها، وسقطت في كآبة هادئة.

كان هذا مريحًا للغاية بالنسبة إلى صانع الأقفال، وقد أنهكته تمامًا أحداث الليلة الماضية المتعبة، حتى إن رأسه بدأ يسَّاقط نومًا وهو على مقعده، ولولا صوت زوجه الذي أيقظه فزعًا بعد توقُّف خمس دقائق لنام مكانه طيلة الليل.

قالت في غير توبيخٍ وإنما في لهجة احتجاجٍ رتيبة: «كلما كانت معنوياتي مرتفعة، وكلما كنت مبتهجة، وكلما كنت مرتاحة وأميل إلى الكلام أكثر مما اعتدتُ، لا أجد منكَ إلَّا هذه المعاملة».

صاحت (مـگز): «تلك المعنويات المرتفعة التي كنتِ في مثلها منذ نصف ساعة فقط يا سيدتي، أنا لم أرَ أبدًا رفقة كهذه!».

قالت السيدة (ڤاردن): «لأنني، لأنني لا أتدخَّل أبدًا ولا أقاطع، لأنني لا أسأل أبدًا متى يجيء أو يذهب أيُّ إنسان، لأنَّ عقلي وروحي مشغولان دائمًا بإنقاذ ما أستطيع إنقاذه وحيثما استطعت، غارقة في العمل في هذا البيت، لكل هذا يعذبونني هكذا».

قال صانع الأقفال محاولًا أن يبدو يقظًا بقدر الإمكان: «(مارثا)، ممَّ تشكين؟ لقد عدتُ إلى البيت متمنِّيًا حقًّا أن أكون سعيدًا، راغبًا في ذلك، حقًّا!».

احتجَّت زوجه: «ممَّ أشكو! هل من المبهج أن أرى زوجي عابسًا يسّاقط رأسه نومًا بمجرد دخوله البيت؟ أن يجمِّد كلَّ ما في قلبي من دفء ويلقي بالماء البارد على المدفأة؟ أليس من الطبيعي وأنا أعرف أنه قد خرج في مسألة أنا مهتمة بها كأيِّ إنسان آخر، أن أتمنى أن أعرف كلَّ ما حدث فيها، أو أن يخبرني بذلك دون أن أتوسَّل إليه أن يفعل؟ أليس هذا طبيعيًّا، أم أنه غير طبيعيٍّ؟».

قال صانع الأقفال السليم الطوية: «أنا جدُّ آسف يا (مارثا). لقد كنتُ أخشى ألَّا تكوني مستعدة للكلام على نحوٍ لطيفٍ. سأخبرك بكل شيء، سيسعدني ذلك بالتأكيد يا عزيزتي».

ردَّت زوجه وهي تنهض في كبرياء: «لا يا (ڤاردن)، أتجرَّأ أن أقول لك (شكرًا)! أنا لستُ طفلة لأعاقب في دقيقة وأدلَّل في التالية! لقد كبرت على ذلك يا (ڤاردن). احملي المصباح يا (مـگز)، بإمكانك أنت على الأقل أن تفرحي يا (مـگز)!».

إذ ذاك عبرت (مـگز) -تلك التي كانت إلى هذه اللحظة في أعمق

أعماق الكآبة تعاطفًا مع سيدتها- إلى أكثر حالاتها انتعاشًا، وتحمَّلت سيدتها والمصباح معًا تاركة القاعة وهي تلقي على صانع الأقفال نظرة من رأسها المائل نحوه.

فكَّر (ڤاردن) وهو يهزُّ كتفيه ويقرِّب الكرسي من المدفأة: «والآن من بإمكانه أن يظن أن هذه المرأة يمكن أن تكون مبهجة ومقبولة؟! ورغم ذلك فهي تستطيعه. حسنًا حسنًا، كلُّنا لنا أخطاؤنا. لن أتعنَّت مع أخطائها، إن عمر زواجنا لا يسمح بذلك».

وأغفى مجدَّدًا، في سرورٍ لم ينقص، ربما بسبب مزاجه الدافئ. وبينما عيناه مغلقتان، انفتح جزئيًّا الباب المؤدِّي إلى الدرج الصاعد، وظهر رأسٌ بمجرد أن رأى صانع الأقفال تراجع بسرعة.

غمغم (غابرييل) وقد أيقظته الجلبة فقلَّب بصره في الغرفة: «أتمنى.. أتمنى أن يتزوَّج أحدهم (مـگز)، لكن هذا مستحيلٌ! إنني أتساءل إن كان هناك رجلٌ مجنونٌ على ظهر الحياة يمكنه أن يتزوَّجها!».

كان هذا تنبُّؤًا عريضًا أسقطه في النوم مجدَّدًا، وظلَّ نائمًا حتى أكلت النار وقود المدفأة عن آخره. أخيرًا نهض، وبما أنه قد أغلق باب الشارع إغلاقًا مزدوجًا كما تقضي التقاليد ووضع المفتاح في جيبه، فقد أوى إلى فراشه.

لم تمر على مغادرته الغرفة مظلمة دقائق كثيرة قبل أن يظهر الرأس ثانية، ودخل إذ ذاك (سم تاپرتت) حاملًا في يده مصباحًا صغيرًا.

تمتم (سم) وهو يعبر إلى الورشة ليضع المصباح على الكير: «أيُّ أمرٍ أبقاه ساهرًا إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل بحق الشيطان؟ لقد انقضى

نصف الليلة بالفعل. لم يأتني من وراء هذه الحرفة الميكانيكية القديمة الصدئة الملعونة إلَّا شيء جيد واحد، هو هذه القطعة التي تصنع الحديد، أحلف على ذلك!».

وبينا يتكلَّم أخرج من جيبه الأيمن -أو بالأحرى من جيب ساقه الأيمن- مفتاحًا كبيرًا غير متقن الصُّنع، أدخله في حذرٍ في القفل الذي أغلقه معلِّمه، وفتح الباب برفقٍ. بعد ذلك أعاد القطعة السرية التي صنعها بنفسه إلى جيبه، وترك المصباح مضاءً وأغلق الباب بحذرٍ دون جلبة، وانطلق إلى الشارع. كان فعلًا لم يرتب في إمكان حدوثه صانع الأقفال في نومه العميق، ولم يمر حتى بـ(بارنابي) نفسه في أحلامه التي تنتابها الأشباح.

* * *

الفصل الثامن

فور خروج (سم تاپرتت) من منزل صانع الأقفال، وضع جانبًا أسلوبه الحذر ولبس مكانه سمت شخصٍ طائشٍ غضوبٍ متبجِّح متشرِّد يميل إلى أن يفتك بمن يقابله ويأكله فوق ذلك إن دعت الحاجة، شاقًّا أفضل ما أتيح له من الطرق في الشوارع المظلمة.

وبخلاف توقُّفاته العابرة بين الفينة والفينة ليضرب جيبه مستوثقًا من احتوائه مفتاحه العمومي، فقد أسرع إلى (باربيكان)، ثم انعطف إلى واحدٍ من أضيق الشوارع الضيقة المتفرِّعة من ذلك المركز، وإذ ذاك أبطأ خطوته ومسح جبهته المحمومة كما لو كانت نهاية سعيه قد اقتربت.

لم تكن هذه بقعة صالحة تمامًا لتنفيذ حملات منتصف الليل، إذ كانت في الحقيقة تدعو إلى الريبة ولا تتميَّز بمظهرٍ جذَّابٍ. فمن الشارع الرئيس الذي دخله –الذي لم يكن أفضل كثيرًا من زقاقٍ– عبر مدخلًا منخفض السقف إلى قاعة مسدودة أو فناء شديد الإظلام غير مرصوف تفوح منه روائح نتنة. في هذه الهوَّة التعيسة أخذ صبي صانع الأقفال المتشرِّد يتلمَّس طريقه، ليتوقَّف عند منزل تبرز من واجهته البالية المشوَّهة دمية وقحة لزجاجة، تتأرجح كمجرمٍ معلَّق في مشنقة، وضرب بقدمه حاجزًا حديديًّا شبكيًّا ثلاث مرات. وبعد أن أخذ يتسمَّع إلى أي ردِّ فعلٍ لإشارته دون جدوى، أوشك صبره أن ينفد، فضرب الحاجز الشبكي ثلاثًا من جديدٍ.

تبع ذلك تأخُّرٌ آخر، لكنَّه لم يطل هذه المرة، بدا أنَّ الأرضية تنفتح عند قدميه، وظهر منها رأسٌ أشعث.

قال صوتٌ أشعث تمامًا كالرأس: «هل هذا هو القائد؟».

ردَّ مستر (تاپرتت) في غطرسة وهو ينزل: «نعم، ومن يكون غيره؟».

أجاب الصوت بينما صاحبه يتوقَّف ليحكم إغلاق الحاجز الشبكي: «لقد تأخَّر الوقت وسلَّمنا بأنَّك لن تأتي، لقد تأخرت سيدي».

قال مستر (تاپرتت) في جلالٍ كئيبٍ: «إلى الأمام، ولا تدلِ بملاحظاتك إلَّا إن طلبتها منك، هيًّا، إلى الأمام!»

ربما كانت تلك العبارة الآمرة الأخيرة مسرحية بدرجة ما وغير ضرورية، إذ كان النزول على درجٍ زلقٍ بالغ الضيق والانحدار، يكفي فيه قدرٌ ضئيلٌ من التهوُّر أو الانحراف عن الطريق المعتادة لينتهي الأمر بسقطة مروعة. غير أنَّ مستر (تاپرتت) بميله إلى المؤثِّرات القوية والاستعراض الشخصي كغيره من القادة العظماء صاح مجدَّدًا بأغلظ صوتٍ استطاع إليه سبيلًا: «إلى الأمام»، ومضى في طريقه بذراعين معقودتين وحاجبين مشتبكين إلى القبو القابع في الأسفل، حيث كانت هناك غلَّاية نحاسية صغيرة مثبتة في أحد الأركان، ومقعدٌ أو اثنان، ومنضدة حدَّاد، ونار متَّقدة، وسرير نقَّال صغير مغطًّى بدثارٍ مرقَّع بالٍ.

صاح رجلٌ طويلٌ ضامرٌ وهو ينهض كما لو كان يقوم من قيلولة: «مرحبًا بالقائد النبيل!».

أومأ القائد، ثم وقف في رصانة وجلالٍ وهو يلقي بمعطفه الخارجي بعيدًا، وأخذ يتفرَّس تابعه حتى اخترق جسده إلى روحه ثم سأله: «هل من أخبار الليلة؟».

ردَّ الآخر وهو يمدُّ جسده، وقد كان طويلًا بالفعل، حتى إنه كان من المقلق أن يراه المرء يمدُّ جسده زيادة: «لا شيء يُذكَر، لماذا تأخَّرت إلى هذه الساعة؟».

لم يزِد القائد على أن قال متنازلًا: «لا يهم، هل أعدّت الغرفة؟».

أجاب التابع: «أعدّت».

«والرفيق، أهو هنا؟».

«نعم، وبعض الآخرين، ألا تسمعهم؟».

قال القائد في كآبة: «يلعبون القناني الخشبية! يا لبالهم الرائق!».

لم يكن من شكٍّ فيما تغمس فيه هذه الأرواح اللا مبالية أنفسها من مرحٍ، فقد كانت ضوضاؤهم تشبه رعدًا يهزم بعيدًا، رغم جو القبو المغلق الخانق. والحق أن هذه البقعة كانت تبدو للوهلة الأولى مكانًا غريبًا لهذا الغرض أو غيره من أغراض الاستجمام، فلو كانت أقبية أخرى لا تقلُّ عن هذا مناسبة لأن يدور فيها حديثٌ قصيرٌ كالذي قرأناه لتوِّنا، فإن هذا القبو بالتحديد كانت أرضياته من التراب النديِّ، وحوائطه وأسقفه من الطوب العاري الرطب، تتخلَّله القواقع والأصداف، وهواؤه يبعث على الغثيان، ملوَّثٌ كريه الرائحة. كان يبدو من رائحة بعينها، لها اليد الطولى بين الروائح التي يكتنزها المكان، أنَّ هذا القبو ليس ببعيد العهد عن استخدامه مخزنًا للأجبان، وهو ظرف كان يقترح وجود الفئران بقدر ما يفسِّر الرطوبة الدهنية التي تحيطه من كل جانبٍ. هذا بالإضافة إلى أنه كان رطبًا بطبيعته، حتى إن الفطر كان ينبت من كلِّ ركنٍ متفتِّت فيه.

أمَّا مالك هذا المعتكف الساحر وصاحب الرأس الأشعث المذكور آنفًا -إذا كان يرتدي شعرًا مستعارًا عتيقًا، مجعَّدًا باليًا كمكنسة موقد شعثاء- فقد انضمَّ إليهما ووقف على مبعدة منهم يفرك يديه، ويعبث بشعر ذقنه الأشيب النابت مبتسمًا في صمتٍ. كانت عيناه مغلقتين، غير أنهما لو كانتا مفتوحتين على اتساعهما لكان من اليسير على المرء أن يعرف أنه مكفوفٌ من التعبير المنتبه الذي ارتسم على وجهه حين أداره إليهما، ذلك الوجه الشاحب المعتل كما يليق بشخصٍ يعيش مثله تحت الأرض، وكذا من رفعه جفنيه وارتجافهما في قلقٍ على نحوٍ يشي بحالته.

قال الرفيق الطويل وهو يومئ صوب هذا الشخص: «حتى (ستاگ) كان نائمًا».

صاح المكفوف: «صحيحٌ يا قائد، صحيحٌ! ماذا يحتسي قائدي النبيل؟ براندي أم رومًا أم وسكي؟»[1] منقوع البارود أم زيت وقود؟! سمّ لنا ما تريده يا قلب السّنديان[2]، وسنحضره إليك على الفور، سواء كان خمرًا من قبو أسقف أو صهير ذهب من دار الملك چورچ لصكِّ العملة».

قال مستر (تاپرتت) في غطرسة: «اهتمَّ بأن يكون شرابًا قويًّا وأن يأتي على الفور، وما دمتَ تهتم بهذا الأمر، فلك أن تحضره من قبو الشيطان إن شئت».

(١) لا يستخدم (ديكنز) الكلمة المعاصرة Whiskey للإشارة إلى هذا الشراب، وإنما كلمةً أقدم هي usquebaugh وهي أقرب إلى الأصل الغيلي Gaelic الذي يُكتَب هكذا uisce beatha وهو ترجمة للتركيب اللاتيني aqua vitae أي ماء الحياة، وهو الاسم الذي كان يُطلَق على الكحول المقطَّر.

(٢) Heart of Oak قلب شجرة السّنديان أو البلُّوط هو أقوى خشب هذه الشجرة، وكان يستعمل في صناعة سفن بريطانيا الحربية في عصر الشراع منذ منتصف القرن الخامس عسر أو السادس عشر إلى منتصف التاسع عشر.

ردَّ المكفوف: «قول مقدام أيُّها القائد النبيل، يليق بمجد صبيان الورش، ها ها! من قبو الشيطان! نكتة جريئة، القائد يمزح، ها ها ها!».

قال مستر (تاپرتت) وهو يتفرَّس مضيفه الذي مشى إلى خزانة واستخرج منها زجاجة وكأسًا في لا مبالاة كما لو كان مبصرًا تمامًا: «سأخبرك بشيء يا صاحبي اللطيف، لو استمررت في إحداث هذه الجلبة، فستعرف أنَّ القائد أبعد ما يكون عن المزاح، فاعلم ذلك».

صاح (ستاگ) متوقِّفًا في طريق عودته ومتصنِّعًا إخفاء وجهه بالزجاجة: «إنَّ عينيه عليَّ! أشعر بهما وإن كنت لا أراهما. أبعدهما عني أيها القائد النبيل، أبعدهما، فإنهما ينخسان كمثقابين».

ابتسم مستر (تاپرتت) في قتامة لرفيقه، وأمره بلهجة ألطف أن يقترب مطمئنًّا، بينما يحدجه بنظرة أخرى -أقرب إلى مسمارٍ بصريٍّ- مثَّل المكفوف أنه يعاني ويتعذَّب من أثرها.

صاح (ستاگ) مقتربًا وهو يترع الكأس من دون أن تندلق قطرة خارجه، بفعل إصبعه الصغير الذي وضعه على حافة الكأس ليتوقَّف عن الصبِّ حين يلمس السائل إصبعه: «أنا أطيعك يا قائد، اشرب أيها الحاكم النبيل، الموت لكل المعلِّمين، والحياة لكل الصبيان، والحب لكل الصبايا الحسان. اشرب أيها اللواء الشجاع وأدفئ قلبك الباسل».

تنازل مستر (تاپرتت) وأخذ الكأس من يده الممدودة، وإذ ذاك جثا (ستاگ) على ركبة واحدة وأخذ يدلِّك سمَّانتيه في جوٍّ من الإعجاب الذليل، ثم صاح: «لو كانت لي عينان لأشاهد بهما أبعاد قائدي المتناسقة! لو كانت لي عينان لأشاهد بهما هذين الغازيين التوأمين لسلام العالم!».

قال مستر (تاپرتت) ناظرًا إلى ساقيه الحبيبتين: «اخرج! اذهب يا (ستاگ)! ألن تذهب؟!».

صاح المضيف وهو يضرب سمّانتي نفسه في لومٍ: «حين ألمس سمَّانتيَّ أنا بعد ذلك، أكرههما. فحين تنصب المقارنة، لا تبدوان أفضل من ساقين خشبيَّتين، إلى جوار هذين المثالين الكاملين عند قائدي».

صاح مستر (تاپرتت): «سمَّانتيك! لا أظن ذلك. لا تتحدث عن خلَّتي الأسنان القديمتين الثمينتين هاتين في نفس النفس مع ساقيَّ، فهذا كثير. والآن، خذ الكأس يا (بنچامين)، وهيَّا، إلى العمل!».

قال هذه الكلمات وعقد ذراعيه مجدَّدًا، ثم عبس في جلالٍ كئيبٍ وعبر مع رفيقه بابًا صغيرًا في النهاية العليا للقبو، ليختفي تاركًا (ستاگ) لتأمُّلاته الخاصة.

كان القبو الذي دخلاه مفروشًا بنشارة الخشب ومضاءً إضاءة خافتة، وكان يتوسَّط بين الخارجي الذي أتيا منه لتوِّهما، وذلك الذي يسلِّي فيه لاعبو القنّينات الخشبية أنفسهم، وبدا هذا واضحًا مع ازدياد الجلبة وصخب الألسن، غير أنَّ هذا الصخب توقَّف بغتة وحلَّ مكانه سكونٌ مطبقٌ مع إشارة من الرفيق الطويل. ثم إنَّ هذا السيد الشاب اتجه إلى دولابٍ صغيرٍ وعاد منه بعظمة فخذٍ، لا ريب في أنها كانت يومًا ما جزءًا من شخصٍ في طوله على الأقل، ووضعها في يدي مستر (تاپرتت) الذي تلقَّاها كما يتلقَّى الصولجان وعصا السُّلطة، مميلًا قبَّعته الثلاثية الأركان على رأسه بعنفٍ، وجلس على كرسي رياسة مزدان بزوجين من الجماجم، كان معدًّا لاستقباله، موضوعًا إلى منضدة واسعة.

ثم إنه ما إن أخذ مجلسه هذا حتى ظهر سيدٌ شابٌّ آخر، يحمل بين ذراعيه كتابًا ضخمًا مشبوكًا، انحنى له انحناءة كبيرة، ثم سلَّم الكتاب للرفيق الطويل وتقدَّم إلى المنضدة قبل أن يدير لها ظهره ويقف عندها كأطلس. ثم اتجه الرفيق الطويل إلى المنضدة هو الآخر، وجلس في مقعدٍ أخفض من مقعد (تاپرتت)، ليضع الكتاب الضخم في عظمة احتفالية على كتف رفيقهم الصامت، عامدًا، كما لو كان ذلك الأخير منضدة خشبية، وتهيَّأ للتدوين في الكتاب بقلمٍ ذي حجمٍ متوافقٍ مع الكتاب.

حين انتهى الرفيق الطويل من هذه الإعدادات، نظر إلى مستر (تاپرتت) الذي لوَّح بالعظمة ودقَّ بها إحدى الجمجمتين تسع مرات. مع الضربة التاسعة ظهر سيدٌ شابٌّ ثالثٌ من الباب المؤدِّي إلى فناء القنّينات الخشبية، وانحنى انحناءة كبيرة منتظرًا أوامره.

قال القائد القادر: «يا صبي، من ينتظر بالخارج؟».

أجاب الصبي بأنَّ غريبًا بين الحضور، يطالب بالإذن بدخول الجمعية السرية لفرسان الصبيان، وبمشاركة مجانية في حقوقهم وامتيازاتهم وحصاناتهم.

إذ ذاك لوَّح مستر (تاپرتت) بالعظمة مجدَّدًا، وصاح وهو يضرب الجمجمة الأخرى على أنفها ضربة هائلة: «أدخله!» فانحنى الصبي مرة أخرى لسماع هذا الأمر الرهيب، وانسحب كما جاء.

بعد قليل ظهر على نفس الباب صبيَّان آخران بينهما ثالثٌ معصوب العينين، يرتدي شعرًا مستعارًا ملمومًا في كيس حريري عند مؤخِّرته،

ومعطفًا ذا ذيل عريض مزخرفًا برباطٍ حائل اللون، وفي خاصرته سيفٌ كما تقضي بذلك قوانين المعهد المنظِّمة لتقدُّم الراغبين في الالتحاق به، والتي تطالبهم بأن يتزيّوا بهذا الزي، ويحتفظ لهم به دائمًا في الخزامى لراحتهم. كان أحد الصبيين اللذين أتيا بهذا المبتدئ يحمل بندقية قصيرة صدئة موجَّهة إلى أذنه، بينما الآخر كان يحمل سيفًا بالغ القدم، كان ينحت به معتدين خياليّين خلال مجيئه في أسلوب تشريحي دموي.

ثبَّت مستر (تاپرتت) قبَّعته على رأسه بينما تقترب هذه المجموعة الصامتة. ثم وضع المبتدئ يده على صدره وانحنى أمامه، وحين بلغت انحناءته مبلغًا كافيًا أمر القائد برفع عصابة عينيه وأخذ يتفرَّسه. وحين انتهى من هذا الاختبار قال في تفكيرٍ: «هاه! تقدَّم!».

قرأ الرفيق الطويل في صوتٍ مرتفعٍ ما يلي: «مارك غلبرت، العمر: تسعة عشر عامًا. يعمل لدى (توماس كرزن) صانع الجوارب في (غولدن فليس) بـ(ألدغات). يحبُّ ابنة (كرزن)، ولا يستطيع أن يجزم بأنَّ ابنة (كرزن) تبادله الحبَّ. يعتقد أنَّ هذا محتملٌ. شدَّ (كرزن) أذنيه الثلاثاء الماضي».

صاح القائد فزعًا: «كيف؟!».

أجاب المبتدئ: «لأني نظرت إلى ابنته، سعادتك!».

قال القائد: «دوِّن اسم (كرزن). مرفوض. ضع صليبًا أسود عند اسم (كرزن)».

قال المبتدئ: «لكنَّ هذا ليس أسوأ ما في الأمر، سعادتك. إنه ينادي صبيَّه بالكلب الكسول، ويوقف نصيبه من الجعة إن لم يعمل الصبي ما

يروقه. وهو أيضًا يعطي الصبي جبنًا هولنديًّا بينما يأكل هو نفسه جبن تشِشر[1]، ولا يعطي إجازة يوم الأحد إلا مرة في الشهر».

قال مستر (تاپرتت) في صرامة: «هذه حالة فظيعة؛ ضع صليبين أسودين على اسم (كرزن)».

قال المبتدئ ذو الهيئة غير المريحة والعينين الغائرتين القريبتين كلٌّ من الأخرى، المتثاقل في كلامه ومشيته: «لو أنَّ الجمعية حرقت منزله، حيث إنه غير مؤمَّن عليه، أو ضربته خلال عودته إلى منزله من ناديه، أو ساعدتني على اختطاف ابنته، والزواج منها، سواء وافقتْ أو رفضتْ».

لوَّح مستر (تاپرتت) بعصاه البيضاء كتحذيرٍ للمبتدئ من المقاطعة، وأمر بثلاثة صلبان سوداء على اسم (كرزن)، ثم قال مفسِّرًا في لطفٍ: «ما يعني الانتقام. الكامل الرهيب. يا صبي، هل تحب الدستور؟».

ردّ المبتدئ وقد علَّمه الإجابة راعياه القائمان عليه: «أحبُّه».

قال القائد: «الكنيسة والدولة وكل المؤسسات عدا المعلِّمين؟».

قال المبتدئ: «نعم».

إذ ذاك أخذ المبتدئ يستمع في أدبٍ إلى القائد الذي أخبره في خطبة معدَّة لمثل هذه المناسبات كيف أنه طبقًا لهذا الدستور نفسه -الذي كان محفوظًا في صندوقٍ أمين في مكانٍ ما لكنه لم يستطع اكتشاف هذا المكان، وإلَّا لكان قد حاول الحصول على نسخة من ذاك الدستور- كان الصبيان في عهودٍ غابرة يحظون بإجازاتٍ كثيرة بوصفها حقًّا لهم، ويكسرون رؤوس ناس كثيرين، ويتحدُّون معلِّميهم، بل إنهم كانوا ينجزون حوادث

---

(١) جُبن تْشِشر Cheshire Cheese جبن كثيف هَشّ يُنتَج في المقاطَعة الإنـگـليزية التي تحملُ الاسمَ نفسَه، وهو أقرب ما يكون إلى ما نعرفُه في مصر باسم الجُبن الرُّومي.

قتل مجيدة في الشوارع، وكلها مزايا أخذت منهم بالتدريج، وتطلعات نبيلة يقفون إزاءها اليوم مكتوفي الأيدي، وكيف أن القيود المذلة المفروضة عليهم كانت بلا شكٍّ ثمرة روح العصر المبتدع، وكيف أنَّ وحدتهم اليوم تهدف إلى مقاومة كلِّ تغييرٍ، إلَّا التغيير الذي يعيد تلك التقاليد الإنـگـليزية القديمة الطيِّبة التي ينوون مساندتها أو الموت في سبيلها.

وبعد أن أوضح القائد حكمة العودة إلى الوراء، بالإشارة إلى تلك السمكة الحكيمة سرطان البحر، فضلًا عن تلك الممارسة التي تتردَّد عند كل من البغل والحمار، أخذ يصف أهدافهم العامة، التي تتلخَّص أساسًا في الانتقام من معلِّميهم الطغاة، أولئك الذين لا يتطرَّق شكٌّ إلى صبيانهم في مدى ما يمارسونه من قهرٍ بشعٍ لا سبيل إلى احتماله، واستعادة حقوقهم وإجازاتهم القديمة كما قيل آنفًا، غير أنهم ليسوا جاهزين في الوقت الراهن لأيٍّ من هذين الهدفين، بحكم كونهم لا يربون على عشرين شخصًا، وبعد فقد آلوا على أنفسهم أن يجاهدوا من أجل هذين الهدفين بالحديد والنار متى دعت الضرورة.

بعد ذلك وصف القائد اليمين التي حلفها كلُّ عضو في هذه البقية الصغيرة من الجمعية النبيلة، تلك اليمين الرهيبة المؤثِّرة، التي تفرض على العضو أن يقاوم ويعارض السيد عمدة البلد وحامل السيف والقسِّيس إن أمره رئيسه بذلك، وأن يزدري سلطة الأشراف، وأن يعتبر مجلس البلدية في حكم العدم، لكن لا يحقُّ للعضو تحت أيِّ ظرف -حال مجيء الزمن الذي يقوم فيه الصبيان بانتفاضة شاملة- أن يلحق أيَّ ضررٍ أو تشويه

بـ(التمپل بار)[1]، الدستورية إلى أبعد الحدود ولا ينبغي له أن يقترب منها إلا باحترامٍ.

وبعد أن استعرض هذه النقاط في مزيد بلاغة وقوة، وبعد أن أخبر المبتدئ بأن جذور هذه الجمعية قد نبتت أول ما نبتت في عقله الزاخر، أثار مستر (تاپرتت) إحساسٌ متضخِّمٌ بالخطأ والغضب، فسأل المبتدئ إن كانت لديه الشجاعة الكافية لأن يقسم القسم الرهيب المطلوب، أم أنه سينسحب والانسحاب ما زال في الإمكان.

ردَّ المبتدئ على ذلك بأنه سيحلف اليمين ولو كان فيها موته، وعلى ذلك حُلِفت اليمين يحيطها العديد من الطقوس المؤثِّرة، لعلَّ أوضحها أن أضيئت الجمجمتان بشمعة داخل كلٍّ منهما، ولوَّح بالعظمة الصولجان مرات كثيرة جدًّا، فضلًا عن عدة مناورات خطيرة بالبندقية القصيرة والسيف، وصيحات موحشة من صبيان غير مرئيّين واقفين بالخارج. وبعد انتهاء هذه الطقوس المظلمة الرهيبة أخيرًا، أزيحت المنضدة جانبًا، وأزيل كرسي الرياسة، ووضع الصولجان في دولابه المعهود، وفتحت الأبواب الموصلة بين الأقبية الثلاثة على مصاريعها، وانخرط (فرسان الصّبيان) في اللهو.

---

(١) Temple Bar المدخل الاحتفالي الأساسي إلى لندن من وستمنستر، ومكانه على الطريق الملكية التاريخية من برج لندن إلى قصر وستمنستر، وهما المقرَّان الأساسيَّان لإقامة ملوك إنكلترا في العصور الوسطى. كما يشار بهذا الاسم إلى البوابة الزخرفية التي صمَّمها المعماري الأشهر (كرستوفر رن) على طراز الباروك في القرن السابع عشر، التي ظلَّت في مكانها إلى أن أزيلت عام ١٨٧٨، ثم أقيم مكانها عام ١٨٨٠ نصبٌ تذكاريٌّ يعلوه التنين رمز لندن ويزدان بصورة للملكة ڤكتوريا. وقد احتفظ بهذه البوابة وأعيد تنصيبها عام ٢٠٠٤ في ميدان (پاترنستر) Paternoster Square جوار كاتدرائية (سان پال) St.Paul’s Cathedral.

لكنَّ مستر (تاپرتت) بروحه الممتازة عن القطيع المبتذل، والذي تملي عليه عظمته ألَّا ينخرط في اللهو إلَّا في أوقاتٍ قليلة، ألقى نفسه على أحد المقاعد بإحساس رجلٍ تثقله منزلته الرفيعة. نظر في لا مبالاة إلى القنِّينات الخشبية وأوراق اللعب والنَّرد، لا يشغل تفكيره إلا ابنة صانع الأقفال، والأيام الوضيعة المنحطَّة التي سقط فيها.

قال مضيفه وهو يجلس إلى جواره: «إن قائدي النبيل لا يلعب ولا يغني ولا يرقص، اشرب أيها اللواء الشجاع!».

شرب مستر (تاپرتت) الكأس المقدَّمة إليه حتى الثمالة، ثم ألقى يديه في جيبيه، ومشى بين القنِّينات الخشبية بوجه مكفهرٍّ، بينما أتباعه يحوشون الكرة المحمومة –هكذا يتجلَّى نفوذ العبقرية المتعالية– ويوقِّرون ساقيه الصغيرتين في صمتٍ.

فكَّر مستر (تاپرتت) متأمِّلًا بين القنِّينات التسعة: «لو كنتُ قد ولدتُ قرصانًا أو لصًّا أو قاطع طريق أنيقًا أو محاربًا وطنيًّا –وكلُّها سواسية– لكنت ملأت مركزي. أما أن أعيش حياة حقيرة لا تعرف عنها البشرية في عمومها شيئًا – صبرًا! سأكون مشهورًا. ثَمَّ صوتٌ يهمس داخلي بالعظمة. سأنفجر يومًا ما، وحين أفعل، أي قوة تستطيع كبح جماحي؟ محض هذه الفكرة يجعل روحي تصَّاعد إلى رأسي، المزيد من الشراب هنا!».

تابع مستر (تاپرتت) في صوتٍ ليس راعدًا تمامًا، فقد كانت نبرته في الحقيقة حادة مشروخة، لكن بطريقة مؤثرة رغم ذلك: «المبتدئ، أين هو؟».

صاح (ستاگ): «هنا أيها القائد النبيل، أحدهم يقف إلى جواري وأشعر أنه غريبٌ».

قال مستر (تاپرتت) تاركًا نظرته تسقط على الشخص المشار إليه، والذي كان بالفعل الفارس الجديد، وقد أعيد إلى زيِّه الشخصي الآن: «هل تحتفظ.. هل تحتفظ برسم مفتاح باب الشارع على الشمع؟».

استبق الرفيق الطويل الرد بأن أظهر رسم المفتاح من فوق الرف الذي وضع عليه. إذ ذاك قال مستر (تاپرتت) متفحِّصًا الرسم في اهتمامٍ بينما يطبق الصمت على الجميع: «طيِّب»، إذ إنه كان قد صنع مفاتيح سرية لكل أعضاء الجمعية، وربما يكون مدينًا بجزءٍ من نفوذه بينهم لذلك الأمر السخيف الحقير، فعلى مثل هذه الأمور الحقيرة يعتمد الرجال، حتى أرباب العقول منهم. ثم تابع: «ما أسهل ما سيصنع هذا، تعال هنا يا صديق».

بهذه الكلمة أشار إلى الفارس الجديد أن ينضمَّ إليه بعيدًا عن الباقين، وأومأ إليه أن يمشي إلى جواره بينما يضع رسم المفتاح في جيبه، ثم قال وقد مشيا معًا خطواتٍ: «وإذن، فأنت..تحب ابنة معلِّمك؟».

ردَّ الصبي: «نعم، بشرفي، لا قذارة كما تعلم».

قال مستر (تاپرتت) قابضًا على رسغه وموجِّهًا إليه نظرة كان بإمكانها أن تعبِّر عن أقصى شرٍّ ممكن، لولا فواقٌ عارضٌ حال دون ذلك: «ألك .. ألك غريم؟».

ردَّ الصبي: «لا، فيما أعلم».

قال مستر (تاپرتت): «لو كان لك غريم، ماذا كنت ستصنع؟ هاه؟».

ارتسمت على وجه الصبي الشراسة وتوتَّرت قبضتاه. إذ ذاك صاح مستر (تاپرتت) في عجلة: «كفى، كلانا يفهم الآخر، والآخرون يلاحظوننا. أشكرك».

بهذه الكلمات صرفه عنه، وبعد أن خطا بضع خطواتٍ عجلة وحده، دعا الرفيق الطويل جانبًا، وأمره بأن يكتب على الفور إشعارًا ويلصقه على الجدار، يحظر فيه على أيٍّ من (فرسان الصبيان) أن يمدَّ يد العون إلى شخص يُدعى (چوزيف ولت) وشهرته (چو)، أو أن يواسيه أو يتواصل معه، ويدعوهم -محذِّرًا إيَّاهم من الطرد من الجمعية -إلى مضايقته وإيذائه وإزعاجه وافتعال المشاجرات معه، متى وأينما ألقت الصدفة أيًّا منهم في طريقه.

وبعد أن أراح باله بهذا الأمر المحموم، تنازل واقترب من طاولة الاحتفالات، وبعد أن لان قلبه تدريجيًّا تنازل مرة أخرى وقبل أن يترأَّس الاحتفال، بل إنه قد قبل أن يطرب الجمع بأغنية. إذ ذاك ارتفع صوته إلى أن بلغ نغمة رفيعة كما لو كان بصدد أن يبهجهم برقصة المزمار، تلك التي أدَّاها فعلًا على موسيقى كمنجة عزف عليها عضو بارعٌ، بمهارة ممتازة وألمعيَّة في التنفيذ، حتى إنَّ مشاهديه لم يملكوا أنفسهم من الإعجاب والحماس، واحتجَّ مضيفهم وقد دمعت عيناه بأنه لم يشعر أبدًا بالعمى حتى هذه اللحظة.

غير أنَّ المضيف ما لبث بعد أن انسحب -ربما ليبكي وحيدًا- أن عاد ليعلن أنَّ الصبح على وشك أن ينبلج، لا يفصلهم عنه إلَّا أكثر قليلًا من ساعة، وأن كلَّ ديوك (باربيكان) أنشأت تصيح بالفعل كما لو كان

صياحها مسألة حياة أو موت. بهذا النبأ نهض (فرسان الصّبيان) في عجلة وقد شكّلوا طابورًا ليخرجوا واحدًا واحدًا، ويتفرَّقوا مسرعين، كلٌّ إلى منزله، تاركين قائدهم ليكون آخر من يعبر الحاجز الشبكي الحديدي.

همس المكفوف وفي يده الحاجز ليخرج القائد: «طابت ليلتك يا قبطاني النبيل. الوداع أيها اللواء الشجاع. باي باي أيُّها القائد اللامع. ليصحبك الحظُّ السعيد أيُّها الـ.. الأبله المغرور المتطاوس الخاوي الرأس ذو أرجل البطّة».

بكلمات الوداع هذه التي أضافها في برودٍ بينما يتسمَّع خطاه المبتعدة، أغلق الحاجز على نفسه وهبط الدرج وأشعل النار تحت الغلَّاية النحاسية الصغيرة، مستعدًّا دون عون من أحد لوظيفته اليومية، تلك التي تلخَّصت في أن يبيع بالتجزئة عند سادة المنطقة -الذين يعيشون بالأعلى- مرقًا وحساءً وسجقًّا متبَّلًا رخيصًا، مصنوعة من تلك المكونات التي يمكن شراؤها بالجملة بأرخص الأسعار في سوق (فليت) في المساء، والتي كان عليه أن يعتمد أساسًا على اتصالاته الشخصية ليتمكَّن من بيعها، لا سيَّما أنَّ أفنية هؤلاء السادة تفتقر إلى الممرّات التي يمكن افتراشها بسلعته، كما لم تكن من ذلك النوع من الأماكن التي يرتادها الناس ليشمُّوا الهواء أو ليتمشَّوا.

* * *

الفصل التاسع

للحكَّائين امتياز في أن يلجوا إلى حيث شاءوا، وأن يروحوا ويغدوا خلال ثقوب الأبواب، وأن يركبوا الريح، وأن يقهروا في طيرانهم هذا صعوبات المسافة والزمان والمكان. بورك هذا الامتياز الأخير، فإنه يمكِّننا من أن نتبع (مـكز) المترفِّعة إلى عقر حجرتها ونأتنس بصحبتها خلال ساعات الليل الكئيبة!

بعد أن فكَّت الآنسة (مـكز) ربّتها على حدِّ تعبيرها -ذلك الذي يعني أنها ساعدتها على خلع ملابسها- وبعد أن صحبتها في رفقٍ إلى فراشها في الغرفة الخلفية للطابق الأول، انسحبت إلى حجرتها الخاصة في عليَّة المنزل. ورغم ما صرَّحت به في حضور صانع الأقفال فإنَّ مزاجها لم يكن مزاج نوم الآن، وهكذا وضعت مصباحها على المنضدة وأزاحت ستار النافذة الصغيرة وأخذت تتطلَّع متأمِّلة إلى سماء الليل المحمومة.

ربما كانت تتساءل أي النجوم يعد لاستقبالها حين تنتهي حياتها القصيرة على الأرض، وربما كانت تخمِّن أي هذه الأجرام البرَّاقة هو نجم ميلاد مستر (تاپرتت)، وربما كانت تعجب كيف لهذه النجوم أن تنظر إلى هذا المخلوق الغادر بالأسفل، ذلك الذي يُدعى الإنسان، دون أن تغثى وتخضرَّ مرضًا كمصابيح الصيادلة، وربما لم تكن تفكر في شيء بعينه. وأيًّا ما كان يجول بخاطرها، فإنها جلست حيث هي، حتى جذبت انتباهها

اليقظ دائمًا لكلِّ ما يمتُّ بصلة إلى الصبي المتملِّق جلبة في الحجرة المجاورة لحجرتها، وكانت هذه هي حجرته التي ينام فيها، ويحلم، وربما كان يحلم بها أحيانًا.

وقد كان واضحًا أنه الآن بالتحديد لا يحلم، إلَّا لو كان يتمشَّى وهو نائم، إذ كانت هناك جلبة تصاعد من حجرته بين الفينة والفينة، كما لو كان منشغلًا بتلميع جدار حجرته المبيَّض، ثم يصرُّ بابه في رفقٍ، ثم يسمع صوت خطواته المتسحِّبة خافتًا على عتبة باب حجرته الخارجية. امتقع لون الآنسة (مـگز) وارتعدت حين لاحظت صوت خطواته هذا، فقد كانت ترتاب في نواياه، وكم صاحت لنفسها في خفوتٍ: «أوه! يا لعناية السماء، ورتاج الباب يحبسني هنا!» وقد كان هذا خلطًا من جانبها بين الرتاج وما يستخدم له، راجعًا بلا شكٍّ إلى قلقها، فرغم وجود رتاج على الباب فإنَّه لم يكن مغلقًا.

غير أنَّ سمع الآنسة (مـگز) الحاد كمزاجها، المرتاب اللاذع مثله أيضًا، أخبرها بأنَّ الخطوات مرَّت ببابها، وبدت كما لو كان لها هدفٌ منفصلٌ تمامًا عنها ولا يمتُّ لها بصلة. إذ ذاك تصاعد قلقها وأوشكت تصيح: «لصوص!» و«قتل»، لكنَّها كتمت صيحتها إلى هذه اللحظة، وعنَّ لها أن تنظر إلى الخارج في رفقٍ وتستوثق من أنَّ لمخاوفها أساسًا ملموسًا.

نظرت إلى الخارج مادَّة عنقها فوق حاجز النافذة، فميَّزت لشدَّة دهشتها مستر (تاپرتت) في كامل لباسه ينزل الدرج متسحِّبًا خطوة خطوة، وفي إحدى يديه نعلاه وفي الأخرى مصباح. تبعته بعينيها ونزلت بنفسها خطوة أو أكثر لتتغلَّب على زاوية حجبت رؤيته عن عينيها، فرأته يدفع

رأسه إلى داخل القاعة عبر بابها، ثم يغلق الباب في صلابة ويعود أدراجه إلى أعلى على الفور بأقصى ما أوتي من همَّة.

وحين خلت إلى نفسها في أمان غرفتها مجدَّدًا قالت متقطعة النفس في إثارة: «يا له من غموض! يا ألطاف الرب، يا له من غموض!» لقد كان اكتشاف أيِّ شيء يتعلَّق بأيِّ إنسانٍ كفيلًا بإبقائها ساهرة طيلة الليل كما لو كانت تحت تأثير الأفيون. ثم إنها سمعت صوت الخطوات مجدَّدًا، كما لو كانت خطوات ريشة تملك إرادة الحركة وتمشي على أطراف أصابعها. ثم إنها تسلَّلت إلى الخارج من جديدٍ لترى هيئة الصبي وهو يعود أدراجه، ثم يختلس نظرة حذرة عبر باب القاعة، لكنَّه دخل إلى القاعة واختفى داخلها هذه المرة بدلًا من أن يعود القهقرى.

وقبل أن يرتدَّ إلى سيِّدٍ عجوزٍ طرفه عادت (مـگز) مسرعة إلى حجرتها وأطلَّت برأسها من النافذة. خرج الصبي من باب الشارع وأغلق الباب وراءه بحذرٍ ثم اختبر إغلاقه دافعًا إيَّاه بركبته، قبل أن يبتعد مختالًا وهو يضع في جيبه شيئًا ما. إذ ذاك صاحت (مـگز) مجدَّدًا: «يا ألطاف الرب! ربَّاه! يا ربَّاه!»، ثم نزلت الدَّرج في إثره. وحين وصلت إلى الورشة رأت المصباح يتَّقد على الكير وكل شيء كما تركه (سم).

صاحت: «فلتكن جنازتي سعيًا على الأقدام، ولأدفن دفنًا حقيرًا بلا عربة دفنٍ ولا ريشٍ، لو أنَّ هذا الصبي لم يصنع مفتاحًا لمصلحته الشخصية! أوه! ذلك الوغد الصغير!».

لم تصل إلى هذه الخلاصة دون تروٍّ ومزيد نظر واستكشاف لما حولها، كما عضَّد استنتاجها ذاك تذكُّرها أنها صادفت الصبي أكثر

من مرة منشغلًا بمهمَّة غامضة في الورشة. ولئلَّا نعجب لإشارة الآنسة (مـگز) إليه بقولها (الصبي)، ذلك الذي تنازلت من عليائها لتنظر إليه بعين الرضى، فربما يجب أن نشير إلى أنها كانت تعتبر كلَّ ذكور الكائنات الساعية على قدمين محض أطفال ورضَّع ما داموا لم يتجاوزوا الثلاثين، وهي ظاهرة ليست بغريبة على السيدات اللاتي لهنَّ مزاج الآنسة (مـگز)، كما لوحظ أنها تلازم من لهنَّ فضائلها الفظَّة العنيدة.

أخذت الآنسة (مـگز) تتدبَّر أمرها هنيهة وهي تنظر إلى باب الورشة نظرة ثابتة كأنما عيناها وأفكارها جميعًا مصوَّبة إلى الباب، ثم أخذت ورقة من درج ولفَّتها صانعة أنبوبًا حلزونيًّا رفيعًا طويلًا، ما لبثت أن ملأته بكمية من غبار الفحم الصغير من الكير، واقتربت من الباب ثم جثت على ركبة واحدة أمامه لتنفخ في ثقب المفتاح من هذا الغبار الناعم في مهارة على قدر ما اتسع له القفل. وحين ملأته إلى حافته بأسلوب الصناع المهرة، صعدت الدرج وهي تضحك ضحكًا مكتومًا.

صاحت (مـگز) وهي تفرك يديها: «والآن لنر ما إذا كان يسوؤك أن تنتبه لي قليلًا أيُّها السيد. هيهيهي! أعتقد أنَّ عينيك ستريان من الآن إنسانة أخرى بجانب الآنسة (دلّي). تلك القطّ التي لم أر أسمن من وجهها!».

وبينما تنطق بهذا النقد نظرت إلى مرآتها الصغيرة في استحسان، ولسان حالها يقول «شكرًا لنجوم سعدي أنَّ هذا الوصف لا يمكن أن يقال فيَّ!»، وهو حقٌّ، فإنَّ جمال الآنسة (مـگز) كان من ذلك النوع الذي سمَّاه مستر (تاپرتت) بنفسه في السر تسمية موفَّقة «النحيف».

قالت وهي تلفُّ نفسها في حبرة وتقرِّب كرسيين من النافذة لتجلس

على أحدهما وتضع قدميها على الآخر: «إنني لن أنام الليلة حتى تعود إلى البيت يا صبيّي»، ثم أضافت في خبثٍ: «لن أنام حتى مقابل خمسة وأربعين جنيهًا!».

بذلك وبتعبيرٍ على وجهها تختلط فيه عدة مكونات متناقضة كالعبث والدهاء والحقد والانتصار والتوقُّع الصبور، جميعًا في مزيجٍ يتحدَّى الفراسة، تمالكت نفسها لتنتظر وتنصت كغولٍ لطيفة نصبت فخًّا وجلست ترقب قضمة من مسافرٍ شابٍّ ممتلئ.

هكذا جلست في رصانة تامة طيلة الليل. في النهاية جاء نور الفجر بوقع خطواتٍ في الطريق، ثم ما لبثت أن سمعت مستر (تاپرتت) يتوقف عند الباب. استطاعت أن تميِّز أنَّه قد أخذ يحاول فتح الباب بمفتاحه، وينفخ فيه، ويدقُّ به على أقرب عمود لنفضه من الغبار، وأنه قد أخذ يتفحَّصه تحت أحد المصابيح، ويدفع بكسر من عصا إلى داخل القفل لينظِّفه، وأنه نظر في ثقب المفتاح بإحدى عينيه أولًا ثم بالأخرى، ثم جرَّب المفتاح ثانية، ولم يستطع أن يديره في القفل، والأسوا أنه لم يستطع إخراجه من القفل، ثم إنه لوى المفتاح، وإثر ذلك أصبح المفتاح أقل قابلية لأن يخرج من ذي قبل، ثم إنه لواه ليًّا عنيفًا وجذبه بقوة، فخرج المفتاح بغتة حتى إن (سم) أخذ يترنَّح إلى الخلف، وأنه ركل الباب وأخذ يهزُّه، ثم ضرب جبهته في النهاية بيده وجلس على عتبة الباب يائسًا.

حين تأزَّم الموقف على هذا النحو، مثَّلت الآنسة (مـگز) أن الرعب قد أكلها، وأنها تتعلَّق بإطار النافذة لتستند إليه، وأخرجت قلنسوة النوم سائلة في خفوتٍ: «من بالخارج؟».

صاح مستر (تاپرتت): «ششششش!» ثم تراجع قليلًا إلى عرض الطريق وهو يحذِّرها في تمثيلٍ صامتٍ ألَّا تجاوز السرية والصمت.

قالت: «أخبرني بأمرٍ واحدٍ، هل هناك لصوص؟».

صاح مستر (تاپرتت): «لالالا!».

قالت بصوتٍ أخفض من السابق: «إذن فهو الحريق، أين هو يا سيدي؟ جوار هذه الحجرة، أعرف. إنَّ لديَّ ضميرًا خيِّرًا يا سيدي، وأفضِّل الموت على أن أنزل سلَّمًا خشبيًّا. كل ما أتمنَّاه يا سيدي، فيما يخصُّ حبي لأختي المتزوجة، التي تسكن فناء الأسد الذهبي، رقم سبعة وعشرين، الجرس الثاني على صف الأبواب الأيمن».

صاح مستر (تاپرتت): «(مـگز). ألا تعرفينني؟ (سم)، تعرفين (سم).».

صاحت (مـگز) عاقدة كفَّيها: «أوه! ماذا عنه؟ هل هو في خطرٍ ما؟ هل هو وسط النيران؟ لطفك يا رب، لطفك!».

ردَّ مستر (تاپرتت) ضاربًا بكفِّه على صدره: «أنا هنا، ألست أنا (سم)؟! ألا ترينني؟ يا لكِ من حمقاء يا (مـگز)!».

صاحت متجاهلة هذا الإطراء: «هناك! لماذا، إذن... ما معنى أن...لو سمحت سيدتي.. هنا.».

صاح واقفًا على أطراف أصابع قدميه كما لو كان بهذه الطريقة يقترب بشكلٍ ما من إغلاق فم (مـگز) الواقفة في العلِّيَّة: «لا لا! لا تفعلي، لقد خرجت من دون إذن، وقد عطب القفل عطبًا ما. انزلي وافتحي شبَّاك الورشة، علِّي أتمكَّن من الدخول بهذه الطريقة».

صاحت (مـگز): «لا أجرؤ على ذلك يا (سمن)» هكذا كانت طريقة نطقها لاسم تعميده. أضافت: «لا أجرؤ حقًّا. أنت تعلم تمامًا كالآخرين كم أنا حذرة. أنزل في جنح الليل والنوم يخيِّم على المنزل والغموض يلفُّه»، وهنا توقَّفت وارتعدت، حيث أصاب البرد حياءها لمجرد الفكرة.

صاح مستر (تاپرتت) وهو يقف تحت المصباح علَّها ترى عينيه: «لكن يا (مـگز)، يا عزيزتي (مـگز)..».

صرخت (مـگز) صرخة خافتة، وتابع هو: «التي أحبُّها كثيرًا ولا أستطيع أبدًا أن أتوقف عن التفكير فيها»،

ثمّ استخدم عينيه بطريقة لا يمكن وصفها وهو يقول: «افعلي ذلك من أجلي، افعليه!».

صاحت: «أوه (سمن). هذا أسوأ من كل شيء. إنني أعرف أنني لو نزلت فستذهب و..»

قاطعها: «وماذا يا غاليتي؟».

قالت في هستيريا: «وتحاول أن تقبِّلني، أو أن تفعل شيئًا رهيبًا كهذا، أعلم أنك ستفعل ذلك!».

قال في جديَّة لافتة: «أقسم أنّي لن أفعل. أقسم بروحي. إنَّ الشمس تشرق ورجل المراقبة يستيقظ. (مـگز) الملائكية! فقط لو تأتين وتدخلينني، وأعدك بصدق وأمانة ألَّا أفعل».

تحرَّك قلب الآنسة (مـگز) الطيِّب فلم تنتظر القسم (لا سيَّما أنها تعرف شدة الإغراء وتخشى أن يقسم وهو لا يستطيع الالتزام بقسمه)، ونزلت الدرج بلطفٍ ثم فتحت رتج نافذة الورشة الخشنة بيديها الناعمتين. وبعد

أن ساعدت الصبي الطائش على الدخول، نطقت في خفوت «(سمن) في أمان!» واستسلمت لطبيعة المرأة داخلها فغابت عن الوعي على الفور.

قال (سم) وقد أربكه هذا الظرف: «لقد كنت أعرف أني ينبغي لي أن أرويها. بالطبع كنت متأكدًا أن الأمر سيصل إلى ما نحن فيه، لكن لم يكن بدّ مما فعلت، فلو لم أسلِّط عليها عينيَّ لما رضيت أن تنزل. هيه! استيقظي دقيقة يا (مـگز)، أي قوام زلق هذا! لا سبيل إلى الإمساك بها على نحو مريح. استيقظي دقيقة يا (مـگز)، رجاءً!».

لكن حيث إنَّ (مـگز) لم تسمع توسُّلاته فقد أسندها إلى حائطٍ كما يفعل المرء حين يودُّ أن يتخلَّص من عكَّاز أو مظلَّة، حتى أمَّن إغلاق النافذة، ثم أخذها بين ذراعيه مجدَّدًا، ثم إنه حملها صاعدًا الدَّرج على مراحل قصيرة وبصعوبة شديدة مردَّها إلى طول (مـگز) وقصره، وربما كذلك بدرجة ما إلى قوامها الغريب الذي علَّق عليه بالفعل آنفًا. ثم إنه زرعها بالكاد داخل حجرتها بنفس طريقة العكَّاز والمظلَّة، تاركًا إيَّاها لرقادها.

قالت الآنسة (مـگز) مستعيدة وعيها بمجرد أن تُرِكت وحدها: «له أن يكون لطيفًا كما يشاء، لكنني كنت في أمانته، وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه، حتى لو كان عشرين (سمن) دفعة واحدة!».

* * *

الفصل العاشر

كان ذلك في أحد تلك الصباحات المعتادة في بدايات الربيع، حيث السنة بشبابها الطائش السريع التغيُّر ككلِّ المخلوقات لم تقرر بعد أتخطو إلى الخلف حيث الشتاء أم إلى الأمام حيث الصيف، وفي تردُّدها هذا تميل تارة إلى أحد الجانبين وتارة إلى الآخر، وثالثة إلى كليهما معًا، خاطبة ودَّ الصيف مع شعاع الشمس، ومتباطئة لتظلَّ في رفقة الشتاء مع الظل. باختصارٍ، في أحد تلك الصباحات حيث الجو حار وبارد، رطب وجاف، مشرق ومكفهرٌّ، حزين ومسرور، ذابل ومبتهج، كل ذلك في ساعة قصيرة واحدة، استيقظ (چون ولت) العجوز، الذي كان قد سقط نائمًا على الغلَّاية النحاسية، على صوت حوافر حصان، ولمح من النافذة هيئة مسافر واعد يقبض لجام حصانه عند باب (مايپول).

لم يكن كشبابكم الوقحين الذين يطلبون إبريق جعة دافئة ثم يتصرَّفون على راحتهم كما لو كانوا قد طلبوا برميل نبيذ. لم يكن كأحدٍ من شبابكم المتعجرفين الذين يتجرَّأون على اقتحام الحانة –ذلك القدس الجليل– ويضربون (چون) العجوز على ظهره متسائلين عمَّا إذا كان في الخان فتاة جميلة، ومستفهمين أين خبَّأ خادمات غرف النوم الصغيرات، فضلًا عن مائة وقاحة أخرى من هذه العيِّنة. لم يكن كرفاقكم المتحرِّرين الذين يكشطون أحذيتهم الطويلة في مساند المدفأة في الغرفة المشتركة ولا

يلقون بالًا لوجود المبصقة إذا ما أرادوا البصق. لم يكن كأحدٍ من شبابكم المتهوِّرين الطائشين الذين يطلبون قطع لحم مستحيلة ويعتبرون وجود المخلِّل الذي لم يسمع به من قبل أمرًا مسلَّمًا به! كان سيِّدًا وقورًا رصينًا هادئًا جاوز سنَّ الشباب بقليلٍ، وإن كان ما زال منتصب القامة ممشوق القوام ككلب صيدٍ. كان مستقرًّا على ظهر جوادٍ متينٍ قسطليِّ اللون، وكانت له جلسة فارس خبير، بينما كانت ملابس ركوبه أنيقة مختارة بعناية رغم خلوِّها من تلك البهرجة الشائعة في ذلك العهد. كان يرتدي معطفَ ركوبٍ أخضر ذا لون أزهى مما قد يتوقَّع من ذائقة سيدٍ في عمره، فوق رداء قصير من المخمل الأسود، جيوبه وأسورته محلَّاة بالأربطة كما تقتضي الأناقة، كما كانت ملابسه الكتَّانية هي الأخرى من أفضل الأنواع، مشغولة عند الرُّسغين والعنق بطرز غنية، لا يلوِّث بياضها شيء. ورغم أنَّ ما التصق به من وحل الطريق يشي بأنه آتٍ من لندن، فإنَّ حصانه كان يبدو ناعمًا هادئًا تمامًا كشعره المستعار وجدائله الرمادية. لم تهتز شعرة في الرجل ولا في حصانه، وبغض النظر عن اتساخ ذيل سترته وأسفل بنطاله فقد كان هذا السيد بوجهه المشرق وأسنانه البيضاء ولباسه المرتَّب وهدوئه التام يبدو كما لو كان قادمًا لتوِّه من جلسة تزيّن مرفَّهة غنية، لترسم له صورة الفارس عند بوابة (چون ولت) العجوز.

ولا ينبغي لنا أن نفترض أن (چون) قد لاحظ هذه الخصائص كلها إلَّا على مراحل شديدة البطء، ولا أنه قد أدركها إلَّا نصفًا نصفًا، ولا حتى أنه قد قرَّر أنه قد أدركها إلَّا بعد أن أطال التفكير الجادّ! والحق أنه لو كان قد صرف انتباهه لأول وهلة بكثير أسئلة وأوامر لاستغرق الأمر أسبوعين على الأقل حتى يدرك ما فصَّلناه من أوصاف الزائر آنفًا، غير أنَّ السيد المأخوذ

بعمارة الخان القديم أو بالحمام السمين الآخذ في السعي والانحناء حوله أو بالناغط الطويل الذي يعلوه ديك رياح متعطِّل عن العمل منذ خمسة عشر عامًا، يؤدي مشية أبدية على موسيقى صياحه الخاصة، ظلَّ جالسًا وقتًا ينظر حوله صامتًا. لذا فإنَّ (چون) الذي وقف ويده على لجام الحصان وعيناه الواسعتان على الراكب، ولا شيء يحدث ليشتِّت أفكاره، كان مخُّه قد أدرك بعض تلك التفاصيل الصغيرة في الوقت الذي طلب فيه أن يتكلَّم.

قال السيد بصوتٍ غنيٍّ كلباسه: «مكان طريف هذا. أأنت مالكه؟».

ردَّ (چون ولت): «تحت أمرك يا سيدي».

قال الغريب وعيناه تمسحان الواجهة: «بإمكانك أن تعتني بحصاني في حظيرتك، أليس كذلك؟ وأن تقدِّم لي عشاءً مبكرًا، لا يهم ما يكوِّنه وإن كانت تهم نظافته، وغرفة لائقة لا يبدو أنَّ هذا المنزل العظيم يفتقر إلى مثلها».

ردَّ (چون) في استعدادٍ مدهشٍ تمامًا: «تستطيع أن تحصل يا سيدي على كلِّ ما تريد».

قال الآخر مبتسمًا: «صحيح أنني سهل الإرضاء، ولولا ذلك لكان ما تقوله نذرًا صعب التحقيق يا صديقي»، وما لبث أن ترجَّل عن صهوة جواده في لمح البصر معتمدًا على الكتلة القابعة أمام الباب.

زمجر (چون): «هالو.. يا (هيو)! أنا أعتذر إليك يا سيدي عن تركك واقفًا هكذا في الرواق، لكنَّ ابني قد ذهب إلى المدينة في رحلة عمل، ولأنه ينفعني فإنني أصبح متعطِّلًا حين يتركني. يا (هيو)! يا له من شخصٍ كسولٍ بشع متشرِّد يا سيدي! نصف غجري كما أعتقد! دائمًا ينام في

الشمس صيفًا وفي القشِّ شتاءً يا سيدي. يا (هيو)! يا إلهي! أن أضطرَّ إلى ترك سيد مثلك ينتظر هكذا بسببه! يا (هيو)! لكم أتمنى أن يموت هذا الفتى!».

ردَّ الآخر: «ربما كان ميتًا بالفعل، فأعتقد أنه لو كان على قيد الحياة لكان قد سمعك الآن تقول ما قلت».

قال المضيف المشتَّت الانتباه: «إنه ينام نومًا صعبًا في نوبات كسله، حتى إنَّ قذائف مدفع مصوَّبة إلى داخل أذنه لن تفلح في إيقاظه يا سيدي!».

لم يعلِّق الضيف على هذا العلاج الجديد للنعاس ووصفة تنشيط الناس، لكنه وقف في الرواق عاقدًا يديه خلف ظهره مستمتعًا برؤية (چون) العجوز ممسكًا بلجام الحصان ومتأرجحًا بين دافعٍ قويٍّ إلى ترك الحصان لمصيره وميل ضعيف إلى أن يقوده إلى داخل الخان ويغلق عليه القاعة ليواصل القيام على خدمة سيده.

صاح (چون) وهو في قمَّة الكرب: «الويل له، ها هو ذا أخيرًا. ألم تسمعني أناديك أيُّها الوغد؟».

لم يحر الشخص الذي وجَّه إليه العتاب جوابًا، لكنَّه وضع يده على سرج الحصان وقفز إلى ظهره في ثانية، ثم أدار رأس الحصان جهة الحظيرة واختفى على الفور.

قال الضيف: «نشيط بما يكفي وهو مستيقظ».

ردَّ (چون) ناظرًا إلى المكان الذي كان الحصان يشغله، كما لو كان غير مدركٍ تمامًا ما حدث له: «نشيط بما يكفي يا سيدي، أظنُّه يذوب! يذهب كنقطة رغوة؛ تنظر إليه فإذا هو هناك، ثم ترجع البصر كرة أخرى فإذا هو ليس هناك!».

أما وقد هبط المفوَّه (چون ولت) بأوج انفعاله إلى ما انتوى أن يكون تفسيرًا طويلًا لحياة رجله وشخصيته، إذ لم يحضره المزيد من الكلمات، فقد قاد السيد الضيف صاعدًا به درجه المفكَّك إلى أفضل شقق (مايپول).

كانت شقة فسيحة بكل المقاييس، تحتلُّ عمق الخان بكامله، ولها نافذة بارزة إلى الخارج في كلٍّ من نهايتيها في اتساع عدة غرف حديثة، وفي كل نافذة شرائح زجاج ملوَّن تحمل نقوشًا لشعارات النبالة، رغم تكسُّرها وتشقُّقها وما جرى عليها من ترميمٍ تقف شاهدًا بحضورها على أنَّ المالك السابق للمكان قد طوَّع الضوء نفسه لخدمة رتبته النبيلة، وقهر الشمس ذاتها على أن تكون بين مادحيه، آمرًا إيَّاها متى سطعت في غرفته أن تعكس شعارات عائلته العريقة، وتأخذ درجات ألوان جديدة من بعض مفاخرهم.

غير أنَّ زمنًا قد انقضى على كلِّ ذلك، ولم يبق الآن إلَّا الحقيقة العارية البسيطة ليخبر بها كل شعاع صغير في مجيئه وذهابه. فرغم كونها أفضل غرف الخان، فإنَّ لها ذلك الوجه الكئيب للعظمة التي آلت إلى الاضمحلال، وكانت أوسع مما يسمح بأن تكون مريحة. يومًا ما، كانت تزين هذه الغرفة خشخشة الستائر الغنية المتموِّجة على الجدران، وأفضل منها خشخشة لباس الشباب والجمال، وبريق أعين النساء، يتضاءل أمامه نور الشموع الموقدة وجواهرهن الثمينة، وأصوات الألسن اللطيفة والموسيقى ووقع أقدام الصبايا الخادمات، وكان ذلك كلُّه يملؤها بهجة. وآل كلُّ ذلك إلى الزوال ومعه كل ما كان بها من السعادة. لم تعُد بيتًا لأحدٍ، فلا أطفال تولد أو تُربَّى هنا، والمدفأة باتت من المرتزقة -شيئًا يباع ويُشتَرى- تمامًا كمومس، فليمت من يموت وليجلس جوارها من يجلس، وليتركها من

يشاء، فالأمر سواء، لا تفتقد أحدًا ولا تلقي بالًا إلى أحد، وتوزِّع الدفء والابتسامات على الجميع بالتساوي. للّه رجل يتغيَّر قلبه أبدًا مع العالم، كمنزلٍ قديمٍ حين يصبح خانًا!

لم يُبذَل جهدٌ في تأثيث هذه الخرابة الموحشة، غير أنَّ مستعمرة من المقاعد والمناضد قد زرعت على مربَّع من البسط أمام المدخنة العريضة، وعلى جانبيها ستارٌ شبحيٌّ تثريه نقوشٌ لأشخاصٍ بشعين ضاحكين. وبعد أن أوقد (چون) العجوز بيديه حزمة الحطب المكوَّم على أرضية المدفأة، انسحب ليتباحث مع طبَّاخه في جديَّة بخصوص ضيافة الغريب، وإذ ذاك كان الضيف نفسه -حين لم يرَ في الحطب الذي لم يشتعل بعد إلا القليل من الدفء- قد لجأ إلى فتح شعرية في النافذة البعيدة ليستدفئ بشعاعٍ عليلٍ ترسله شمس آذار الباردة.

وبعد أن كان يترك النافذة كلَّ حين ليحرك أعواد الحطب المتقدة أو ليذرع الغرفة ذات الصدى من أقصاها إلى أقصاها، أغلق النافذة حين تم اتقاد النار في المدفأة، ثم طلب (چون ولت) وهو يدفع عجلات أكثر المقاعد راحة إلى أدفأ ركنٍ.

قال (چون): «سيدي».

كان يريد قلمًا وحبرًا وورقًا. على رفِّ المدفأة كان ثَمَّ مقلمة قديمة تضم عيناتٍ مترَّبة من المطلوبات الثلاثة، وبعد أن وضعها أمامه صاحب الخان كان يتراجع، لولا أن أشار إليه الغريب أن يبقى.

قال الضيف بعد أن كتب أسطرًا قليلة: «ثمَّ منزل ليس على مبعدة من هنا، تسمُّونه منزل (وارن) كما أعتقد؟».

وحيث قيل ذلك بلهجة من يعرف الحقيقة لكنه طرح السؤال باعتبار إجابته معروفة، فقد اكتفى (چون) بأن أومأ برأسه علامة الإيجاب، وهو يسحب إحدى يديه من جيوبه ليسعل خلفها ثم أعادها ثانية.

قال الضيف ناظرًا إلى ما كتبه طاويًا إيَّاه: «أريد لهذه الرسالة الموجزة أن تُحمَل إلى هناك على الفور، وأن يُحمَل إليَّ ردٌّ، أأجد عندك رسولًا جاهزًا؟».

فكَّر (چون) دقيقةً أو ما إليها ثم أجاب: «نعم».

قال الضيف: «دعني أراه».

كان هذا مربكًا، فحيث كان (چو) بالخارج، وكان (هيو) منشغلًا بتدليك الحصان القسطلي اللون، فقد خطَّط لأن يرسل (بارنابي) في هذه المهمة، ذلك الذي قد وصل لتوِّه في واحدة من جولاته، والذي كان مستعدًّا لأن يذهب إلى أي مكان ليشعر أنه يقوم بعملٍ خطيرٍ جادٍّ.

قال (چون) بعد صمتٍ طويلٍ: «في الحقيقة يا سيدي، أسرع من يحمل الرسالة شخصٌ على سجيَّته كما يقولون، ورغم سرعته وجدارته بالثقة كالبريد ذاته، فإنه لا يحسن الكلام، لكونه ممسوسًا طائشًا».

قال الضيف رافعًا عينيه إلى وجه (چون) السمين: «أنت لا ... أنت لا تعني... ما اسمه؟ أنت لا تعني (بارنابي)؟».

ردَّ صاحب الخان وملامحه تنطق بالدهشة: «بل أعنيه».

سأل الضيف وهو يسند ظهره إلى مقعده، متحدثًا بنفس اللهجة المحايدة الرمادية التي لم يحد عنها، وبنفس الابتسامة اللطيفة الودود على وجهه، لا تحول ولا تتغيَّر: «كيف تأتَّى أن يكون هنا؟ لقد رأيته ليلة أمس في لندن».

ردَّ (چون) العجوز بعد فترة الصمت المعتادة حتى يستوعب السؤال: «إنه دائمًا هنا في ساعة وهناك في التالية. يمشي أحيانًا ويجري أحيانًا. لا يجهله أحدٌ على الطريق، وأحيانًا يأتي إلى هنا في عربة كبيرة أو صغيرة أو مرتدفًا على حصان. يأتي ويذهب في الريح والمطر والجليد والبرد وفي أحلك الليالي، لا شيء يضرُّه».

قال الضيف في لا مبالاة: «إنه كثيرًا ما يذهب إلى (وارن)، أليس كذلك؟ يُهيَّأ لي أني أذكر أن أمَّه أخبرتني البارحة بشيء كهذا، غير أني لم أكن منتبهًا لها بالقدر الكافي».

أجاب (چون): «أنت محقٌّ يا سيدي، يذهب إلى هناك كثيرًا، لقد قُتِل أبوه في ذلك المنزل».

قال الضيف وهو يتناول خلَّة أسنان ذهبية من جيبه بنفس الابتسامة الحلوة: «كذا سمعت، يا له من حادثٍ مؤسفٍ لتلك العائلة».

قال (چون) بنظرة حائرة كما لو كان قد عنَّ لتفكيره من بعيد أنَّ هذه الطريقة ربما تكون مناسبة للتعامل مع الأمر: «جدًّا».

قال الضيف كأنما يحدِّث نفسه: «مؤكَّد أنَّ كلَّ الظروف التالية لحادث قتل يكون محزنًا للغاية، الكثير من الاضطراب والهياج، لا راحة. عودة الأحاديث دائمًا وأبدًا إلى نفس الموضوع. والركض إلى الداخل وإلى الخارج وإلى أعلى السلَّم وأسفله، شيء لا يحتمل. تحت أيِّ ظرف لا أتمنى أن يحدث مثل ذلك لأيِّ إنسان أهتمُّ لأمره. إنه أمرٌ كافٍ لأن يقضي على المرء» ثم أضاف مستديرًا إلى (چون) مجدَّدًا: «كنتُ على وشك أن تقول شيئًا أيُّها الصديق».

ردَّ (چون): «فقط إنَّ السيدة (ردچ) تعيش على راتبٍ ضئيلٍ تدفعه لها العائلة، وإنَّ (بارنابي) لا علاقة له بذلك المنزل، كأيِّ كلبٍ أو قطٍّ حوله، هل يقوم بمهمَّتك يا سيدي؟».

ردَّ الضيف: «أوه. نعم، بالطبع، دعه يقوم بها بالتأكيد. أرجو أن تحضره إلى هنا لأكلِّفه بأن يكون سريعًا. ولو اعترض على المجيء أخبره بأنَّ صاحب المهمة مستر (تشستر)، أظنُّه سيذكر اسمي».

دهش (چون) للغاية لمعرفة هويَّة زائره، لدرجة أنه لم يستطع التعبير عن دهشته تمامًا، لا بالنظرات ولا بغيرها، بل غادر الغرفة كما لو كان في أكثر حالاته اطمئنانًا وسكونًا. وقد قيل إنَّه حين نزل الدَّرج ظلَّ يحملق إلى الغلَّاية لعشر دقائق كاملة كما أخبرت الساعة، ولم يكف عن هزِّ رأسه طيلة هذا الوقت، وهو قول يبدو أنَّ له ما يؤيِّده من الحقيقة وإمكان الحدوث، لا سيَّما أنَّ هذا الوقت قد مرَّ بالفعل قبل أن يعود بـ(بارنابي) إلى شقة الضيف.

قال مستر (تشستر): «تعالَ هنا يا صبي، أتعرف مستر (چفري هاردال)؟».

ضحك (بارنابي) ونظر إلى صاحب الخان كما لو كان سيقول: «أتسمعه؟»، بينما ضرب (چون) أنفه بإصبعه مصدومًا تمامًا من هذا الخروج على اللياقة، وهزَّ رأسه في احتجاجٍ صامتٍ. ثم قال وهو يعبس جانبًا في وجه (بارنابي):

«إنه يعرفه يا سيدي، تمامًا كما تعرفه وأعرفه أنا».

ردَّ الضيف: «لم أسعد بمعرفة السيد معرفة كبيرة. ربما عرفته أنت، لا تدع المقارنة تجاوزك يا صديقي».

ورغم أنَّ ذلك قد قيل باللهجة الودود ذاتها والابتسامة عينها، فقد شعر (چون) أنه قد كبت، ولمَّا كان قد عزا هذه الإهانة إلى (بارنابي)، فقد قرَّر أن يركل غرابه في أول فرصة.

قال الضيف الذي كان قد انتهى من ختم الرسالة الآن وأشار إلى رسوله أن يقترب وهو يتحدث: «سلِّم هذا ليد مستر (هاردال) نفسه. انتظر ردًّا وجئ به إليَّ هنا، ولو وجدت أنَّ مستر (هاردال) مشغول الآن فأخبره... هل يستطيع أن يتذكَّر رسالة شفهية يا صاحب الخان؟».

ردَّ (چون): «إذا أراد ذلك يا سيدي، لن ينسى هذه».

«لماذا أنت متأكِّد من ذلك؟».

لم يزِد (چون) على أن أشار إليه وهو يقف مميلًا رأسه إلى الأمام، ونظرته المتحمسة ثابتة على وجه سائله، وأومأ إليه بحكمة.

قال مستر (تشستر): «إذن أخبره يا (بارنابي) إن كان مشغولًا الآن، بأنني سأكون مسرورًا بتشريفه لي هنا، وبأنني أنتظر أن أراه الليلة في أي وقتٍ إن كان سيزورني. أفترض يا (ولت) أنني يمكنني أن أبيت هنا في أسوأ الظروف؟».

أجاب (چون) العجوز بما يشبه النظرة العارفة، وقد أطرته كثيرًا تلك السمعة الشخصية السيِّئة التي توحي بها هذه الطريقة الأليفة في الخطاب: «أعتقد أنه بإمكانك ذلك يا سيدي»، وكان يقلِّب في ذهنه الأشكال المختلفة للإطراء، بغية اختيار شكلٍ مناسبٍ لخصائص أفضل سرره، ثم ما لبثت أفكاره أن هربت حين أعطى مستر (تشستر) (بارنابي) الرسالة وأمره بأن ينطلق بأقصى سرعته.

قال (بارنابي) وهو يطوي الرزمة الصغيرة في صدره: «أسرع! أسرع! لو أردت أن ترى العجلة والغموض، فتعال هنا، هنا!».

قالها ووضع يده على كمِّ الضيف الأنيق، ما تسبَّب في رعب (چون ولت)، وقاد الضيف خلسة إلى النافذة الخلفية.

قال بهدوءٍ: «انظر إلى أسفل هناك، أتُرى كيف يهمس بعضهم في آذان بعضٍ، ثم يرقصون ويتقافزون ليوهموا بأنهم يتريَّضون؟ أترى كيف يتوقفون لحظة حين يظنُّون ألَّا ينظر إليهم أحدٌ، ويغمغمون فيما بينهم مجدَّدًا، ثم يتدحرجون ويتقافزون، فرحين بما خطَّطوه من الأذى؟ انظر إليهم الآن، انظر كيف يدورون ويسقطون. والآن يتوقفون ثانية ويتهامسون فيما بينهم بحذرٍ، ولا يكاد يخطر ببالهم -انتبه لذلك- كم مرة رقدت على العشب وراقبتهم، أقول لماذا يخططون ويدبِّرون؟ أتعرف؟».

ردَّ الضيف: «إنها ملابس فقط، كهذه التي نرتديها. معلَّقة على هذه الحبال لتجفَّ، وتخفق بفعل الريح».

ردَّد (بارنابي) ناظرًا إلى وجهه من قريبٍ ثم متراجعًا بسرعة: «ملابس! ها ها! ما أفضل أن يكون المرء أحمق من أن يكون عاقلًا مثلك! أنتَ لا ترى أناسًا غامضين هناك كأولئك الذين يعيشون في النوم؟ لا ترى. ولا أعينًا في ألواح الزجاج المعقودة، ولا أشباحًا خاطفة حين تهبُّ الرّيح قوية، ولا تسمع أصواتًا في الجو، ولا ترى رجالًا يمشون متعجرفين في السماء؟ لا ترى أنت! إنني أحيا حياة أكثر مرحًا من حياتك، رغم كل ذكائك. أنتم الرجال الأغبياء، ونحن الأذكياء. ها ها! لن أبدِّل معك رغم ذكائك، ليس أنا!».

قالها ولوَّح بقبَّعته فوق رأسه ثم انطلق خارجًا.

قال الضيف مستخرجًا صندوقًا أنيقًا ومستنشقًا منه سحبة سعوط: «مخلوق غريب، أقسم على ذلك!».

قال مستر (ولت) في بطء شديدٍ وبعد صمتٍ طويلٍ: «إنه يفتقر إلى الخيال، هذا ما يفتقر إليه. لقد حاولت أن أغرسه فيه أكثر من مرة، لكن..»، ثم أضاف في ثقة: «إنه لم يُخلق له، هذه هي الحقيقة».

لن يجدينا شيئًا أن نسجِّل أنَّ مستر (تشستر) قد ابتسم لملاحظة (چون)، إذ إنه ظل محتفظًا بنفس الوجه المداهن السار طيلة الوقت. غير أنَّه قرَّب مقعده من المدفأة، كما لو كان يلمح إلى أنَّه يفضِّل أن يُترك بمفرده، فتركه (چون) لنفسه، لا سيَّما أنَّه لم يكن لديه مبرِّرٌ مقبولٌ للبقاء.

كان العجوز (چون ولت) مستغرقًا في التفكير بينما يعدُّ العشاء. ولو جاز أن يقال إنَّ ذهنه كان أقلَّ صفاءً في وقتٍ ما مما هو معتاد، فمن المعقول جدًّا أن نفترض أنه قد هوَّش هذا الذهن اليوم بدرجة جدٍّ كبيرة بهزِّه رأسه كثيرًا. أن يزوره مستر (تشستر) -ذلك الذي يعرف الجوار كله ما بينه وبين مستر (هاردال) من عداوة مرّة عميقة- لغرضٍ وحيدٍ فيما يبدو، هو رؤية ذلك الأخير، وأن يختار (مايپول) مكانًا للقائهما، وأن يرسل إليه على وجه السرعة، فهذه كلُّها عراقيل يستعصي على فهم (چون) عبورها. كانت التسلية الوحيدة أمامه أن يحادث الغلَّاية ريثما ينتظر عودة (بارنابي) بنفاد صبرٍ.

بيد أنَّ (بارنابي) تأخر تأخُّرًا غير مسبوقٍ. لقد وضع عشاء الزائر ورفع، وأعدَّت له الخمر، وغذِّيت نار المدفأة، وكنست أرضيَّتها، وخفت الضوء بالخارج، وجاء الشفق، وخيَّم الظلام، ولم يأتِ (بارنابي). لكن

رغم دهشة (چون ولت) الشديدة وقلقه، فقد جلس ضيفه متربِّعًا في مقعده المريح، لا يبدو عليه اضطرابٌ في أفكاره إلَّا كالقليل الذي يعتور لباسه، وظلَّ السيد الهادئ البارد السهل نفسه، بلا همٍّ ولا فكرٍ خلاف خلَّة أسنانه الذهبية.

أبدى (چون) ملاحظته وهو يضع شمعدانين متَّسخين يقارب طولهما الأقدام الثلاثة على المنضدة ويطفئ نورهما: «لقد تأخَّر (بارنابي)».

ردَّ الضيف مرتشفًا نبيذه: «تأخَّر إلى حدٍّ ما، أعتقد أنه لن يتأخَّر أكثر من ذلك».

سعل (چون) وهو يحرك النار، فأردف مستر (تشستر):

«أما وإن طرقكم سيِّئة عمومًا، إذا كان لي أن أحكم مما حدث لابني، ولا أحلم بأن يدقَّ رأسي -الأمر الذي إن حدث فلن يكون مربكًا فحسب لحظة حدوثه، لكنَّه كذلك يضع المرء في وضعٍ سخيفٍ بالنظر إلى من ينتشلونه من مأزقه- فسأبيت الليلة هنا. أظنُّك قلتَ إنَّ لديك فراشًا من أجلي».

ردَّ (چون ولت): «إنه فراشٌ يا سيدي، فراشٌ لا تضمُّ مثله إلَّا قلَّة من البيوت، حتى بيوت الأثرياء. هو أثاث مثبَّت هنا يا سيدي. لقد سمعت أن عمره هنا يقارب قرنين من الزمان، وقد نام فيه ولدك النبيل -ذلك السيد الشاب الرائع- منذ نصف عام».

قال الضيف هازًّا كتفيه ودافعًا عجلات مقعده قريبًا من النار: «يا له من إغراءٍ لي بالبيات فيه! اهتم بأن يُهوَّى جيدًا يا مستر (ولت)، وبأن توقد مدفأته على الفور، إن هذا الخان رطبٌ باردٌ».

حرَّك (چون) أعواد الحطب مجدَّدًا، بطريقة لا واعية صادرة عن

الاعتياد، لا عن التأثُّر بملاحظة الزائر، وكان على وشك أن ينسحب لولا خطوة قافزة سُمِعت على الدرج، دخل على إثرها (بارنابي) لاهثًا.

صاح مقتربًا: «سيمتطي صهوة حصانه خلال ساعة، لقد كان على ظهره بالفعل طيلة النهار، وعاد لتوِّه إلى بيته، لكنَّه سيركب ثانية بمجرَّد أن يأكل ويشرب، ليقابل صديقه المحبّ».

سأل الزائر رافعًا عينيه لكن من دون أثرٍ لاضطرابٍ، أو على الأقل من دون أن يبدو عليه أثرٌ لاضطرابٍ: «أهذه رسالته؟».

ردَّ (بارنابي): «نعم، باستثناء الكلمات الأخيرة، كان يعنيها، رأيتُ ذلك في وجهه».

قال الآخر واضعًا نقودًا في يده وهو ينظر إليه بثباتٍ: «هذا مقابل تعبك، هذا مقابل تعبك يا (بارنابي) الذكي».

ردَّ (بارنابي): «هذا لـ(غرپ) ولي ولـ(هيو)، نتقاسمه بيننا» قالها مومئًا وهو يعدُّ الشركاء على أصابعه، ثم أضاف: «(غرپ) واحد، أنا اثنان، (هيو) ثلاثة، الكلب، المعز، القطط. حسنًا، أحذِّرك من أننا سننفقها عاجلًا. ابق، انظر، ألا ترون أيُّها العقلاء شيئًا هناك الآن؟».

انحنى في حماسٍ على ركبة واحدة، وحدَّق إلى تصميمٍ في الدخان المتصاعد في سحابة سوداء كثيفة من المدفأة. نظر (چون ولت) –الذي بدا أنه يعتبر نفسه مشارًا إليه بخاصة ضمن من يشار إليهم بمصطلح (العقلاء)– إلى نفس الجهة بملامح شديدة الجمود.

سأل (بارنابي): «والآن إلى أين يذهبون حين يقفزون بهذه السرعة إلى أعلى هناك؟ هاه؟ لماذا يدوسون من قريب كلٌّ عقب الآخر، ولماذا

هم في عجلة دائمًا – ما تلومني لأجله، بينما أنا لا أفعل إلَّا أن أقلِّد هؤلاء المشغولين من حولي؟ المزيد منهم! يمسك كلٌّ بذيل رداء صاحبه، وبالسرعة التي يذهبون بها يأتي غيرهم! يا لها من رقصة مرحة! لكم أحب لو أنَّ (غرپ) وأنا نستطيع أن نقفز هكذا!».

سأل الضيف بعد لحظاتٍ قضاها (بارنابي) منحنيًا لينظر إلى أعلى المدخنة مراقبًا الدخان في جدية: «ماذا لديه في تلك السلة التي يحملها على ظهره؟».

أجاب (بارنابي) وهو يقفز واقفًا قبل أن يتمكَّن (چون ولت) من الرد، هازًّا السلة وهو يتكلَّم، خافضًا رأسه ليسمع: «في هذه؟ في هذه؟ ماذا هناك فيها؟ أخبره!».

صاح صوتٌ أجشّ: «عفريت، عفريت، عفريت!».

قال (بارنابي) وهو يرنُّ النقود في يده: «هنا نقود، نقود لحلوى يا (غرپ)».

ردَّ الغراب: «هوراه! هوراه هوراه! ليكن لديكم أملٌ! لا تيأسوا! باو واو واو!».

أمَّا مستر (ولت) -الذي بدا أنَّ شكوكًا قوية بدأت تراوده فيما إذا كان من الممكن أن نفترض أنَّ زبونًا ذا لباسٍ أنيقٍ ومعطفٍ مزدان بالأشرطة قد تربطه أيُّ معرفة حتى بوجود مثل تلك الطبقة البذيئة التي يدَّعي الطائر الانتماء إليها- فقد أخذ (بارنابي) إلى الخارج ليمنع صدور أي تصريحاتٍ أخرى غير لائقة، وغادر الغرفة منحنيًا أفضل انحناءاته.

الفصل الحادي عشر

كانت هناك أخبارٌ عظيمة هذه الليلة لزبائن (مايپول) الدائمين، فبينما يهيم كلٌّ منهم على وجهه ليأخذ مكانه المحدَّد في ركن المدفأة، همس (چون) همسة محمومة في أذن كلٍّ منهم على حدة، ببطء بالغ التأثير، مبلغًا إيَّاهم بحقيقة أنَّ مستر (تشستر) وحده في الغرفة الواسعة بالطابق الأعلى، ينتظر وصول مستر (چفري هاردال) بعد أن أرسل إليه رسالة (لا ريب أنها رسالة تهديد) مع (بارنابي) الذي كان موجودًا بينهم.

كانت هذه عطيّة ربَّانية كاملة بالنسبة إلى جماعة صغيرة من المدخِّنين الثرثارين الذين لا يحظون بموضوعاتٍ جديدة يناقشونها إلَّا فيما ندر. لديهم الآن لغزٌ معقولٌ مظلم يحدث تحت السقف نفسه الذي يظلُّهم، جيء به إلى ركن المدفأة حسبما اتفق، ولهم أن يستمتعوا به دونما جهد. وما أشد الإثارة وقد منح هذا اللغز الشراب نكهة وحماسًا، وقوَّى كذلك نكهة التبغ. دخَّن كلٌّ منهم غليونه بوجه ممتلئ سرورًا رصينًا خطيرًا، ونظر إلى جاره بنوعٍ من التهنئة الهادئة. بل إنهم شعروا أنها ليلة عيدٍ استثنائية، حتى إنّ كلًّا منهم –ومعهم (چون) نفسه– تبع إشارة (سولومون دايزي) الضئيل ووضع بنساته الستة طالبًا كأس جعة ساخنة، فنُقِعت الجعة سريعًا، ووضعت بينهم على أرضية القرميد، لتجيش وتثور أمام النار،

وليلفّهم بخارها العطر المتصاعد بينهم -بعد أن يمتزج بأكاليل الدخان من غلايينهم- في جوٍّ لذيذٍ لهم وحدهم، حاجبًا عنهم العالم. حتى أثاث الغرفة بدا كما لو كان ينضج في لونه ويزداد دكنة، وبدا السقف والجدران أشدَّ سوادًا وأجود صقلًا، وحمرة الستائر أكثر تورُّدًا، وأصبحت النار أصفى وأعلى اشتعالًا، وصرّت الجداجد في المدفأة في رضًا يفوق ما اعتادته.

غير أنَّ اثنين من الموجودين لم يبديا إلَّا أقل الاهتمام بحالة السعادة العامة. أحد هذين كان (بارنابي) نفسه الذي نام أو اصطنع النوم في ركن المدفأة ليتجنَّب أن يواصلوا إزعاجه بالأسئلة، وأما الآخر النائم كذلك فكان (هيو) الذي تمدَّد راقدًا على الأريكة قبالتهم، قريبًا جدًّا من وهج النار، وقد أظهر الضوء الساقط على جسده النائم كل أبعاده المتناسقة وتقاسيمه العضلية. كان جسد رجل شابٍّ ذي قوامٍ رياضيٍّ سليم وقوة عملاق، إلى وجه لوَّحته الشمس وعنق أسمر يغطِّيه شعرٌ فاحم السواد، يصلحان لإلهام رسَّام لوحةً يصوِّره فيها. كان يرتدي ملابس فضفاضة كأغلظ وأخشن ما تكون الملابس، تتعلَّق بها قطعٌ من القشِّ والتِّبن هنا وهناك من فراشه المعتاد، وتمتزج بغدائره الشعثاء، وقد سقط نائمًا في وضعٍ لا يقلُّ لا مبالاة عن ملابسه. وقد أضفى عليه إهمال هيئته وفوضاها مع شراسة وجهامة ملامحه مظهرًا جذَّابًا للأنظار، لا سيَّما أنظار زبائن (مايپول)، حتى أولئك الذين كانوا يعرفونه جيدًا، ما دعا (پاركس) الطويل إلى أن يقول إنَّ (هيو) يبدو الليلة وغدًا لصًّا أكثر من ذي قبل.

قال (سولومون): «أفترض أنَّه ينتظر هنا ليأخذ حصان مستر (هاردال)».

ردَّ (چون ولت): «بالضبط يا سيدي، هو لا يكون داخل البيت كثيرًا كما تعلم، يكون على راحته بين الخيل أكثر مما بين الناس، أنا أنظر إليه كحيوانٍ هو نفسه».

وبعد أن أتبع هذا القول بهزَّة كتفين بدت تقول «لا يمكن أن نتوقَّع أن يكون كلُّ الناس مثلنا»، وضع غليونه في فمه ثانية، وأخذ يدخِّن كشخصٍ يشعر بتفوُّقه على عامة الجنس البشري. ثم ما لبث أن أخرج غليونه من فمه مجدَّدًا وأشار بساقه إلى (هيو) قائلًا: «هذا الشاب يا سيدي، رغم عدم افتقاره إلى قدرات معبّأة مكتومة فيه إن جاز التعبير..».

قال (پاركس) مومئًا برأسه: «جيِّد جدًّا، تعبيرٌ جيِّد جدًّا يا چوني! ستبارز أحدهم عمَّا قريب! أنت الليلة لمّاح!».

قال مستر (ولت) غير ممتنٍّ للإطراء: «كُن على حذرٍ من أنني لا أبارزك، لكني قطعًا سأحاول أن أفعل إذا ما قاطعتني وأنا أعبِّر عن تأمُّلاتي. كنت أقول إنَّ هذا الشاب رغم امتلاكه قدراته معبّأة مكتومة في مكانٍ ما منه، ليس لديه من الخيال ما يفوق ما لدى (بارنابي)، ولماذا هو كذلك؟».

هزَّ الأصدقاء الثلاثة رؤوسهم فيما بينهم، قائلين بهذه الحركة من دون أن يجهدوا أنفسهم في فتح أفواههم: «ألاحظتم أيَّ عقلية فلسفية يملكها صديقنا؟».

قال (چون) وهو يضرب المنضدة براحة يده في لطفٍ: «لماذا هو كذلك؟ لأنَّ هذه القدرات لم تشدّ أبدًا منه وهو صبيّ، هذا هو السبب. ماذا كان يمكن أن يكون حال أيِّنا لو أنَّ آباءنا لم يشدُّوا منَّا قدراتنا؟ ماذا كان يمكن أن يكون ابني (چو) لو أني لم أشدّ ملكاته منه؟ هل تدركون ما أقوله أيها السادة؟».

صاح (پاركس): «آه، ندرك، استمرّ في تعليمنا يا چوني.

قال مستر (ولت): «وعلى ذلك، فإنَّ هذا الشاب الذي شُنِقت أمُّه وهو بعد صبيٌّ صغير، مع ستة آخرين جزاء ترويجهم أموالًا مزيَّفة -وإنه أمر سارٌّ أن نفكِّر كم من الناس يشنقون جماعات كلَّ ستة أسابيع لمثل هذه الجريمة، فإن ذلك يبين كيف أنَّ حكومتنا يقظة- هذا الشاب الذي تُرِك حبله على غاربه بعد ذلك واضطرَّ إلى رعي البقر وإخافة الطيور وما إلى ذلك لأجل بنساتٍ قليلة يعتاش منها، إلى أن تطوَّر الأمر معه إلى رعاية الخيل، وإلى أن ينام في مخازن الحبوب وفي القمامة بدلًا من أن ينام تحت أكوام القشِّ والسّياجات، حتى أصبح أخيرًا سائسًا في (مايپول) مقابل أكله ونومه وراتب سنويٍّ زهيد، هذا الشاب الذي لا يستطيع القراءة والكتابة، ولم يكن له أبدًا أيُّ دخل بأي شيء بخلاف الحيوانات، كما لم يحي أبدًا حياة مختلفة عن حياة الحيوانات التي عاش بينها، هو حيوان».

ثم أضاف وقد وصل إلى نتيجته المنطقية: «ويجب أن يعامل على هذا الأساس».

قال (سولومون دايزي) الذي أبدى شيئًا من نفاد الصبر بسبب قطع موضوع رخيص كهذا عليهم موضوعهم الأكثر إثارة: «(ولت)، حين جاء مستر (تشستر) صباح اليوم، هل طلب الغرفة الواسعة؟».

قال (چون): «لقد أشار يا سيدي إلى أنه يريد شقة واسعة، نعم، بالتأكيد».

قال (سولومون) متحدثًا في صوتٍ خافتٍ ونظرة جادَّة: «لماذا إذن، سأخبرك بالأمر، سيتبارز مع مستر (هاردال) فيها».

نظر الجميع إلى مستر (ولت) على إثر هذا الاقتراح المقلق، بينما نظر

(ولت) إلى النار وهو يزن بعقله ما يمكن أن يترتب على هذا الأمر من آثارٍ على الخان.

قال (چون): «حسنًا، لا أعرف، أنا متأكد.. أذكر أنني حين صعدت إليه آخر مرَّة كان قد وضع المصابيح على رفِّ المدفأة».

ردَّ (سولومون): «الأمر واضحٌ كالأنف الذي في وجه (پاركس)».

هنا فرك مستر (پاركس) أنفه الكبير، وبدا كما لو كان يعتبر هذا القول إشارة شخصية إليه. هنا أضاف (سولومون):

«سيتبارزان في هذه الغرفة. أنت تعرف من الجرائد كم هو شائع بين السادة النبلاء أن يتبارزوا في المقاهي في جولة واحدة حاسمة، أحدهما سيجرح وربما سيقتل في هذا الخان».

قال (چون): «إذن فلم يكن ما حمله (بارنابي) إلَّا تحدّيًا. أليس كذلك؟».

أجاب الضئيل: «أن يرسل ورقة صغيرة وعليها مقياس سيفه. أنا أراهن بجنيه. نحن نعلم أيّ نوعٍ من الرجال هو مستر (هاردال). لقد أخبرتنا بما قاله (بارنابي) عن هيئته حين عاد من عنده. ثق بما أقوله فأنا متأكد. والآن كُن على حذرٍ».

لم يكن للجعة الساخنة نكهة أبدًا إلَّا الآن. أمَّا التبغ فلم يزِد أبدًا على أن كان نبتًا إنـگليزيًّا إذا ما قورن بطعمه الحالي. مبارزة في تلك الغرفة العظيمة العتيقة بالطابق العلوي، وأفضل فراش قد أمر به بالفعل لجريح المبارزة! قال (چون):

«إذن فهل ستكون بالسيوف أم بالمسدسات؟».

ردَّ (سولومون): «يعلم الله، ربما بالاثنين. النبلاء يحملون سيوفًا في خواصرهم، ويستطيعون أن يحملوا مسدسات في جيوبهم بسهولة، وغالبًا لديهم مسدساتهم بالفعل. لو أنهما صوَّبا كلّ على صاحبه دون إصابة، فإنهما يتعادلان، وحينذاك يجدَّان في المبارزة».

أظلَّت وجه مستر (ولت) سحابة قاتمة حين فكَّر في النوافذ المكسورة والأثاث المصاب، غير أنَّه أشرق ثانية حين مرَّ بخاطره أنَّ أحد المتبارزين سيظلُّ حيًّا ويدفع تكلفة ما لحق الخان من ضررٍ.

قال (سولومون) منقِّلًا بصره من وجه إلى آخر: «وإذن، وإذن ستنطبع على الأرضية واحدة من تلك البقع التي لا تزول أبدًا. لو انتصر مستر (هاردال) فستكون بقعة داكنة، ثقوا بما أقول، ولو خسر فربما تكون أدكن، فإنه لن يستسلم إلَّا منهزمًا؛ نحن نعرفه أكثر، أليس كذلك؟».

غمغموا معًا: «نعرفه أكثر بالفعل!».

قال (سولومون): «وأمَّا عن عدم زوالها أبدًا، فإني أخبركم بأنها لن تزول ولا يمكن أن تزول. ألا تعرفون أنَّ مثل ذلك حاوله آخرون في منزلٍ نعرفه جميعًا؟».

صاح (چون): «في منزل (وارن). لا. بالتأكيد!».

«نعم بالتأكيد نعم. قلَّة فقط يعرفون ذلك، غير أنَّ الأمر كان يتحدَّث عنه سرًّا. لقد حاولوا سحج الخشب لإزالة البقعة، لكنها بقيت. تعمَّقوا في السحج لكنَّها كانت أعمق من محاولاتهم. وضعوا عليها ألواحًا خشبية جديدة، غير أنَّ بقعة كبيرة تخلَّلتها لتظهر في مكانها القديم نفسه. وأنصتوا لما أقوله، اقتربوا، لقد جعل مستر (چفري) هذه الحجرة مكتبه ويجلس فيها دائمًا وقدمه على البقعة كما قيل لي، وهو يعتقد –من طول تفكيره في

الأمر- أنَّها لن تذهب أبدًا إلا إن وجد المجرم الذي فعلها».

حين انتهت كلمة (سولومون)، وكلهم متقاربون حول النار، سُمِعت حوافر حصان بالخارج، صاح (چون) فزعًا:

«لقد أتى الرجل. (هيو)! (هيو)!».

ترنَّح النائم واقفًا على رجليه وأسرع خلف (چون) الذي عاد سريعًا مؤذنًا بكثير اهتمام وتبجيل (حيث إنَّ مستر هاردال كان مالك البيت) دخول الزائر الذي طال انتظاره، ذلك الذي خطا إلى داخل الغرفة بخطواتٍ واسعة وهو يضرب أرضيتها بحذائه الثقيل، ويقلِّب بصره في حرصٍ في الجماعة التي انحنت له، ثم رفع قبَّعته محيّيًا احترامهم العميق، وقال بصوتٍ بدت طبيعته صارمة عميقة: «لديك غريبٌ هنا يا (ولت)، وقد أرسل إليَّ، فأين هو؟».

ردَّ (چون): «في الغرفة الكبيرة بالطابق العلوي يا سيدي».

«قدني إلى هناك. درجك مظلمٌ كما أعلم، أيها السادة، طابت ليلتكم».

بهذه الكلمات أشار إلى صاحب الخان أن يتقدَّمه، وتبعه وهو يضرب الأرض بحذائه صاعدًا الدَّرج، بينما (چون) العجوز في اضطرابه يضيء كلَّ ما يصادفه إلَّا الطريق، ويتعثَّر في كل درجتين.

حين وصلا إلى الطرقة المؤدية إلى الغرفة قال الزائر: «توقَّف، أستطيع أن أعلن مقدمي بنفسي، لا تنتظر».

وضع يده على الباب ودخل وأغلقه وراءه بقوة. لم يكن لدى مستر (ولت) أيُّ ميل إلى أن يقف هناك بمفرده يتنصّت، لا سيَّما أنَّ الجدران سميكة. وعلى ذلك فقد هبط الدرج أسرع بكثيرٍ مما صعد، وانضمَّ إلى رفاقه بالأسفل.

الفصل الثاني عشر

كان ثَمّ َصمتٌ قصيرٌ في الغرفة الكبرى لخان (مايپول)، حيث حاول مستر (هاردال) أن يفتح الباب من الداخل رغم إغلاقه القفل، ليطمئنَّ إلى أنه قد أغلق الباب إغلاقًا محكمًا، ثم إنه ذرع الغرفة المظلمة بخطىً واسعة إلى حيث يحجب الستار ركنًا مضاءً دافئًا، وأعلن عن مقدمه بغتة وفي صمتٍ للضيف المبتسم.

ولو أنَّ ما في قرارة نفسيهما من ودٍّ لم يزد شعرة على ما تظهره هيئتهما منه، فإنَّ لقاءهما لم يبدُ بحالٍ واعدًا بأن يكون لقاءً سارًّا هادئًا. وبخلاف قلَّة فارق العمر بينهما، فإنهما في كلِّ ما عدا ذلك كانا أبعد ما يمكن أن يكون رجلان كلٌّ من صاحبه. فأحدهما كان خافت الصوت رقيق البنية دقيق الحديث أنيقًا في كل شيء، بينما الآخر ربعة متين البنيان مهمل في لباسه، فظٌّ غليظ جهم، وفي مزاجه الحاليّ كان إلى ذلك لا يدعو بهيئته وحديثه إلى الاقتراب منه. أحدهما احتفظ بابتسامة هادئة صافية، بينما لاذ الآخر بعبوسٍ مرتابٍ. وقد بدا الزائر الجديد بالفعل مصمِّمًا على أن تظهر لهجته وكلُّ إيماءة منه صلابة موقفه العدوانيِّ المعارض للرجل الذي أتى للقائه. بينما بدا الضيف الذي استقبله كأنه يشعر أنَّ الفارق بينهما يرجِّح كفَّته هو نفسه، وأنه يشعر بفرحة النصر لذلك وبأنه أكثر راحة بينه وبين نفسه من أيّ وقتٍ مضى.

قال هذا السيد دون أدنى ارتباكٍ أو تحفُّظ: «هاردال، أنا مسرور جدًّا بلقائك».

ردَّ الآخر ملوِّحًا بيده: «دعنا نتغاضى عن عبارات التحية، فليس لها مكانٌ بيننا، ونقول بوضوحٍ ما ينبغي لنا قوله. لقد طلبت مني أن آتي للقائك، وهأنذا. فلماذا نقف الآن متواجهين مجدَّدًا؟».

«ما زلت محتفظًا بشخصيتك الصارمة الصريحة كما أرى!».

ردَّ الآخر مسندًا ذراعه إلى رفِّ المدفأة وهو يحدج شاغل المقعد المريح بنظرة متغطرسة: «جيِّد أو سيِّئ يا سيدي، أنا الرجل الذي طالما كنته، لم يتغير ما أحبُّه وما أكرهه، لم تسقط عني ذاكرتي قيد شعرة. أنت طلبتَ أن نتقابل، وهأنذا».

قال مستر (تشستر) وهو يدقُّ صندوق سعوطه متبعًا بابتسامة إيماءته نافدة الصبر التي ربما أومأها غير واعٍ إلى سيفه:

«لقاؤنا يا (هاردال) هو لقاء حديث وسلام كما أتمنى؟».

ردَّ الآخر: «لقد أتيتُ إلى هنا بناءً على رغبتك، معتبرًا نفسي مضطرًّا إلى لقائك حيثما أردت ومتى أردت. لم آت لتبادل الأحاديث اللطيفة أو التصريحات الجوفاء. أنت رجلٌ مرن من رجال الدنيا يا سيدي، وفي هذه اللعبة أقف أمامك قليل الحيلة. آخر رجل على ظهر البسيطة أودُّ أن أبارزه بالعبارات اللطيفة والوجوه المقنَّعة هو مستر (تشستر)، أؤكّد لك ذلك. فأنا لا قِبَل لي به مع تلك الأسلحة. ولديَّ أسبابي لأن أعتقد أنَّ قليلين يمكن أن يكونوا أكفاءه في ذلك».

ردَّ (تشستر) في رباطة جأش: «أنت تشرِّفني كثيرًا بهذا الإطراء يا (هاردال)، وأنا أشكرك على ذلك. سأكون صريحًا معك.».

«أستميحك العذر، ستكون ماذا؟».

«صريحًا، منفتحًا، مخلصًا تمامًا».

صاح مستر (هاردال) شاهقًا: «هاه! لكن لا تدعني أقاطعك».

ردَّ الآخر وهو يتذوَّق نبيذه بمزيد تروٍّ: «أنا مصمم تمامًا على انتهاج هذا النهج، حتى إني مصمِّمٌ على ألَّا أتشاجر معك، وألَّا أنجرَّ إلى نطق عبارة غضوب أو كلمة متعجِّلة».

قال مستر (هاردال): «عُدنا مرة أخرى، إنك تواجهني بتفوُّقك العظيم عليَّ. رباطة جأشك..».

ردَّ الآخر مقاطعًا إيَّاه بنفس اللهجة الراضية: «لن تفارقني حين تخدم غرضي، هذا ما ستقوله. موافق. أعترف بذلك، ولديَّ غرضٌ أريد خدمته الآن، ولديك غرضك كذلك، أنا متأكِّدٌ أن هدفنا واحدٌ، دِعنا نحقِّقه كشخصين عاقلين جاوزا نزق الصِّبا لبعض الوقت. أتشرب؟».

ردَّ (هاردال): «مع أصدقائي».

قال مستر (تشستر): «على الأقل إذن ستجلس؟».

ردَّ مستر (هاردال) بنفاد صبرٍ: «سأقف على هذه المِدفأة المفكَّكة المتهالكة، ولن ألوِّثها على تهالكها هذا بالمصانعة والمداهنة. قل ما تشاء».

قال الآخر وهو يجلس متربِّعًا مبتسمًا رافعًا كأسه في بريق النار الوهَّاج: «أنت مخطئ يا (هاردال). أنت حقًّا مخطئ تمامًا. العالم حيّ بما يكفي لأن نتكيَّف مع ظروفه، ونبحر مع التيَّار في هدوءٍ بقدر الإمكان، ونقنع بأن نعتبر الزَّبد مما ينفع، ونعتبر السطح هو الأعماق، ونأخذ العملة المزيَّفة كما لو كانت الحقيقية. إنني أعجب لأنه لم يأت إلى الآن فيلسوفٌ

يثبت أن كوكبنا نفسه أجوف، إنه ينبغي له أن يكون كذلك لو كانت الطبيعة متَّسقة مع ذاتها في أعمالها».

«ربما أنت تعتقد أنه كذلك؟».

ردَّ مرتشفًا نبيذه: «أميل إلى أن أقول إنه لا شكَّ في ذلك. حسنًا، إننا في لهونا بهذه اللعبة الرنَّانة، شاء سوء حظِّنا أن نتدافع ونسقط منها. إننا لسنا ما يسمِّيه العالم (صديقين)، لكننا رغم ذلك كالأصدقاء الطيبين الصادقين المحبِّين، كتسعة من أصل كل عشرة ممن ينعم عليهم العالم باسم (الأصدقاء). لديك ابنة أخ، ولديَّ ابن، فتىً رائع يا (هاردال)، غير أنه أحمق، يقعان كلٌّ في حبِّ صاحبه، ويكوِّنان ما يسميه هذا العالم نفسه (علاقة)، أي شيئًا خياليًّا مزيّفًا كالبقية، وهو شيء لو ترك وشأنه لانفجر مع الوقت كأي فقَّاعة. لكنه ربما لن يأخذ وقته بحريَّة -لن يأخذ وقته إن تُرِكا وشأنهما- والسؤال الآن هو: هل ينبغي لكلينا -لأن المجتمع يسمينا عدوَّين- أن نقف بمعزلٍ عن الأمر وندع كلًّا منهما يهرع إلى ذراعي صاحبه، بينما إذا تقاربنا بعقلانية كما نفعل الآن نستطيع أن نمنع ذلك ونفرّقهما؟».

قال مستر (هاردال) بعد صمتٍ قصيرٍ: «أنا أحبّ ابنة أخي، ربما يبدو لك هذا غريبًا، لكنني أحبُّها».

صاح مستر (تشستر) وهو يعيد ملء كأسه في كسلٍ ويخرج خلَّة أسنانه: «غريبًا أيها الرجل الطيب؟! على العكس. أنا أيضًا أميل إلى (ند)، أو كما تقول أنت «أحبُّه». تلك هي الكلمة المعبِّرة عمَّا بين أقرب الأقرباء. أنا متيَّمٌ بـ(ند). إنه رجل جيِّد جدًّا، ووسيم، غير أنه أحمق وضعيف، هذا

كلُّ ما في الأمر. غير أنَّ ما أعنيه يا (هاردال) -حيث إنني سأكون صريحًا جدًّا كما أخبرتك في البداية- أنه بغض النظر عن أي كراهية قد يشعر بها كلانا تجاه فكرة أن نكون أقرباء، وبغض النظر عن الخلافات الدينية بيننا -واللعنة على هذا، إنه أمرٌ مهمٌّ- فإنني لا أستطيع تحمُّل مشروع زواجٍ على هذه الشاكلة، (ند) وأنا لا نستطيع فعل ذلك، مستحيل».

ردَّ (هاردال) في شراسة: «بحق الرب أمسك عليك لسانك إن كان لهذا الحوار أن يستمرَّ. لقد قلت إنني أحب ابنة أخي؛ أتظن أنني وأنا أحبُّها أتمنى أن أراها ترمي بقلبها هكذا على أي رجل يحمل في أوردته دمك؟».

قال الآخر الذي لم تهتز منه شعرة: «ها أنت ترى ميزة أن يكون المرء صريحًا ومنفتحًا، هذا وشرفي بالضبط ما كنت سأضيفه! إنني متعلِّق بـ(ند) إلى درجة مدهشة، تعلُّق عشق بالفعل، وحتى لو تحمَّلنا أن نرمي بأنفسنا هكذا، فإن هذا الاعتراض بالذات سيقف صامدًا في وجهينا. ألا تأخذ بعض النّبيذ؟».

قال مستر (هاردال) وهو يخطو نحو المنضدة ويضع عليها يده بعنفٍ: «انتبه لما أقوله، لو أن أي إنسان يعتقد أو يظن أنني من بعيدٍ حتى حبَّذت -بالكلام أو الفعل أو حتى في أغرب الأحلام- فكرة قبول (إمَّا هاردال) خطبة أي شخص يمتُّ لك بصلة قرابة -أيًّا كانت هذه الصلة، لا يهمُّني- فإنه يكذب، يكذب، ويتجنَّى عليَّ تجنِّيًا بشعًا لمجرد أن تخطر بباله الفكرة».

ردَّ الآخر وهو يؤرجح نفسه إلى الأمام والخلف كالموافق على ما يسمع، ويومئ إلى النار: «(هاردال)، إنه لمن الرجولة والكرم من جانبك

أن تقابلني بهذه الطريقة اللطيفة الخالية من التحفُّظ، أقسم أنَّ هذه عواطفي أنا الآخر بالضبط، وإن كنت قد عبَّرت عنها بطريقة أقوى مما أستطيعه، فأنت تعرف طبيعتي الرخوة وستسامحني عليها، أنا واثق بذلك».

قال مستر (هاردال) وهو يخطو إلى الأمام وإلى الخلف: «بينما سأمنعها من أي مراسلة مع ابنك وأقطع علاقتهما هنا وإن تسبَّب هذا في موتها، فسأحاول قدر استطاعتي أن أفعل ذلك بحنانٍ وطيبة. إن لديَّ فتاةً أنا وصيٌّ عليها، لا تساعدني طبيعتي في فهمها، ولذا فإنَّ حقيقة أنَّ هناك حبًّا يجمع بينهما قد فاجأتني الليلة تمامًا».

ردَّ مستر (تشستر) في مداهنة بالغة: «إنني مسرورٌ أكثر مما أستطيع أن أعبِّر عن سروري، لأنَّ انطباعي قد تأكَّد لي. ها أنت ترى ميزة لقائنا؛ كلانا يفهم الآخر، ونحن متفقان تمامًا. لدينا تفسيرٌ كاملٌ تمامًا، ونعرف كيف سنتصرَّف، لماذا لا تتذوَّق نبيذ مستأجر منزلك؟ إنه جيّد حقًّا».

قال مستر (هاردال): «رجاءً، من ساعد (إمّا) أو ابنك؟ من يسفر بينهما؟ من وكلاؤهما؟ أتعرف؟».

ردَّ الآخر بأكثر ابتساماته ودًّا: «كلُّ الطيِّبين هنا، كلُّ من في الجوار بعامة حسبما أعتقد، والرسول الذي أرسلته إليك اليوم أوَّلهم».

«الأبله؟ (بارنابي)؟».

«أنت مندهش؟ أنا سعيدٌ لذلك، إذ إني كنت كذلك أنا الآخر. نعم. اكتشفت ذلك من أمِّه، تلك السيدة الفاضلة. ومنها أساسًا عرفت إلى أيِّ مدًى دخل الأمر نطاق الجدية. وعلى ذلك صمَّمت أن أركب إلى هنا اليوم وأتباحث معك على هذه الأرض المحايدة. لقد سمنت عمَّا كنت في السابق يا (هاردال)، غير أنك تبدو بصحَّة جيّدة تمامًا».

قال مستر (هاردال) وعلى وجهه أمارات نفاد الصبر، لم يجهد نفسه في محاولة إخفائها: «أفترض أنَّ عملنا قد انتهى تقريبًا. ثق بما أقول يا مستر (تشستر)، ستتغيَّر ابنة أخي من الآن فصاعدًا» ثمّ أضاف في صوتٍ أخفت: «سأخاطب فيها قلب المرأة، وكرامتها وكبرياءها، واجبها.».

قال مستر (تشستر) وهو يعيد بعض أعواد الحطب الشاردة إلى أماكنها في المدفأة بإصبع حذائه: «سأفعل المثل مع (ند). لو أنَّ هناك شيئًا حقيقيًّا في هذا العالم، فإنه تلك المشاعر الرائعة وتلك الواجبات الطبيعية التي يجب أن تظلَّ قائمةً بين الأب وابنه. سأحاوره في الأمر مستندًا إلى كلِّ أساسٍ من الخلق والمشاعر الدينية. سأصوِّر له كيف أننا ببساطة لا نستطيع تكلُّف هذا، وكيف أنني طالما حلمت بأن يتزوج زيجة حسنة، لأجل حياة لائقة بي إذا ما بلغتُ خريف حياتي، وكيف أنَّ هناك كلابًا عددًا تنبح مطالبة بمطالب صحيحة عادلة، وعلينا أن ندفع لهم، وندفع لهم من ثروة زوجه. باختصارٍ، سأخبره كيف أنَّ أسمى وأشرف مشاعرنا الطبيعية -مع كلِّ اعتبارٍ لواجب البنوَّة وولائها- وما إلى ذلك، تحتِّم عليه أن ينهي عزوبته مع وارثة غنية».

قال مستر (هاردال) مرتديًا قفَّازيه: «ويكسر قلبها بأسرع ما يمكن؟».

ردَّ الآخر مرتشفًا نبيذه: «في ذلك سيتصرَّف (ند) كما يحلو له، إنه شأنه وحسب. إنني لن أتدخَّل في شؤون ابني يا (هاردال) لأيّ سببٍ كان، وراء حدٍّ معيَّن. العلاقة بين الأب وابنه كما تعرف نوعٌ مقدَّس من الرباط»، ثم أضاف وهو يصبُّ لنفسه مجدَّدًا: «ألن تدعني أغريك بأخذ كأس من النبيذ؟ حسنًا، كما تشاء، كما تشاء».

قال مستر (هاردال) بعد صمتٍ قصيرٍ كان ينظر خلاله إلى وجه محدِّثه المبتسم بين الفينة والفينة في اهتمامٍ: «(تشستر). إنَّ لك رأس وقلب روح شريرة في كلِّ مسائل الخداع».

قال الآخر مومئًا: «في صحّتك! لكنّني قاطعتك..».

تابع مستر (هاردال): «لو وجدنا الآن أنه من الصعب أن نفرِّق بين هذين الشابين ونقطع علاقتهما، لو وجدت أنت ذلك صعبًا من ناحيتك مثلًا، فماذا تنوي أن تفعل؟».

ردَّ الآخر هازًّا كتفيه وممدّدًا نفسه في وضع أكثر إراحة أمام النار: «لا شيء أوضح من ذلك يا صديقي الطيِّب، لا شيء أسهل. سألجأ حينئذٍ إلى تلك القدرات التي تطريني لأجلها ذلك الإطراء، رغم أنني لا أستحقُّ إطراءك هذا. سألوذ حينئذٍ ببعض الخدع الصغيرة عديمة الأهمية لإثارة الغيرة والازدراء. أترى؟».

قال مستر (هاردال): «باختصارٍ، سنبرر الوسيلة بالغاية، ونلوذ بملجأ أخير لتفريقهما، هو الخيانة و.. والكذب».

ردَّ الآخر وهو يتلذَّذ بسحبة سعوط: «أوه، لا لا! ليس الكذب، إنما بعض المعالجة، القليل من اللباقة، القليل من التدبير، تلك هي الكلمة المضبوطة».

قال مستر (هاردال) وهو يتحرك ذهابًا وجيئة ثم يتوقف ثم يتابع الحركة كشخصٍ مضطربٍ: «كنت أتمنى لو كنَّا قد استبقنا هذا الأمر ومنعناه. لكن حيث تطوَّر هكذا وأصبح من الضروري أن نتحرك، فلا جدوى من التراجع أو الندم. حسنًا! سأحاول من جانبي قدر استطاعتي. ثم

موضوع وحيد ضمن المدى العريض للأفكار الإنسانية نتفق عليه. سنعمل متَّسقين، لكنْ كلٌّ على حدة. آمل ألَّا يكون هناك داعٍ للقائنا مجدّدًا».

قال مستر (تشسترِ) وهو ينهض في تراخٍ رشيقٍ: «هل ستغادر؟ دعني أنير لك الدَّرج إلى أسفل».

ردَّ الآخر بلهجة جافة: «لا تقم من مقعدك رجاء، فأنا أعرف الطريق».

وهكذا خرج يدق الأرضية بحذائه كما دخل، بعد أن أشار بيده في خفوت وارتدى قبَّعته وهو يدور على عقبه، ثم أغلق الباب خلفه ودق الدرج الذي أخذ يرجع صدى خطواته.

قال مستر (تشستر) مستعِدًا رباطة جأشه ثانية في المقعد المريح: «پاه! يا له من حيوان فظٍّ حقًّا! وحش غليظ، غرير آدميٌّ بالفعل![1]».

أمَّا (چون ولت) ورفاقه الذين ظلُّوا يتسمَّعون مرتقبين صليل السيوف أو صوت إطلاق النار في الغرفة الكبرى، وحسموا بالفعل ترتيبهم الذي سيهرعون به إلى الغرفة حال استدعائهم -ذلك الموكب الذي حرص فيه (چون) العجوز على أن يرتِّب أن يكون في مؤخِّرته- فقد اندهشوا كثيرًا لمرأى مستر (هاردال) نازلًا الدَّرج دونما خدش، قبل أن يطلب حصانه ويركب مغادرًا في خطوة بطيئة مستغرقًا في التفكير. وبعد قليلٍ من التفكير قرَّروا أنه قد ترك السيد في الطابق العلوي ميتًا، وأنه تبنَّى هذه الخطة درءًا للشبهات والمطاردة.

وحيث إنَّ هذا الاستنتاج كان يتضمَّن ضرورة أن يصعدوا على الفور،

---

(١) Badger الغرير: حيوان من آكلات اللحوم، هيئته بين الكلب والسنور، أسود القوائم قصيرها، أبيض الوجه، وعلى جانبي وجهه جدَّتان سوداوان.

فقد كانوا على وشك الصعود بالترتيب المتّفق عليه، لولا رنَّ جرس غرفة الضيف كما لو كان قد جذبه بقوة، مطيحًا بكلِّ تنبُّؤاتهم، ومغرقًا إيَّاهم في الشكِّ والريبة. في النهاية وافق مستر (ولت) على أن يصعد بنفسه، يخفره (هيو) و(بارنابي) بصفتهما أقوى وأمتن من في الخان، واللذان سيظهران معه بحجَّة أخذ الكؤوس لتنظِّف.

تحت هذه الحماية دخل (چون) الشجاع ذو الوجه العريض إلى الغرفة، متقدِّمًا رفيقيه بنصف قدم، وتلقَّى دون أن يرتعد أمرًا بإحضار مخلعة أحذية. لكنَّها حين أحضرت وأسند كتفه المتينة إلى الضيف، لوحظ أنَّ مستر (ولت) يحملق إلى داخل الحذاء بعد أن خلعه، وأنه بفتحه عينيه أوسع كثرًا من المعتاد بدا كما لو كان يعبِّر عن دهشته وإحباطه لأنه لم يرَ الحذاء ممتلئًا بالدم. ثمَّ إنه تحيَّن الفرصة كذلك ليتفحَّص السيد من قرب قدر استطاعته، متوقِّعًا أن يكتشف عدة ثقوب في جسده، أحدثها سيف خصمه. غير أنَّ (چون) العجوز لمَّا لم يجد شيئًا، ولاحظ بمرور الوقت أن ضيفه لم يتغيَّر عمَّا كان عليه سائر اليوم من الهدوء والاستقرار، سواء في لباسه أو مزاجه، تنهَّد أخيرًا بعمقٍ وبدأ يعتقد أنَّ الليلة لم تشهد مبارزة.

قال مستر (تشستر): «والآن يا (ولت)، لو كانت الغرفة قد هوِّيت جيدًا، فسأجرِّب مزايا ذلك الفراش الشهير».

ردَّ (چون) ملتقطًا شمعة ولاكزًا (بارنابي) و(هيو) ليرافقاهما، حذار سقوط السيد على نحوٍ مباغتٍ مغشيًّا عليه أو صريعًا جرَّاء جرح داخلي: «الغرفة يا سيدي.. الغرفة دافئة كرغيف خبز محمَّص لتوِّه. (بارنابي)، خذ أنت تلك الشمعة الأخرى وتقدَّمنا. (هيو)! اتبعنا بالمقعد المريح».

بهذا الترتيب، ومع فحصٍ جادٍّ وهو ممسك بالشمعة قريبًا جدًّا من الضيف، فتارة يشعره بدفء شديدٍ في ساقيه، وتارة يهدِّده بإحراق شعره المستعار، ودائمًا يطلب معذرته في ارتباكٍ وخرقٍ عظيمين، قاد (چون) الرفقة إلى أفضل غرف النوم، تلك التي كانت تقريبًا في سعة القاعة التي أتوا منها، والتي ضمَّت سريرًا عتيقًا عظيمًا موضوعًا قرب النار بغية الدفء، تزينه ملاءة مطرزة تطريزًا شاحبًا، ويحلِّي قمة كل عمود من عمده المنحوتة ريش كان أبيض ذات يوم، لكنه بفعل الغبار والزمن أصبح أقرب إلى لون الأكفان.

قال مستر (تشستر) بابتسامة حلوة وهو يجلس في مقعده المريح الذي دفع الخدم عجلاته إلى أمام النار بعد أن مسح الغرفة بعينيه من أقصاها إلى أقصاها: «طابت ليلتكم يا أصدقائي، طابت ليلتكم! (بارنابي)، صديقي الطيب. أرجو أن تكون دؤوبًا على تلاوة بعض الصلوات قبل أن تأوي إلى فراشك».

أومأ (بارنابي) إيجابًا.

ردَّ (چون) العجوز في فضولٍ: «لديه بعض الهراء الذي يدعوه صلواته يا سيِّدي. أخشى ألَّا يكون فيه خير».

قال مستر (تشستر) ملتفتًا إلى (هيو): «و(هيو)؟».

ردَّ (هيو): «أنا لا» ثم أشار إلى (بارنابي): «أعرف صلواته، إنها جيِّدة بما يكفي، إنه ينشدها أحيانًا وهو في القشّ. أسمعه يفعل».

همس (چون) في أذنه في ترفُّع: «إنه حيوان تمامًا يا سيدي! ستعذره، أنا واثقٌ بذلك. لو أنَّ له روحًا على الإطلاق يا سيّدي، فهي

قطعًا روحٌ بالغة الضآلة، حتى إنها لا تشير عليه بما يفعل أو يدع، طابت ليلتك يا سيّدي».

ردَّ الضيف بحماسٍ مؤثِّر تمامًا: «فليباركَّ الرب» بينما انحنى (چون) لضيفه خارجًا من الغرفة وهو يشير إلى حارسيه أن يسبقاه بالخروج، وترك الضيف يرتاح في فراش (مايپول) العتيق.

* * *

الفصل الثالث عشر

لو كان (چوزيف ولت) المنبوذ الملعون من صبيان الورش والمحالّ موجودًا في الخان حين ظهر على باب (مايپول) ضيف أبيه النبيل -أي لو لم تشأ الصدفة الغريبة أن يحدث هذا في أحد الأيام الستة التي يسمح له فيها دون بقيَّة العام بالتغيُّب ساعات طويلة من دون أن يعقب ذلك سؤال ولا عتاب- لكان قد نجح بأي وسيلة في سبر غور مستر (تشستر) ومعرفة غرضه الغامض بكلِّ تأكيدٍ، كما لو كان مستشاره الأمين. لو كان الحظُّ مواتيًا بهذه الطريقة لكان العاشقان قد تلقَّيا تحذيرًا عاجلًا مما يتهددهما، واقتراحات مساعدة حكيمة كثيرة في وقتها، إذ إنَّ (چو) قد نذر لمَّاحيَّته وسرعة استجابته وتعاطفه وأمانيّه الطيبة لمساعدة الشباب، وكانت هذه كلُّها تدعم إخلاصه لهذه القضية. وسواء أكان هذا الميل من ناحيته نابعًا من رأيه المسبق في الفتاة التي أحاطها تاريخها في تصوُّره مذ كان في المهد بظروفٍ مثيرة للاهتمام الاستثنائي، أو من تعلُّقه بالفتى الذي حاز ثقته رويدًا رويدًا من خلال فطنته ونشاطه وإسدائه بعض الخدمات المهمة له كجاسوسٍ ورسولٍ، فسواء كان هذا الميل نابعًا من أيٍّ من هذين المصدرين أو من عادة الشباب المركوزة في طبيعتهم، أو من مضايقته الدائمة وإقلاقه لأبيه المحترم، أو من أي قصة حبٍّ صغيرة خفية هو طرف

فيها، تمنحه شكلًا من أشكال الشعور بالزمالة تجاه العاشقين، فلا يهمُّ السبب، خاصة أنَّ (چو) كان بعيدًا عمَّا حدث بالفعل، ولم تكن لديه فرصة في هذه المناسبة بالذات لإثبات عواطفه، سواء لهذا الجانب أو لذاك.

كنَّا في الحقيقة في الخامس والعشرين من آذار، ذلك اليوم الذي يعرف معظم الناس من خبرتهم السيئة أنه يُعدُّ واحدًا من تلك الفترات غير السارَّة التي تُسمَّى أيام الأرباع[1]، وقد ظلَّ كذلك منذ عهود غابرة. في هذا اليوم كان (چون ولت) يسدِّد سنويًّا بكلِّ فخر حسابه نقدًا لخمَّارٍ في لندن، مسلِّمًا إيّاه حقيبة قماشية تضم المبلغ المطلوب، لا ينقص بنسًا ولا يزيد، وكان هذا غرض رحلة يقوم بها (چو) على وجه الأهمية القصوى كلما استدار العام وجاء اليوم الموعود.

كان يقوم بهذه الرحلة على ظهر فرس رمادية عتيقة، كان تحوم برأس (چون) مجموعة من الأفكار الملتبسة بخصوصها، مفادها أنَّ هذه الفرس تستطيع أن تفوز بكأسٍ أو جائزة قيِّمة في سباق الخيل إن هي حاولت. وهي لم تحاول أبدًا، وغالبًا لن تحاول مستقبلًا، لا سيَّما أنَّها قد بلغت من العمر أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا، وأصبحت قصيرة النَّفس، طويلة البدن، ويزيد الأمر سوءًا ما آل إليه حال معرفتها وذيلها من البلى. كان (چون) جدَّ فخورٍ بالفرس رغم هذه العيوب البسيطة، وحين كان (هيو) يحضرها أمام الباب كان يلوذ بالحانة ويسترسل في الضحك فخورًا في غيضة ليمون مخفاة هناك.

(١) أيام الأرباع Quarter Days في إنكلترا وإيرلندا هي أربعة أيام على مدار العام يستأجر فيها الخدم وتبدأ فيها الفصول الدراسية ويحين فيها تسديد الإيجارات. وقد كانت تقع خلال احتفالات دينية قريبًا من الأيام الفاصلة بين فصول العام الشمسي الأربعة.

قال (چون) حين تمالك نفسه من جديدٍ واستطاع أن يظهر لدى الباب: «أوه! ها هي قطعة لحم الخيل يا (هيو)! ها هي المخلوقة الحلوة! ها هي الهمَّة العالية! ها هي العظام الصلبة!».

وقد كان هناك ما يكفي من العظام بلا شكٍّ. كان هذا ما جال بخاطر (هيو) وهو يجلس جلسة جانبية في السرج منطويًا على نفسه في كسلٍ وذقنه يكاد يلمس ركبتيه، ثم إنه أخذ يمشي الهوينى رائحًا غاديًا على البقعة الخضراء الصغيرة أمام الباب، غير واعٍ بالركاب المتدلِّي واللجام المرخي.

قال (چون) طالبًا من ذلك الشخص غير العاقل: «اهتمُّ بأن تعتني بها جيّدًا» ثم انتقل إلى ابنه ووريثه الذي ظهر الآن: «لا تجهدها في الركوب».

ردَّ (چو) ملقيًا نظرة حزينة على الفرس: «أعتقد يا أبي أنني أكون مجنونًا إن فعلت».

أفحمه (چون) العجوز قائلًا: «كفَّ عن قلَّة أدبك يا سيدي، رجاء. ماذا تريد أن تركب؟ حمار الوحش أليف جدًّا بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ تحب أن تركب أسدًا مزمجرًا، أليس كذلك يا سيدي؟! أمسك عليك لسانك يا سيدي».

هكذا دأب مستر (ولت) في خلافاته مع ابنه بعد أن يستنفد كلَّ ما يخطر له من أسئلة ولا يتلقَّى ردًّا من (چو) أن يجمل ما فصَّله بأن يأمره بأن يمسك عليه لسانه، ثم إنه بعد أن حدَّق إليه هنيهة بنوعٍ من الدهشة أضاف:

«وماذا يعني الولد بإمالة قبَّعته هكذا إلى هذا الحدِّ؟ هل ستقتل الخمَّار يا سيدي؟!».

ردَّ (چو) بلهجة لاذعة: «لا. لن أقتله. والآن فلتطب نفسًا يا أبي!».

قال مستر (ولت) وهو يمسحه بعينيه من قمَّة رأسه إلى أخمص قدمه: «وبلهجة عسكرية أيضًا! بطريقة متبخترة كآكلي النار أو شاربي الماء المغليِّ! وإلام ترمي بقطف زهور الزعفران والثلج؟ هاه؟!».

ردَّ (چو) وقد احمرَّ وجهه: «إنها حزمة زهورٍ صغيرة فقط، أرجو ألَّا يكون هناك ما يضرُّ فيها».

قال مستر (ولت) في ازدراءٍ: «أنت ولدٌ جادٌّ، نعم يا سيدي! أن تفترض أنَّ الخمَّارين يهتمُّون بأكاليل الزّهور!».

ردَّ (چو): «أنا لا أفترض أيَّ شيء من هذا القبيل، دعهم يحتفظون بأنوفهم للزجاجات والقنِّينات. أمَّا هذه الزهور فهي لمنزل السيد (ڤاردن)».

سأل (چون): «وهل تفترض أنه يهتم بأشياء كزهور الزعفران؟».

قال (چو): «لا أعرف، وللحق فهذا لا يهمُّني. رجاءً يا أبي، أعطني المبلغ واتركني لأمضي بحق الصبر».

ردَّ (چون): «ها هو يا سيدي، وانتبه له. واحرص على ألَّا تتعجَّل كثيرًا في عودتك، وإنما أعطِ الفرس وقتَ راحة طويلًا، هل أنت منتبه لما أقول؟».

قال (چو): «نعم منتبه، يعلم الله أنها ستحتاج إلى هذه الراحة».

قال (چون): «ولا تفرط في الشراب في خان الأسد الأسود، انتبه لذلك أيضًا».

ردَّ (چو) في حزنٍ: «إذن لماذا لا تدعني أمتلك مالًا يخصُّني أنا؟ لماذا يا أبي؟ لأيِّ شيء ترسلني إلى لندن، وأنت تعطيني الإذن فقط بطلب

عشائي في (الأسد الأسود)، لتحاسب أنت عليه المرة القادمة التي تذهب أنت فيها إلى هناك، كما لو كنت لا أؤتمن حتى على شلنات قليلة؟ لماذا تستخدمني هكذا؟ إنك لست محقًّا في ذلك، وليس لك أن تتوقَّع ألَّا أثور تحت هذه الظروف».

صاح (چون) في حلم يقظة نعسان: «أدعه يمتلك مالًا! ماذا يسمي المال؟ جنيهات؟ ألا يمتلك مالًا؟ أليس معه فوق رسوم الطريق جنيه وستّة بنسات؟».

كرَّر ابنه في ازدراءٍ: «جنيه وستة بنسات!».

ردَّ (چون): «نعم سيدي، جنيه وستة بنسات. حين كنت في مثل سنِّك لم أرَ أبدًا الكثير من المال هكذا مرة واحدة. شلن منه في حالة الحوادث كأن تفقد الفرس حدوة، أو ما إلى ذلك. والبنسات الستة الأخرى لتنفق في تسليات لندن، والتسلية التي أرشِّحها لك هي أن تتسلَّق قمة الأثر[١]، وتجلس فوقها. ليس ثَمَّ مغريات هناك يا سيدي، لا شراب ولا فتيات، ولا شخصيات سيئة من أي نوعٍ، لا شيء إلا الخيال، كانت تلك هي الطريقة التي كنت أمتِّع بها نفسي وأنا في مثل سنِّك».

لم يحر (چو) جوابًا، لكنه أشار إلى (هيو) وقفز في السرج وانطلق بالفرس. وقد بدا فارسًا رجلًا قويًّا يستحق جوادًا أفضل مما مكّنه الحظُّ من امتطائه بالفعل. وقف (چون) يحدِّق إليه، أو إلى الفرس الرمادية بالأحرى

(١) الأثر The Monument هو عمود صمَّمه المعماريَّان (كرستوفر رن) و(روبرت هوك) ونُفِّذ بين عامي (١٦٧١–١٦٧٧م) على طراز الأعمدة الدورية، ليخلِّد ذكرى حريق لندن الكبير عام ١٦٦٦، ويمثل ارتفاعه المسافة بينه وبين محلّ (توماس فارينر) خبَّاز الملك الذي بدأ الحريق من عنده.

(فقد كان لا يرى راكبها)، حتى بعد أن اختفى الراكب والركوبة بعشرين دقيقة، وحينذاك بدأ يفكِّر أنهما قد ذهبا، ثم إنه سقط في إغفاءة خفيفة بعد أن دخل إلى الخان ببطء.

أمَّا الفرس الرمادية التي كانت عذاب حياة (چو) فقد أخذت تتخبَّط في طريقها كيفما شاءت، حتى اختفى (مايپول) عن الأنظار، ثم إنها قبضت ساقيها متبنِّية مشية لو أنَّها رؤيت في دمية لقيل إنها تقليدٌ أخرق لخبب الخيل، لتصلح خطوتها بعد ذلك مرة واحدة، بكامل إرادتها. وقد أجبرتها معرفتها بالطريقة التي عوَّدها إيَّاها راكبها -تلك التي اقترحت عليها تحسين خطوتها- أن تسلك طريقًا فرعية لا تؤدِّي إلى لندن، وإنما تخترق حاراتٍ موازية للطريق التي أتيا منها وتمرُّ على مبعدة عدة مئات من الياردات من (مايپول)، لتقود في النهاية إلى أرض مسيَّجة تحيط بمنزلٍ عتيقٍ واسعٍ من القرميد الأحمر، كنَّا قد ذكرناه في الفصل الأول باسم منزل (وارن). أما وقد وصلت إلى نهاية الطريق في أجمة هناك، فقد سمحت لراكبها أن يترجَّل عن ظهرها وأن يربطها إلى جذع شجرة.

قال (چو): «ابقي هنا أيتها الفتاة العتيقة، ودعينا نرى ما إذا كانت هناك أي مهمة صغيرة تنتظرني اليوم».

قال ذلك وتركها ترعى ما نما من العشب والحشائش القصيرة في حدود المساحة التي سمح بها حبلها، ليعبر بوابة صغيرة إلى داخل حرم المنزل.

قرَّبه الممشى خلال دقائق قليلة من المنزل الذي كان يرميه -أو بالأحرى يرمي نافذة محدَّدة منه- بالكثير من النظرات الخفيَّة. كان مبنًى

صامتًا كئيبًا، ذا أفنية واسعة يدوِّي فيها الصدى، وبرج ذي غرف مقفرة، وأجنحة كاملة من الحجرات المغلقة الآيلة إلى الدمار.

أما حديقة الشرفة التي تظلِّلها الأشجار المتدلية فقد اتسمت بجوٍّ مسيطر من الكآبة، بينما بدت البوابات الحديدية العملاقة –تلك التي لم تُستخَدم لأعوامٍ كثيرة واحمرَّت من الصدأ الذي تدلَّى على مفصَّلاتها وغطَّاها العشب– كما لو كانت تحاول أن تغوص في الأرض وتخفي حالها البائسة بين الحشائش الصديقة. أما الوحوش الخرافية المنقوشة على الجدران –التي اخضرَّت بفعل الزمن والرطوبة وغطَّتها الطحالب هنا وهناك– فقد بدت كئيبة مهجورة. كان ثمَّ هيئة نكدة للمنزل كلِّه، بما فيه ذلك الجزء المسكون المعتنى به، هيئة تضرب الناظر إليه بشعورٍ بالحزن، بشيء بائس متخاذل، حيث الفرح مطرود منه. كان من الصعب أن يتخيَّل المرء نارًا تتَّقد داخل الغرف المظلمة الموحشة، أو أيَّ سرور أو سلوى تضمُّها هذه الجدران العابسة. كان المكان يبدو كما لو كانت مثل هذه الأشياء قد عرفت طريقها إليه قدمًا، لكنها لا تستطيع إليه سبيلًا الآن، أو كأنَّه شبح منزل يزور البقعة القديمة التي كان المنزل الأصلي يحتلُّها، بهيئته الخارجية العتيقة، ولا شيء وراء ذلك.

بإمكاننا أن نعزو هذه الهيئة البالية الكئيبة أساسًا إلى موت المالك السابق للبيت بلا شكٍّ، وإلى مزاج الساكن الحالي، لكننا حين نتذكر الحكاية المتصلة بالمنزل ندرك أنه كان المكان الأكثر ملاءمة لحدوث فعلٍ كهذا، والمسرح الذي عيَّنه القدر لوقوعه قبل أن يقع بأعوامٍ وأعوامٍ. وحين ننظر إليه وهذه الأسطورة في خلفية أذهاننا، تبدو بركة الماء التي عُثِر فيها على جثَّة مدير المنزل كما لو كانت لها شخصية كئيبة سوداء،

ليست لأي بركة ماء غيرها، وقد أصبح الجرس المثبَّت على السطح – ذلك الذي حكى حكاية حادث القتل لريح منتصف الليل– شبحًا محضًا، يقف شعر رأس من يسمع صوته رعبًا، وكلُّ غصن خاصمته الأوراق يومئ إلى آخر كان يهمس في خفاء بأمر الجريمة.

أخذ (چو) يخطو رائحًا غاديًا في الممشى، متوقِّفًا حينًا متصنِّعًا تأمُّل المبنى أو المشهد، ومستندًا حينًا إلى شجرة متصنِّعًا الكسل واللا مبالاة، لكنه في كل حين لا تغيب عن عينه النافذة التي رمقها أول الأمر. وبعد تأخر ربع الساعة لوَّحت له يدٌ بيضاء صغيرة من داخل إطار تلك النافذة للحظة واحدة، فما كان من الشاب إلَّا أن غادر بانحناءة احترام قائلًا لنفسه في خفوتٍ وهو يمرُّ بفرسه مجدَّدًا: «لا مهمة لي اليوم».

غير أنَّ جو الأناقة وإمالة القبَّعة التي اعترض عليها (چون ولت) وباقة زهور الربيع، دلَّت جميعًا على مهمة أخرى تخصُّه هو، متعلِّقة بهدفٍ أكثر إثارة من خمَّار أو حتى صانع أقفال. وكان الأمر بالفعل كذلك، إذ إنه حين سوَّى حساباته مع الخمَّار الذي كان مكان عمله في بعض الأقبية قريبًا من شارع (تامز)، والذي كان سيدًا عجوزًا ذا وجه أرجواني كما لو كان قد ظل حياته كلها يحمل على رأسه السطح المقوَّس لذلك المكان، نقول إنه حين سوَّى الحساب وأخذ الإيصال ورفض أن يتذوق أكثر من ثلاث كؤوس من النبيذ الأندلسي لدهشة الخمَّار الأرجواني الوجه –ذلك الذي شنَّ هجومًا على مجموعة من القنِّينات المتربة بمثقاب في يده، ثم وقف مسمَّرًا، أو مثبَّتًا بالمثقاب أخلاقيًّا إلى حائطه كيفما اتفق– حين فعل كلَّ ذلك وانتهى من عشاء صغير في خان الأسد الأسود في (وايتّشاپل)، رافضًا نصيحة (چون) بزيارة الأثر، اتجه من فوره إلى منزل صانع الأقفال، تجذبه عينا (دلّي ڤاردن) البرَّاقتان.

لم يكن (چو) شخصًا جبانًا بحالٍ، لكنه رغم ذلك حين وصل إلى ركن الشارع الذي يسكن فيه صانع الأقفال لم يستطع أن يقرر أن يمضي مباشرة إلى المنزل. قرَّر أوّلًا أن يتمشَّى في شارع آخر خمس دقائق، ثم في شارع ثان خمس دقائق أخرى، وهكذا حتى فقد نصف ساعة كاملًا، قبل أن يغطس غطسة جريئة ويجد نفسه في الورشة المدخَّنة بوجه محمرّ وقلب متسارع النّبض.

قال (ڤاردن) وهو ينهض من خلف مكتبه حيث كان منشغلًا بكتبه وينظر إلى القادم من خلف نظَّارته: «أهو (چو ولت) أم شبحه؟ أيُّهما؟ إنه (چو) بشحمه ولحمه، مرحى! كيف حال رفقة (تشغول) كلها يا (چو)؟».

«كالعادة يا سيدي، أتفق معهم بالقدر المعتاد ذاته».

ردَّ صانع الأقفال: «حسنًا حسنًا! علينا أن نصبر يا (چو) ونتحمَّل نقاط ضعف الكبار. كيف حال الفرس يا (چو)؟ هل تقطع الأميال الأربعة في الساعة بيسرٍ كما اعتادت؟ ها ها ها! هل تقطعها بيسرٍ؟ هاه! ماذا لدينا هنا يا (چو)؟ إنها باقة زهور!».

«إنها باقة متواضعة جدًّا يا سيدي، فكّرت أنّ الآنسة (دلّي)..».

قاطعه (غابرييل) خافضًا صوته هازًّا رأسه: «لا لا، ليس لـ(دلّي). أعطِها لأمِّها يا (چو)، أعطها لأمّها فهذا أفضل بكثيرٍ. هل تمانع في إعطائها للسيدة (ڤاردن) يا (چو)؟».

ردَّ (چو) محاولًا بقليلٍ من النّجاح إخفاء إحباطه: «لا، إطلاقًا يا سيدي، أنا متأكد أن هذا سيسرُّني للغاية».

قال صانع الأقفال مربّتًا ظهره: «هكذا، لا يهمّ من يحوز الباقة يا (چو)؟».

«مطلقًا».

يا لقلبه! إلى أيّ مدًى التصقت الكلمات بحلقه!

قال (غابرييل): «تعال، لقد دعيت لتوّي للشاي. إنها في القاعة».

فكَّر (چو): «إنّهَا؟! ترى أيُّهما؟ السيدة أم الآنسة؟».

قطع صانع الأقفال الشك باليقين في وضوحٍ كما لو كان (چو) قد تفوَّه بالسّؤال، بأن قال وهو يقوده إلى الباب:

«عزيزتي (مارثا)، مستر (ولت) الشاب هنا».

وحيث إنَّ السيدة (ڤاردن) كانت تعتبر (مايپول) شركًا للرجال وخدعة جاهزة للأزواج، وتنظر إلى مالكه وكل من يساعده أو يحرِّضه بصفتهم صيَّادين منبثِّين بين الرجال المسيحيين، وتعتقد فوق ذلك أنَّ أصحاب الحانات المقرونين بالخطاة في الكتاب المقدس هم الخمَّارون المرخَّصون بلا ريبٍ، فإنها لكل ذلك كانت أبعد ما تكون عن الارتياح لمقدم هذا الزائر، ولذا أغشي عليها مباشرة، وحين قُدِّمت إليها باقة زهور الزعفران وزهور الثلج تكهنت بعد بعض التفكير بأنها سبب ما ألمَّ بروحها من إعياء، وإذ ذاك قالت السيدة الطيبة:

«أخشى أنني لا أطيق البقاء في الغرفة دقيقة أخرى لو ظلَّت هذه الزهور هنا، أتعذرني في أن أضعها خارج النافذة؟».

رجاها (چو) ألَّا تلقي بالًا إلى ذلك، وابتسم في فتورٍ وهو يرى الزهور توضع على حافة الشباك من الخارج. آه لو يدري أي إنسان بما تجشَّمه من

مشقَّة ليعد هذه الباقة المزدراة المساء استخدامها!

قال السيدة (ڤاردن): «إنه ليريحني كثيرًا أن أتخلَّص من وجودها، أؤكد لك، أشعر بالفعل بتحسُّن» وبدا بالفعل أنّها قد استردَّت روحها.

إذ ذاك عبَّر (چو) عن امتنانه للرب أن عفا عنها، وحاول ألَّا يبدو مندهشًا لغياب (دلّي) عن ناظريه.

قالت السيدة (ڤاردن): «أنتم ناسٌ تعساء في (تشغول) يا مستر (چوزيف)».

ردَّ (چو): «أرجو ألَّا يكون الأمر كذلك يا سيّدتي».

ردَّت كابحة جماح نفسها: «أنتم أقسى الناس وأكثرهم استهتارًا في العالم. إنني لأعجب أن مستر (ولت) الكبير الذي كان رجلًا متزوجًا لا يعرف كيف يسلك في الحياة مسلكًا أفضل مما يفعل. وكونه يفعل ما يفعله من أجل الربح لا يعذره. كان أفضل لي أن أدفع من المال عشرين ضعفًا ما ننفقه في (مايپول) مقابل أن أرى (ڤاردن) يعود إلى بيته كصاحب حرفة محترم متَّزن».

ثمّ أضافت بالكثير من التأكيد: «لو أنَّ هناك شخصية تسوؤني وتثير اشمئزازي أكثر من غيرها فهي شخصية السكِّير».

قال صانع الأقفال في مرحٍ: «عزيزتي مارثا، دعينا نتناول الشاي ولا نتحدث عن السكِّيرين، لا يوجد سكِّيرون هنا، ولا أعتقد أن (چو) يحبّ أن يسمع عنهم».

حين احتدمت الأمور على هذا النحو ظهرت (مـگز) بالخبز المحمَّص.

قالت السيدة (ڤاردن): «نعم أظنه لا يحب ذلك، وأظنك لا تحبه كذلك يا (ڤاردن). إنه موضوعٌ كريه للغاية بلا شكٍّ، رغم أني لا أدَّعي أنه شخصيٌّ».

هنا سعلت (مـگز)، فأضافت (مارثا): «وأيًّا كان ما أنا مجبرة على اعتقاده،..».

هنا عطست (مـگز) بطريقة معبِّرة، فأكملت (مارثا): «فإنك لن تعرف أبدًا يا (ڤاردن)، ولا يفترض أبدًا أن يعرف شخصٌ في مثل سن مستر (ولت) الشاب -ولتعذرني في ذلك يا سيدي- ما تعانيه امرأة حين تظل منتظرة في البيت تحت هذه الظروف، فإن كنت لا تصدقني، كما أعرف أنك لا تصدقني، فها هي (مـگز) التي كثيرًا جدًّا ما تشهد على ذلك، اسألها».

قالت (مـگز): «أوه! لقد كانت في غاية السوء في تلك الليلة يا سيدي حقًّا. لو لم تكن فيك عذوبة ملاك يا سيدتي، لا أظنك كنت تتحمَّلين ذلك. حقًّا لا أظنك».

قالت السيدة (ڤاردن): «(مـگز)، إنّك تجدّفين».

ردَّت (مـگز) بسرعة حادة: «عذرًا سيدتي، لم يكن هذا ما أردته، وأتمنى ألَّا تكون شخصيتي كذلك، رغم أني لست إلَّا خادمة».

أفحمتها سيدتها وهي تنظر حولها في عجرفة: «الرد عليَّ يا (مـگز) والدفاع عن نفسك هكذا هما شيء واحد! كيف تجرؤين على الحديث عن الملائكة بينما تصفين ناسًا مثلك خطاة، مجرد .».

ثم نظرت إلى نفسها في مرآة مجاورة وعدَّلت شريط قلنسوتها إلى وضعية أفضل، لتكمل: «مجرد ديدان ذليلة مثلنا!».

قالت (مـگز) واثقة من قوة إطرائها، وبصوتٍ يزداد ارتفاعًا وقوة كالعادة: «أنا لم يكن في نيَّتي يا سيدتي أن أضايقك، ولم أتوقع أن يؤخذ ما قلته على هذا النحو، أتمنى أن أكون عارفة بقلة قيمتي، وأن أكره وأحتقر نفسي وكل الخلق معي كما ينبغي لكل مسيحي صالح».

قالت السيدة (ڤاردن) في تعالٍ: «أتمنى أن تتكرمي علينا وتصعدي لتري إن كانت (دلّي) قد انتهت من ارتداء ملابسها، وأن تخبريها بأن العربة التي أُمِر بها لها ستكون هنا خلال دقيقة، وأنها إن تأخرت على العربة فسأصرفها على الفور. أنا آسفة أن أراك لا تتناول شايك يا (ڤاردن)، وأنك كذلك يا مستر (چوزيف)، رغم أنه سيكون من الحماقة بالطبع أن أتوقع أن يكون تناول أي شيء في البيت في رفقة النساء سارًّا بالنسبة إليك».

فهم كلٌّ من الرّجلين أن كاف الخطاب هذه موجَّهة إليه، وشعرا معًا أنَّ ذلك قاسٍ بطريقة غير مبررة، إذ إن (غابرييل) قد انكبَّ على الطعام بشهية مفتوحة، حتى أغلقتها السيدة (ڤاردن) نفسها، أمَّا (چو) فقد كان يحب رفقة نساء بيت صانع الأقفال، أو إحداهنَّ على أقل تقدير، كأقصى ما يمكن لإنسانٍ يحب رفقة آخر. لكنه لم تكن لديه فرصة ليقول أيَّ شيء في الدفاع عن نفسه، ففي هذه اللحظة ظهرت (دلّي) نفسها لتلجم لسانه تمامًا بجمالها. لم تبد (دلّي) أبدًا على هذا القدر من الجمال، بكلِّ ألق وزينة الصبا، وقد زاد فستانها اللائق للغاية فتنتها مائة مرة، وزادها ألف مرة دلالها في كل حركة وسكنة، ذلك الدلال الذي لا يتسنَّى لغيرها أن تصطنعه ويليق بها كما يليق بـ(دلّي)، فضلًا عن توقعاتها الرائعة لذلك الحفل الملعون! محال أن نصِف كم كره (چو) هذا الحفل أيًّا كان مكانه، وكل من سيحضرونه بخلافها، أيًّا من كانوا.

أما هي فلم تنظر إليه من الأساس! لا، لم تنظر إليه البتَّة! وحين رؤيت العربة عبر الباب المفتوح تتخبَّط داخلة الورشة صفَّقت وبدا أنها مسرورة بالذهاب بالفعل. لكن (چو) أعطاها ذراعه -وكان في ذلك شيء من المواساة لخاطره- ليركبها العربة. وكان أن رآها تسوّي جلستها بالداخل، وعيناها الضاحكتان ألمع بريقًا من الألماس، ويدها التي كانت بلا شكٍّ أجمل يدٍ في العالم على حافة الشباك المفتوح، وخنصرها مائل إلى أعلى في جرأة وإثارة كما لو كان يعجب لِمَ لم يعتصره (چو) أو يقبِّله! أن يفكِّر كم كانت زهرة أو اثنتان من باقة زهور الثلج المتواضعة ستناسب صدارها الرقيق، وأنها في المقابل ملقاة الآن بإهمالٍ خارج نافذة القاعة! أن يرى كيف أن (مـگز) كانت تنظر نظرة من يعرف كيف حيزت هذه الحلاوة كلها إلى (دلّي)، وأنها كانت مطَّلعة على سر كل خيط ومشبك وإبزيم وثقب إبرة، تقول بنظراتها (ليس ما تراه حقيقيًّا كما تظن، ولا حتى نصفه، وبإمكاني أن أبدو أنا الأخرى مثلها إذا ما أردت)! أن يسمع تلك الصرخة الصغيرة الغالية المثيرة حين نصبت العربة على قضبانها، وأن يلمح ذلك المنظر الخاطف الذي لا ينسى للوجه السعيد في الداخل، فأي عذابات وشدائد كان كل هذا، وأي مسرَّات في الوقت ذاته! حتى حاملا العربة كان يبدوان لخياله منافسين فضَّلتهما عليه وهما يحملانها عبر الشارع!

لم تشهد أبدًا غرفة صغيرة في وقتٍ قليلٍ تبدُّلًا كتبدُّل القاعة حين جلسا لينهيا الشاي، مظلمة مهجورة محبطة تمامًا. وبدا لـ(چو) أنَّ قمّة العبث أن يجلس هنا أليفًا بينما هي منخرطة في الرقص يرفرف حولها عشَّاقٌ أكثر من أن يستطيع المرء إحصاءهم، والحفل بكامله مولع بها، يعبدها، ويريد الزواج بها.

كانت (مـگز) تحوم في المكان هي الأخرى، وقد بدت حقيقة وجودها، بل بدا مجرد مجيئها إلى الدنيا، وظهورها، بعد ذهاب (دلّي)، نكتة لا مبرر لها. كان من المستحيل أن يتكلم، لا سبيل إلى الكلام. لم يتبقَّ أمامه إلَّا أن يقلِّب شايه ويقلِّبه ويقلِّبه، ويجترَّ مفاتن بنت صانع الأقفال الجميلة.

كان (غابرييل) مكتئبًا هو الآخر، ولقد كان جزءٌ من تقلُّب مزاج السيدة (ڤاردن) الذي لا مراء فيه، أن تبتهج وتمرح حين تراهما في هذه الحالة.

قالت ربَّة المنزل المبتسمة: «أنا متأكدة أنني أحتاج إلى ميلٍ إلى المرح لأحتفظ بمعنوياتي، لكني لا أعرف كيف آتي بهذا الميل إلى المرح!».

تنهَّدت (مـگز): «آه يا سيدتي، أعتذر لمقاطعتك، لكن لا يوجد كثيرون مثلك».

ردَّت السيدة (ڤاردن) وهي تنهض: «كفِّي عن ذلك يا (مـگز)، رجاءً. أعرف أنني عائقٌ هنا، وأرجو أن يستمتع الجميع بوقتهم كأفضل ما يستطيعون، أشعر أنه من الأفضل أن أذهب».

صاح صانع الأقفال: «لا لا يا (مارثا)، توقفي. أنا متأكد أننا سنأسف لغيابك وسنفتقدك، إيه يا (چو)!».

فزع (چو) وردَّ: «بالتأكيد!».

ردَّت زوجته: «شكرًا لك يا عزيزي (ڤاردن)، لكني أعرف ما ترجوه أفضل منك. التبغ والجعة والشراب لها جاذبيتها التي تفوق كل ما أستطيع أن أفخر بامتلاكه، ولذا سأذهب لأجلس بالأعلى وأنظر من النافذة يا حبيبي. طابت ليلتك يا مستر (چوزيف)! أنا مسرورة جدًّا بلقائك، وأتمنى

لو كان لديَّ ما أقدمه لك مما يناسب ذائقتك أكثر. أرجوك سلِّم لي على مستر (ولت) الكبير، وأخبره بأنه متى أتى إلى هنا فإن لديَّ أمرًا أودُّ أن أتحدث معه بشأنه، طابت ليلتك!».

وبعد أن تفوَّهت السيدة الطيبة بهذه الكلمات بأسلوبٍ حلو للغاية تنازلت وانحنت محيِّية إيّاه، ثم انسحبت في وقارٍ.

ألأجل ذلك ظلَّ (چو) يتوق إلى الخامس والعشرين من آذار لأسابيع طويلة، وجمع الزهور بحرصٍ بالغٍ، وأمال قبَّعته وتأنَّق؟! كان هذا مآل قراره الجريء الذي قرره للمرة المائة، أن يصارح (دلّي) بمدى حبه لها. أن يراها لدقيقة واحدة، لا أكثر من دقيقة، وأن يجدها خارجة للذهاب إلى حفل وسعيدة بذلك، وأن يُنظَر إليه كما لو كان مجرد شخص يدخن الغليون ويحتسي الجعة ويسرف في الشراب حتى يسكر، مجرد برميل خمرٍ! ودَّع صديقه صانع الأقفال، وأسرع إلى خان (الأسد الأسود) ليأخذ فرسه، وهو يفكر بينما تتحوَّل وجهته إلى بيته - كما فكَّر عشرات يدعون (چو) قبله وبعده- أنَّ آماله قد انتهت هنا وأنَّ ما يطمح إليه مستحيل ولا سبيل إليه، وأنها لا تبالي به، وأن التعاسة مكتوبة عليه مدى حياته، وأن المستقبل اللائق الوحيد الذي بقي له هو أن يصبح جنديًّا أو بحّارًا، ليظفر بعدوٍّ لطيف يدقُّ رأسه في أقرب وقتٍ ممكنٍ!

* * *

الفصل الرابع عشر

أخذ (چو ولت) طريقه متمهِّلًا على ظهر فرسه، مكفهرَّ المزاج، متصوِّرًا بنت صانع الأقفال وهي تشترك في رقصات ريفية طويلة، مشبِّكةً يديها بأيدي أغراب وقحين. شيء أقسى من أن يتحمَّله. باغته صوت اقتراب حوافر حصان من خلفه، وحين التفت رأى سيدًا فارسًا يقترب خببًا. حين مرَّ به هذا الراكب ألجم جواده وناداه باسمه منسوبًا إلى (مايپول). همز (چو) فرسه الرمادية ليحاذي الفارس مباشرة. ثم قال لامسًا قبَّعته محيِّيًا:

«ظننته أنت يا سيدي، مساؤك طيِّب يا سيدي، سعيد لرؤيتك خارج البيت مجدّدًا».

ابتسم السيد وأومأ برأسه قائلًا: «أي مرح كان اليوم يا (چو)؟ أهي جميلة كما كانت دائمًا؟ لا تخجل يا رجل».

قال (چو): «لو أني تغيَّر لوني يا مستر (إدوارد)، وهو ما لم أعرف أنه قد حدث، فما ذلك إلَّا لأني فكرت كم كنت أحمق لأنني تمنيتها من الأساس، إنها بعيدة عني كالسماء».

قال (إدوارد) مداعبًا في لطفٍ: «حسنًا (چو)، أتمنى ألَّا يكون الأمر كذلك تمامًا. إيه؟!».

تنهَّد (چو): «آه! ما أحلى الكلام يا سيدي. ما أسهل أن نطلق الأمنيات وأيدينا في الماء البارد! لكن لا فائدة. هل تيمَّم شطر منزلنا يا سيدي؟».

«نعم، حيث إنني لم أتعافَ تمامًا بعد، فسأبيت هناك الليلة، ثمّ أركب صباحًا إلى البيت».

قال (چو) بعد هنيهة صمتٍ: «إن كنتَ غير متعجِّل تمامًا، وتستطيع أن تحتمل خطوة هذه الفرس المسكينة، فسيكون أدعى إلى سروري أن أركب معك إلى منزل (وارن) يا سيدي، وأمسك لك حصانك حين تترجَّل عنه، فسيوفِّر عليك هذا مشقَّة المشي من (مايپول) إلى (وارن) وبالعكس. أستطيع ان أوفِّر الوقت جيدًا يا سيدي، فأنا سريع».

ردَّ (إدوارد): «وأنا كذلك، رغم أنني كنت أقود حصاني سريعًا بطريقة لا واعية الآن، ربما بسبب خطوة أفكاري المتعجِّلة التي تسابقني. دعنا نركب معًا بنفس السرعة يا (چو)، على الرحب والسعة، ونستمتع برفقة بعضنا لبعض. وابتهج يا رجل، ابتهج. فكِّر في بنت صانع الأقفال بقلبٍ شجاعٍ وستفوز بها».

هزَّ (چو) رأسه، غير أنَّ مرحًا في أسلوب كلام (إدوارد) المفعم بالأمل والبهجة رفع معنوياته حقًّا، فنقل بدوره دافعًا جديدًا إلى الفرس الرمادية نفسها، فخرجت من سيرها المتمهِّل إلى خبب لطيف مقلِّدة خطوة حصان (إدوارد تشستر)، وبدت كما لو كانت تطري نفسها أنه يفعل أفضل ما يستطيع.

كانت ليلة جافة الطقس لطيفة، وقد سكب ضوء القمر الوليد الذي كان بسبيله إلى السطوع من السكون والسلام ما منح المساء أطيب ما

فيه من سحرٍ، وألقت ظلال الأشجار المستطيلة اللينة كما لو كانت منعكسة على سطح ماء ساكن بساطها على الممشى الذي اعتادته خطى المسافرين، وهبَّت الريح الخفيفة ألطف مما كانت، كأنها تهدهد الطبيعة في نومها. تدريجيًّا توقَّف عن الكلام، وركب كلٌّ منهما إلى جوار صاحبه في صمتٍ لذيذٍ.

وإذ سارا في الطريق التي يظهر منها الخان بينما الأشجار التي تحجبه قد عريت من الأوراق، قال (إدوارد):

«أضواء (مايپول) كأشد ما تكون سطوعًا الليلة».

ردَّ (چو) ناهضًا في ركابه ليتملَّى المشهد: «بالفعل يا سيدي، أضواء في الغرفة الكبرى ونار تتقد في أفضل غرف النوم؟ لماذا؟ لأي ضيف يمكن أن يكون كل هذا؟».

قال (إدوارد): «ربما هو فارس مضلل متجه صوب لندن، وقد أخَّرته عن مواصلة طريقه الليلة حكايات مدهشة سمعها عن صديقي قاطع الطريق».

«لا بُدَّ أنه فارس ذو منزلة خاصة ليحظى بمثل هذه الإقامة، وفراشك أيضًا يا سيدي..».

«لا يهم يا (چو)، ستكفيني أي غرفة أخرى، لكن أسرع، إنها التاسعة، علينا أن نهمَّ».

ثم إنهما خبَّا في طريقهما بأسرع ما احتملته فرس (چو)، وتوقَّفا عند الأجمة التي ترك (چو) عندها فرسه في الصباح. ترجَّل (إدوارد) مناولًا رفيقه اللجام، وخطا رفيقًا صوب المنزل.

كان ثَمَّ خادمة تنتظر عند بوابة جانبية في سور الحديقة، وقد أدخلته على الفور. أسرع عبر ممشى الشرفة وقفز درجًا عريضًا إلى أعلى، موصلًا إلى قاعة عتيقة كئيبة، زيَّنت جدرانها دروع صدئة وقرون حيوانات وأسلحة صيد إلى غير ذلك من تلك الزينة. هنا توقَّف، لكن ليس طويلًا، حيث إنه لمَّا نظر حوله كما لو كان يتوقع أن تكون الخادمة قد تبعته، ودهش لأنها لم تفعل، ظهرت فتاة حسناء استقرَّ شعرها الفاحم على صدره في اللحظة التالية. وفي اللحظة نفسها تقريبًا وُضِعت يدٌ ثقيلة على ذراعها، وشعر (إدوارد) أنه قد دُفِع بعيدًا، ووقف مستر (هاردال) بينهما.

حدج الشاب بنظرة صارمة من دون أن يرفع قبَّعته، وأمسك ببنت أخيه بيدٍ، وبالأخرى الممسكة بسوط ركوبه أشار للشاب إلى الباب، استجمع (إدوارد) قواه وردَّ نظرة الرجل.

قال مستر (هاردال): «حسنًا فعلت يا سيدي، أن أفسدت خدمي ودخلت بيتي خفية غير مأذون لك مثل لصّ! اذهب أيها السيد ولا تعُد إلى هنا أبدًا».

ردَّ الشاب: «وجود الآنسة (هاردال) وقرابتك لها يعطيانك تصريحًا لن تسيء استغلاله لو كنت رجلًا شجاعًا. لقد أجبرتني على اتخاذ هذا المسلك، فالخطأ خطؤك أنت لا أنا».

قال الآخر: «إنه ليس من الكرامة ولا الشرف ولا من أفعال الأمناء أيها السيد أن تلهو بعواطف فتاة ضعيفة صادقة، بينما تنكمش في نذالتك من حاميها الوصيِّ عليها، وتجبن عن الظهور في ضوء النهار. لن أقول لك أكثر من ذلك، إلَّا أن أحظر عليك دخول هذا المنزل وآمرك بمغادرته الآن».

ردَّ (إدوارد): «بل ليس من الكرامة ولا الشرف ولا من أفعال الأمناء أن تلعب دور الجاسوس. كلامك يشي بانعدام الشرف، وأنا أرفضه بما يستحقُّه من ازدراء».

قال مستر (هاردال) في هدوءٍ: «ستجد رسولك الأمين إليها منتظرًا عند البوابة التي دخلت منها. أنا لم ألعب دور جاسوس أيها السيد. لقد رأيتك بالصدفة تعبر البوابة فتبعتك. لو كنت أبطأت قليلًا أو تلكَّأت في الحديقة بعض الوقت لسمعتني أدق الإذن بدخولك. رجاءً غادر. وجودك مؤذٍ بالنسبة إليَّ ومحزن لابنة أخي».

وبينما يقول هذه الكلمات أحاط خصر الفتاة المذعورة الباكية وقرَّبها منه، ورغم أن قسوة أسلوبه المعتادة لا تتغيَّر إلَّا فيما ندر، إلَّا أن طيبة وتعاطفًا مع كربها قد ظهرا جليّين في هذه الحركة.

قال (إدوارد): «مستر (هاردال)، ذراعك تحيط تلك التي تدور حولها آمالي وأفكاري جميعًا، ولأشتري دقيقة واحدة من السعادة لتلك التي أنا مستعدٌّ أن أضحي لأجلها بحياتي راضيًا، فإن هذا المنزل هو الصندوق الذي يضم جوهرة وجودي الثمينة. لقد أقسمت ابنة أخيك على الوفاء لي وأقسمتُ على الوفاء لها. ماذا فعلت لأصغر هكذا في عينيك وتوجِّه إليَّ مثل هذه الكلمات الفظَّة؟».

أجاب مستر (هاردال): «لقد فعلت أيها السيد ذلك الذي يجب أن ينقض. لقد أبرمت هنا عقدة غرام يجب أن تُفَك وتُقطَع. انتبه جيدًا لما أقوله. يجب عليك ذلك. إنني ألغي الرباط بينكما. إنني أرفضك أنت وكلّ ذوي قرباك. كلَّ تلك الأرومة الجوفاء الخائنة المجردة من القلوب».

قال (إدوارد) في احتقارٍ: «كلمات مفعمة بالغضب يا سيدي».

ردَّ الآخر: «كلمات مفعمة بالقصد والمعنى كما ستكتشف. احفظها عن ظهر قلب».

قال (إدوارد): «إذن فاحفظ أنت الآخر ما سأقوله. إنَّ مزاجك البارد الكئيب الذي يجمِّد مشاعر كل من حولك ويحوِّل الحب إلى خوف والشعور بالواجب إلى فزع هو ما أجبرنا على هذا المسلك الخفيِّ الذي تعافه طبيعتنا وآمالنا، وهو أغرب عنَّا أيها السيد مما هو عنك. أنا لست رجلًا أجوف خائنًا بلا قلبٍ، وإنما هذه الشخصية شخصيتك أنت الذي تغامر بكيل هذه الصفات جزافًا وضد الحقيقة، وتحت الستار الذي ذكَّرتك به لتوّي. إنك لن تلغي الرباط بيننا. وأنا لن أترك هذا السعي. إنني أعتمد على صدق وشرف ابنة أخيك، وأعتبر نفوذك لا شيء، إنني أتركها واثقًا بوفائها الطاهر الذي لن تضعفه أنت أبدًا، غير مهموم إلَّا لأني لا أتركها لعناية أرقّ مما توفِّره أنت».

قال ذلك وقبَّل يدها الباردة، قبل أن ينسحب مواجهًا نظرة (هاردال) الثابتة مرة أخرى في تحدٍّ.

تكفَّلت كلمات قليلة قالها لـ(چو) وهو يمتطي صهوة جواده بشرح ما حدث، وجدَّدت كلّ كآبة هذا السيد الشاب مضاعفة إيّاها عشر مرات. ركبا إلى (مايپول) دون أن يتبادلا حرفًا، ووصلا إلى بابه مثقلين.

وكان أن خرج إليهما مباشرة (چون) العجوز بعد أن كان يختلس النظر من خلف الستار الأحمر وهما يقتربان، صائحًا بـ(هيو)، وقال في نبرة خطيرة بينما يمسك بركاب السيد الشاب:

«إنه مستريحٌ في الفراش. أفضل فراش. سيد نبيل تمامًا، الأرق بسمة، والألطف بين كلٍّ من تعاملت معهم».

سأل (إدوارد) في لا مبالاة وهو يترجَّل: «من يا (ولت)؟».

ردَّ (جون): «والدك الغالي يا سيدي، أبوك المحترم الموقَّر».

قال (إدوارد) ناظرًا إلى (چو) في مزيج قلق وريبة: «ماذا يعني؟».

قال (چو): «ماذا تعني؟ ألا ترى أن مستر (إدوارد) لا يفهمك يا أبي؟».

ردَّ (چون) فاتحًا عينيه على اتساعهما: «لماذا؟ ألم تعلم بذلك يا سيدي؟ يا للغرابة! فليباركَّ الرب، إنه هنا منذ ظهر اليوم، وقد دار بينه وبين مستر (هاردال) حوارٌ طويلٌ، ولم تمض ساعة على انصراف هذا الأخير».

«أبي يا (ولت)!».

قال (چون) متقهقرًا إلى الطريق وناظرًا إلى أعلى حيث نافذة الغرفة: «نعم سيدي، هو أخبرني بذلك. سيد وسيم نحيل منتصب القامة، في زيٍّ أخضر وذهبي. في غرفتك القديمة هناك بالأعلى يا سيدي. لا ريب أنك تستطيع الدخول إليه يا سيدي. إنه لم يطفئ شموعه بعد كما أرى».

نظر (إدوارد) إلى النافذة هو الآخر، ثم غمغم في عجلة بأنه قد غيَّر رأيه وأنه قد نسي شيئًا وعليه أن يعود إلى لندن، ليمتطي صهوة جواده ثانية وينطلق به، تاركًا (ولت) الأب والابن يتبادلان النظر في دهشة صامتة.

الفصل الخامس عشر

ظهر اليوم التالي جلس ضيف (چون ولت) في بيته يتناول إفطاره في تمهُّل، محاطًا بالرفاهية التي تتضاءل إلى جوارها أقصى أحلام (مايپول) بالراحة وأفضل ما يمكنه أن يوفِّر من السكنى، وهي رفاهية تحضُّ على

المقارنة حقًّا، وهي حتمًا مقارنة يخرج منها ذلك الخان الجليل خاسرًا.

في مقعد النافذة العريض العتيق الطراز الذي يعدل في سعته عدة أرائك حديثة، والذي تعلوه الوسائد بحيث يفي بغرض أريكة وثيرة فاخرة، في ذلك المقعد من غرفة واسعة، كان مستر (تشستر) يتناول إفطاره في استرخاء على منضدة حسنة التجهيز. استبدل بمعطف ركوبه ثوبًا أنيقًا للصباح، وبحذائه الثقيل خفَّين، وجاهد أن يعوِّض نفسه عن اضطراره إلى أن يرتدي ملابسه حين قام من نومه من دون مساعدة خزانة الملابس وصندوق الزينة، وحيث إن هذه الوسائل قد أنسته منغِّصات ليلة أمس واضطراره إلى الركوب مبكّرًا، فقد كان الآن في رضًا تام ومزاج هادئ.

وقد كان الموقف الذي وجد فيه نفسه مناسبًا حقًّا لنمو هذه المشاعر، فبغض النظر عن تأثير الإفطار المتأخر الذي تناوله منفردًا، ذلك الذي يدعو إلى الكسل، مضافًا إليه الأثر المنوِّم للجريدة، كان هناك جوٌّ من الراحة يميز مسكنه ويخيِّم عليه حتى في تلك الأوقات المفعمة بالصخب والحركة إذا ما قيست بالعهود الغابرة.

والحق أن هناك أماكن أسوأ من (التمپل)[1] في يوم قائظ إذا ما أراد المرء أن يستمتع بالشمس أو يرتاح في الظل. ففي قاعات محاكمه يعشِّش

---

(١) التمپل (المعبد) The Temple هي مساحة في لندن تحيط بكنيسة التمپل The Temple Church، وتمثِّل أحد أهم الأحياء القانونية في لندن، وتتكوَّن من التمپل الداخلي والتمپل الأوسط، وهما اثنان من الهيئات القانونية الأربع في لندن، وهي أقرب إلى جمعيات مهنية لمحامي المحاكم العليا في القانون العام الإنـكليزي. واسم هذه المساحة -كما يقول قاموس أكسفورد لأسماء الأماكن في لندن- مسجَّل في القرن الثاني عشر بصيغة Novum Templum أي المعبد الجديد، في إشارة إلى كنيسة جديدة وما يتبعها من الممتلكات التي كانت تتبع فرسان المعبد Knights Templar.

النعاس، وفي شجره وحدائقه سكون حالم، ويستطيع من يذرعون طرقاته وميادينه أن يسمعوا صدى خطواتهم على حجارته، وأن يقرأوا على بواباته إذا ما مرُّوا بها وهم في شارع (ستراند) أو (فليت): «من يدخل هنا يترك الضوضاء بالخارج» كذلك هناك هدير الماء الساقط في ميدان النافورة الجميل، وهناك زوايا وأركان يستطيع فيها الطلاب المهووسون بالقصور التي على شاكلة قصر (دن)[1] أن ينظروا من شرفاتهم المتربة إلى أسفل ليطاردوا بأبصارهم شعاعًا شاردًا ألقته الشمس يرقِّع ظلَّ المنازل العالية ولا يبالي إلَّا نادرًا بأن يعكس هيئة غريب يمرُّ بالمكان.

وما زال في (التمپل) جوٌّ رهبانيٌّ لم تعكِّره مكاتب المحكمة العامة، وحتى مكاتب المحامين لم تنجح في صرفه من المكان. في الصيف تغري مضخَّاته الظامئين وينبع منها الماء أبرد وأصفى وأعمق من كل بئر في سواه، وكلما تابعت أعين الظامئين ما ينسكب من ماء الأباريق الملآنة على الأرض الساخنة يتشمَّمون رائحة الطزاجة ويتنهدون وهم يلقون نظرات حزينة على نهر (التامز) مفكرين في المسابح والقوارب، ثم يتابعون مشيهم في وجوم.

في إحدى غرف أبنية الورق –وهي صفٌّ من الأبنية الضخمة التي

(١) يستخدم (ديكنز) تعبير Dun-Haunted Students، والإشارة هنا إلى منزل (دن) المشهور بكونه مسكونًا، وهو يقع ضمن ضيعة (دن) التي حازتها عائلة (إرسكن Erskine) منذ عام ١٣٧٥م حتى دخل القصر ضمن حوزة الصندوق الوطني لأسكتلندا عام ١٩٨٠. وقد وقعت في هذا القصر حوادث قتل وتسميم كما قيل إنه شهد شكلًا من أشكال العرافة عام ١٦١٣م حين سمَّم (روبرت إرسكن) ابني أخيه (چون الصغير) و(ألكساندر) الوريثين الشرعيّين للضيعة بما فيها، فمات (چون) ألمًا ونجا (ألكساندر) ليرث كلّ شيء بعد إعدام عمِّه واثنتين من عمَّاته ونفي العمَّة الثالثة.

تظلِّلها من الأمام أشجار عتيقة وتطلُّ من الخلف على حدائق (التمپل)- كان كسولنا هذا يمضي الوقت مسترخيًا، فتارة يتناول الأوراق التي وضعها بجانبه مائة مرة، وتارة يلهو ببقايا إفطاره، وحينًا يسحب خلَّة أسنانه الذهبية وهو يقلِّب بصره في الغرفة على مهل، أو في مماشي الحديقة المهذَّبة عبر النافذة، حيث تتسكَّع قلة من الناس بكَّرت إلى هنا. هنا حبيبان تقابلا ليتشاجرا ويتصالحا، وهناك مربية أطفال داكنة العينين، وعيناها على العابرين في (التمپل) أكثر مما هما على من معها من الأطفال، عن يمينه عانسٌ عجوزٌ معها كلبها الصغير مربوط بخيطٍ، وقد رمقهما كليهما بنظراتٍ جانبية مزدرية باعتبارهما شيئين بالغي القبح، وعن شماله سيِّدٌ عجوز ضامر يرمق المربية بنظرة متشهية والعانس بنفس النظرة المزدرية، متعجِّبًا من أنها لا تعرف أنها لم تعد شابة. وبعيدًا عن كل هؤلاء كان زوجان أو ثلاثة من المنهمكين في أحاديث العمل الجادة يتمشُّون على حافة النّهر، وشاب يجلس منفردًا مفكِّرًا على أريكة.

قال مستر (تشستر) وهو ينظر إلى هذا الشخص الأخير، واضعًا فنجان قهوته على المنضدة وهو يعمل الخلَّة الذهبية في أسنانه: «(ند) صبور إلى درجة مدهشة، صبورٌ للغاية! كان يجلس هناك حين بدأت آخذ زينتي، ولا يكاد يكون قد غيَّر شيئًا في جلسته مذ ذاك إلى الآن، يا لَه من كلبٍ غريب الأطوار!».

وبينما يتحدث نهض الشخص المشار إليه وأخذ يقترب منه بخطوة سريعة، فما كان من الأب إلَّا أن قال مستعيدًا جريدته وهو يتثاءب: «حقًّا كما لو كان قد سمعني! (ند) العزيز!».

وما لبث باب الغرفة أن فتح ودخل منه الشاب الذي لوَّح له أبوه في لطفٍ وهو يبتسم، قال (إدوارد):

«هل حضرتك في فراغٍ يسمح بأن أحادثك قليلًا؟».

«طبعًا يا (ند)، إنني دائمًا في فراغٍ، أنت تعرف طبيعتي. أتناولتَ إفطارك؟».

«منذ ثلاث ساعات».

صاح أبوه متأمِّلًا إيَّاه من وراء خلَّته الذهبية بابتسامة فاترة: «يا لَك من كلبٍ مبكِّر جدًّا!».

قال (إدوارد) مقدِّمًا مقعدًا ليجلس قرب المنضدة: «الحق أنني لم أحظ البارحة بنومٍ جيِّدٍ، وكنتُ مسرورًا أن صحوت. وسبب اضطرابي لا يمكن إلَّا أن يكون معروفًا لحضرتك، وعن هذا الأمر أودُّ أن أحدِّثك».

ردَّ والده: «ولدي العزيز، أفض إليَّ بما شئت، أرجوك. لكن، أنت تعلم طبعي، فالمهم ألَّا تطيل يا (ند)».

قال (إدوارد): «سأكون واضحًا ومختصرًا».

ردَّ والده واضعًا ساقًا فوق أخرى: «لا تقل إنك (ستكون) يا صديقي الطيِّب، وإلا فلن تكون ما تقول إنك ستكونه! ستخبرني..».

قال ابنه بلهجة مهمومة: «بوضوحٍ إذن، أخبرك بأني أعرف أين كنت ليلة أمس، من واقع أني كنتُ هناك أنا الآخر بالفعل، ومن قابلت، ولأيِّ غرض».

صاح أبوه: «لا! أحقًّا؟ أنا سعيدٌ بسماع ذلك؛ هذا يوفِّر علينا القلق والشرح الطويل المتعب، ويريح كلينا. أكنتَ في المنزل نفسه؟! لماذا لم تصعد إليَّ؟ كان ذلك بالقطع سيسعدني».

ردَّ الابن: «لقد علمت أنَّ ما أود قوله من الأفضل أن يقال بعد التفكير فيه ليلة، حين يكون كلانا أصفى مزاجًا».

قال الأب: «ربَّاه! لقد كنت صافي المزاج ليلة أمس بما يكفي يا (ند). يا لـ(مايپول) الكريه هذا! بحيلة جهنَّمية من بانيه يستطيع أن يحتفظ بالهواء طازجًا نقيًّا. أتذكر الريح الشرقية الحادَّة التي هبَّت عنيفة منذ خمسة أسابيع؟ بشرفي لقد كانت هائجة في ذلك الخان القديم ليلة أمس، رغم أن الهواء خارجه كان ساكنًا سكون الموتى. لكنَّك كنت تقول..».

«كنتُ على وشك أن أقول –يعلم الربّ كم أنا جادٌّ فيما أود قوله– إنَّ حضرتك أتعستني، أيمكن أن تسمعني باهتمامٍ لدقيقة؟».

قال أبوه: «عزيزي (ند)، سأسمعك بصبر ناسكٍ، اسمح وناولني الحليب».

تابع (إدوارد) بعد أن استجاب لهذا الطلب: «لقد رأيت الآنسة (هاردال) ليلة أمس، وقد منعني عمُّها في حضورها بعد أن قابلك مباشرة، وكما أعرف بالطبع، بسبب مقابلتكما، من دخول منزلهم، وأمرني بمغادرته على الفور بكل إهانة أنت تسبَّبت فيها».

قال أبوه: «بشرفي يا (ند)، أنا لست مسؤولًا عن الأسلوب الذي فعل به ذلك، عليك أن تعذرني في ذلك. إنه مجرّد شخصٍ فظٍّ، حطبة، حيوان ليس له قيمة في الحياة. هو حقًّا ذبابة في الإبريق، أوّل ذبابة أراها هذا العام».

نهض (إدوارد) وأخذ يذرع الغرفة بينما يرتشف أبوه شايه في هدوئه الذي لا يعكِّره شيء. فقال الشاب متوقِّفًا أمامه بعد فترة: «أبي، علينا ألَّا نلعب بهذا الأمر، علينا ألَّا يخدع أحدنا الآخر وألَّا نخدع أنفسنا، دعني

أتابع الدور الرجولي الصريح الذي أودُّ ان آخذه، ولا تصدّني بهذه اللا مبالاة القاسية».

ردَّ الآخر: «سأترك لك يا ولدي العزيز أن تقضي فيما إذا كنت غير مبالٍ أو غير ذلك. لقد ركبت لمسافة خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلًا عبر طرق موحلة، وتعشَّيت في (مايپول)، والتقيت بـ(هاردال)، لقاءً أقرب إلى لقاء (ڤالنتاين وأورسن)[1] إذا ما جنَّبنا الغرور، ونمت في فراش بـ(مايپول)، فضلًا عن مالك (مايپول) وحاشيته من البلهاء والقناطير[2]. فسواء بدا لك تحمُّلي لهذه الأشياء بمحض إرادتي لا مبالاةً يا عزيزي (ند)، أو قلقًا بالغًا وإخلاصًا إلى آخر تلك الأشياء التي يشعر بها الآباء، فالأمر متروك لك».

قال (إدوارد): «إنني أرجو أن تفكِّر حضرتك في قسوة الموقف الذي وجدتُ نفسي فيه. فكوني أحبُّ الآنسة (هاردال) ..».

قاطعه أبوه بابتسامة متعاطفة: «صديقي الطيِّب. إنك لا تحبُّها ولا يحزنون، إنك لا تعرف أيَّ شيء عن هذا الأمر. أؤكِّد لك أنه لا يوجد هذا الذي تتوهَّمه، والآن ثق بما أقول. إنَّ لديك حسًّا جيِّدًا يا (ند)، جيِّدًا جدًّا، وإني لأعجب من أن تأثم بمثل هذه السخافات العجيبة. أنت حقًّا تدهشني».

---

(١) ڤالنتاين وأورسن Valentine & Orson اسم ملحمة ألحقت بالدائرة الملحمية الكارولنجية التي تقصُّ تاريخًا أسطوريًّا لفرنسا، خاصة في عهد (شارلمان)، وتدور هذه الملحمة بالذات حول توأمين تُرِكا في الغابة رضيعين، فرُبي (ڤالنتاين) في بلاط (پپان الأحدب) الأمير الفرانكي ابن (شارلمان) ليصبح فارسًا، بينما شبَّ (أورسن) في كهف دبٍّ ليصبح إنسانًا متوحِّشًا، إلى أن يغلبه (ڤالنتاين) ويروِّضه ليصبح خادمه ورفيقه.

(٢) القنطور Centaur هو ذلك الكائن الخرافي القادم من الأساطير اليونانية، له نصفٌ علويٌّ بشريٌّ ونصفٌ سفليٌّ كالحصان، وكان ينظر إليه عادة باعتباره كائنًا متوحِّشًا كالخيل غير المروّضة.

قال ابنه في صرامة: «إنني أكرِّر أنني أحبُّها. لقد تدخَّلتَ لتفرِّق بيننا، ونجحتَ في مسعاك إلى المدى الذي أخبرتُكَ به لتوِّي. فهل لي أن أقنع حضرتك بأن تفكِّر في علاقتنا على نحوٍ أكثر تأييدًا، أم أنَّك نويت وصمَّمت تمامًا على أن تفرِّق بيننا إن استطعت؟».

ردَّ الأب وهو يأخذ شيئًا من السّعوط ويدفع الصندوق إليه: «عزيزي (ند)، هذا غرضي بلا ذرَّة شكٍّ».

قال الابن: «إنّ الوقت الذي مرَّ مذ عرفت قيمتها، سال من بين يديَّ كما لو كنتُ في حلم، حتى إنني إلى الآن لم أتوقَّف لأتأمَّل موقفي الحقيقي. ما هو؟ منذ طفولتي اعتدتُ الرفاهية والفراغ، وربّيت كما لو كانت ثروتي واسعةً، وآمالي تكاد تكون بلا حدودٍ. شربت فكرة الثراء منذ المهد. وعُلِّمت أن أنظر إلى تلك الوسائل التي يرفع بها الرجال أنفسهم في المال والوجاهة باعتبارها لا تعنيني في قليلٍ أو كثيرٍ. عُلِّمت كما يقولون تعليمًا حرًّا، فأصبحت لا أصلح لشيء. وهكذا أجد نفسي أخيرًا معتمدًا عليك كليَّة، بلا مصدر إلَّا ما ترتضيه لي. وفي هذا السؤال الخطير من أسئلة حياتي لا نتفق، ولا يبدو أننا سنتفق. لقد أحجمت تلقائيًّا عن الاقتراب ممن أغريتني بخطب ودهنَّ، ورغبت عن دوافع المصلحة والمكسب التي جعلتهنَّ أهدافًا صالحة لخطبتي في نظرك. ولو أنه لم يكن هناك بيننا مثل هذه الصراحة من قبل، فالخطأ ليس خطئي يا سيدي. وإن كنت أبدو صريحًا جدًّا الآن، فصدِّقني يا أبي، ليس هذا إلَّا أملًا في أن تكون بيننا مستقبلًا روح أصدق وثقة أجدر وأطيب».

قال والده المبتسم: «صديقي الطيِّب. لقد أثَّرت فيَّ تمامًا. استمر عزيزي (إدوارد)، أرجوك. لكن تذكَّر وعدك. هناك جديَّة عظيمة وصراحة كبيرة وإخلاص واضح في كل ما قلت، لكن أخشى أنني أرى علامات خافتة على ميل إلى الإطالة».

«أنا في غاية الأسف يا سيدي».

«وأنا كذلك في غاية الأسف يا (ند)، لكنك تعرف أنني لا أستطيع أن أركز ذهني على موضوعٍ واحدٍ لمدة طويلة. فلو قفزت إلى الخلاصة مباشرة فسأتخيَّل كلَّ ما كان سيقال بين يديها وأعتبره قد قيل. اسمح وناولني الحليب مرة أخرى. الإنصات يصيبني بالحمّى دائمًا».

قال (إدوارد): «ما كنت سأقوله إذن يتلخَّص في التالي. إنني لا أستطيع تحمُّل هذه الاعتمادية المطلقة يا سيدي، حتى لو كانت عليك. لقد ضاع وقتٌ طويلٌ وأُهدِرت فرصٌ، لكنني ما زلت شابًّا وبإمكاني أن أعوِّض ذلك. هلّا منحتني الوسيلة لنذر ما أملك من طاقات وقدرات لمسعًى ذي قيمة؟ هلّا تركتني أحاول أن أصنع لنفسي مسارًا شريفًا في الحياة؟ ولأيّ مدّة تحدِّدها -ولنقل لخمسة أعوام إن رضيت- سأتعهَّد بألَّا أخطو قيد شعرة في المسألة الخلافية بيننا دون موافقتك الكاملة. وخلال هذه المدة سأحاول صابرًا مجتهدًا أن أفتح لنفسي أفقًا، وأن أحررك من العبء الذي تخشى أن أكونه إذا ما تزوجت تلك التي قيمتها وجمالها هما ميزتاها الأساسيتان. هلّا فعلت ذلك يا سيدي؟ وبنهاية المدة التي نتفق عليها، دعنا نناقش المسألة مجدَّدًا، وإلى ذلك الحين دعنا لا نتطرَّق إليها أبدًا، ما لم تجدِّد حضرتك الحديث بخصوصها».

ردَّ أبوه وهو يلقي جانبًا بالجريدة التي ظلَّ يرمقها من دون اهتمامٍ ويريح ظهره في مقعد النافذة: «عزيزي (ند). أظنُّك تعرف إلى أي مدًى أكره ما يسمُّونه المسائل العائلية، تلك التي لا تصلح إلَّا لأيام الكريسماس المبتذلة، ولا علاقة لمن هم في مثل حالنا بها. لكن ما دمتَ مصرًّا على خطأ يا (ند) –على خطأ تامٍّ– فسأتغلَّب على نفوري من الدخول في هذه المسائل، وأعطيك إجابةً صريحةً مخلصةً للغاية، لو أنَّك تفضَّلت وأغلقت الباب».

وبعد أن أطاعه (إدوارد)، أخرج من جيبه سكّينًا صغيرة أنيقة، وأخذ يقول وهو يقلِّم أظافره: «عليك أن تشكرني يا (ند) على كونك من عائلة كريمة، فإنَّ أمك –على ما تمتَّعت به من شخصية ساحرة– تلك التي تركتني مكسور القلب وما إلى ذلك حين اضطرَّت قبل الأوان إلى أن تكون خالدة – لم يكن لديها ما تفخر به في هذا الصّدد».

قال (إدوارد): «كان أبوها على الأقل محاميًا بارزًا يا سيدي».

«صحيح تمامًا يا (ند)، تمامًا. كان له وضعه في المحاكم، وكان اسمه كالطبل وثروته عريضة. لكنَّه بحكم كونه قد برز من لا شيء –لقد طالما تغاضيت عن هذه الحقيقة وقاومت التفكير فيها، لكنّي أخشى أنَّ أباه كان يبيع لحم الخنزير، وأنَّ تجارته في وقتٍ ما كانت تشتمل على الأكارع والسجق– فقد تمنَّى أن يزوِّج ابنته في عائلة كريمة. وقد ظفر برغبته يا (ند). كنت الابن الأصغر لأبي الذي كان الابن الأصغر لأبيه، وتزوَّجتها. كان لكلينا هدفه، وكلانا فاز بهدفه. وضعت هي قدمَها على الفور في دوائر المجتمع الأفضل والأرقى، ووضعتُ أنا قدمي في ثروة أؤكِّد لك

أنها كانت ضرورية جدًّا لراحتي، ولم يكن لي عنها غنى. والآن أيُّها الرجل الطيب، أصبحت هذه الثروة في خبر (كان). لقد ذهبت يا (ند)، ومرَّ على ذهابها – كم عمرك الآن؟ أنسى ذلك دائمًا».

«سبعة وعشرون يا سيدي».

صاح أبوه رافعًا جفنيه في دهشة واهنة: «أحقًّا؟! كثير! إذن فعليَّ أن أقول يا (ند) إنَّ هذه الثروة لم يبق لها أثرٌ منذ ثمانية عشر أو تسعة عشر عامًا. في ذلك الوقت تقريبًا بدأت أعيش في هذه الغرف التي كانت ملكًا لجدِّك، قبل أن يورثني إيَّاها ذلك الشخص البالغ الاحترام، ومذ ذاك أعيش على معاشٍ سنويٍّ متواضع وعلى سمعتي القديمة».

قال (إدوارد): «أنت تمزح معي يا سيدي».

ردَّ أبوه رابط الجأش: «لا، إطلاقًا. أؤكّد لك. هذه الموضوعات العائلية جافة للغاية، لدرجة أنني آسفٌ أن أقول إنها لا تهوِّن أيَّ شيء، لهذا السبب ولأنَّ لها هيئة الأمور العملية، أكرهها جدًّا. حسنًا! أنت تعرف الباقي. الابن يا (ند) إن لم يكن كبيرًا بما يكفي لأن يكون صاحبًا –أعني إن لم يكن في حدود الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين– فهو ليس الشيء الذي ينبغي للمرء أن يحتفظ به بجانبه. إنه يمثِّل حينئذٍ قيدًا على أبيه، ويمثِّل أبوه قيدًا عليه، وكلٌّ منهما يجعل الآخر في وضعٍ غير مريحٍ. ولذا، فحتى الأعوام الأربعة الماضية أو ما إلى ذلك –أنا لا أتذكَّر التواريخ جيّدًا، فإن أخطأت فستصحِّح لي بينك وبين نفسك– كنت تتابع دراساتك من بعيد، وتحقِّق تنوُّعًا كبيرًا من الإنجازات. كنَّا نمضي معًا أسبوعًا أو أسبوعين هنا كلَّ حين، ويربك كلٌّ منَّا صاحبه كما يحدث عادة بين أقرب

الأقربين. وأخيرًا عدت إلى البيت. وأقول لك بصراحة يا ولدي العزيز إنَّك لو كنت أخرق وقليل العقل لأرسلتك إلى بقعة نائية من العالم».

قال (إدوارد): «كم أتمنى الآن أنّك كنت فعلت ذلك يا سيّدي».

قال أبوه في برودٍ: «لا يا (ند)، أنت لا تتمنى ذلك. أؤكّد لك أنك مخطئ. لقد وجدتك رجلًا أنيقًا وسيمًا خلَّابًا، ورميت بك في المجتمع الذي ما زلت أستطيع التعامل معه. وبفعلي ذلك يا صاحبي العزيز، أعتبر أنني أمَّنت لك مستقبلك، وأعتمد على فعلك شيئًا لتؤمِّن لي حياتي في المقابل».

«لا أفهم ما ترمي إليه حضرتك».

«ما أرمي إليه واضحٌ يا (ند). إنني ألاحظ وجود ذبابة أخرى في إبريق القشدة، لكنَّ طيبتي تمنعني من أن أنتزعها كما انتزعت أنت الذبابة الأولى، فإنَّ مشية الذباب بأرجل يلوِّثها الحليب خرقاء بغيضة إلى أبعد مدى، ما أرمي إليه هو أنَّك يجب أن تفعل كما فعلت أنا، أن تتزوج زيجة مناسبة وتستثمر نفسك كأفضل ما يمكن».

صاح الابن ساخطًا: «مجرّد صائد ثروة!».

ردَّ الأب: «ماذا ستكون يا (ند) بحق الشيطان؟! كل الناس صيّادو ثروة، أليس كذلك؟ المحاكم والكنيسة والبلاط والجيش. انظر كم هي مزدحمة كلها بصيّادي الثروة الذين يتدافعون في سعيهم إلى اصطيادها. سوق الأوراق المالية ومنابر الوعَّاظ ومكتب المحاسبة وقاعة الاستقبال الملكية ومجلس الشيوخ، بمن تمتلئ جميعًا سوى صيَّادي الثروة؟ صيَّاد ثروة! نعم، أنت صياد ثروة، ولن تكون شيئًا آخر يا عزيزي (ند) ولو كنتَ

أعظم حاشية الملك أو أعظم محامٍ أو مشرِّع أو أسقف أو تاجر في الوجود. لو كنت شديد الحساسية خلقيًّا يا (ند)، فلتعزّ نفسك بالتفكير في أنك على أسوأ تقدير ستتعس بكونك صياد ثروة شخصًا واحدًا. كم من الناس في افتراضك يسحقهم أولئك الصيّادون الآخرون خلال مساعيهم؟ مئات في الخطوة؟ أم آلافًا؟».

وضع الشاب رأسه على يده ولم يحر جوابًا، فنهض الأب وقال وهو يذرع الغرفة ببطء، متوقِّفًا بين الفينة والفينة لينظر إلى نفسه في المرآة أو يتفحَّص صورة بعدسته كما لو كان خبيرًا:

«أنا سعيدٌ جدًّا لأنَّنا حظينا بهذا الحوار بيننا يا (ند)، رغم كونه غير واعدٍ، إنه يؤسِّس لصراحة بيننا، مبهجة تمامًا، وقد كانت ضرورية بالتأكيد، رغم أني أعترف بعجزي عن أن أفهم كيف تخطئ في إدراك وضعنا وخططنا إلى هذه الدرجة. لقد كنتُ متصوِّرًا أن هذه النقاط جميعًا متَّفق عليها بيننا ضمنيًّا، حتى عرفت بغرامك بهذه البنت».

ردَّ الابن رافعًا رأسه لحظة ليعود إلى وضعه السابق على الفور: «كنتُ أعرف أنك حائرٌ يا سيدي، لكني لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كوننا المتسوِّلين التعساء الذين وصفتهم لتوِّك. كيف كان لي أن أفترض ذلك وقد ربِّيت بالطريقة التي تعرفها، وشهدت الحياة التي عشتها أنت دائمًا، والمظهر الذي كنت دائمًا تظهر به؟».

قال الأب: «طفلي العزيز، فإنَّك حقًّا تتكلم كطفلٍ حتى إنني يجب أن أدعوك طفلًا. لقد ربّيت على مبدأ بالغ الحرص، وأؤكّد لك أنَّ أسلوب

تربيتي لك قد دعم سمعتي إلى درجة مدهشة. أمَّا فيما يتعلَّق بالحياة التي أحياها، فإنه ينبغي لي أن أحياها هكذا يا (ند)، يجب أن أحظى بتلك الرفاهيات الصغيرة حولي، لطالما اعتدتها، ولا أستطيع أن أوجد دونها، يجب أن تحيط بي كما تلاحظ، ولذا فهي هنا. أمَّا بالنسبة إلى ظروفنا يا (ند)، فلك أن تريح بالك من هذه الناحية. إنها ظروفٌ ميؤوسٌ منها. مظهرك أنت مثلًا لا يمكن أن يدعو أبدًا إلى الاحتقار، ومصاريف جيوبنا معًا تلتهم وحدها دخلنا، تلك هي الحقيقة».

«لماذا لم أعرف ذلك أبدًا من قبل؟ لماذا شجَّعتني حضرتك على إنفاق وطريقة حياة ليس لنا حقٌّ فيهما؟».

ردَّ أبوه بقدرٍ من التعاطف أكبر من ذي قبل: «صديقي الطيب، لو أنك لم تظهر بمظهرٍ لائقٍ فكيف تنجح في المسعى الذي أعددتك له؟ أما بالنسبة إلى طريقة حياتنا، فإن لكل إنسان حقًّا في أن يعيش بأفضل طريقة يستطيع إليها سبيلًا، وأن يريح نفسه ما عرف إلى ذلك طريقًا، وإلا فإنه وغدٌ غير طبيعيٍّ. أعترف بأنَّ ديوننا ضخمة جدًّا، ولذا فإنه يتعيَّن عليك بصفتك شابًّا ذا شرفٍ ومبادئ أن تسدِّدها بأقصى ما تستطيع من سرعة».

غمغم (إدوارد): «هو دور الوغد الذي لعبته غير واعٍ بما أفعل! أنا الذي فزت بقلب (إمّا هاردال)! لأجلها أتمنى الآن لو كنت قد متُّ قبل ذلك!».

ردَّ أبوه: «أنا سعيدٌ لأنك ترى بوضوحٍ يا (ند) أنه لا شيء يمكن أن يُفعَل بهذا الخصوص. لكن بعيدًا عن هذا، وبعيدًا عن ضرورة أنه ينبغي لك أن تنعم سريعًا بالزواج من إنسانة –وهو ما تعرف أنك تستطيع أن

تفعله غدًا إن اخترت- فإنني أتمنى أن تنظر إلى الأمر بمنظارٍ مبهجٍ. فمن وجهة نظر دينية فحسب، كيف لك أن تفكّر في الارتباط بكاثوليكية ما لم تكن ثريَّة للغاية؟ عليك أن تكون پروتستانتيًّا جدًّا، إذ إنك آتٍ من عائلة پروتستانتية جدًّا. لنكن أخلاقيّين يا (ند) وإلَّا فلن نكون شيئًا. وحتى لو كان للمرء أن يغضَّ النظر عن هذا الاعتراض، وهو أمرٌ محالٌ، فسنأتي إلى اعتراضٍ آخر قاطعٍ تمامًا. مجرّد فكرة أن تتزوَّج فتاةً قُتِل والدها كحيوانات اللحوم! ربّاه! ما أبشع ذلك يا (ند)! فكِّر في استحالة أن تكنَّ لحميك أيَّ احترام تحت هذه الظروف الكريهة، فكِّر في أنَّ المحلِّفين قد فحصوه، والأطباء الجنائيين قد جلسوا إلى جثته، وفي وضعه المريب في العائلة بعد ذلك إلى الأبد. يبدو لي كلُّ ذلك فظًّا للغاية حتى إنني أعتقد أنه كان ينبغي للدولة أن تقتل البنت منعًا لحدوثه. لكنني ربما أضايقك. هل تفضِّل أن تكون بمفردك؟ على الرحب والسعة عزيزي (ند). فليباركَّ الرب. سأخرج بعد قليلٍ لكننا سنتقابل الليلة، فإن لم يكن الليلة فغدًا بالتأكيد، اعتنِ بنفسك إلى أن نتقابل، لأجل كلينا؛ أنت شخصٌ مهمٌّ لي للغاية يا (ند)، ذو أهمية بالغة بالفعل. فليباركَّ الرب!».

بهذه الكلمات التي نطقها الأب بطريقة مفكَّكة غير مبالية وهو يهندم ربطة عنقه في المرآة، انسحب مدندنًا لحنًا. أمَّا الابن الذي بدا مستغرقًا تمامًا في التفكير حتى إنه لم يسمع هذه الكلمات ولم يفهمها، فقد ظلَّ ساكنًا صامتًا تمامًا. وبعد مضيٍّ نصف ساعة أو نحوه خرج (تشستر) الكبير متأنِّقًا، بينما ظلَّ الشاب جالسًا ورأسه بين يديه، كما لو كان في غيبوبة.

الفصل السادس عشر

إنَّ سلسلة من الصور التي تمثِّل شوارع لندن ليلًا –حتى في تاريخ هذه الحكاية الحديث نسبيًّا– لتقدِّم للعين شيئًا مختلفًا تمامًا عن الحقيقة المشهودة في ذلك العهد، حتى إنه ليصعب على الناظر أن يتعرَّف على أكثر الطرق التي يألفها في المنظر المغاير الذي يحمله إليه أكثر قليلًا من نصف قرن مضى.

لقد كانت جميعًا بلا استثناء مظلمةً جدًّا، من أوسعها وأحسنها إلى أضيقها وأقلِّها نصيبًا من أقدام العابرين. كانت مصابيح الزيت والقطن لا تضيء إلَّا إضاءة خافتة رغم تقليم ذبالاتها مرتين أو ثلاثًا بانتظامٍ في ليالي الشتاء الطويلة، وفي الساعات المتأخِّرة حين تعدم مساعدة مصابيح وشموع الحوانيت لم تكن تلقي على الممرات إلَّا شعاعًا ضيِّقًا بائسًا، تاركة الأبواب وواجهات المنازل الناتئة في أعمق ظلامٍ. كان كثير من الأفنية والشوارع متروكًا في ظلامٍ مطبقٍ، لتبرز من بينها تلك الطرقات الوافرة الشّحّ، حيث يومض ضوءٌ واهنٌ منفردٌ لعديدٍ من المنازل. وحتى في تلك الأماكن كان للسكان أسبابهم المعتبرة لإطفاء مصابيحهم بمجرد أن تضيء، وحيث إن الحرس كانوا عاجزين تمامًا عن منعهم من ذلك، فقد كانوا يطفئونها على راحتهم. وهكذا كان في أشدِّ الطرق العامة إضاءة بقعة مظلمة خطيرة في كل زاوية يستطيع لصٌّ أن يهرب إليها أو

يختبئ فيها، وقليلون من كانوا يهتمُّون بمطاردة مثل هذا اللص. وحيث إنَّ المدينة كانت محاطة بالحقول والطرقات المزروعة والأراضي الخربة والممرات المهجورة، تلك التي كانت جميعًا في ذلك العهد تفصل بينها وبين الضواحي التي التحقت فيما بعد بالمدينة، فقد كان الهرب ميسورًا ولو اشتدَّت الملاحقة.

فلا غرو والحال هكذا على الدوام أن كانت سرقات الشوارع المصحوبة غالبًا بجروحٍ قاسية، وعلى نحوٍ متكرِّر بفقدان الحياة، حوادث تتكرَّر كلَّ ليلة في قلب لندن، وأن كان المسالمون يخشون عبور شوارعها جدًّا بعد أن تغلق الحوانيت. لم يكن غريبًا على السائر إلى بيته في منتصف الليل وحده ألَّا يفارق منتصف الطريق، وهو الاختيار الأفضل للاحتماء من مباغتة قطَّاع الطرق المتوارين، وقليل هم من كانوا يغامرون بزيارة (كنتش تاون) أو (هامپستد) في ساعة متأخرة، أو حتى (كنزنتن) أو (تشلسي) دون سلاح وحراسة، أمَّا ذلك الذي كان الأعلى صوتًا والأشجع على منضدة العشاء أو في الحانة ولم يكن أمامه إلَّا ميلٌ أو ما إلى ذلك ليقطعه، فقد كان يسرُّه أن يدفع لصبيٍّ من حملة المشاعل ليرافقه في عودته إلى بيته.

كان هناك كثيرٌ من الخصائص الأخرى لطرق لندن في ذلك العهد، وليست جميعًا خصائص كريهة، وهي خصائص ظلَّت ملتصقة بهذه الطرق زمنًا طويلًا. كان بعض الحوانيت -لا سيَّما تلك الواقعة إلى شرق (التمپل بار)- متمسِّكًا إلى ذلك العهد بالعادة القديمة التي توجب تعليق علامة خارج الحانوت، وكان صرير وتمايل تلك الألواح في أطرها الحديدية في الليالي العاصفة يقدِّم حفلًا موسيقيًّا غريبًا حزينًا لآذان أولئك الراقدين في فرشهم غير نائمين، فضلًا عن المسرعين الخطو في الشوارع.

كانت هناك صفوفٌ طويلة من عربات الأجرة وجماعات من حامليها، إذا ما قورن بهم سائقو العربات في زماننا بدا بنو زماننا لطيفين مهذَّبين، وكانت تسدُّ الطرق وتملأ الجو بالصخب، وأقبية ليلية تعلن عن وجودها من خلال شعاع ضوء ضيِّق يعبر الرصيف ويمتد إلى منتصف الطريق، ومن خلال الزمجرة المكتومة للأصوات القادمة من أسفل، أقبية تتثاءب هكذا لتستقبل وتسلِّي المنبوذين كأقسى ما يكون النَّبذ من الجنسين، وتحت كل سقيفة مجموعات صغيرة من الصِّبية حملة المشاعل ينفقون في اللعب ما كسبوه طيلة اليوم، أو واحد منهم متعب أكثر من غيره يستسلم للنوم، تاركًا مصباحه يسقط مُصدِرًا فحيحه على الأرض الموحلة.

ثم كان هناك الحارس ذو العصا والمصباح، يصيح معلنًا الساعة وحال الطقس، وكان يسرُّ من يستيقظون على صوته ليتقلَّبوا في فرشهم أن يسمعوا أنها تمطر أو أن الثلج يساقط أو أن الريح تهب أو أن الجو متجمد، ليزداد شعورهم بالراحة. كانت تزعج المسافر المنفرد صيحة حامل الكرسي «بعد إذنك هناك!» حين يمرُّ به اثنان يحملان عربة خالية بالعكس حتى يرى المارَّة أنها شاغرة، مسرعين إلى أقرب موقف للعربات. كانت الطريق تزدان وتملؤها البهجة كلما رقصت عليها عربة خاصة تضم سيدة راقية وتزيِّنها الأطواق والزركشة الصارخة ويسبقها خادمان يركضان حاملين المشاعل التي لأجلها تعلَّق المطفآت أمام أبواب قلَّة من منازل صفوة المجتمع، وحين تختفي مثل تلك العربات تعود الطريق أشد ظلمة وكآبة. وقد كان من المعتاد بالنسبة إلى هؤلاء الصفوة من أصحاب العربات الخاصة المتعجرفين أن يتشاجروا في قاعة الخدم بينما ينتظرون سادة وسيدات هؤلاء الخدم، وقد يتطوَّر الأمر إلى تبادل الضرب داخل

القاعة أو في الشارع خارجها، لتنفرش أماكن هذه المشاجرات بمساحيق الشعر وقطعٍ من الشعر المستعار وباقات الزهور المبعثرة. كان سبب تلك المشاجرات هو الرذيلة التي انتشرت بين سائر الطبقات (وقد جعلت منها الطبقة الراقية بالطبع صرعة العصر)، وهي اللعب، إذ كان الجميع يلعبون أوراق اللعب والنَّرد دون مواربة، وقد تسببت في الفوضى وأنتجت من الإثارة في قاع السلَّم المجتمعي كما في قمَّته. وبينما كانت تحدث مثل هذه الحوادث في الطرف الغربي من المدينة بسبب حفلات الشاي والحفلات التنكُّرية وحفلات الرقصة الرباعية، كانت مركبات ثقيلة وعربات أثقل تتجه ببطء إلى المدينة، وسائقوها وحرَّاسها ومسافروها مدجَّجون بالسلاح، والمركبة منها وقد تأخرت عن ميعادها يومًا أو ما إليه -غير أن ذلك كان شائعًا إلى درجة تجعله غير ذي بال- قد انتهبها قطَّاع الطرق الذين لا يتردَّدون في مهاجمة قافلة كاملة من الرجال والبضائع بمفردهم، وقد يطلقون النار على مسافر أو اثنين، وقد تطلق عليهم هم أنفسهم النار، حسبما تشاء الظروف. وفي الغد تولِّد شائعات مثل هذه الأفعال الجريئة على الطريق مادةً خصبة للقيل والقال لساعاتٍ قليلة في المدينة، كما تولِّد مسيرات عامة لبعض السادة الراقين أنصاف المخمورين إلى (تايبرن)، في أزياء على أحدث صرعة، وهم يلعنون العامة والدهماء بكل بسالة وشرف، ضاربين للسوقة مثالًا صحيًّا عميقًا بالغ الإثارة!

وبين كل الشخصيات الخطيرة التي كانت تجوس وتتسلَّل ليلًا بين طرقات العاصمة -وحال المجتمع على ما ذكرنا- كان هناك رجلٌ ينكمش أمامه كثيرٌ ممن يشتركون معه في الشراسة والفظاظة وقد تملَّكهم رعبٌ لا إرادي. من هو ومن أين جاء، كانا سؤالين كثيرًا ما يتردَّدان ولا

أحد يملك عنهما إجابة. كان اسمه مجهولًا، ولم يره أحدٌ من قبل، حتى ثمانية أيَّام خلت أو ما إليها، وكان كذلك غريبًا بالنسبة إلى الأشرار القدماء الذين لم يتردَّد في اقتحام دوائر نفوذهم، كما كان غريبًا بالنسبة إلى المحدثين. ليس ثم احتمال لأن يكون جاسوسًا، فهو لم يرفع أبدًا قبَّعته العريضة الحافة لينظر إلى ما حوله، ولم يتبادل الحديث مع أحدٍ، ولم يلق بالًا إلى ما يحدث حوله، ولم ينصت إلى حوارٍ قريبٍ منه، ولم يلتفت إلى من أتى أو ذهب. لكنه مع هدأة الليل البهيم يوجد دائمًا بين الحشد الفاجر في القبو الليلي الذي يلتجئ إليه المنبوذون من كل درجة، ويجلس هناك إلى مطلع الصبح.

لم يكن شبحًا وسط ولائمهم الماجنة فحسب –شيئًا يقف وسط صخبهم وقصفهم يجمِّد الدماء في عروقهم– وإنما كان كذلك أيضًا خارج أبواب القبو. بمجرد نزول ستار الليل يُرى في الطرقات، ليس في رفقة أحد أبدًا وإنما وحده دائمًا، لا يتسكَّع أو يتحرك على رسله أبدًا وإنما يسعى حثيثًا طيلة الوقت، يسترق النظر إلى ما حوله أحيانًا كما يقول من رأوه، ويسرع الخطى في أثناء ذلك. في الحقول والدروب والطرقات وفي كل أركان المدينة –شرقها وغربها وشمالها وجنوبها– كان يرى منزلقًا كالظل، كان دائمًا مسرعًا، ومن قابلوه رأوه يتسلَّل مارًّا بهم ثم رأوا نظرته إلى ما خلف وراء ظهره، ثم افتقدوه أخيرًا في الظلام.

وقد بعث هذا القلق الدائم والحركة الدائبة هنا وهناك من القصص أغربها. فقد رؤي في أماكن بعيدة نائية، في أوقات شديدة التقارب أحيانًا، حتى إنَّ البعض كان يتساءل عمَّا إذا كانت هناك نسختان أو أكثر من ذلك الرجل، والبعض يتساءلون عمَّا إذا كان في طاقته أن يسافر من بقعة إلى

أخرى بوسائل غير أرضية. رآه قاطع الطريق المختبئ في خندقٍ يعبر على حافة الخندق كشبحٍ، وقابله المتشرد في الطريق الرئيس المظلم، ولمحه المتسوِّل يقف على الجسر لينظر إلى الماء أسفله ثم يواصل سعيه، أما أولئك الذين يبيعون الجثث للجرَّاحين فقد كادوا يقسمون على أنه ينام في مدافن الكنائس، وأنهم قد لمحوه ينسلُّ بين المقابر حين اقتربوا منه. وبينما يقصُّون على أنفسهم هذه الحكايات يشد أحدهم جاره من كمِّه بعد أن يكون قد نظر إلى ما حوله، وإذا ذلك الغريب بينهم.

وأخيرًا، قرَّر رجلٌ من الذين كانت تجارتهم تدور بين المقابر أن يسائل هذا الغريب. وفي الليلة التالية حين انتهى الغريب من تناول وجبته الفقيرة بشراهة -وقد كان معتادًا ذلك كما لاحظوا، كما لو كان لا يتناول غيرها طيلة اليوم- جلس هذا الرجل عند مرفقه:

«ليلة مظلمة أيها السيِّد!».

«هي كذلك».

«أشد ظلمةً من ليلة أمس، رغم أنها كانت فاحمة هي الأخرى. ألم أمرّ بك قرب بوابة الرسوم على طريق أكسفورد؟».

«ربما، لا أدري».

صاح الرجل وقد شجَّعته أنظار رفاقه فضرب الغريب على كتفه: «أيها السيد، كن أكثر تواصلًا وودًّا، كن رجلًا لطيفًا في هذه الرفقة الجيدة. إن بيننا حكايات عن كونك قد بِعتَ الشيطان نفسك، وأنا لا أدري ما الأمر!».

ردَّ الغريب ناظرًا إليه: «كلنا باع نفسه للشيطان، ألم نفعل؟ لو كنَّا أقلَّ عددًا فلربما كان سيدفع رواتب أفضل».

قال الرجل حين أبدى الغريب وجهه المترب المنهك وملابسه الممزَّقة: «إنَّ الأمور صعبة معك بالفعل، ماذا الآن؟ كُن مرحًا يا سيد. والآن مقطع من أغنية هادرة..».

ردَّ الآخر وهو ينفلت مبتعدًا عنه في غلظة: «غنِّ أنت إن شئت أن تسمع أغنية. ولا تلمسني إن كنت رجلًا فطنًا، فأنا أحمل أسلحة تنطلق نيرانها بسهولة، وقد حدث منها مثل ذلك فيما مضى، أسلحة تجعل من الخطر على الغرباء الذين لا يعرفون خديعتها أن يضعوا عليَّ أيديهم».

قال الرجل: «أتهدِّدني؟».

ردَّ الآخر ناهضًا مواجهًا إياه وهو ينظر حوله بشراسة كما لو كان يحذر هجمة جماعية: «نعم».

وقد تضافر صوته ونظرته وأسلوبه –وكلها ينطق باستماتة وتهور وحشيَّين تمامًا– على إبعاد وإرهاب الواقفين حوله. ورغم أنَّ خصائصه هذه كانت في هذه اللحظة في مجال فعل مختلف تمامًا، فإنَّ أثرها الآن لا يبعد كثيرًا عن أثرها الذي تركته في خان (مايپول).

قال الغريب في صرامة بعد صمتٍ قصيرٍ: «أنا مثلكم جميعًا، وأعيش كما تعيشون. أنا مختبئ هنا كالباقين. وإذا ما هوجمنا على حين غرَّة فربما أفعل ما أستطيعه مع أفضلكم. ولو أن ما يريحني أن أُترك لشأني، فاتركوني لشأني. فإن أبيتم».

وهنا أقسم قسمًا عظيمًا وتابع: «فسيكون في هذا المكان أذى، رغم احتمال أنكم كثير في مواجهتي».

إذ ذاك حذَّرت الرجل الذي بعث هذا الحوار غمغمة خافتة سرت في الجمع -ربما نبعت من خوف من الغريب والغموض الذي يلفُّه، أو من رأي مخلص لدى بعض الحاضرين مفاده أنها ستكون سابقة غير لائقة أن نتدخَّل بفضولٍ شديدٍ في خصوصيات رجل لديه أسبابه لكتمان هذه الخصوصيات- حذّرته أنه من الأفضل ألّا يواصل هذا الحوار. بعد قليل رقد الغريب على أريكة لينام، وحين عاودوا التفكير فيه وجدوه قد ذهب.

في الليلة التالية حين خيَّم الظلام كان يقطع الشوارع مجددًا، وكان أمام منزل صانع الأقفال أكثر من مرة، غير أن العائلة كانت خارج المنزل الذي كان مغلقًا. في تلك الليلة عبر جسر لندن إلى (سذرك)[1]. وحين انعطف إلى شارع جانبي ظهرت عند النهاية الأخرى لذلك الشارع امرأة تحمل سلة صغيرة على ذراعها. بمجرد أن لمحها انتحى ركنًا أسفل أحد أقواس الطريق ووقف جانبًا إلى أن مرَّت، ثم ظهر في حذرٍ من مخبئه واتَّبعها.

دخلت عدة حوانيت لتشتري أنواعًا مختلفة من ضروريات البيت، وحام هو حول كلِّ مكان توقَّفت فيه كما لو كان روحًا خبيثة تترصَّدها، ليتَّبعها مجددًا فور معاودتها الظهور. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة وقد أخذ المارة يتناقصون في الشارع، حين استدارت لتعود إلى بيتها بلا شكٍّ. وظلَّ الشبح يتبعها.

(١) (سذرك) Southwark حيٌّ في لندن المركزية على الضفة الجنوبية لنهر التّامز، وهو أقدم أحياء جنوب لندن عند النهاية الجنوبية لجسر لندن.

انعطفت إلى الشارع الجانبي الذي رآها فيه أول الأمر، والذي كان شديد الظلمة بحكم خلوِّه من الحوانيت وضيقه. هنا حثَّت الخطى كما لو كانت تخشى أن توقف ويسرق ما تحمله من قليل المتاع. تابعها بخطواته على الجانب الآخر من الطريق. ولو أنها قد وُهِبَت سرعة الريح لبدا أنَّ ظلَّه الرهيب موقع بها رغم ذلك لا محالة.

أخيرًا وصلت الأرملة -فقد كانت أرملة هذه المرأة- إلى باب بيتها، وتوقَّفت لاهثة لتخرج المفتاح من سلَّتها. وفي وهج واحتدام العجلة التي قطعت بها الطريق، وفي سعادة الشعور بأمان الوصول إلي البيت، انحنت لتستخرج المفتاح، وحين رفعت رأسها رأته واقفًا إلى جوارها صامتًا كخيالٍ من حلمٍ.

كانت يده على فمها، غير أنه لم تكن به حاجة إلى ذلك، فقد انعقد لسانها إلى سقف حلقها وفقدت قدرتها على النطق.

«لقد ظللتُ أبحث عنك ليالي عدَّة، هل البيت خالٍ؟ أجيبيني، هل من أحد بالداخل؟».

لم تحر من جواب إلَّا خشخشةً في حلقها.

«أجيبي بإشارة».

إذ ذاك بدا أنها تشير إلى أنَّه لا أحد بالداخل. أخذ المفتاح وفتح الباب وحملها إلى الداخل، ثم أغلق الباب خلفه بحرصٍ.

* * *

الفصل السابع عشر

كانت ليلة باردة، وقد أوشكت نار مِدفأة القاعة في منزل الأرملة أن تخبو. وضعها رفيقها الغريب في مقعد، وانحنى على الرماد نصف المطفأ ليثيره ويهوِّي عليه بقبَّعته. كان يسترق النظر إليها بين الفينة والفينة كما لو كان يتأكَّد من بقائها هادئة لا تحاول أن تغادر، وبمجرد أن يتأكد من ذلك يعود إلى انشغاله بالنار.

لم يكن عبثًا تجشُّمه هذه المشقة، فقد كان لباسه رطبًا مبتلًّا، وفكَّاه كانا يصطكَّان من البرد، وكان يرتعد من رأسه حتى أخمص قدمه. كان المطر شديدًا في الليلة الماضية، واستمرَّ عدة ساعات في الصباح، غير أنَّ الجو قد تحسَّن منذ الظهيرة. وأيًّا ما كان المكان الذي قضى فيه ساعات الظلمة، فإنَّ حالته كانت تشير بوضوحٍ إلى أنه قضى أكثرها ملتحفًا بالسماء. ملوَّثًا بالوحل، مشبَّعًا لباسه بالماء حتى إنه ليحتضن أطرافه ملتصقًا بها، نابتةً لحيته، مغبرًّا وجهه، ممصوص الخدَّين الهزيلين إلى حفرتين عميقتين، لم يكن يبدو أن هذا الرجل يمكن أن يكون أشدَّ تعاسة مما هو الآن وقد انكمش على نفسه أمام مدفأة الأرملة وأخذ يراقب نيرانها تتصارع بعينين محتقنتين.

كانت قد غطَّت وجهها بيديها كما لو كانت تخشى النظر إليه. هكذا ظلَّا هنيهة صامتين، ثم أنه أجال بصره فيما حوله وسألها: «أهذا منزلك؟».

«هو عينه، لماذا تظلمه بحق السماء؟».

أجاب متجهِّمًا: «أعطيني لحمًا وشرابًا، وإلّا فإنني أجرؤ على أن أفعل أكثر من ذلك. إنَّ نخاع عظمي نفسه باردٌ من البلل والجوع؛ عليَّ أن أحصل على الدفء والطعام، وسأحصل عليهما هنا».

«أنت كنتَ السارق في طريق (تشغول)».

«نعم».

«وكدت تكون قاتلًا كذلك».

«لم أكن أفتقر إلى الإرادة، اجتاحني أحدهم وأحدث حولي جلبة وصياحًا، حتى إنني كنت سأقتل بالفعل لولا خفّته، وقد طعنته».

صاحت الأرملة ناظرة إلى أعلى: «طعنته بسيفك! أنت تسمع هذا الرجل. أنت سمعته ورأيته».

نظر إليها وهي ملقية برأسها إلى الخلف ويداها معقودتان كأنَّما قد نطقت هذه الكلمات في رجاءٍ معذَّب، فما عتّم إذ فرغت من ذلك أن نهض واقفًا واقترب منها. صاحت بصوتٍ مكتومٍ أوقفه ثباته في منتصف الطريق قائلة:

«احذر، لا تلمسني بإصبع وإلَّا فستصبح في خبر كان».

ردَّ مهدِّدًا إيَّاها بيده: «اسمعيني، أنا الذي في هيئة الإنسان أعيش عيشة وحش مطارد، أنا الذي لست إلَّا روحًا رغم سكناي جسدًا، أنا الشبح على الأرض، أنا الشيء الذي تخافه المخلوقات كلها إلَّا تلك الكائنات

الملعونة من عالم آخر، تلك التي لن تغادرني، في يأسي الكامل الليلة تجاوزت كلَّ الخوف، إلَّا خوف الجحيم الذي أعيشه يومًا وراء يوم. أطلقي أجراس الإنذار، أو صيحي مستغيثة، أو ارفضي أن تؤويني، لن أؤذيك. لكنني لن يقبض عليَّ حيًّا، وبينما تهدِّدينني هكذا همسًا سأسقط ميتًا في منزلك، ودمي الذي سيتقاطر على الأرض هنا يكون في رقبتك ورقاب ذويك، باسم الروح الشريرة التي تغري الناس بأن يسعوا إلى دمار أنفسهم!».

وبينما يتحدَّث استلَّ مسدسًا من صدره وأمسك به بثباتٍ، صاحت الأرملة حينذاك:

«أزيحي عني هذا الرجل أيتها السماء الطيبة! برحمتك ولطفك امنحيه دقيقة من التوبة ثم أرديه صريعًا!».

قال مواجهًا إيَّاها: «ليس للسماء هذا الغرض، إنها صمَّاء. دعيني آكل وأشرب، وإلَّا فعلت ما قلت لك، ولن يفيدك هذا».

«هل ستتركني إن فعلت ذلك؟ هل ستتركني ولن تعود ثانية؟».

ردَّ وهو يجلس إلى المنضدة: «لن أعد بشيء. لن أعد إلَّا بهذا: أن أنفِّذ تهديدي إن غدرتِ بي».

إذ ذاك نهضت ذاهبة إلى مخزن مؤن في الغرفة وأحضرت منه كسرًا من اللحم البارد والخبز ووضعتها على المنضدة. طلب (براندي) وماءً، فأتت بهما كذلك، فأخذ يأكل ويشرب بنهم كلبٍ يتضوَّر جوعًا. وبينما هو منشغلٌ بوجبته ظلَّت هي في أقصى الغرفة أبعد ما تكون عنه، وجلست هناك ترتعد لكنَّ وجهها ناظر صوبه. لم تدر له ظهرها ولا مرة، ورغم أنها

في مرورها به -وقد كان لا بُدَّ أن تفعل في ذهابها إلى المخزن وعودتها منه- كانت تجمع إليها أطراف ردائها كما لو كان مجرد لمسِ ردائها رداءه شيئًا بشعًا إن فكَّرت به، فإنَّها رغم هذا الرعب ظلَّت مواجهة إيَّاه، تراقب كلَّ حركة تندُّ عنه.

وبعد أن انتهى من وجبته -لو كان بإمكاننا أن نسمِّيها هكذا، تلك التي لم تزِد على أن تكون تلبية محمومة لنداءات الجوع- قرَّب مقعده من المدفأة مجدَّدًا، وبينما يدفئ نفسه أمام النار التي كانت تتَّقد الآن في حيوية، عاد ليخاطبها:

«أنا منبوذٌ، وبالنسبة إليَّ يبدو وجود سقف فوق رأسي رفاهية نادرة، ويبدو الطعام الذي يرفضه متسوِّل بالنسبة إليَّ لذيذًا. أنت تعيشين هنا على راحتك. أتعيشين وحدك؟».

أجابت بصعوبة: «لا».

«فمن يعيش هنا غيرك؟».

«واحد، لا يهمُّ من هو، من الأفضل أن تغادر قبل أن يجدك هنا. لماذا تتلكّأ؟».

ردَّ مادًّا يديه أمام النار: «لأستدفئ، لأستدفئ. ربما أنت غنية؟».

أجابت في خفوتٍ: «جدًّا، غنية جدًّا، لا ريب في أنني غنية جدًّا».

«على الأقل لستِ معدمة، لديك بعض المال؛ كنتِ تشترين أشياء الليلة».

«تبقَّى معي القليل. لا أكثر من شلنات قليلة»

«أعطيني كيسك، كان في يدك على الباب، أعطيني إيَّاه».

خطت إلى المنضدة ووضعت عليها الكيس. عبر خلفها وأخذ الكيس

وأفرغ محتوياته في يده. وبينما كان يعدُّها أخذت هي تتنصَّت لحظة ثم قفزت إليه:

«خذ ما هنالك، خذه كلَّه، خذ أكثر لو كان هناك أكثر، واذهب قبل فوات الأوان. لقد سمعت خطوة مشاكسة في الخارج أعرفها جيِّدًا. ستعود على الفور. اذهب».

«ماذا تعنين؟».

«لا تتوقَّف لتسأل، لن أجيب. إنني رغم خوفي من أن ألمسك، على استعداد لأن أسحبك إلى الباب لو كنت أملك القوة لذلك، فهذا أفضل من أن تتلكَّأ لحظة أخرى. أيُّها البائس التعس! اهرب من هذا المكان».

ردَّ الرجل وهو يقف مشدوهًا: «لو كان هناك أعين في الخارج فأنا في مأمن هنا. سأبقى هنا ولن أهرب قبل أن يمرّ الخطر».

صاحت الأرملة التي كانت تستمع إلى الخطوات في الخارج لا إليه: «لقد فات الأوان! أنصت إلى هذه الخطوة على الأرض. أترتجف لسماعها؟ إنها خطوة ابني. ابني الأبله!».

وبينما تقول ذلك في جنون دقَّ الباب بقوة. تبادلا النظرات قبل أن يقول بصوتٍ أجشّ:

«دعيه يدخل. إنني لا أخافه مثلما أخاف الليل المظلم بلا مأوى. إنه يطرق الباب مجدَّدًا، دعيه يدخل».

ردَّت الأرملة: «لقد ظللت طيلة حياتي أخشى هذه الساعة، لن أفتح الباب. سيصيبه الشر إذا تواجهتما العين في العين. ولدي الخائب! أوه! يا كل الملائكة الطيبين الذين يعرفون الحقيقة، استمعوا إلى صلاة أمٍّ مسكينة، وأنقذوا ولدي من معرفة هذا الرجل!».

صاح الرجل: «إنه يطرق مصراع النافذة، يناديك، هذا الصوت والصيحة! لقد كان هو من صارعني في الطريق، أليس كذلك؟».

هنا خرَّت على ركبتيها جاثية محرّكِةِ شفتيها دون أن تصدر صوتًا. وبينما يحملق إليها حائرًا ماذا يفعل أو إلى أين يذهب، انفتح مصراعا النافذة. بالكاد كان لديه وقتٌ ليختطف سكِّينًا من المنضدة ويغمدها في كمِّ معطفه الواسع ويختبئ في الخزانة، منجزًا كل ذلك بسرعة البرق، قبل أن يدقَّ (بارنابي) زجاج النافذة العاري ويرفع إطاره في جذل صائحًا وهو يدفع رأسه إلى الداخل ليحدِّق إلى أركان الغرفة:

«إيه! من ذا الذي يجرؤ على منع (غرپ) وأنا من الدخول؟ أأنت هنا ياأمَّاه؟ لقد منعتنا طويلًا من الدفء والنّور».

تأتأت عذرًا ما ومدَّت إليه يدها، لكنَّ (بارنابي) قفز في خفَّة إلى الداخل من دون عون، وأمطرها بالقبلات محيطًا عنقها بذراعيه.

«كنَّا في الحقل يا أمي، نقفز من فوق الخنادق، ونتسلَّق الحواجز، ونركض مسرعين إلى بعيدٍ في الضفاف المنحدرة. كانت الريح تهبُّ والأسل والزرع الصغير ينحني لها ويركع حتى لا تؤذيه، الجبان! و(غرپ).. هاهاها! (غرپ) الشجاع الذي لا يأبه لشيء، وحين تجندله الريح في التراب يستدير في رجولة ليعضَّها. (غرپ)، (غرپ) الجريء تشاجر مع كلِّ غصن صغير منحنٍ، فقد أخبرني بأنه يظنُّ هذه الغصون تقلِّده، وقد أقلقها كما يفعل كلب الثور[١]. هاهاها!».

أما وقد سمع الغراب في سلَّته الصغيرة على ظهر سيده اسمه يتكرر ذكره بنبرة جذلى هكذا، فقد راح يعبِّر عن تعاطفه بالصياح كديكٍ، لينطق

---

(١) Bulldog كلب الثّور، وهناك اجتهاد آخر في تعريبه إلى (البلدغ).

بعد ذلك العبارات التي يحفظها بسرعة وتنويعات مختلفة من الجشش[1] حتى إنها بدت كغمغمة ثلَّة من الناس.

قال (بارنابي): «وإلى جانب ذلك فهو يعتني بي للغاية! يا لعنايته يا أمي! يظلُّ يحرسني وأنا نائم، وحين أغمض عينيَّ متصنِّعًا النعاس يتمرَّن في هدوء على أشياء جديدة تعلَّمها، لكنَّ عينه تظلُّ عليَّ في أثناء ذلك، فإن رآني أضحك، رغم أني لا أضحك ضحكًا قليلًا أبدًا، فإنه يتوقف على الفور. لا يخرجني من تصنُّع النوم إلَّا أن يكون قد أتقن ما يتعلَّمه».

هنا زعق الغراب ثانية بأسلوب مبتهج كأنه يقول بوضوحٍ: «هذه بالطبع بعض مميزاتي، وأنا فخور بها» وخلال ذلك أحكم (بارنابي) إغلاق النافذة، وحين وصل إلى المدفأة استعدَّ أن يجلس مواجهًا الخزانة، لكنَّ أمَّه منعت ذلك بأن عاجلته بأن أخذت هي هذا الجانب، وأشارت إليه أن يأخذ الجانب الآخر.

قال (بارنابي) متَّكئًا على عصاه: «ما أشدَّ شحوبك الليلة! لقد كنَّا قاسيين يا (غرپ) ودفعناها إلى القلق!».

نعم كانت قلقةً حقًّا، متعبة القلب. أمسك المتنصِّت باب مخبئه بيده مفتوحًا وراقب ابنها من كثب. أمَّا (غرپ) الذي كان منتبهًا لكل شيء لا يعيه سيده، فقد أخرج رأسه من السلة، وأخذ يراقب بدوره المتنصِّت باهتمامٍ وعينين برَّاقتين.

قال (بارنابي) وهو يستدير بسرعة كادت تكفي لأن يلمح الغريب ينكمش على نفسه وباب الخزانة يغلق:

---

(١) الجَشَش: صوت غليظ فيه بحّة، ومنه الوصف: أجَشّ (للمذكّر) وجَشّاء (للمؤنث).

«إنه يخفق بجناحيه كما لو كان هناك أغراب، لكنَّ (غرپ) أعقل من أن يتخيَّل ذلك. اقفز إذن!».

وإذ قبل الطائر هذه الدعوة بكبرياء مميَّزة، فقد قفز إلى كتف سيده، ومنها إلى يده الممدودة، ثم إلى الأرض. وإذ حلَّ (بارنابي) رباط السلة ووضعها أرضًا في ركن مفتوحة الغطاء، فقد كان أول همّ (غرپ) أن يغطيها بكل ما أوتي من سرعة ثم يقف فوقها. إذ ذاك وقر لدى الطائر أنه قد جعل من المستحيل وفوق طاقة أي إنسان فانٍ أن يحبسه في هذه السلّة بعد الآن، فما لبث أن سحب سدادات فلِّين عددًا، منتشيًا بانتصاره، وأطلق عددًا مماثلًا من صيحات «هورّاه».

قال (بارنابي) واضعًا جانبًا قبَّعته وعصاه وعائدًا إلى المقعد الذي نهض منه: «أمَّاه! سأخبرك أين كنَّا اليوم وماذا كنَّا نفعل، هل يجب أن أخبرك؟».

أخذت كفَّه في كفِّها، وبينما تمسك بها أومأت كلمة الإيجاب التي عجزت عن النطق بها.

قال (بارنابي) رافعًا أصبعه في وجهها: «لا تخبري أحدًا فهو سرٌّ، انتبهي، لا يعرفه غيري وغير (غرپ) و(هيو). كان معنا الكلب لكنه ليس كـ(غرپ) رغم ذكائه، ولم يخمِّن السر بعد، وأراهن على ذلك، لماذا تنظرين إلى ما خلفي هكذا؟».

ردَّت في خفوتٍ: «هل فعلت ذلك؟ لم أعرف أني فعلته، اقترب مني».

قال (بارنابي) ممتقع اللون: «أنت خائفة! أمي، أنت لا ترين.».

«أرى ماذا؟».

ردَّ هامسًا وهو يقترب منها قابضًا على العلامة التي في رسغه: «إنه .. إنه لا يوجد شيء من ذلك هنا. أليس كذلك؟ أخشى أن يكون هنا شيء منه في مكان ما. أنت تجعلين شعر رأسي يقف فزعًا، وفرائصي ترتعد. لماذا تنظرين هكذا؟ هل هو في الغرفة كما رأيته في أحلامي، يرشُّ السقف والجدران بالأحمر؟ أجيبيني، هل هو هنا؟».

أصابته نوبة قشعريرة وهو يلقي هذا السؤال، وجلس يتحاشى الضوء بيديه، مرتعدًا من قمة رأسه إلى أخمص قدمه حتى ذهبت النوبة. بعد هنيهة رفع رأسه ونظر حوله.

«هل ذهب؟».

ردَّت أمه وهي تهدِّئ من روعه: «لم يكن هنا من شيء، لا شيء بالفعل يا عزيزي (بارنابي). انظر! أنت ترى أنه ليس هنا إلَّا أنت وأنا».

نظر إليها نظرة خاوية، وإذ استعاد طمأنينته تدريجيًّا انفجر ضاحكًا ثم قال في تفكيرٍ:

«لكن دعينا نرى، أكنَّا نتكلَّم؟ أكان ذلك أنت وأنا؟ أين كنَّا؟».

«لم نكن إلَّا هنا».

قال (بارنابي): «نعم، لكن (هيو) وأنا. هذا ما أعنيه. (هيو) صبي (مايپول) وأنا كما تعرفين و(غرپ)، كنَّا نرقد في الغابة وبين الأشجار على جانب الطريق ومعنا مصباحٌ مظلمٌ بعد حلول المساء، والكلب في أنشوطة على وشك أن تفلته، حين أتى الرجل».

«أيّ رجل؟».

«اللص، ذلك الذي غمزت النجوم مشيرة إليه. لقد ظللنا ننتظره ليالي عددًا بعد حلول الظلام، وسنظفر به. إنني على استعداد لأن أميِّزه من بين ألف رجل. أمّاه، انظري هنا. ها هو الرجل. انظري!».

لفَّ منديله حول رأسه وجذب قبَّعته إلى الأمام لتغطي جبهته، وتسربل بمعطفه، ووقف أمامها: شبيهًا جدًّا بالأصلي الذي كان يقلِّده، حتى إنَّ الشخص المظلم الذي كان يتلصَّص من وراء ظهره كان يمكن أن يؤخذ باعتباره ظلًّا له.

صاح متخلِّصًا من الشبه في سرعة كما انتحله في سرعة: «هاهاها! سنظفر به! سترينه يا أمي مربوط اليدين والقدمين، وقد أحضروه إلى لندن مقيَّدًا في سرج حصان، وستسمعين أنه على مشنقة (تايبرن) إن حالفنا الحظ. كذا يقول (هيو). أنت شاحبة وترتعدين مجدّدًا، ولماذا تنظرين إلى ما خلفي هكذا؟».

أجابت: «لا شيء، أنا لست على ما يرام، اذهب إلى فراشك يا عزيزي واتركني هنا».

ردَّ: «إلى فراشي! لا أحب الفراش. أحب أن أنام أمام المدفأة، لأشاهد المناظر المرتسمة في الفحم المحترق. الأنهار والتلال والأودية الصغيرة في غروب الشمس الأحمر القاني، والأوجه المسعورة. أنا جائع كذلك، و(غرپ) لم يذق شيئًا منذ الظهيرة، دعنا نتعشَّى يا (غرپ)! إلى العشاء يا فتى!».

خفق الغراب بجناحيه وزعق علامة على الرضا قبل أن يقفز إلى قدمي سيده ويبقي منقاره مفتوحًا، مستعدًّا لاختطاف قطع اللحم التي قد يقذف

بها إليه، وقد استقبل منها عددًا في تتابعٍ سريعٍ من دون أن يفقد شيئًا من رباطة جأشه.

قال (بارنابي): «يكفي هذا».

صاح (غرپ): «المزيد! المزيد!».

لكن حين بدا مؤكَّدًا ألَّا مزيد هناك، تقهقر بما معه من اللحم، وأخرج القطع واحدة واحدة من جرابه وخبَّأها في عدة أركان، حريصًا على أن يتجنَّب الخزانة خاصة، حيث يشكُّ في ميول الرجل المختبئ وقدرته على مقاومة الإغراء. حين فرغ من هذه التجهيزات أخذ يدور في الغرفة دورة أو اثنتين متصنِّعًا فراغ البال في إتقان -لكنَّ إحدى عينيه لم تكن تغفل عن كنزه أبدًا- وإذ ذاك، لا قبل ذاك، أخذ يخرجها قطعة قطعة ويأكلها ملتذًّا غاية اللذة.

أما (بارنابي) الذي حاول جاهدًا إقناع أمه بأن تأكل، من دون جدوى، فقد انكبَّ على عشائه في شهية. وخلال تناوله وجبته أراد المزيد من الخبز من الخزانة ونهض ليحضره، فما كان منها إلَّا أن أسرعت باعتراض طريقه لمنعه من ذلك، واستجمعت عزمها وخطت هي إلى الخزانة وأحضرت الخبز بنفسها.

قال (بارنابي) ناظرًا إليها بثباتٍ إذ جلست إلى جواره بعد ذلك: «أماه، هل اليوم عيد ميلادي؟».

أجابت: «اليوم! ألا تذكر أنه كان منذ أسبوع أو نحوه، وأنه يجب أن يمرَّ الصيف والخريف والشتاء قبل أن يعود ثانية؟».

قال (بارنابي): «أذكر أنه كان كذلك إلى هذه اللحظة، لكني أظن اليوم عيد ميلادي رغم ذلك!».

سألته لماذا، فأجاب:

«سأخبرك لماذا. لقد طالما رأيت -ولم أدعك تعرفين أني رأيت- أنك تصبحين حزينة جدًّا مساء ذلك اليوم. رأيتك تبكين بينما أنا و(غرپ) في غاية السعادة، وتبدين خائفة من دون سبب، ولمست يدك وشعرت ببرودتها، كما هي الآن. في مرة يا أمي -وقد كان ذلك أيضًا يوم عيد ميلادي- فكَّرنا (غرپ) وأنا في هذا الأمر بعد أن صعدنا لنأوي إلى فراشنا، وحين انتصف الليل ودقَّت الساعة الواحدة، نزلنا إلى بابك لنرى ما إذا كنت على ما يرام. كنت جاثية. نسيت ما كنت تقولين. (غرپ)، ما كان ذلك الذي سمعناها تقوله تلك الليلة؟».

ردَّ الغراب على الفور: «أنا عفريت!».

قال (بارنابي): «لا لا! لكنك كنت تصلين، وحين نهضت وأخذت تمشين في الغرفة بدوت - كما تبدين مذ ذاك كلما جاء عيد ميلادي وحلَّ الليل- كما تبدين الآن. لقد اكتشفت ذلك كما ترين رغم أني أحمق. لذا أقول إنك مخطئة، ومن المؤكد أن اليوم عيد ميلادي، عيد ميلادي يا (غرپ)!».

استقبل الطائر هذه المعلومة بزعقة طويلة كأنها صيحة ديك موهوب ذكاء يفوق ذكاء أبناء جنسه، حتى إنَّ في استطاعته أن يعلن مقدم أطول يوم بتلك الصيحة. ثم إنه -كما لو كان قد تدبَّر العاطفة وقدَّر أنها مناسبة لأعياد الميلاد- صاح: «لا تيأسوا أبدًا!» مرات عددًا، وخفق بجناحيه مؤكِّدًا ما يرمي إليه.

حاولت الأرملة أن تهوِّن من شأن ملاحظة (بارنابي) واحتالت لتصرف

انتباهه إلى موضوع جديد، معتبرة هذه مهمة بالغة اليسر دائمًا كما تؤكِّد لها خبرتها. وبعد أن فرغ (بارنابي) من عشائه، تمدَّد على سجادة أمام المدفأة غير مبالٍ بتوسُّلاتها، وحطَّ (غرپ) على رجله، مقسِّمًا وقته بين الإغفاء في الدفء الثمين ومحاولة استذكار إنجاز جديد قضى النهار في تحصيله، كما بدا فيما بعد.

ران صمتٌ طويلٌ عميقٌ على المكان، لم يقطعه إلَّا تغيير (بارنابي) وضعه أمام المدفأة، وقد كانت عيناه مفتوحتين ما زالتا، مثبَّتتين في تصميم على النار، وإلَّا جهد (غرپ) في الاستذكار، وقد كان يصيح في صوتٍ خافتٍ بين الفينة والفينة: «(پلي)، سخّني البرَّ.»[1] قاطعًا الجملة هنا وقد نسي بقيتها، لينعس مجدَّدًا.

وبعد فترة طويلة ازداد عمق وانتظام أنفاس (بارنابي) وكانت عيناه مغمضتين. لكن حتى حينذاك تدخَّلت روح الغراب القلقة وصاح «(پلي) سخّني البرّ.»، فما لبث سيده أن استيقظ ثانية.

أخيرًا سقط (بارنابي) في نومٍ عميقٍ، وغاص الطائر بمنقاره في صدره، أمَّا صدر الغراب نفسه فقد انتفش في راحة كهيئة صدر أحد أصحاب النفوذ، وأخذت عينه البراقة تصغر وتصغر كما لو كانت تخبو إلى حالة من النوم. وبين الفينة والفينة كان يغمغم بصوتٍ جنازيٍّ: «(پلي) سخّني البرّـ.»، لكن في نعاسٍ بادٍ، أقرب إلى رجل سكران من غراب مفكِّر.

نهضت الأرملة من مقعدها وهي لا تكاد تجرؤ على أن تتنفَّس، وخرج الرجل من الخزانة متسحِّبًا وأطفأ الشمعة.

---

(١) هي أغنية من أغاني المهد الإنكليزية الشعبية Polly put the kettle on أو: (پلي)، سخّني البرّاد.

صاح (غرپ) وقد لمعت فكرة في رأسه بغتة وتملَّكته الإثارة: «..البرَّاد! ..سخّني البرَّاد، هورّاه! (پلي) سخِّني البرَّاد كي نشرب الشّايا. (پلي) سخّني البرّاد كي نشرب الشّايا! هورّاه هورّاه هورّاه! أنا عفريت! أنا عفريت! أنا برّاد! ليكن عندكم أمل! لا تيأسوا أبدًا! باو واو واو، أنا عفريت، أنا برّاد، أنا.. (پلي) سخّني البرّاد كي نشرب الشّايا».

وقفا ملتصقين بالأرض كما لو كان هذا صوتًا قادمًا من قبر. لكن حتى هذا لم يفلح في إيقاظ النائم. استدار مواجهًا المدفأة وسقطت ذراعه إلى الأرض، وسقط عليها رأسه الثقيل. حدَّقت إليه الأرملة وزائرها غير المرحَّب به، وحدّق كلٌّ منهما إلى صاحبه لحظة، ثم أشارت إلى الزائر أن يغادر، فما كان منه إلَّا أن غمغم:

«انتظري، إنَّك تعلِّمين ابنك جيّدًا».

«لم أعلِّمه شيئًا سمعته منه الليلة. انصرف فورًا وإلّا فسأوقظه».

«أنت حرّة في أن تفعلي، أتحبِّين أن أوقظه أنا؟».

«أنت لا تجرؤ على ذلك».

«أنا أجرؤ على أيّ شيء كما أخبرتك. يبدو أنه يعرفني جيّدًا. على الأقل سأعرفه أنا».

صاحت الأرملة ملقية بنفسها بينهما: «هل ستقتله في نومه؟».

ردَّ من بين أسنانه وهو يشير إليها أن تنزاح جانبًا: «أريد أن أراه من كثب يا امرأة. وسأفعل. إن أردت أن يقتل أحدنا الآخر فأيقظيه».

قال ذلك وتقدَّم منحنيًا على الجسد المتمدِّد، ثم أدار رأسه إلى الخلف بلطفٍ ونظر في وجهه. كان الوجه في مرمى ضوء النار الذي أبان عن كل

قسماته بوضوحٍ. تأمّله لوهلة ثمّ نهض عجلًا وغمغم في أذن الأرملة:

«انتبهي. وحياة هذا الذي لم أكن أعرف بوجوده إلى الليلة، أنت في قبضتي. انتبهي كيف تعاملينني. انتبهي كيف تعاملينني. إنما أنا معدم تمامًا، بلا مأوى على هذه الأرض. أستطيع ان أنتقم انتقامًا أكيدًا بطيئًا».

«ثَمَّ معنى رهيب في كلماتك، لا أستطيع ان أسبر غوره».

«نعم، إنَّ فيها معنى، وأرى أنك تفهمينه إلى أعمق أعماقه. لقد طالما انتظرته لسنوات طوال، هذا ما أخبرتني به. أتركك لتهضمي ما قلت، ولا تنسي إنذاري».

وبينما يغادرها أشار إلى الجسد النائم، ثم انسحب خلسة خارجًا إلى الشارع. جثتْ إلى جوار النائم، وظلَّت هكذا كأنها تحوَّلت إلى حجرٍ، حتى انهمرت الدموع التي حبسها الخوف طويلًا، لتريحها بحنانها، وأخذت تصيح:

«يا من علَّمتني ذلك الحب العميق لتلك البقية الباقية من وعد بحياة سعيدة، تلك البقية التي ربما من بلائها تنبع سلواي في كونه طفلًا معتمدًا عليَّ محبًّا لي على الدوام، لا يكبر قلبه ولا يقسو، لكن يظلّ محتاجًا إلى رعايتي وواجبي تجاهه في اكتمال رجولته كما كان محتاجًا إليهما في مهده. ساعده في سعيه المظلم في هذا العالم الحزين، وإلَّا فستحل به المصائب وينكسر قلبي!».

الفصل الثامن عشر

منسلًّا عبر الشوارع الساكنة، حريصًا على أن يسلك أشدَّها ظلمة وكآبة، عبر الرجل الذي غادر لتوِّه بيت الأرملة جسر لندن، وبوصوله إلى (لندن المدينة) غاص في الطرق الخلفية والدروب والأفنية بين (كورنهل) و(سمثفيلد)، لا يلوي على شيء إلَّا أن يفقد ذاته في تعرُّجاتها ويربك مطارديه لو كان هناك من يتتبَّع خطاه.

كان الوقت ليلًا بهيمًا، والسكون مخيِّمًا. بين الفينة والفينة كان يسمع صوت خطى حارس ليلي نعسان على الرصيف، أو يمرُّ مشعل المصابيح في جولاته ملقيًا قبسًا، وتاركًا خلفه مسارًا ضيِّقًا من الدخان المختلط بكسر ملتهبة من قاره الأحمر الساخن. أخفى صاحبنا نفسه حتى من هؤلاء الذين شاركوه مشيه المنفرد، وبعد أن ينكمش على نفسه تحت قوس أو عبر باب بينما يمرُّون، يخرج من مخبئه حين يكونون قد اختفوا عن ناظريه، وهكذا تابع طريقه الموحشة.

أن يكون المرء وحيدًا بلا مأوًى في أرض مفتوحة، يسمع عواء الريح ويرتقب مطلع النهار طيلة الليل المفعم بالسأم، وأن ينصت إلى المطر المنهمر ويربض طالبًا الدفء في حمى حظيرة أو كومة قشٍّ أو تجويف شجرة، فهذه جميعًا أمورٌ من الوحشة بمكان، لكنها ليست في وحشة

التجوال حيث المأوى على مبعدة خطوات والسرر والنائمون بالآلاف، والمتجول مخلوق منبوذ بلا مأوى. أن يسمع المرء صدى خطواته على الحجارة من ساعة إلى ساعة وهو يعد صلصلة أجراس الساعات الكئيبة، ويرقب المصابيح تتألَّق عبر نوافذ الغرف، وأن يفكر فيما ينغلق عليه كل بيتٍ من سعادة السلوى، وفي أنَّ أطفالًا يلتفون ببعضهم هنا في سررهم، وهنا شباب وهنا مسنُّون وهنا فقر وهنا ثراء، والجميع متساوون في نومهم، مرتاحون، وألَّا يكون لدى المرء شيء مشترك بينه وبين العالم النائم حوله، ولا حتى النعاس هدية السماء لكلِّ الخلق، وألَّا يكون المرء قريبًا إلَّا لليأس، وأن يشعر بالمقارنة التعيسة مع كل شيء على كل الأصعدة وأنه متوحِّد منبوذ أكثر مما لو كان في صحراء قفر، فهذا نوعٌ من المعاناة تحصره بينها أنهار المدن الكبرى كثيرًا، ولا توقظه إلَّا الوحدة في الزحام.

أخذ الرجل التعيس يخطو عبر الشوارع الطويلة المملَّة المتشابهة، ويلقي نظرة حزينة كلَّ حين ناحية الشرق، آملًا أن يرى غبش الفجر، غير أنَّ الليل العنيد كان ممتلكًا السماء ما زال، فلم يعرف سعيه المضطرب راحة.

كان ثمَّ بيتٌ في شارع خلفيٍّ يتألَّق بوهج المصابيح المبهج، وتنبعث منه الموسيقى وأصوات خطوات الراقصين، وأصوات بشرية مرحة وقهقهة كثيرة. كان يعود إلى هذا المكان كل حين في سعيه ليكون قريبًا من شيء يقظ سعيد، وقد شعر أكثر من واحد ممن غادروا هذا المكان والمرح في قمَّته حين رأوه يخطو ذهابًا وجيئةً كشبحٍ قلقٍ بثقل وطأة مرآه على مزاجهم المرح. في النهاية غادر كلُّ الضيوف وأُغلِق المنزل إغلاقًا محكمًا ليصبح كئيبًا ساكنًا كغيره.

وقد قادته خطاه ذات مرة إلى سجن المدينة، وبدلًا من أن يعجِّل بالابتعاد عنه كنذير شؤمٍ ومكان لديه ما يبرر كراهيته، جلس على درجٍ قريبٍ منه وأخذ يتأمَّل جدرانه الفظَّة العابسة وهو يسند ذقنه بيده، كما لو كانت حتى هذه الجدران أصبحت تمثِّل لعينيه المنهكتين ملجأ محتملًا. أخذ يذرع المكان حول السجن ليعود إلى نفس البقعة ويعاود الجلوس. فعل ذلك مرات عدة، وفي مرة عبر بحركة عجلى إلى حيث يقوم بعض الرجال بنوبة حراسة في مكتب السجن، ووضع قدمه على الدرج كما لو كان ينوي أن يبتدرهم بالكلام. لكنه حين قلَّب بصره فيما حوله وجد بشائر الصباح تلوح، فلمّا فشل في تحقيق غرضه استدار على عقبيه وهرب.

بعد قليلٍ وجد نفسه في الحي الذي كان لتوِّه يعبره، يخطو ذهابًا وجيئةً كما كان يفعل. وبينما يعبر شارعًا حقيرًا سمع صيحات صاخبة آتية من زقاقٍ قريبٍ، ثم ظهرت دستة من الطائشين تتقدَّم في غير نظام، يسعلون ويتنادون بينهم، ثم إنهم غادروا المكان في صخبٍ متفرِّقين في مجموعاتٍ صغيرة إلى طرقٍ مختلفة.

آملًا أن يكون قد اقترب من أيّ مكان وضيعٍ للّهو يمكن أن يوفِّر له ملجأً آمنًا، دخل ذلك الفناء بعد أن اختفوا عن ناظريه، ونظر حوله علَّه يجد بابًا مواربًا أو نافذة مضاءة أو أي علامة على المكان الذي خرجوا منه. غير أن الفناء كان شديد الظلمة بالغ الحقارة حتى إنه استنتج أنهم كانوا مارّين به خطأ فحسب، وقد انصبُّوا منه إلى خارجه حين رآهم. بهذا الانطباع كان على وشك أن يستدير خارجًا، لا سيَّما أنه قد اكتشف أن ليس ثمَّ مخرج إلا الناحية التي دخل منها، وإذا بشعاع ضوء يباغته من حاجز حديدي شبكي

قرب قدميه، وصوت حديث يطرق أذنيه. تقهقر إلى أحد المداخل ليرى من هؤلاء المتحدِّثون، ولينصت إليهم.

وبينما هو هكذا جاء الضوء إلى مستوى الرصيف وصعد رجل يحمل شعلة في يده، فتح الحاجز الشبكي وأبقاه مفتوحًا كما لو كان آخر سيخرج، ثم ظهر هذا الآخر فورًا في هيئة شاب قصير القامة معتزٍّ بنفسه إلى درجة غير معتادة، يرتدي ملابس مبهرجة عفا عليها الزّمن.

قال الأول ذو الشعلة: «طابت ليلتك أيّها القبطان النبيل، الوداع أيُّها القائد، حظًّا سعيدًا أيُّها اللواء الشجاع!».

وفي ردِّه على ذلك الإطراء طلب الآخر منه أن يمسك عليه لسانه، ويحتفظ بصخبه لنفسه، وأمره بأوامر كثيرة تشبه هذين الأمرين بطلاقة عظيمة وصرامة.

ردَّ حامل الشعلة في خفوتٍ: «أوصِ المضروبة (مـگز) بي يا قبطاني. قبطاني يطير ليصطاد صيدًا أغلى من أمثال (مـگز). هاهاها! قبطاني نسر، خاصة إذا تعلَّق الأمر بعينه وجناحيه الخفَّاقين. قبطاني يكسر القلوب بينما غيره من العزَّاب يكسرون البيض على الإفطار».

قال مستر (تاپرتت) واضعًا قدمه على رصيف الفناء: «يا لك من أحمق يا (ستاگ)»، وأخذ ينفض من رجليه الغبار الذي علق بهما خلال صعوده.

صاح (ستاگ) محتضنًا أحد كاحليه: «أطرافه الثمينة! هل تطمح (مـگز) إلى مثل هذا التناسق! لا لا يا قبطاني! سنغري نساءً جميلات ونُزَّفُّ إليهنَّ في كهفنا السري. سنرتبط بحسناوات متفتحات يا قبطاني!».

قال مستر (تاپرتت) محرِّرًا ساقه: «سأخبرك بالأمر يا صديقي، لا ينبغي لك أن تأخذ حريتك معي في الكلام، ولا أن تثير أسئلة معينة لم توجَّه إليك. في موضوعات بعينها، عليك أن تردَّ حين يوجَّه إليك الكلام، لا غير. ارفع الشعلة إلى أن أصل إلى نهاية الفناء ثمّ اكنن في جحرك. أتسمعني؟».

«أسمعك يا قبطاني النبيل».

قال مستر (تاپرتت) في كبر: «أطع إذن. أيُّها السادة، امضوا أمامي!».

وبهذا الأمر الموجَّه إلى حاشية أو مساعدين متخيَّلين عقد ذراعيه ومشى عبر الفناء في اعتدادٍ بالغٍ بنفسه بينما أمسك تابعه الخانع بالشعلة عاليًا فوق رأسه، وإذ ذاك رأى مَن يراقبهما من مخبئه لأول مرة أن التابع مكفوفٌ. وكان أن ندَّت منه حركة لا إرادية نبَّهت أذن المكفوف اليقظة قبل أن يعي أنه قد اقترب منه بوصة، إذ إنه قد استدار بغتة صائحًا: «مَن هناك؟».

قال الآخر مقتربًا: «رجل، صديق».

ردَّ المكفوف: «غريب! الأغراب ليسوا أصدقائي. ماذا تفعل هناك؟».

رأيت رفاقك خارجين فانتظرت هنا إلى أن اختفوا. أريد مأوى».

ردَّ (ستاگ) مشيرًا إلى الفجر كأنه يراه: «مأوًى في هذه الساعة؟ ألا ترى أننا في مطلع الفجر؟».

ردَّ الآخر: «أعرف ذلك لسوء حظي. لقد ظللت الليل كله أقطع شوارع هذه المدينة الحديدية القلب».

قال المكفوف متهيِّئًا للنزول: «من الأفضل أن تقطعها ثانية إلى أن تجد مسكنًا يناسب ذائقتك. أنا لا أؤجِّر».

صاح الآخر قابضًا على ذراعه: «انتظر».

ردَّ المكفوف: «سأضرب بهذه الشعلة وجهك البائس هذا الذي يشبه وجه كلب ضالٍّ –وهو كذلك بالفعل، فهذا مناسب لصوتك– وسأوقظ الجيران كذلك لو ظللت ممسكًا بي هكذا، دعني أمضي. أتسمعني؟».

قال الآخر وهو يرنُّ شلنات قليلة: «هل تسمع؟»، ثمَّ ما لبث أن دفعها إلى يده قائلًا:

«إنني لا أتسوَّل منك شيئًا. سأدفع مقابل المأوى الذي تعطينيه. الموت! هل هو كثير أن أسأل شخصًا مثلك؟ لقد أتيت من الريف وأحب أن أستريح في مكان لا يوجِّه إليَّ فيه أحد سؤالًا. إنني متعبٌ ومنهكٌ وأكاد أموت. دعني أرقد ككلبٍ أمام مدفأتك، لا أطلب أكثر من ذلك. ولو أردت التخلُّص من وجودي فسأرحل غدًا».

غمغم (ستاگ) وهو يلين لذلك الآخر الذي كانت قدمه قد استقرَّت على درجات السلَّم النازل بالفعل وهو يواصل الضغط عليه: «لو أنَّ سيدًا كان عاثر الحظِّ على الطريق ويستطيع أن يدفع مقابل سكنه هنا..».

«سأدفع لك كلَّ ما أملك. إنني الآن قد تجاوزت الحاجة إلى الطعام، يعلم الله، ولا أريد إلا أن آوي إلى مكان. أيّ رفيق معك بالأسفل؟».

«لا أحد».

«إذن ثبِّت حاجزك الشبكي هذا وأرني الطريق، بسرعة!».

امتثل المكفوف بعد برهة من التردُّد، ونزلا معًا. مرَّ حوارها بالسرعة التي سمح بها نطق الكلمات، ووقفا في غرفته التعسة قبل أن يفيق من صدمته الأولى.

قال الغريب محدّقًا إلى ما حوله: «أيمكن أن أرى إلى أين يقود هذا الباب وماذا وراءه؟ لن تمانع في هذا؟».

«سأريك بنفسي. اتبعني أو تقدَّمني، اختر لنفسك».

تركه يقوده، ثمَّ أخذ يتفحَّص الأقبية الثلاثة من كثب على ضوء الشعلة التي رفعها المكفوف عاليًا. وحين تأكد من صدق زعمه أنه يعيش هنا وحده، عاد الزائر معه إلى الغرفة الأولى حيث تتلظَّى المدفأة، وتمدَّد متأوِّهًا بعمقٍ على الأرض أمامها.

تابع مضيفه عمله المعتاد من دون أن يبدو أنه يعيره أدنى انتباه. لكنَّه بمجرد أن سقط نائمًا –وقد لاحظ سقوطه في النوم كما ينبغي لأحدِّ الناس بصرًا– جثا إلى جواره ممرًّا يده في لطفٍ وحرصٍ على وجهه وشخصه.

كانت تقطع نومه نوبات الفزع والتأوُّهات، وأحيانًا كلمة أو اثنتان يغمغم بهما. كانت يداه منقبضتين وحاجباه معقودين وفمه مغلقًا في ثباتٍ. لاحظ المكفوف كلَّ ذلك بدقة، وكما لو كان فضوله قد أثير بقوة –وقد كانت لديه بالفعل معرفة محدودة بإجابة لغزه– جلس يراقبه، إن جاز هذا التعبير، ويستمع إليه حتى انبلج الصبح.

* * *

الفصل التاسع عشر

لم يكن رأس (دلّي ڤاردن) الجميل الصغير قد تجاوز بعد حيرته بذكريات الحفل المنوّعة، ولم تكن عيناها البرَّاقتان قد تجاوزتا بعد انبهارهما بزحامٍ من الصور التي طفقت ترقص أمام عينيها كذرَّات الغبار في أشعة الشمس، تلك الصور التي خايلها من بينها بالأخصِّ شخص رفيق بعينه، صانع عربات شاب (معلِّم في هذه الصناعة اعتمادًا على نفسه)، أوحى إليها وهو يستودعها عربتها في نهاية الحفل بأنه قد صمَّم تمامًا على ألَّا يبالي من الآن فصاعدًا بحرفته، وأن يموت ببطء في حبِّها -فإذا رأس (دلّي) وعيناها وأفكارها وحواسُّها السَّبعة كلُّها يخفق مضطربًا بسبب الحفل، رغم مرور ثلاثة أيام عليه الآن. وبينما هي على تلك الحال تتناول إفطارها في فتورٍ وتقرأ كل الطوالع (والمقصود طوالع الزواج والسعادة) في قعر فنجان شايها، سمع وقع أقدام في الورشة، وبدا عبر الباب الزجاجي أن الزائر مستر (إدوارد تشستر)، يقف بين الأقفال والمفاتيح الصَّدئة كالحب بين الزهور -وهو تشبيه لا يسِع الكاتب أبدًا أن ينسبه إلى نفسه، فقد اخترعته في مزاج عاطفيٍّ (مـگز) العفيفة المحتشمة التي ما إن لمحته من على عتبة الباب التي كانت تنظِّفها إذ ذاك حتى نطقت بذاك التشبيه في تأمُّلها العذري!

أمَّا صانع الأقفال الذي كانت عيناه في تلك اللحظة متجهتين إلى أعلى، وكان رأسه ملقًى إلى الخلف، في تواصل بالغ الحميمية مع (توبي)[1]، فإنه لم يلحظ زائره حتى طلبت السيدة (ڤاردن) الأوفر يقظة بينهم من (سم تاپرتت) أن يفتح الباب الزجاجي آذنًا له بالدخول، وقد احتجَّت السيدة الطيِّبة بهذا الظرف غير المرغوب فيه -إذ كان في إمكانها أن تستنتج حكمة ثمينة من أتفه الأحداث العارضة- على أنَّ ارتشاف الجعة الخفيفة صباحًا إحياءً لعادة وثنية خبيثة ضد الدين[2]، يجب أن تترك لذَّتها للخنازير أو للشيطان، أو على الأقل للبابويين الكاثوليك، وأن يتنزَّه عنها الأتقياء باعتبارها عملًا آثمًا شريرًا.

ولم يكن ثمَّ شكٌّ في أن السيدة (ڤاردن) كانت ستطيل التوبيخ أكثر وكانت ستبني عليه قائمة طويلة من المبادئ الغالية القيِّمة، لو لا أن السيد الشاب الواقف وقفة متضايقة مرتبكة بينما تقرأ على زوجها هذه المحاضرة جعلها تختم محاضرتها قبل الأوان.

قال السيدة (ڤاردن) وهي تنهض محيِّية: «أنا واثقة أنك ستعذرني يا سيدي. (ڤاردن) أرعن جدًّا، ويحتاج دائمًا إلى التذكرة. أحضر مقعدًا يا (سم)».

أطاع مستر (تاپرتت) بتلويحة تشي بأنه ما فعل إلَّا وهو يحتجُّ. قال صانع الأقفال:

---

(١) Toby إبريق الجعة البني المذكور في الفصل الرابع!

(٢) الجعة الخفيفة Small Ale نوع من الجعة يحتوي على مقدار أقل من الكحول، بين ٥,٠٪ و٢,٨٪. كانت مشروبًا مفضَّلًا في أوربا العصر الوسيط وأمريكا الشمالية في العهد الاستعماري مقارنة بالأنواع الأغلى ذات المقادير الأعلى من الكحول، كما كانت تنتج منزليًّا لاستخدام الأطفال والخدم.

«وتستطيع أن تذهب يا (سم)».

امتثل مستر (تاپرتت) ثانية وهو ما زال محتجًّا، وبينما يسحب نفسه إلى الورشة بدأ يخشى في جدية أن يجد أنه من الضروري أن يدسَّ السمَّ لمعلِّمه قبل أن توافيه المنيَّة في وقتها.

خلال ذلك ردَّ (إدوارد) على تحيَّات السيدة (ڤاردن) بردودٍ تناسبها، وأشرق وجه تلك السيدة كثيرًا، حتى إنه حين قبل طبقًا من الشاي من يدي (دلّي) الجميلتين كانت السيدة في غاية اللطف، وما لبثت أن قالت:

«أنا واثقة بأنه لو كان بإمكاننا فعل أيِّ شيء، سواء (ڤاردن) أو أنا أو حتى (دلّي)، لنخدمك به يا سيدي في أيِّ وقتٍ، فما عليك إلَّا أن تسمِّيه وسيكون مقضيًّا».

ردَّ (إدوارد): «أنا في غاية الامتنان لك. إنك لتشجِّعينني على أن أقول إنني ما أتيت إلى هنا الآن إلَّا طامعًا في خدماتكم الطيبة».

سرَّ هذا السيدة (ڤاردن) أيَّما سرور، فمضى (إدوارد) يقول وهو يرمق (دلّي):

«خطر ببالي أنَّ ابنتكم الجميلة ربما تكون ذاهبة إلى قصر (وارن) اليوم أو غدًا، فلو كان الأمر كذلك، ولو سمحت لها بأن تعتني بهذا الخطاب يا سيدتي، فسأكون في غاية الامتنان لك. الحق أنني مع حرصي الشديد على أن يصل الخطاب إلى وجهته، فإن لديَّ أسبابًا خاصة لا تجعلني أأتمن عليه أيّ حامل آخر، وبذلك فإنني سأعدم الحيلة تمامًا من دون عونكم».

ردَّت السيدة بلطفٍ: «هي لم تكن ذاهبة إلى هذه الوجهة يا سيدي، لا اليوم ولا غدًا، ولا الأسبوع المقبل كله، لكنه يسرُّنا أن نخرج عن مخططاتنا لأجلك، ولو شئت أن يصل الخطاب اليوم فاعتبره قد وصل».

ثمَّ تابعت عابسة في وجه زوجها: «ربما حق لك ان تفترض من جلوس (ڤاردن) هكذا كئيبًا صامتًا أنه معترض على هذا الترتيب، لكن لا ينبغي لك أن تلتفت إلى ذلك يا سيدي من فضلك، إنها طريقته في البيت، أما خارج البيت فيستطيع أن يكون مرحًا ثرثارًا بما يكفي».

غير أنَّ الحقيقة أنَّ صانع الأقفال التعيس كان في تلك الأثناء يشكر الحظَّ لأنَّ رفيقته كانت في هذا المزاج الطيب، فكان جالسًا بوجه مشرقٍ، يسمع هذا الحوار بفرحٍ ما بعده فرح. ولذا فقد فاجأه هذا الهجوم أيما مفاجأة!

قال: «عزيزتي (مارثا)..».

قاطعته بابتسامة تمزج السخرية بالمزاح: «أوه نعم، عزيزتك جدًّا، كلنا يعلم ذلك!».

قال (غابرييل): «لا، يا إلهي! إنك مخطئة تمامًا! مخطئة بالفعل. لقد كنت مسرورًا للغاية إذ وجدتك طيبة مستعدة لتقديم يد العون هكذا. أؤكد لك أني كنت مرتقبًا ما ستقولينه».

كرّرت وراءه: «مرتقبًا! نعم، شكرًا يا (ڤاردن)! ارتقبت كما تفعل دائمًا عسى أن أحمل أنا اللوم، إن تمخَّض الأمر عما يستحق اللوم. لكنني قد اعتدتُ ذلك، وهذا عزائي!» قالت هذه الجملة الأخيرة بضحكة مكتومة رصينة.

قال (غابرييل): «أقسم لك يا (مارثا)..».

قاطعته زوجه بابتسامة مسيحية: «دعني أقسم لك أنا يا عزيزي أنَّ مثل هذه المناقشات بين الأزواج من الأفضل اجتنابها. لذا أرجوك يا (ڤاردن)،

دعنا ننسى هذا الموضوع، ليست لديَّ رغبة في متابعته. إنني أستطيع متابعته، وأستطيع أن أدلي فيه بالكثير، لكني لا أحبِّذه، فرجاءً لا تزد فيه».

ردَّ صانع الأقفال مذعنًا: «لا أريد الزيادة فيه».

قالت: «حسنًا إذن. لا تفعل».

أضاف مداعبًا: «كما أنني لم أبدأه يا (مارثا)، عليَّ أن أوضح ذلك».

صاحت محملقة إلى الجمع: «لم تبدأه يا (ڤاردن)؟!» ولسان حالها يخاطب الآخرين: «أتسمعون ما يقول هذا الرّجل؟!».

ثم تابعت لزوجها: «لم تبدأه يا (ڤاردن)! لكنك لن تقول إنني كنت في مزاج سيّئ. لا، أنت لم تبدأه، أوه لا يا عزيزي لا، ليس أنت يا عزيزي!».

قال صانع الأقفال: «حسنًا حسنًا! انتهى الأمر».

ردَّت: «أوه نعم. تمامًا. إن شئت أن تقول إنَّ (دلّي) هي من بدأته يا عزيزي فلن أخالفك. أنا أعرف واجبي. عليَّ أن ألزم واجبي. عليَّ دائمًا أن أتذكَّره حين أميل إلى نسيانه في بعض اللحظات. شكرًا يا (ڤاردن)».

وهكذا، باستعراضٍ قويٍّ للخضوع والتسامح عقدت يديها، ونظرت حولها ثانية بابتسامة قالت بوضوحٍ: «إن شئتم أن تروا أول الشهيدات قاطبة وأبرزهن، فها هي ذي أمامكم!».

كان لهذه الحادثة التافهة رغم إفصاحها عن لطف السيدة (ڤاردن) البالغ وظرفها أثرٌ قويٌّ في كبت الحوار وإرباك كلّ أطرافه عدا تلك السيدة الممتازة، حتى إنّ أقل القليل من المقاطع الصوتية قد نطق بعد ذلك إلى أن انسحب (إدوارد) سريعًا، شاكرًا سيدة البيت شكرًا بالغًا لتنازلها وهامسًا في أذن (دلّي) أنه سيزورهم غدًا عسى أن يتلقَّى الرد على رسالته إن أُرسِل

ردٌّ، وهو أمر قد عرفته يقينًا دون أن يخبر به، إذ إنَّ (بارنابي) وصديقه (غرپ) قد عرَّجا على بيتها البارحة ليهيئاها لتلك الزيارة.

وبعد أن شيَّع (غابرييل) (إدوارد) إلى الباب عاد ويداه في جيوبه، ثم طفق يتململ في الغرفة ويلقي نظرات جانبية كثيرة على السيدة (ڤاردن) – التي كانت في هذه الأثناء غارقة إلى أذنيها في كتيِّب الصلوات الپروتستانتي وقد ارتسم على ملامحها هدوءٌ عميقٌ– سأل (دلّي) كيف ستذهب إلى قصر (وارن). اقترحت (دلّي) مركبة الجياد العامة، ونظرت إلى السيدة أمها التي ما إن وجدت نفسها تسأل في صمتٍ عن رأيها حتى غاصت في كتيِّبها زيادة وأصبحت غير واعية بكلِّ ما ينتمي إلى هذه الأرض.

قال صانع الأقفال: «(مارثا)..».

قالت زوجه دون أن تصعد إلى السطح: «إنني أسمعك يا (ڤاردن)».

«إنه ليؤسفني يا عزيزتي أنك ترفضين (مايپول) و(چون) العجوز إلى هذه الدرجة، فلولا ذلك لكنَّا ثلاثتنا ذهبنا في هذا الصباح اللطيف إلى (تشغول) بالعربة وقضينا هناك يومًا سعيدًا جدًّا، لا سيَّما أنَّ السبت ليس باليوم المشغول بالنسبة إلينا».

أغلقت السيدة (ڤاردن) كتيِّبها على الفور، وانفجرت باكية، وطلبت أن تقاد إلى الطابق العلوي.

سأل صانع الأقفال: «ما الأمر الآن يا (مارثا)؟».

ردَّت: «أوه! لا تكلِّمني!» واحتجَّت متألِّمة بأنها لم تكن لتصدِّق لو اقترح عليها هذا الاقتراح أيُّ إنسان آخر.

قال (غابرييل) معترضًا طريقها وهي ذاهبة متَّكئة على كتف (دلّي):

«لكن يا (مارثا)، لم تكوني لتصدِّقي ماذا؟! أخبريني ما المشكلة الآن، أخبريني. أقسم أني لا أعرف، هل تعرفين أنت يا ابنتي؟ اللعنة!».

هكذا صاح صانع الأقفال وهو يشدُّ شعره المستعار في هياجٍ: «أعتقد أنه لا أحد يعرف حقًّا إلَّا (مـگز)!».

قالت السيدة (ڤاردن) بصوتٍ خافتٍ، كأنَّها تقترب من مرحلة الكلام غير المترابط: «(مـگز) مرتبطة بي، وهذا يكفي لتُكره في هذا المنزل، إنها سلوى بالنسبة إليَّ، بغضّ النظر عن منزلتها بالنسبة إلى الآخرين».

صاح (غابرييل) وقد جرَّأه اليأس: «هي ليست سلوى بالنسبة إليَّ، إنها بؤس حياتي، إنها ابتلاءات مصر كلّها وقد اجتمعت في شخص واحد![1]».

قالت السيدة (ڤاردن): «لا أشكّ في أنها تعتبر كذلك من وجهة نظرك، كنت مستعدةً لذلك، إنه أمرٌ طبيعيٌّ، يتجاوب وبقية الأمور. كيف أتعجَّب من أنك تتهكَّم عليها خلف ظهرها وأنت تتهكَّم عليَّ في وجهي؟».

وهنا حلَّت بقوة مرحلة الكلام غير المترابط، فبكت السيدة وضحكت ونهنهت وارتعدت وفاقت وغصَّت وقالت إنها تعرف أنها حماقة لكنها لا تملك لها دفعًا، وإنها حين تصبح في عداد الأموات ربما سيأسفون لذلك -وهو ما لم يبد ممكنًا إلى هذه الدرجة كما تظن تحت هذه الظّروف- وقالت أشياء أخرى كثيرة بنفس المعنى. وباختصار فقد مرَّت بأدب جمٍّ خلال كل الطقوس التي تصاحب مثل هذه المناسبات عندها في العادة، وبعد أن أسندت إلى الطابق العلوي، وضعت في فراشها في حال من

(١) يعني ما تقول رواية العهد القديم إن الرب ابتلى به فرعون وقومه جزاء تعذيبهم بني إسرائيل.

التشنُّجات الرهيبة، وبعد ذلك بقليل رمت الآنسة (مـكز) بنفسها فوقها.

كانت فلسفة كل ذلك تتلخص في أن السيدة (ڤاردن) كانت تريد أن تذهب إلى (تشغول)، ولم تكن تريد أن تقدم أي تنازلاتٍ أو تفسيراتٍ، ولم تكن لتذهب إلَّا إن توسَّل إليها واستعطِفت أن تذهب، ولم تكن لترضى بديلًا عن ذلك. وبناءً عليه، فإنه بعد الكثير من الأنين والصراخ في الطابق العلوي، ووضع الكمادات على الجبهة والخلِّ على الجبين واستنشاق النشادر وغير ذلك، وبعد مناشدات شجية من (مـكز) يعضدها مزيج دافئ غير بالغ الضعف من البراندي والماء، وغيره من منعشات القلب ذات الأثر المنبِّه التي أعطوها إيَّاها أوّلًا بملاعق شاي ثم بجرعاتٍ متزايدة، تلك المنعشات التي أخذت منها الآنسة (مـكز) نفسها على سبيل الوقاية (إذ إنَّ الإغماء معد)، بعد كل هذه العلاجات، وغيرها مما يصعب إحصاؤه لكن لا يصعب أخذه، وبعد أن أضيفت إلى ما سبق تعزيات لفظية كثيرة أخلاقية ودينية وغير ذلك، أذعن صانع الأقفال أمام زوجه، ووصلت إلى ما تريد.

قالت (دلّي) وهي تحثُّه على أن يصعد إلى الطابق العلوي: «ولو فقط لأجل السلام والهدوء يا أبي».

قال أبوها السليم الطوية: «أوه دل دل، لو أنّك قد أصبح لديك زوج يومًا ما..».

نظرت (دلّي) إلى الزجاج، فتابع أبوها: «حسنًا، حين يصبح لديك زوج، لا يغشينَّ عليك أبدًا يا عزيزتي. إن ما تولّد عن الإغماء بهذه السهولة من التعاسة الزوجية ليفوق ما تولّد منها عن كل الأهواء الأكبر مجتمعة.

تذكَّري ذلك يا عزيزتي إذا أردت أن تكوني سعيدةً حقًّا، وهو ما لا يمكن أن يحدث إلَّا إذا كان زوجك سعيدًا. وكلمة في أذنك يا غاليتي، لا تكن حولك (مـگز) كهذه أبدًا!».

بهذه النصيحة قبَّل ابنته المتفتِّحة في خدِّها، وذهب على مهلٍ إلى غرفة السيدة (ڤاردن) التي كانت نائمة على أريكتها شاحبة واهنة، تنعش نفسها برؤية أحدث قبعاتها، تلك التي عرضتها (مـگز) أمام عينيها على الفراش في محاولة لتهدئة روعها.

قالت (مـگز): «ها هو سيدي يا سيدتي. أوه! أي سعادة تلك حين يجتمع زوجان مجدّدًا! يا ألطاف الرب! أن يخطر بالبال أنهما يمكن أن يتبادلا كلمة بعد ما كان!».

في حرارة هذه العواطف التي نطقت بها كما لو كانت تناجي السماوات في عمومها، حطَّت الآنسة (مـگز) القبعة على رأسها هي، وعقدت يديها، آذنة لدموعها أن تعمل وتنهمر، وهي تقول:

«لا أقدر أن أمسك دموعي، لا أقدر ولو غرقت فيها. يا لروحها الصّفوح! ستنسى كلَّ ما كان وتواصل معك يا سيدي. أوه، حتى لو لآخر العالم ستواصل معك المسير».

فما كان من السيدة (ڤاردن) إلَّا أن وبَّخت خادمتها على هذا الحماس بابتسامة شاحبة، وذكَّرتها في الوقت ذاته بأنها ليست على ما يرام بما يسمح لها بأن تغامر بالخروج اليوم.

قالت (مـگز): «أوه لا. لست على ما يرام يا سيدتي، لست على ما يرام بالتأكيد، أنا أسحب ما قلته لسيدي، فسيدي يعرف أنك لست على ما

يرام يا سيدتي. الهواء وحركة الحنطور سيفيدانك يا سيدتي، وعليك ألَّا تستسلمي، عليك ألَّا تستسلمي حقًّا. عليها أن تجاهد للحفاظ على نفسها، أليس كذلك يا سيدي، لأجلنا جميعًا؟ كنت لتوّي أقول لها ذلك. عليها أن تذكرنا حتى لو نسيت نفسها. أنا واثقة يا سيدتي أن سيدي سيقنعك. تعرفين أنَّ الآنسة (دلّي) ذاهبة، وسيدي، وأنت، وأنتم جميعًا سعداء مرتاحون».

ثم ما لبثت أن صاحت وقد شغَّلت دموعها ثانية قبل أن تغادر الغرفة في تأثُّر عظيم: «أوه! لم أر أبدًا إنسانًا مباركًا مثلها في سماحة روحها. لم أر أبدًا أبدًا أبدًا! ولا حتى سيّدي رأى مثلها، أبدًا أبدًا، ولا أي إنسان، أبدًا!»

ظلَّت السيدة (ڤاردن) لخمس دقائق تقريبًا تمانع في لطف توسُّلات زوجها أن تكرمه بالتنزه يومًا، لكنها لانت أخيرًا وسمحت لنفسها بأن تقتنع، وبعد أن منحته صفحها غير المشروط -ذلك الذي قالت في وداعة إنَّ الفضل فيه يعود إلى كتيِّب صلواتها لا إليها- طلبت أن تأتي إليها (مـگز) لتساعدها في ارتداء فستانها. ما لبثت الخادمة أن حضرت، وإحقاقًا للحق يجب أن نسجِّل أنَّ هذه السيدة الطيبة حين نزلت إلى الطابق السفلي متهيِّئة تمامًا للرحلة، بدت كأنَّ شيئًا لم يحدث لها، بل كانت تلوح عليها مخايل أتمَّ صحة لنا أن نتخيَّلها، والفضل لجهودها هي وخادمتها.

أما بالنسبة إلى (دلّي)، فها هي ذي كما اعتدناها، مثال للرواء والتورّد، في معطف صغير أنيق أحمر قانٍ، بغطاء رأسٍ بنفس اللون، وفوق هذا الغطاء قبعة قشٍّ صغيرة محلَّاة بأشرطة بلون الكرز، ممالة قليلًا بما يكفي باختصار لجعلها أشقى غطاء رأس ابتكره صانع قبعات شرير وأشدّه إثارة. ولن نتحدث عمَّا فعلته هذه الزينة بلون الكرز من زيادة بريق عينيها،

ولا عن توافقها مع شفتيها، ولا عمَّا ألقته على وجهها من رونق جديد، لكنها إضافة إلى كل ذلك قد ارتدت زوجين صغيرين من قفازات الفراء ما أقساهما، وانتعلت زوجي حذاء يكسران القلب، وكانت تحيط بها الجماليَّات المبالغ فيها من كل نوع، حتى إن مستر (تاپرتت) حين رآها وهو ممسك برأس الحصان خارجة من المنزل وحدها، اجتاحه حافزٌ قويٌّ أن يستدرجها إلى داخل العربة ويقودها مبتعدًا كالمجنون، وكاد يفعل ذلك لولا شكوك مربكة أقلقته بخصوص أقصر طريق إلى (غرتنا غرين)[1]، ما إذا كان أعلى الطريق أم أسفله، وعلى الدوران الأيمن أم الأيسر، وإذا افترضنا أنه قد نجح في اختراق كل بوابات الطريق، فهل يدفع صانع الأقفال تكاليف زواجهما آجلًا؟ بدت له إجابة هذا السؤال الأخير سلبية بعيدة عن الواقع بحكم عمله اليومي رغم خياله الجامح، ولذا تردد فيما خطر له. وبينا هو واقف متردِّدًا هكذا يسترق النظر إلى (دلّي)، خرج سيده وسيدته ومرافقتهما الدائمة (مـگز)، وضاعت الفرصة إلى الأبد. فالآن كانت العربة تصرخ على زنبركاتها إذ تدخلها السيدة (ڤاردن)، ثم صرخت ثانية أعلى من كل مرة إذ يدخلها صانع الأقفال، ثم ما لبث أن قفزت بغتة كما لو كان قلبها ينبض بخفَّة إذ كانت (دلّي) تدلف إليها، وأخيرًا ذهبت العربة وخلا مكانها، ولم يبق سواه هو وتلك البشعة (مـگز) يقفان معًا في الشارع.

---

(١) Gretna Green أبرشيّة وقرية في جنوب أسكتلندا، تحديدًا على الجانب الأسكتلنديّ من الحدود بين أسكتلندا وإنگلترا، وأشهر ما ميّزها تاريخيًّا حفلات الزّفاف، إذ بعد صدور مرسوم عام ١٧٥٤ المنظِّم للزواج، ذلك الذي حظر الإقدام على الزواج قبل بلوغ العام الواحد والعشرين دون موافقة الآباء في إنگلترا وويلز، كان الراغبون في الزواج تحت هذه السّنّ يعبرون الحدود إلى أسكتلندا التي لم ينطبق عليها هذا المرسوم.

كان مزاج صانع الأقفال المخلص في حالة من الطيب كما لو كان شيء لم يحدث طيلة العام الماضي ليعكِّر صفوه، وكانت (دلّي) مبتسمة من قلبها، أما السيدة (ڤاردن) فكانت لطيفة إلى درجة غير مسبوقة. وبينما تنساب بهم عربتهم عبر الشارع يتحدثون في هذا الأمر وذاك، إذ ظهر على الرصيف صانع العربات الذي أشرنا إليه آنفًا، في هيئة بالغة التهذيب حتى إن الناظر إليه لا يكاد يصدّق أن له علاقة بأيّ عربة سوى أن يركب فيها، وكان ينحني لمرورهم كأيّ نبيلٍ. وحين أجابت (دلّي) انحناءته بانحناءة، كانت مرتبكةً لا ريب، وقد ارتعدت شرائطها ذات اللون الكرزي قليلًا حين قابلت عيناها عينيه الحزينتين اللتين بدتا كما لو كانتا تقولان: «لقد وفيت بوعدي وبدأت تنفيذه، فها هو عملي يذهب إلى الجحيم، وأنت السبب» هناك كان يقف ملتصقًا بالأرض، كتمثالٍ كما قالت (دلّي)، وكمضخَّة كما قالت السيدة (ڤاردن)، إلى أن استدارت بهم العربة في ركن الشارع، وحين ظن أبوها أن في ذلك وقاحة من الفتى، وتساءلت أمها عمَّا يعنيه بذلك، احمرَّت وجنتا (دلّي) ثانية حتى شحب لون غطاء رأسها نفسه.

لكنهم تابعوا المسير، ولم يعكِّر هذا الأمر مرحهم، ومضى صانع الأقفال في تلقائيته الودود التي لا تشوبها شائبة يتوقَّف في أماكن من أنواع كثيرة مظهرًا معرفة حميمة بكل الحانات والخانات على الطريق، وكل أصحابها رجالًا ونساءً، أولئك الذين كان حصانه على علاقة طيبة بهم هو الآخر، إذ إنه كان يتوقّف لهم من تلقاء نفسه. ولعلَّه لم يسرّ إنسانًا قبل أن يرى غيره كما سرَّ أصحاب الخانات هؤلاء أن يروا مستر (ڤاردن) وأسرته، فقد ابتدرهم أحدهم «ألا تخرجون؟» وقال ثان: «ينبغي لكم أن

تصعدوا»، وآلت ثالثة أن يتذوقوا من شيء ما عندها وإلَّا فستعتبر أنهم يأنفون من ضيافتها وسيحزنها ذلك، وهكذا، حتى إن الرحلة كانت أقرب إلى مرور ملكيّ، ومشهدٍ مستمرٍّ من الكرم من البداية إلى النهاية. كان من المبهج أن ينظر إلى المرء بمثل هذا التقدير، ناهيك عن المنعشات التي انهالت عليهم، ولذا لم تقل السيدة (ڤاردن) شيئًا وإنما كانت مثالًا للطف والسرور، غير أن الأدلَّة التي اجتمعت في يديها ذلك اليوم ضد صانع الأقفال التَّعس لتستخدمها فيما بعد كلما دعت الحاجة لم تجتمع أبدًا لأغراض زواجية.

وبعد وقتٍ كان وقتًا طويلًا -إذ إنّ هذه المقاطعات اللطيفة لم تؤخِّر سيرهم تأخيرًا بسيطًا- وصلوا إلى حدود الغابة، وواصلوا الركوب بين الأشجار إلى أن وصلوا أخيرًا إلى (مايپول)، حيث جاءت صيحة صانع الأقفال المرحة «يوهو!» بـ(چون) العجوز سريعًا إلى الشرفة، وبعده جاءت بـ(چو) الشاب، وقد تسمَّر كلاهما في مكانه لرؤية السيدتين، حتى إنهما لوهلة لم يقدرا على أن يرحِّبا بهما أيّ ترحيب، بله أن يفعلا شيئًا بخلاف أن يحدّقا إليهما!

غير أن نسيان (چو) نفسه هكذا لم يتجاوز البرهة، فما أسرع أن دفع أباه النعسان جانبًا حين أفاق من دهشته -ما غاظ مستر (ولت) أيَّما غيظ- وانطلق كالسهم ليقف مستعدًّا أن يساعدهم على التّرجُّل من العربة. كان من الضروري أن تترجَّل (دلّي) أولًا. تلقَّاها (چو) بين ذراعيه، نعم، إلَّا أنَّ ذلك امتدَّ لوقت لم يتعد اللازم لأن يعد المرء «واحدًا»، وكانت هذه لمحةً من السّعادة الصّرف!

ومن الصعب أن نصِف كم كان شعورًا عاديًّا مبتذلًا ذلك الذي أثارته في صدر (چو) مساعدة السيدة (ڤاردن) في التّرجُّل، غير أنه فعلها، وبمنتهى ما في العالم من لطفٍ. ثم إن (چون) العجوز الذي كانت لديه فكرة غائمة ضبابية عن عدم ارتياح السيدة (ڤاردن) له جال بخاطره شيء من الشك فيما إذا لم تكن قد أتت لتهاجمه، غير أنه تشجَّع وعبَّر عن أمنيَّته أن تكون في خير حالٍ وعرض أن يقودها إلى داخل الخان. أما وقد استقبل هذا العرض بلطفٍ فقد تقدّما السائرين إلى الداخل، بعدهما (چو) و(دلّي) متشابكي الذراعين (يا للسعادة ثانيةً!)، وفي الذيل (ڤاردن) وحده.

قال (چون) العجوز إنه ينبغي لهم أن يجلسوا في الحانة، فلما لم يعترض أحدٌ دخلوا الحانة جميعًا. وصحيح أن الحانات كلها أماكن مريحة، إلَّا أنَّ حانة (مايپول) أوفرها راحة وأدفؤها وأكملها بين ما ابتكرته قريحة الإنسان. تلك الزجاجات المدهشة في أبيات الحمام البلّوطية العتيقة، وتلك الأباريق اللامعة المتدلِّية من مشاجب بنفس الميل الذي يلصقها به الظَّامؤون إلى شفاههم، وتلك البراميل الهولندية الصغيرة المتينة المصفوفة على الرفوف، وكل هذا الليمون المرتَّب في وضع مثاليٍّ لم تعرفه الإنسانية قبل، معلَّقًا في شباك منفصلة ليكوِّن الغيضة الطيبة الرائحة التي ذكرناها آنفًا، حيث يتآزر مع أكوام السكر البيضاء الطيبة الرغيفية الشكل المخزَّنة في الجوار ليقترحا مزيج الخمر الدافئ، وتلك الخزائن والمعاصر وتلك الأدراج الملأى بالغلايين، وتلك الأماكن المخصَّصة لوضع الأشياء للجلوس في مقاعد النوافذ العميقة، وكلها يغصُّ بالمأكولات والمشروبات والبهارات اللذيذة، وفوق ذلك كلِّه ذلك

الجبن المذهل الذي يقف ملخصًا موارد الخان التي لا تنفد متحدِّيًا زوَّاره ألَّا يعاودوا زيارته متى انصرفوا!

يا له من قلبٍ تعيسٍ ذلك الذي لا يفرح أبدًا، بل لا بدَّ أنه قد كان أضعف وأتعس قلب نبض بالحياة ذلك القلب الذي لم يختلج لمحبة حانة (مايپول). أما قلب السيدة (ڤاردن) فما أسرع ما اختلج لذلك. لم يكن لها أن توبِّخ (چون ولت) بين هذه الأوثان البيتية، تلك البراميل والزجاجات والليمون والغلايين والجبن، كما بالضبط لم يكن لها أن تطعنه بسكِّينه. كذلك كان أمر العشاء قادرًا على تهذيب همجي متوحِّش. قال (چون) للطبَّاخ «قطعة سمك وبعض قطعٍ من الضأن في الخبز مع كثير من الصلصة، وسلاطة جيدة وفروج مشوي، وطبق نقانق وبطاطس مهروسة أو شيء من هذا القبيل». شيء من هذا القبيل! يا لمَوارد هذه الخانات! أن يتحدَّث بمثل هذه اللا مبالاة عن أطباق كانت في ذاتها نماذج لغداء من النوع الأفخر، تناسب حفل زفاف أحدهم، بعبارة تقول «أو شيء من هذا القبيل»، لتعني: «إن لم تستطع سبيلًا إلى فرّوج فليكن مكانه أيُّ فردٍ من عائلة الدواجن» وربما يشمل هذا طاووسًا مثلًا! كذلك كان المطبخ بمدخنته العظيمة العريضة، ذلك المطبخ الذي لا يبدو شيء من الطهو فيه ممتنعًا، وحيث يمكنك أن تصدِّق بأيِّ شيء تأكله إذا ما أخبروك بتوفُّره. عادت السيدة (ڤاردن) من تأمُّل هذه الأعاجيب إلى الحانة مجددًا، وقد دار رأسها حيرة. لم تكن قدراتها في تدبير المنزل واسعة بما يكفي لإدراك كل ذلك. هكذا أحسَّت أنها ينبغي لها أن تنام، فقد كانت اليقظة ألمًا وسط هذا الهيلمان.

إذ ذاك عبرت (دلّي) باب الحديقة، وقد كان قلبها ورأسها الفرحان مشغولين بأمورٍ أخرى، وقد أخذت تنظر إلى ما خلفها بين الفينة والفينة (لكن بالطبع دون أن تتساءل عمَّا إذا كان چو يراها)، ثم ما لبثت أن عبرت ممرًّا خلال الحقول كانت تعرفه جيدًا لتؤدِّي مهمَّتها في قصر (وارن). وإنني بصفتي شاهدًا فإني أقرر أنني قد أخبرت، وأعتقد صدقًا، أنه من الصعب أن يشهد المرء شيئًا أجمل وأبهج من معطفها وأشرطتها الكرزيَّة اللون وهي تخفق في المروج الخضراء في ضوء النهار الساطع، على ما تصيب به الناظر إليها من الدُّوار.

* * *

الفصل العشرون

كان وعي (دلّي) الفخور بالثقة المودعة في شخصها والأهمية الكبيرة التي تمتَّعت بها كنتيجة لهذه الثقة كفيلين بالإعلان عمَّا تحمله من أمانة لكل من في منزل (وارن) لو أنها اقتحمت أهل المنزل لهذا الغرض، لكن حيث إنها لعبت في طفولتها في كل غرفة وممرٍّ كئيبٍ في هذا المنزل مرات ومرات، وأصبحت مذ ذاك الصديقة المتواضعة للآنسة (هاردال) كما كانت أختها بالتبنِّي، فقد كانت متحررة من الارتباط بهذا المبنى تمامًا كالسيدة الشابة. وهكذا، لم تصطنع من الحيطة شيئًا غير أن تحبس أنفاسها وتمشي على أطراف أصابعها وهي تعبر باب المكتبة متجهة رأسًا إلى غرفة (إمّا) بصفتها زائرة مميَّزة.

كانت هذه أوفر غرف المبنى حيوية. كانت القاعة كئيبة كغيرها، غير أن حضور الشباب والجمال كفيلٌ بملء السجن نفسه مرحًا (وإن كان الحبس قطعًا يذبلهما)، إذ يعيران بعض سحرهما لأشدِّ المشاهد كآبة، وقد ملأت الغرفة الطيور والأزهار والكتب والرسم والموسيقى ومائة شيء آخر مما تحبه الفتيات وتهتم به، ملأتها هذه الأشياء من الحياة والتعاطف الإنساني أكثر مما كان في استطاعة بقية المنزل على سعته أن يضم. كان للغرفة قلب، ومن له قلب لا يمكن بحال أن يعترف بحضورٍ صامتٍ لغيره!

وقد كان لـــ(دلّي) قلبٌ بالتأكيد، ولم يكن قلبًا قاسيًا بحالٍ، رغم كونه ملفوفًا في غيمة صغيرة من الدلال، كذلك الغيم الذي يلف شمس النهار أحيانًا ليحجب ضوءها قليلًا. وهكذا حين نهضت (إمّا) لتحيِّيها وقبَّلت خدَّها في حرارة وأخبرتها بطريقتها الهادئة كم تشعر بالتعاسة منذ فترة، اغرورقت عينا (دلّي) بالدموع وشعرت بالأسى فوق ما تستطيع التعبير عنه، لكنها بالصدفة رفعت عينيها في اللحظة التالية إلى المرآة وقد كان فيها مرأىً بالغ اللطف، حتى إنها ابتسمت وهي تتنهد وشعرت بمزيد سلوى.

قالت (دلّي): «لقد سمعت بالأمر يا آنستي، وهو شيء حزين حقًّا، لكنها حين تضيق تمامًا تفرج».

سألتها (إمّا) مبتسمة: «لكن هل أنت واثقة أنها هكذا قد ضاقت تمامًا؟».

أجابت (دلّي): «إنني حقًّا لا أرى كيف يمكن للأمور أن تصبح أسوأ مما هي عليه. وإن معي شيئًا لنبدأ به».

«ليس من (إدوارد)؟».

أومأت (دلّي) إيجابًا وابتسمت، وأخذت تفتش بأصابعها في جيوبها (وقد كان هناك جيوب في ذلك العهد) متصنِّعةً أنها لا تستطيع العثور على ما تريد، مما زاد أهميتها كثيرًا، وأخيرًا أخرجت الرسالة. وبينما تكسر (إمّا) الختم وتستغرقها فحوى الرسالة سرحت عينا (دلّي) إلى المرآة ثانية في واحدة من تلك الصدف الغريبة التي لا علَّة لها. لم يكن أمامها بدٌّ من أن تتساءل ما إذا كان صانع العربات يعاني كثيرًا، وأشفقت على المسكين تمامًا.

كانت رسالة طويلة، طويلة جدًّا، مكتوبة على الأوجه الأربعة لفرخ الورق، ثم زادها كاتبها أسطرًا متعامدة على الأصلية[١]، لكنها لم تكن تحمل سلوى، فبينما تقرؤها (إمّا) كانت تتوقف بين الفينة والفينة مجففة دموعها بمنديلها. والحق أنَّ (دلّي) كان يدهشها كثيرًا أن تراها في هذا الكرب، فقد كانت تعتقد أن قصة الحب يجب أن تكون إحدى أفضل النِّكات، وأوفر الأشياء مرحًا ومكرًا في الحياة. غير أنَّه قد رسخ في ذهنها أنَّ مردَّ كلِّ ذلك إلى مبالغة الآنسة (هاردال) في الثبات على إخلاصها، وأنها لو سمحت لنفسها فقط بأن تمرح مع شاب آخر بطريقة بريئة تمامًا، لتبقي حبيبها الأول مستثارًا، فلسوف تجد في ذلك عزاءً كثيرًا.

فكرت (دلّي): «أنا واثقة أن هذا ما ينبغي لي أن أفعل إن كنت في مكانها. فأن يتعس الإنسان حبيبه لهو تصرُّف حسن صحيح، أمّا أن يصبح الإنسان نفسه تعيسًا فهذا كثير بعض الشيء».

غير أنه لم يكن مجديًا أن تفوه بذلك، فما كان منها إلَّا أن جلست تنظر في صمتٍ. كان عليها أن تتحلَّى بالكثير من الصبر، فإن الرسالة حين أتي على آخرها أعيدت قراءتها من البداية، وحين انتهي منها ثانية شرع في قراءتها الثالثة! خلال هذا الملل كانت (دلّي) تزجِّي الوقت كأفضل ما خطر ببالها، فأخذت تعقص شعرها على أصابعها مستعينة بالمرآة المذكورة آنفًا، وتفتله فتلًا قاتلًا.

---

(١) Crossed letter رسالة مخطوطة تضمّ مجموعتين من الكتابة، إحداهما مكتوبة فوق الأخرى متعامدةً عليها. وقد شاع استخدامها في العهد الأوّل للنظام البريدي الحديث في القرن التاسع عشر للاقتصاد في نفقات البريد وفي الورق. وتسمّى هذه الطريقة كذلك cross-hatching.

لكلِّ شيء نهاية. حتى الصبايا العاشقات لا يستطعن أن يمضين في قراءة رسائلهنَّ إلى الأبد. وهكذا طوي وعاء الرسالة في حينه ولم يتبقَّ إلَّا أن يُكتب ردٌّ.

لكن حيث بدا أنّ هذا الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا هو الآخر، فقد قالت (إمّا) إنها سترجئه إلى ما بعد العشاء، وإنه يجب أن تتعشَّى معها (دلّي). وحيث كانت (دلّي) قد عزمت على ذلك مسبقًا، فإنها لم تحتج إلى كثير ضغطٍ من صديقتها، وبعد أن استقرتا على هذا الأمر ذهبتا لتتمشَّيا في الحديقة.

أخذتا تذرعان طرقات الشرفة جيئة وذهابًا، وتتكلمان بلا انقطاعٍ – على الأقل لم تصمت (دلّي) لحظة– لتحيلا هذا الجزء من المنزل الحزين النوَّاح إلى المرح والسعادة. لم تكونا تتحدثان بصوتٍ عالٍ أو تسرفان في الضحك، لكنَّهما كانتا كلاهما غاية في الحسن، وكان النسيم عليلًا، وبدا فستاناهما الفاتحان وغدائرهما الفاحمة طليقة بهيجة في طلاقتها، وكانت (إمّا) بالغة الجمال، و(دلّي) بالغة التورُّد، و(إمّا) رقيقة القوام، و(دلّي) ملفوفة في تمامٍ، وباختصارٍ، لم يكن ثَمَّ ورد لأي حديقة في جمال هاتين الوردتين، وليقل اختصاصيُّو البساتين ما يحلو لهم، وقد بدا كلٌّ من المنزل والحديقة واعيًا بهذه الحقيقة، فأشرقوا لها.

بعد ذلك جاء وقت العشاء وكتابة الرسالة، إضافة إلى المزيد من الكلام، حيث انتهزت الآنسة (هاردال) الفرصة واتهمت (دلّي) بأنها تميل إلى الغنج والتقلُّب، وهي تهم كانت تروق (دلّي) كثيرًا وتعدُّها من قبيل الإطراء. فلما تبيَّن لـ(إمّا) أنَّ (دلّي) لا سبيل إلى إصلاحها في هذا الشأن، سمحت لها بالمغادرة، لكن ليس قبل أن تأتمنها على ردِّ الرسالة الذي أوصتها بالاعتناء

به كلَّ العناية، كما منحتها هدية سوارًا صغيرًا جميلًا. وبعد أن ثبَّتت السوار في ذراعها ونصحتها في مزيجٍ من الهزل والجدِّ بأن تصلح من أساليبها اللئيمة، فقد كانت تعلم كم هي متيَّمة بـ(چو) في الحقيقة -وهو ما أنكرته (دلّي) بإصرارٍ، محتجَّة في صلفٍ بأنها تطمح إلى ما فوق ذلك- ودَّعتها، ثم إنها نادتها ثانية لتحمِّلها المزيد من الرسائل الإضافية الشفهية إلى (إدوارد)، رسائل من الكثرة بحيث إنها لا يمكن أن تعلق حتى بذاكرة شخص أرزن من (دلّي ڤاردن) عشر مرات، وفي النهاية صرفتها.

ودَّعتها (دلّي)، وبعد أن نزلت الدرج في رشاقة وصلت إلى باب المكتبة المخوف، وكانت على وشك أن تمرَّ به على أطراف أصابعها، لكنَّ الباب انفتح، وماذا حدث! كان مستر (هاردال) بالباب. كانت (دلّي) منذ طفولتها تقرن بين هذا الرجل وبين فكرة عن شيء شبحيٍّ عابسٍ. فلما كانت إضافة إلى ذلك مثقلة الضمير في هذه اللحظة، فقد أربكها ظهوره أيَّما إرباك، حتى إنها لم تدر أتقف لحضوره كما ينبغي لها أم تولِّي هاربة، فما هي إلَّا أن جفلت، ثم تسمَّرت مكانها مطرقة ترتعد.

قال مستر (هاردال) وهو يجذبها من يدها: «تعالي هنا يا بنت، أريد أن أتحدث معك».

تلعثمت (دلّي): «أرجوك يا سيدي، أنا في عجلة من أمري. كما أنك قد أفزعتني بظهورك بغتة هكذا يا سيدي. أفضِّل أن أمضي لشأني يا سيدي إن سمحت لي».

قال مستر (هاردال) بعد أن قادها إلى داخل الغرفة وأغلق الباب: «حالًا، ستمضين على الفور. هل تركت (إمّا) لتوِّك؟».

«نعم سيدي، منذ دقيقة. إنَّ أبي ينتظرني يا سيدي؛ أرجوك اسمح لي..».

قال مستر (هاردال): «أعرف أعرف. أجيبي سؤالي. بماذا أتيت إلى هنا اليوم؟».

تلعثمت (دلّي): «بماذا أتيت إلى هنا يا سيدي؟».

«ستخبرينني بالحقيقة، أنا واثق بذلك. نعم».

تردَّدت (دلّي) هنيهة، لكنَّ أسلوبه جرَّأها بدرجة ما فقالت أخيرًا: «حسنًا يا سيدي، لقد كانت رسالة».

«من مستر (إدوارد تشستر) بالطبع، وتحملين الردَّ؟».

تلعثمت (دلّي) ثانية، فلمَّا عجزت عن أن تقرر أيَّ فعل آخر انفجرت باكية.

قال مستر (هاردال): «إنك تزعجين نفسك من دون مبررٍ، لماذا أنت حمقاء إلى هذه الدرجة؟ إنك بالتأكيد تستطيعين أن تجيبيني، تعرفين أني أستطيع أن أسأل (إمّا) لأعرف الحقيقة مباشرة. أتحملين معك الرّدَّ؟».

كان لـ(دلّي) ما يعرف بالروح الصلبة، فلمَّا كانت في هذه اللحظة في وضعٍ حرجٍ، فقد مضت تستغلُّها كما يجب، ردَّت مرتعدة خائفة:

«نعم سيدي، نعم سيدي أحمل الردَّ. يمكنك أن تقتلني إن شئتَ يا سيدي، لكني لن أتنازل عنه. أنا آسفة لكني لن أفعل يا سيدي».

قال مستر (هاردال): «أنا أحيّي ثباتك وصراحتك، اطمئنّي وثقي بأني لا أرغب في أخذ رسالتك ولا في أخذ حياتك، إنك رسول عاقل وفتاة جيدة».

وإذ لم تكن مطمئنة تمامًا -كما قالت فيما بعد- ما إذا كان يستدرجها بهذه الإطراءات لينقضَّ عليها، فقد حافظت على أقصى مسافة استطاعت إليها سبيلًا بينهما، وبكت ثانية، وقررت أن تدافع عن كيسها -حيث كانت الرسالة قابعة- إلى آخر طرف من أطرافها.

بعد برهة صمت شقَّت خلالها ابتسامة طريقها إلى وجهه عبر كآبته الأزلية وهو يرمق الفتاة، قال مستر (هاردال):

«إنني أخطِّط للإتيان برفيقة لابنة أخي، فهي وحيدة في حياتها تمامًا. هل تحبِّين أن تكوني هذه الرفيقة؟ إنك أقدم صديقاتها، وأفضل من يشغل هذا المكان».

أجابت (دلّي) غير مطمئنة إلى كونه لا يمزح معها: «لا أعرف يا سيدي، لا أستطيع أن أقول، لا أعرف ماذا يرون عندي في البيت، لا أستطيع أن أدلي برأي يا سيدي».

قال مستر (هاردال): «إن لم يكن لدى أصدقائك مانع، فهل تمانعين أنت؟ هيًّا، إنه سؤالٌ بسيطٌ ميسور الإجابة».

ردَّت (دلّي): «لن يكون لديَّ ما يمنع فيما أعلم يا سيدي. يسعدني جدًّا أن أكون بالقرب من الآنسة (إمّا) بالطبع».

قال مستر (هاردال): «حسنًا، هذا كلُّ ما أردتُ قوله. أنتِ في عجلة من أمرك، ولن أؤخِّرك أكثر من ذلك».

لم تدعه (دلّي) يؤخِّرها ولم تنتظر أن يحاول ذلك، فبمجرد أن فاه بهذه الكلمات غادرت الغرفة، والمنزل، لتعود إلى المروج ثانية.

وحين استعادت رباطة جأشها وتفكَّرت فيما كانت فيه من اضطراب،

كان أول ما تفعله بالطبع أن تبكي مجدّدًا، وبعد ذلك، حين تدبَّرت كيف تجاوزت الأمر، ضحكت من قلبها. تركت الدموع مكانها للابتسامات، وأخيرًا أخذت (دلّي) تضحك كثيرًا، حتى إنها اضطرَّت إلى أن تستند إلى شجرة وتطلق العنان لجذلها. وحين أتعبها الضحك تمامًا عدَّلت وضع غطاء رأسها ومسحت عينيها ونظرت خلفها نظرة مرحة منتصرة إلى مداخن (وارن) التي كانت بالكاد ترى من هذه المسافة، واستأنفت طريق العودة.

كان وقت الشفق، وكان الظلام يضرب أطنابه سريعًا، لكنَّ الطريق كانت مألوفةً تمامًا لها من كثرة ما قطعتها، لدرجة أنها لم تكن تفكر فيها، ولم تشعر بأي ارتباكٍ من وحدتها. وفوق ذلك فقد كان هناك السّوار لتستمتع به، وحين فركته فركًا جيدًا وأبعدته عن عينيها مسافة ذراعها أخذ يبرق ويتألَّق في روعة في رسغها، حتى إن النظر إليه من أي زاوية ومع كل حركة ذراع كان عملًا جديرًا بأن يستغرقها. كانت هناك الرسالة أيضًا، وقد بدت غامضة جدًّا ومحيطة حين استخرجتها من كيسها، وكما كانت تعرف فقد كانت تحوي الكثير، حتى إن تقليبها على وجهيها والتفكير فيها والتساؤل عن بدايتها ونهايتها وما تقوله من أولها إلى آخرها، كل ذلك كان شغلًا شاغلًا. وبين السّوار والرسالة كان هناك الكثير ليفعل مما يشغلها عن التفكير في أيّ شيء آخر، وبين الإعجاب بهما بالتناوب تابعت (دلّي) مضيِّها في مرحٍ.

وإذ عبرت خوخة إلى حيث تضيق الطريق بين سياجين تزينهما الأشجار، سمعت خشخشة قريبة أجبرتها على التوقُّف بغتة. تسمَّعت فإذا الهدوء مستتبٌّ، فتابعت المسير، لا خائفة تمامًا، وإنما أخذت تغذّ السّير،

وربما لم تكن مرتاحة تمامًا فإنّ عائقًا كهذا ليفزع لا محالة.

وما لبثت أن سمعت نفس الصوت ثانية حين استأنفت المسير، وقد كان صوتًا يشبه خطى شخص يسترق الخطى بين الشجيرات والأحراج. نظرت إلى البقعة التي بدت مصدر الصوت فخيِّل إليها أنها ترى شخصًا رابضًا. توقَّفت مجدّدًا، وكان كل شيء هادئًا كالمرة السابقة. تابعت المضيَّ ثانية، بخطوة أسرع من ذي قبل، وحاولت أن تغني لنفسها بصوتٍ خافتٍ. لا ريب أنها الريح.

لكن كيف للريح أن تهبَّ فقط كلما مشت وتتوقَّف كلما توقَّفت؟ توقَّفت مرغمة حين جال السؤال بخاطرها، وتوقفت كذلك الخشخشة. في تلك اللحظة كانت مذعورة حقًّا، ومترددة فيما ينبغي لها أن تفعل، وإذا الشجيرات تطقطق وتفرقع، ويخرج من بينها رجلٌ قريبًا منها.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

تنفّست (دلّي) الصعداء حين اكتشفت أن الشخص الذي اقتحم طريقها بغتة هكذا وكان يقف الآن أمامها مباشرة لم يكن إلَّا (هيو) من (مايپول)، ذلك الذي نطقت اسمه في دهشة سعيدة من قلبها.

قالت: «أكان هذا أنت؟ كم أنا سعيدة لرؤيتك! وكم كنت مرعبًا للغاية بالنسبة إليَّ!».

لم يحر جوابًا وإنما وقف ساكنًا ينظر إليها. سألته:

«أجئت لتقابلني؟».

أومأ (هيو) إيجابًا وغمغم بشيء فحواه أنه كان ينتظرها ويتوقَّع ظهورها في وقتٍ أقرب.

قال (دلّي) وقد طمأنها ذلك كثيرًا: «اعتقدت أنهم ربما أرسلوا ورائي أحدًا».

جاءت إجابته صارمة: «لم يرسلني أحدٌ، أنا جئت من تلقاء نفسي».

لطالما ملأ الفتاة خوف مبهم من الأسلوب الفظ لهذا الرجل ومن هيئته المتوحِّشة غير المهذِّبة، حتى في وجود آخرين، ولطالما أجبرها ذلك على أن تنكمش إزاءه رغم إرادتها. وقد جدَّد وزاد القلق الذي استشعرته أولًا أن أصبح بغتة رفيقًا غير مدعوٍّ في مثل هذا المكان الموحش، تحت جنح ظلام تجتمع سدفه حولهما سريعًا.

ولو كان أسلوبه الآن وحشيًّا في سلبية وعنيدًا فحسب كما اعتادته، لِمَا شعرت بنفورٍ من صحبته فوق ما اعتادت أن تشعر به تجاهه دائمًا، ولربما كانت ستسرُّ بوجوده قريبًا منها. غير أن نظرة إعجاب فظٍّ جريء في عينيه أخافتها كثيرًا. رمقته بخوفٍ، غير حازمة أمرها إن كانت ستتقدَّم أم ستتراجع، ووقف هو يحدِّق إليها كساطير وسيم[1]، وهكذا ظلاَّ برهةً من الوقت دون كلامٍ أو حراك. أخيرًا تشجَّعت (دلّي) ومرَّت به مسرعة مواصلة طريقها. فما كان من (هيو) إلَّا أن واكب خطوها بخطوه محافظًا على قربه منها، وقال:

«لماذا تبذلين كلَّ هذا الجهد في تجنُّبي؟».

أجابته: «أريد أن أعود بأقصى ما أستطيع من سرعة، وأنت تمشي قريبًا جدًّا مني».

قال (هيو) منحنيًا فوقها حتى إنها أحسَّت أنفاسه على جبينها: «قريبًا جدًّا! لماذا قريبًا جدًّا؟ أنت دائمًا تتكبَّرين عليَّ يا سيدتي».

ردَّت (دلّي): «أنا لا أتكبَّر على أحدٍ، أنت تسيء فهمي. عُد كما كنت رجاءً، أو امضِ في طريقك».

ردَّ هو محاولًا أن يأخذ ذراعها في ذراعه: «لا يا سيدتي، سأمشي معك».

---

(١) السّاطير Satyr روح ذكريّة من أرواح الغابات في أساطير الإغريق، له أذنا وذيل حصان، وهو مبتلىً بنعاظ دائم مبالغ فيه. ويفترض أنّ السّواطير كانوا رفاق الإله (ديونيزوس) وكانوا كثيرًا ما يحاولون إغراء الحوريّات والنساء الفانيات على السّواء أو اغتصابهنّ، ولا ينجحون في ذلك عادةً، كما كانوا مشهورين بما ينتج عن شبقهم البالغ من فكاهة، وكذلك بحبّهم للخمر والرقص والموسيقى كإلههم ديونيزوس.

حرَّرت نفسها وقبضت يدها الصغيرة ولكمته بإرادة طيبة. إذ ذاك انفجر (هيو) خادم (مايپول) مقهقهًا، وأحاط خصرها بذراعه فأصبحت بيسرٍ في قبضته القوية كما لو كانت طائرًا.

«هاهاها! حسنًا فعلت يا سيدتي. اضربي ثانية. ستضربين وجهي وتمزِّقين شعري وتنتفين لحيتي من جذورها. مرحبًا بذلك لأجل عينيك البرّاَقتين، اضربي ثانية يا سيدتي. افعلي. هاهاها! لقد أحببت ذلك!».

حاولت بكلتا يديها أن تدفعه بعيدًا وهي تصيح: «دعني أمضي، دعني أمضي الآن».

قال (هيو): «عليكِ أن تكوني أطيب معي يا حلوة الشِّفاه. ينبغي لك ذلك بالفعل. تعالي. أخبريني الآن، لماذا أنت متكبِّرة دائمًا؟ إنني لا أتشاجر معك الآن لأجل ذلك، إنني أحبُّك وأنت متكبِّرة. هاهاها! أنت لا تستطيعين إخفاء جمالك عن رجل فقير، وفي هذا عزاء!».

لم تحر جوابًا، لكن حيث إنه لم يعق مسيرها بعد فقد واصلت الخطو بأقصى ما أوتيت من سرعة. لكن بين إسراعها وفزعها وإحكام قبضته عليها خانتها قواها أخيرًا ولم تستطع أن تمضي خطوةً أبعد. صاحت لاهثة:

«(هيو). (هيو) الطيِّب. إن تركتني فسأعطيك أيَّ شيء، بل كلَّ ما أملك، ولن أخبر أيَّ مخلوق بشيء مما حدث».

أجاب: «ينبغي لك ألَّا تفعلي. أنصتي لما أقول أيتها اليمامة الصغيرة. ينبغي لك ألَّا تفعلي. كل ما حولنا هنا يعرفني ويعرف ما أستطيع أن أفعل إن أردت. لو عنَّ لك أبدًا أن تخبري بما جرى، فتوقَّفي والكلمات على شفتيك، وفكري فيما ستجلبين من ضررٍ على رؤوس بريئة لا تحبِّين أن

تمسَّ شعرة منها بأذى. أتعبيني وسأتعبهم وزيادة في المقابل. أنا لا أعبأ بهم فوق ما أعبأ بكلاب كثيرة، أبدًا. ولماذا ينبغي لي أن أعبأ بهم؟ إنني مستعدٌّ لقتل رجل أكثر مما أنا مستعدٌّ لقتل كلب يومًا ما. إنني لم آسف طيلة حياتي لموت رجل، وأسفت لموت كلب».

كان ثمَّ شيء بالغ الوحشية في أسلوب هذه التعبيرات وما صاحبها من نظرات وإيماءات، حتى إنَّ خوفها العظيم منه منحها قوة جديدة، ومكَّنها بجهدٍ مباغتٍ من أن تحرِّر نفسها من قبضته وتهرب مسرعة. غير أنَّ (هيو) لم يكن يقل سرعة وقوة وخفَّة حركة عن أي رجل في إنگلترا العريضة، ولم يكن ما بذلته من جهد إلَّا عقيمًا، فقد كانت بين ذراعيه مجدَّدًا قبل أن تقطع مائة ياردة.

«على رسلك يا عزيزتي، بلطفٍ. أتهربين من (هيو) الفظّ الذي يحبك كأي نبيل من نبلاء الحفلات الراقصة؟».

ردَّت محاولة تحرير نفسها ثانية: «نعم، سأفعل. النّجدة!».

قال (هيو): «غرامة على هذا الصياح! هاهاها! غرامة يا جميلتي من شفتيك، وأنا أدفعها لنفسي!».

«النجدة! النجدة! النجدة!».

وبينما تصرخ بأقصى ما أوتيت من عنف وقوة، سمعت صيحة مجيبة، وثانية وثالثة. صاحت الفتاة في فرحة غامرة:

«شكرًا أيتها السماء! (چو). (چو) العزيز. من هنا. النجدة!».

توقف المعتدي وتسمَّر مرتبكًا لوهلة، لكنَّ اقتراب الصيحات منهما بسرعة أجبره على اتخاذ قرار سريع. أطلقها مغمغمًا بنظرة مهدِّدة: «أخبريه

وانظري ما سيحدث» ثمَّ ما لبث أن قفز من فوق السياج واختفى في لحظة. أسرعت (دلّي) لتسكن بين ذراعي (چو) المفتوحتين.

«ما الأمر؟ هل أصابك مكروه؟ من كان ذلك؟ من كان؟ أين هو؟ كيف كان يبدو؟» مع كثير جدًّا من تعابير التشجيع وطمأنة الفتاة إلى كونها في أمان، كانت هذه هي الكلمات الأولى التي صدرت عن (چو). غير أنَّ (دلّي) الصغيرة المسكينة كانت مذعورة متلاحقة الأنفاس لدرجة أنها لم تستطع أن تحير إجابة لفترة، فتعلَّقت بكتفه، تبكي وتنهنه كما لو كان قلبها سينفطر.

لم يكن لدى (چو) أدنى مانع من تعلُّقها هكذا بكتفه، مطلقًا، رغم أنَّ ذلك قد سحق الأشرطة الكرزية اللون للأسف، وشوَّه القبَّعة الصغيرة الأنيقة أيما تشويه. لكنه لم يتحمَّل أن يراها تبكي، فإنَّ ذلك كان يعصر قلبه. حاول أن يواسيها، فانحنى فوقها وغمغم في أذنها، ويقول البعض إنَّه قد قبَّلها، لكنَّ هذه أكذوبة. وأيًّا ما كان الأمر فقد قال كلَّ الأشياء الطيِّبة الحنون التي خطرت بذهنه، وتركته (دلّي) يواصل ما يقول ولم تقاطعه ولو مرة، واستغرق الأمر عشر دقائق كاملة قبل أن تستطيع أن ترفع رأسها وتشكره.

قال (چو): «ما ذاك الذي أفزعك هكذا؟».

أجابت بأنَّ رجلًا لا تعرفه كان يتتبَّعها، بدأ بالتسوُّل ثم مضى ليهدِّدها بالسرقة، وكان على وشك أن ينفِّذ تهديده، لولا ظهور (چو) في الوقت المناسب. وقد عزا (چو) تردُّدها وارتباكها في قول ما قالته إلى ما عانته من فزع، ولم يدر بخاطره لحظة أنَّ الحقيقة غير ذلك.

«توقَّفي والكلمات على شفتيك» فكرت (دلّي) في هذه الجملة مائة مرة هذه الليلة وكثيرًا جدًّا فيما بعد كلما أوشك لسانها أن يزلَّ ويدلي بالحقيقة، فكتمت ما تودُّ أن تقوله. كان خوفها المتجذِّر عميقًا من ذلك الرجل، واقتناعها بأن طبيعته الوحشية إن أثيرت ستأكل الأخضر واليابس، وتأكيده القوي على أنها إن اتهمته صراحة فسيصبُّ جام غضبه وانتقامه على (چو) الذي استنقذها من براثنه، كانت هذه جميعًا اعتبارات لم تجترئ على تجاهلها، وأمورًا تحض على التكتُّم لا سبيل أمامها إلى التغلُّب عليها.

أمّا (چو) فقد كان أسعد من أن يحقّق في الأمر تحقيقًا دقيقًا، ولأن (دلّي) كانت ترتعد ما زالت بما لا يسمح لها بأن تمشي دون عون، فقد تقدَّما في طريقهما ببطء شديد، وكان هو في قرارة نفسه سعيدًا لذلك أيَّما سعادة، إلى أن لاحت قريبًا منهما أنوار (مايپول)، تبرق مرحِّبة في مرح، لتتوقَّف (دلّي) بغتة، صائحة فيما يشبه الصراخ:

«الرسالة!»

صاح (چو): «أيّ رسالة؟».

«تلك التي كنت أحملها، كانت في يدي، وسواري كذلك».

قالتها متحسِّسة معصمها، لتتابع: «لقد فقدت كليهما».

قال (چو): «أتعنين أنَّك قد فقدتهما لتوِّك؟».

أجابت (دلّي) وهي تبحث في جيبها من دون جدوى وتنفض فستانها: «إمّا أنني أسقطتهما ساعتها، وإما أنهما قد سُرقا مني. لقد ضاعا، كلاهما. ما أتعسني من فتاة!».

بهذه الكلمات عادت المسكينة (دلّي) تبكي من جديدٍ، وإحقاقًا للحقّ فقد كانت آسفة لضياع الرسالة بقدر أسفها لضياع السوار، وأخذت تنعي حظَّها بطريقة بالغة التأثير. حاول (چو) أن يعزِّيها بتأكيد أنَّه بمجرد أن يسكنها (مايپول) فسيعود إلى البقعة نفسها بمصباح -إذ كان الظلام الآن مخيمًا تمامًا- ويبحث بحثًا جادًّا عن المفقودات التي كان من المحتمل جدًّا أن يعثر عليها، فقد كان من المستبعد أن يكون أي إنسان قد مرَّ بتلك الطريق مذ تركا تلك البقعة، فضلًا عن كونها منتبهة لأنَّ ما تفقده لم يؤخذ منها عنوة. شكرته (دلّي) من قلبها على هذا العرض، رغم كونها لم تعلِّق آمالًا على نجاح محاولته، وهكذا وصلا إلى حانة (مايپول) أخيرًا، بعد الكثير من الندب من جانبها، والكثير من عبارات الأمل من جانبه، والكثير من الضعف من جانبها، والكثير من الدعم الحنون من جانبه، ليجدا صانع الأقفال وزوجه و(چون) العجوز ما زالوا محتفظين بروح الاحتفال.

استقبل مستر (ولت) خبر الأزمة التي تعرَّضت لها (دلّي) بحضور الذهن المذهل والاستعداد المدهش للكلام اللذين يميِّزانه تمامًا من كلِّ الخلق. أمَّا السيدة (ڤاردن) فقد عبَّرت عن تعاطفها مع محنة ابنتها بتوبيخها بإصرارٍ على التأخُّر إلى هذا الوقت، بينما قسَّم صانع الأقفال المخلص نفسه بين مواساة (دلّي) وتقبيلها من ناحية، ومصافحة (چو) محيِّيًا إيَّاه من قلبه من الناحية الأخرى، حيث قال إنه عاجزٌ عن أن يوفِّيه حقَّه امتداحًا وشكرًا. وفيما يتعلَّق بهذه النقطة الأخيرة، كان (چون) العجوز أبعد ما يكون عن أن يتفق مع صديقه، فبالإضافة إلى أنَّه لا تروقه أبدًا تلك الروح المغامرة على إطلاقها، فقد خطر له أنَّ ابنه ووريثه لو كان قد أصيب إصابة

بالغة في عراك فإنَّ التبعات كانت ستكون فادحة متعبة، وربما كانت قد دمَّرت تمامًا سير العمل في (مايپول). لذا، ولكونه لا ينظر أبدًا بعين الرضا إلى الفتيات الصغيرات، بل يعتبر أنهنَّ وكلَّ جنس النّساء لا يمثِّلن إلَّا خطأً عبثيًّا ارتكبته الطبيعة، فقد انتهز الفرصة وانسحب ليهزَّ رأسه وحيدًا عند الغلَّاية، تلك التي ألهمه وحيها الصامت أن يلكز (چو) بمرفقه لكزات عدة في خلسة، كتوبيخ أبويٍّ وتذكير لطيف بأن يهتمَّ بشؤون نفسه وحسب، ولا يجعل من نفسه أضحوكة.

رغم ذلك أنزل (چو) المصباح وأشعله، وبعد أن سلَّح نفسه بعصا غليظة سأل إن كان (هيو) في الحظيرة.

قال مستر (ولت): «تجده راقدًا أمام نار المطبخ يا سيدي. لأيِّ شيء تريده؟».

ردَّ (چو): «أريده أن يأتي معي لنبحث عن تلك الرسالة وذلك السّارِ. هالوا! يا (هيو)!».

امتقع وجه (دلّي) فصار في شحوب الموتى، وشعرت أنها موشكة على الإغماء. بعد لحظات جاء (هيو) يترنَّح، يتمطَّى ويتثاءب كعادته، ويظهر كلَّ ما من شأنه أن يوحي بأنَّه قد أيقظ من قيلولة عميقة.

قال (چو) وهو يناوله المصباح: «خذ هذا أيُّها النَّؤوم، احمله معك وأحضر الكلب وهراوتك الصغيرة. والويل لذلك الرجل إن صادفناه».

دمدم (هيو) وهو يفرك عينيه ويهزُّ نفسه: «أي رجل؟».

ردَّ (چو) في حالة من الشجاعة العظيمة والنشاط: «أي رجل؟ رجل ينبغي لك أن تعرف به وتستعد وتتيقَّظ له. كم يناسب أمثالك أيُّها العملاق

الكسول أن تقضي وقتك في الشخير في ركن المدفأة، بينما بنات الرجال الشّرفاء لا يستطعن حتى أن يعبرن مروجنا الهادئة ليلًا من دون أن يهاجمهنَّ قطّاع الطرق، ويفزعوهنَّ على حياتهنَّ الغالية».

صاح (هيو) ضاحكًا: «إنهم لا يسطون عليَّ أبدًا. ليس لديَّ ما أخسره. غير أنه يسعدني أن أدقَّ أرؤسهم كما يسعدني هذا مع غيرهم. كم عددهم؟».

قالت (دلّي) بصوتٍ خافتٍ إذ نظر الجميع إليها: «واحد فحسب».

قال (هيو) وهو يرمق (ولت) الشاب بنظرة عابرة خاطفة حتى إنَّ أحدًا لم يلحظ عبوسها إلّا (دلّي):

«وكيف كان يبدو يا سيدتي؟ هل كان في مثل قامتي؟».

ردَّت (دلّي) غير منتبهة لما تقول: «ليس.. ليس بهذا الطول».

قال (هيو) ناظرًا إليها في انتباه: «ولباسه؟ هل كان يشبه ما يلبسه أيٌّ منَّا الآن؟ إنني أعرف كلَّ من يعيشون في الجوار، وربما استطعت أن أخمِّن هويَّته إن كان لديَّ شيء يدلُّني».

تردَّدت (دلّي) وازداد شحوبها، ثم أجابت بأنه كان يلبس معطفًا فضفاضًا ويخفي وجهه بمنديل، وفيما عدا ذلك ليس لديها المزيد لتصفه به.

قال (هيو) بابتسامة خبيثة: «إذن فأنت لن تعرفيه إن رأيته ثانية؟».

أجابت (دلّي) وهي تنفجر باكية مجدّدًا: «لا يجب أن أراه ثانية، لا أحب أن أراه ثانية. لا أتحمَّل أن أفكر فيه. لا أستطيع أن أتحدث عنه أكثر من ذلك. لا تذهب إلى البحث عن هذين الشيئين يا مستر (چو)، رجاءً لا

تفعل، إنني أرجوك ألَّا تذهب مع هذا الرجل».

صاح (هيو): «ألَّا يذهب معي! إنني فظٌّ جدًّا بالنسبة إليهم جميعًا. كلُّهم خائفون مني. لماذا، بوركت يا سيدتي، إنَّ لديَّ أطيب قلب بين الأحياء. أنا أحبُّ كل السيدات يا سيدتي»، قال هذه العبارة الأخيرة وهو يستدير إلى زوج صانع الأقفال.

رأت السيدة (ڤاردن) أنَّه إن فعل ذلك حقًّا فعليه أن يخجل من نفسه، إذ إنَّ هذه العواطف تلائم (كما تعتقد هي) مسلمًا جاهلًا أو ساكن جزيرة نائية متوحِّشًا أكثر ممَّا تلائم پروتستانتيًّا مخلصًا، ثم إنَّها استنتجت من أخلاقياته الناقصة هذه أنه لم يدرس أبدًا دليل الپروتستانتي. وإذ اعترف (هيو) بأنه لم يدرسه أبدًا بالفعل، بل لا يستطيع أن يقرأ، فقد أعلنت السيدة (ڤاردن) في قسوة بالغة أنَّ عليه أن يخجل من نفسه أكثر من ذي قبل، ونصحته بقوة أن يدَّخر مصروفه لشراء واحد، ويعكف على دراسة محتوياته بكل همَّة. وبينا هي تتابع هذا الخطاب، تبع (هيو) سيِّده الشاب إلى الخارج في قلة ذوقٍ وقلة احترامٍ إلى حدٍّ ما، وتركها تربي بقية الرفقة. واصلت هي هذا الأمر، ولما وجدت أن عيني مستر (ولت) مثبَّتتان عليها في هيئة موحية بالانتباه العميق، وجَّهت خطابها كلَّه إليه بالتدريج، ملقية عليه محاضرة طويلة في الأخلاق واللاهوت، في قناعة بأنَّ أمورًا عظيمة تعتمل في روحه. أمَّا الحقيقة البسيطة فكانت تتلخَّص في أنَّ مستر (ولت) -رغم عينيه المفتوحتين على اتساعهما ورغم كونه يرى أمامه امرأة يكبر رأسها كلما أطال النظر إليها وثبَّته، حتى ليكاد يملأ الحانة كلها- كان قد غرق في نومٍ عميقٍ بالفعل، وهكذا جلس مستندًا إلى ظهر مقعده ويداه في

جيوبه، حتى أيقظته عودة ابنه فأطلق تنهيدة عميقة، ولديه انطباعٌ خافتٌ أنه كان يحلم بلحم الخنزير المخلَّل والخضر، وهي رؤيا في هذه السّنة من النوم لا ريب أنها ترجع إلى أنَّ السيدة (ڤاردن) كرَّرت كثيرًا نطق كلمة (الرّحمة) بكثيرٍ من التوكيد، تلك الكلمة التي حين دلفت من بوابات مخّ مستر (ولت) المواربة واقترنت بكلمتي (قبل اللّحم) اللتين كانتا تتجوَّلان بذهنه وقتذاك، اقترحت مع الوقت نوعًا محددًا من اللحم إضافة إلى ذلك الوصف للخضراوات التي تصاحبه في العادة.

لم يسفر البحث عن أي شيء. فتَّش (چو) بطول الممشى أكثر من عشر مرات، وبين الحشائش وفي الأخدود الجاف، وفي السياج، ولكن دون جدوى. أمَّا (دلّي) التي لم يفلح شيء في تعزيتها عن خسارتها، فقد كتبت رسالة قصيرة إلى الآنسة (هاردال) تحكي فيها ما جرى كما حكته في (مايپول)، وأخذ (چو) على عاتقه إيصال الرسالة حين همَّت الأسرة بالمغادرة في اليوم التالي. وحين انتهوا من ذلك جلسوا للشاي في الحانة، حيث كان هناك عرضٌ نادرٌ لشرائح الخبز المزبَّدة، ولئلَّا يشعروا بالإنهاك من قلة الزاد، ولينزلوا منزلًا كريمًا بين الغداء والعشاء، كانت هناك نثريَّات لذيذة في هيئة شرائح كبيرة من لحم الخنزير المشوي، معالجة كما يجب، إلى درجة التمام، وساخنة تمامًا، حتى إنَّ لها رائحة لذيذة مغرية.

كانت السيدة (ڤاردن) نادرًا ما تكون پروتستانتية جدًّا هكذا وقت الطعام، إلَّا حالما يكون الطعام مطهوًّا أقل أو أكثر مما يجب، أو حينما يحدث ما من شأنه أن يفسد مزاجها. ارتفعت معنويّاتها كثيرًا حين بصرت

بهذه التجهيزات الطبية، فعبَّرت بالكثير من المرح من الحديث عن انعدام الأعمال الخيِّرة إلى الشعور بحضور لحم الخنزير وشرائح الخبز. بل إنها تحت تأثير هذه المثيرات الصحية وبَّخت ابنتها بحدة على كآبتها وحزنها (اللتين اعتبرتهما مزاجًا عقليًّا غير مقبول)، وبينما تمد طبقها في انتظار زيادة طازجة قالت إنه من الجيد لـ(دلّي) الحزينة لضياع لعبة وورقة أن تفكر في التضحيات التي يضحيها المبشِّرون بإرادتهم في بلاد أجنبية، حيث يعيشون أساسًا على السلاطة.

تؤدي أحداث مثل هذا اليوم إلى تذبذبات عديدة في المحرار البشري، لا سيَّما في الآلات الدقيقة الحسَّاسة البنية كالسيدة (ڤاردن). هكذا كانت تقف عند درجة حرارة الصيف وقت العشاء المبكر، مرحة مبتسمة مبتهجة. أمَّا بعد العشاء في ضوء شمس النبيذ فقد صعدت حرارتها ست درجات على الأقل فكانت في غاية السحر. وحين خبا أثره هبطت سريعًا فنامت في حرارة معتدلة ساعة أو ما إليها، واستيقظت في درجة حرارة تحت درجة التجمُّد. الآن عادت إلى حرارة الصيف مجددًا، كما تكون في الظل، وحين انتهوا من الشاي وأخرج (چون) العجوز زجاجة شراب منكَّه من أحد الصناديق البلوطية وأصرَّ على أن ترشف كوبين منه ببطء، وصلت حرارتها إلى التسعين وظلَّت كذلك ساعة وربع الساعة. وبما أنَّ صانع الأقفال كان لديه من الخبرة بها ما يهيئه للربح، فقد انتهز هذا الطقس الودود ليدخن غليونه في الرواق، وعلى هذه الإدارة الحكيمة للظرف كان على أهبة الاستعداد حين فرغت من الكأس لأن يولي شطر البيت على الفور.

إذ ذاك أحضر الحصان والعربة أمام الباب. ولم يكن (چو) ليثنيه شيء عن مرافقتهم إلى أن يعبروا الجزء الأكثر إيحاشًا وعزلة من الطريق، فقاد الفرس الرمادية معهم، حيث إنه بعد أن ساعد (دلّي) على الصعود إلى مقعدها (المزيد من السعادة!) قفز مبتهجًا إلى سرج الفرس. وبعد تبادل الكثير من الأمنيات بليلة طيبة والنصائح بربط الأحزمة جيدًا وإيقاد المصابيح ومناولة المعاطف والأوشحة دارت عجلات العربة مبتعدة وخبَّ (چو) إلى جوارها، على ناحية (دلّي) بالتأكيد، وقريبًا من عجلات العربة على هذا الجانب فوق ذلك.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

كانت ليلة لطيفة بهيجة، وقد ظلَّت (دلّي) رغم انخفاض معنوياتها تنظر إلى النجوم بطريقة ساحرة (وكانت تعلم كم هي ساحرة!) حتى إنَّ (چو) كاد يجن بها، ونمَّ منظره عن أنه لو كان ثمَّ رجل غارق في الحب -لا إلى أذنيه فحسب، وإنما يكاد غرامه يغرق النصب التذكاري لحريق لندن الكبير وكاتدرائية (سان پول) معًا- لكان هو ذلك الرجل. كانت الطريق جيدة جدًّا، ممهدة لا ترج العربة، ورغم ذلك ظلَّت (دلّي) طيلة الطريق تمسك جانب العربة بإحدى يديها الصغيرتين. ولو افترضنا وجود (عشماوي) يقف خلف (چو) ببلطة مرفوعة مستعدًّا لقطع رأسه إن لمس هذه اليد لما منعه هذا من أن يلمسها. بدأ بوضع يده على يدها كما لو كان بمحض الصدفة ليسحب يده بعد دقيقة أو نحوها، لينتهي واضعًا يده دون أن يسحبها إطلاقًا بينما هو ماضٍ في طريقه، كما لو كان مضطرًّا إلى فعل ذلك كجزء من واجبه كمرافق، وكما لو كان قد خرج لهذا الغرض بالتحديد. وأغرب شيء بخصوص هذه الواقعة الصغيرة أنَّ (دلّي) بدت كما لو كانت غير واعية بها. بدت بريئة جدًّا وغائبة عن الوعي وهي تدير عينيها إلى (چو)، حتى إن ذلك كان مثيرًا جدًّا.

رغم ذلك كانت تتحدث، عن خوفها، وعن مجيئه لإنقاذها، وعن امتنانها له، وعن خوفها أن تكون لم توفِّه شكر صنيعه، وعن أنهما منذ ذلك

الوقت فصاعدًا صديقان للأبد، وأشياء من هذا القبيل. وحين قال (چو) إنه يأمل في شيء غير الصداقة، كانت دهشة تمامًا، وقالت إنَّها تأمل ألَّا يكونا عدوَّين، وحين قال ألا يمكن أن يكونا شيئًا أفضل من صديقين وعدوَّين، وجدت (دلّي) فجأة نجمة أشدّ لمعانًا من كلِّ ما عداها من النجوم، ورجته أن يلتفت إلى ما وجدته، وقد أصبحت أشد براءة وغفلة بعشرة آلاف مرة مما كانت!

هكذا مضيا في طريقهما، لا يكاد صوتهما يجاوز الهمس، وفي صدريهما تعتلج رغبة أن تطول الطريق بهما اثنتي عشرة مرة طولها الأصلي -على الأقل كانت هذه رغبة (چو)- وإذا بهم وقد شارفوا الخروج من الغابة ودخول طريق مأهولة أكثر، يسمعون من خلفهم صوت حوافر حصان يخبُّ في نشاط، وحين أخذ الصوت يعلو لاقتراب الحصان منهم صرخت السيدة (ڤاردن)، فما لبث الراكب أن صاح «صديق!» وهو يقترب لاهثًا ليلجم حصانه إلى جوارهم.

صاحت (دلّي) مرتعدة: «هذا الرجل ثانية!».

قال (چو): «(هيو)! لأيِّ شيء أتيت؟».

أجاب وهو يرمق بنت صانع الأقفال بنظرة خفيَّة: «أتيت لأرافقك في عودتك، هو أرسلني».

قال (چو) المسكين: «أبي؟»، ثمّ أضاف هامسًا في مناجاة عقوق: «ألن يرى أبدًا أنني رجلٌ بما يكفي لأن أعتني بشؤوني؟».

أجاب (هيو) عن الجزء الأول من سؤاله: «نعم! يقول إنَّ الطرق الآن تحديدًا غير آمنة، ومن الأفضل أن يكون لك رفيق».

قال (چو): «إذن رافقنا، لم يحن وقت عودتي بعد».

أطاعه (هيو) ومضى في طريقه. وكان أن هيَّأ له مزاجه أو هواه أن يمضي أمام العربة بالضبط، وينظر إلى الخلف من موقعه هذا باستمرارٍ. أحسَّت (دلّي) أنه ينظر إليها، لكنها تحاشت النظر إليه ولم ترفع عينيها ولا مرة واحدة، فقد كان يوحي إليها برعبٍ عظيمٍ. وكان أن هذه المقاطعة وما تلاها من انتباه السيدة (ڤاردن) -تلك التي كان رأسها يسقط في نومها كل حين إلى لحظة مجيء (هيو)، باستثناء دقيقة أو اثنتين كل فترة كانت توقظ فيهما نفسها لتوبِّخ صانع الأقفال على إمساكه بها في وقاحة لئلَّا يرمي بها تساقط رأسها إلى خارج العربة- قد ألجمتا الحديث الهامس وجعلتا من العسير أن يستأنف. والحق أن (غابرييل) توقَّف بناءً على رغبة امرأته قبل أن يمضوا في طريقهم ميلًا آخر، ورفضت هذه السيدة الطيبة أن يتجشَّم (چو) مشقة مرافقتهم خطوة أخرى تحت أي ظرف. وذهبت احتجاجات (چو) بأنه غير متعب أبدًا، وأنه سيستدير عائدًا في حينه، وأنه فقط يودُّ أن يطمئنَّ إلى سلامتهم ويعبر بهم نقطة معينة على الطريق، ذهبت كلها أدراج الرياح. كانت السيدة (ڤاردن) مصرَّة، ولم يكن في طوق أحد من البشر الفانين أن يردَّها عن رأيها.

قال (چو) في حزنٍ: «إذن طابت ليلتكم، ما دام وجب عليَّ أن أقولها».

قالت (دلّي): «طابت ليلتك»، كان يحلو لها أن تضيف: «انتبه للرجل وأرجوك ألَّا تثق به،» لكنَّه أدار رأس حصانه وكان واقفًا قريبًا منهما في هذه اللحظة، وهكذا لم يكن أمامها إلَّا أن تعطي يدها إلى (چو) ليضغطها

ضغطة حنونًا، وحين مضت العربة لطريقها مسافة، نظرت خلفها ولوَّحت بيدها حيث بقي (چو) في البقعة التي افترقا فيها وإلى جواره شبح (هيو) الطويل القاتم.

لا نعرف ما فكرت فيه في طريقها إلى البيت، ولا نعرف ما إذا كان صانع العربات قد احتفظ بمكانه الذي كان يشغله في الصباح من تأملاتها. وصلوا إلى البيت أخيرًا، أخيرًا، فقد كانت طريقًا طويلة، لم يفلح تذمُّر السيدة (ڤاردن) في اختصارها. وحين سمعت (مـگز) صوت العجلات هرعت إلى الباب من فورها.

صاحت (مـگز) وهي تصفِّق بيديها، خارجة لتساعد سيدتها في الترجُّل: «ها هم يا (سمن)، ها هم. هات مقعدًا يا (سمن). والآن ألست أفضل حالًا سيدتي؟ ألا تشعرين أنك قد عدت إلى طبيعتك أفضل مما كنت ستعودين إن كنت قد بقيت في البيت؟ أوه! رحمتك يا رب! إنك مثلَّجة. أوه يا سيدي، إنها كومة ثلج!».

قال صانع الأقفال: «لم يكن أمامي ما أفعله بهذا الخصوص يا فتاتي المسكينة. حريّ بك أن تأخذيها إلى المدفأة بالداخل».

قالت (مـگز) في لهجة مشفقة: «لا يبدو أنَّ سيدي يشعر بك يا سيدتي، لكني متأكدة أنه لا يقصد ذلك. بعد ما رآه منك اليوم لن أصدق أبدًا إلَّا أن في قلبه من العاطفة ناحيتك أكثر مما يسمح له بأن يقول كلامًا قاسيًا. تعالي وخذي مقعدك جوار المدفأة فذلك أفضل يا عزيزتي، هيَّا».

أطاعتها السيدة (ڤاردن). دخل خلفهما صانع الأقفال ويداه في جيوبه، بينما أخذ مستر (تاپرتت) العربة في بطء إلى حظيرة مجاورة.

قال صانع الأقفال حين وصلوا إلى القاعة: «(مارثا)، عزيزتي. سواء اعتنيت بـ(دلّي) بنفسك أو جعلت غيرك يعتني بها، فربما كان هذا طيّبًا ومعقولًا. تعرفين أنها فزعت فزعًا شديدًا، وليست على ما يرام الليلة أبدًا».

الحق أن (دلّي) رمت بنفسها على الأريكة، غير مبالية على الإطلاق بكل الزينة الصغيرة التي كانت فخورة بها جدًّا في الصباح، وكانت تجهش بالبكاء ووجهها مدفون بين كفَّيها.

حين وقعت عينا السيدة (ڤاردن) على هذه الظاهرة -حيث لم تكن (دلّي) بحال معتادةً أن تتظاهر بالبكاء، فقد تعلَّمت من نموذج أمها أن تتجنَّب هذا التظاهر بقدر الإمكان- أعربت عن اعتقادها أنه ما من امرأة قبلها أصيبت بمثل ما أصيبت به، وأن حياتها لم تكن إلَّا مشهد ابتلاء دائمًا، وأنها كلما شعرت بميلٍ إلى البهجة والمرح سارع من حولها بطريقة أو بأخرى إلى التنكيد عليها، وأنها إذ استمتعت اليوم -ويعلم الرب أنَّ ذلك كان لا يحدث إلَّا نادرًا- كان عليها أن تدفع ثمن ذلك الآن. أمَّا (مـگز) فقد أعطت موافقتها غير المشروطة على كل هذه التصريحات. وأمَّا (دلّي) المسكينة فلم تجدها نفعًا هذه الأقوال المنعشة كلها، بل زادت حالها سوءًا، وحين رأت السيدة (ڤاردن) و(مـگز) أنها كانت حقًّا سقيمة أخذتهما بها الشفقة وانكبَّا على الاعتناء بها.

لكن حتى في هذا الانكباب أخذت عنايتهما المسار الذي تأخذه عادة، ورغم أنَّ (دلّي) أغمي عليها، فقد كان يبدو جليًّا لكلِّ ذي قدرة على الملاحظة أنَّ السيدة (ڤاردن) هي من يعاني. وهكذا حين أفاقت (دلّي) بعض الشيء ودخلت تلك المرحلة التي ترى فيها المربيات أن التوبيخ

والجدال قد ينفعان، أخذت أمها تشرح لها والدموع تترقرق في عينيها أنها وإن كانت قد شعرت اليوم بالقلق والارتباك فعليها أن تتذكَّر أنَّ هذا حظ البشرية جمعاء، ولا سيَّما النسوة اللاتي لا ينبغي لهن أن يتوقَّعن معاناة أقل من ذلك طيلة أعمارهنَّ، والواجب عليهنَّ أن يعقدن العزم على الصبر الجميل والتحمُّل. ورجتها السيدة (ڤاردن) أن تذكر أنها يومًا ما ستنتهك مشاعرها بكل تأكيد لدرجة أن تتزوج، وأن الزواج كما سترى في كل يوم من حياتها -وقد رأت ذلك بلا شكٍّ- يتطلَّب صمودًا شديدًا وتجلُّدًا. ورسمت لها صورة حية توضح أنها -أي السيدة (ڤاردن)- إن لم تكن في إبحارها خلال وادي الدموع هذا مستندة إلى مبدأ قويٍّ من الواجب، كان له الفضل وحده في حمايتها من الانحناء والسقوط، لكانت الآن في قبرها منذ سنوات عدة، وتساءلت ماذا كان يمكن أن يحدث في تلك الحالة لتلك الروح الخطَّاءة -تعني صانع الأقفال- ذلك الرجل الذي هي قرَّة عينه، وضوء طريقه ونجمته الهادية.

أضافت الآنسة (مـگز) كلمتها لتؤكد نفس المعاني. قالت إنَّه ينبغي للآنسة (دلّي) أن تحتذي مثال أمها المباركة، تلك التي طالما قالت وستقول دائمًا عنها -حتى لو كانت ستشنق وتسحل وتمزَّق إربًا إربًا في الدقيقة التالية- إنها صاحبة أكثر الأرواح لطفًا وسماحة وظرفًا، وأطول النساء معاناة لدرجة لا تتصور وجود مثيل لها، تلك التي أحدث مجرد الحكي عن ميزاتها أثرًا صحيًّا للغاية في عقل امرأة أخيها، حتى إنها بعد أن كانت تعيش مع زوجها عيشة قط وكلب، يتراشقان كل حين بالشمعدانات وأغطية الآنية وقضبان الحديد إلى غير ذلك من مظاهر الأحقاد العنيفة، أصبحت تعيش معه الآن كأسعد زوجين على ظهر الأرض، وهو شيء

يمكن التثبُّت منه بزيارتهما أي يوم في المنزل رقم سبعة وعشرين من ساحة الأسد الذهبي، ذاك المنزل ذي الجرس الثاني وعتبة الباب اليمنى. وبعد أن أشارت إلى نفسها باعتبارها مجرد وعاء بلا قيمة مقارنة بتلك السيدة، رجت (دلّي) أن تذكر دائمًا أن أمها الوحيدة العزيزة هذه ذات بنية ضعيفة ومزاج تسهل إثارته، ولطالما اضطرَّت إلى تحمُّل مصائب حياتها المنزلية، تلك المصائب التي إلى جوارها لا يُعَد اقتحام اللصوص والنهابين شيئًا، ورغم ذلك لم تستسلم أبدًا لليأس أو السخط ولم تفقد إصرارها، بل كانت ملامحها تكتسي الابتهاج دائمًا حين يحتدم النقاش، لتفوز في النهاية كما لو أن شيئًا لم يحدث. حين أنهت (مـگز) عزفها المنفرد دخلت سيدتها مجددًا مسرح الكلام لتكوِّنا معًا ثنائيًّا يقول نفس الشيء، ومفاده أن السيدة (ڤاردن) كانت الكمال مجسَّدًا يعذَّب، وأنَّ مستر (ڤاردن) ممثِّلًا الإنسانية في هذا البيت بصفته مخلوقًا ذا عادات وحشية خبيثة كان في غفلة تامة عمَّا أنعم به عليه من بركات. كانت موهبة الهجوم تحت قناع التعاطف لديهما مهذَّبة إلى هذا الحدّ، لدرجة أنَّ (دلّي) حين أفاقت وعانقت أباها في حنان كما لو كانت تدافع عن طيبته، أسرعت أمها معبِّرة عن أملها الجاد في أن يكون هذا درسًا له ما بقي من عمره، فيعطي طبيعة المرأة حقَّها فيما بعد، وهو طموح عبَّرت الآنسة (مـگز) عن مشاركتها فيه تمامًا ببعض النهنهات والسعلات التي كانت أبلغ من أطول خطبة.

غير أنَّ الفرحة الكبرى لقلب (مـگز) لم تقتصر على كونها قد التقطت تفاصيل ما جرى، بل امتدَّت إلى البهجة الاستثنائية في نقل الحكاية إلى مستر (تاپرتت) لتثير غيرته وتعذبه. إذ إنَّ حالة (دلّي) اضطرَّتهم إلى أن يطلبوا من هذا السيد الشاب أن يتعشَّى في الورشة، وكانت يدا الآنسة (مـگز) الجميلتان هما اللتان قد أوصلتا إليه عشاءه.

قالت السيدة الشابة: «أوه (سمن)! تلك الأمور التي حدثت اليوم. يا ألطاف الربّ يا (سمن)!».

فما كان من مستر (تاپرتت) الذي لم يكن في أفضل حالاته المزاجية، والذي كان يكره الآنسة (مـگز) أكثر مما يكرهها في العادة حين تضع يدها على قلبها وتلهث هكذا –حيث كان بؤس قوامها يبدو أوضح في هذه الوضعية– ما كان منه إلَّا أن حدجها بنظرة من أكثر نظراته تعاليًا، ولم يتنازل ليعبِّر عن أقل قدرٍ من الفضول.

تابعت (مـگز): «لم أسمع أبدًا بما يشبه ذلك. فكرة التدخُّل في شؤونها. ماذا يرى الناس فيها ويجعلهم ينفقون من وقتهم الثمين في محاولة التقرُّب إليها. تلك هي النكتة. هيهيهي!».

وإذ اكتشف أن سيدة لها علاقة بحديثها، طلب مستر (تاپرتت) من صديقته الجميلة في عجرفة أن تكون أصرح، وطلب أن يعرف ما تقصده بقولها «شؤونها».

قالت (مـگز) وهي تضغط حروف الاسم بطريقة مبالغة في الحدَّة: «تلك الـ(دلّي). لكن، أوه! بشرفي، هذا الشاب (چوزيف ولت) شجاع ويستحقُّها، يستحقُّها بالفعل».

قال مستر (تاپرتت) قافزًا من فوق المنضدة التي كان جالسًا إليها: «احذري يا امرأة!».

صاحت (مـگز) في دهشة مصطنعة: «يا لنجومي يا (سمن)! أنت حقًّا تخيفني، ما الأمر؟».

قال مستر (تاپرتت) ملوِّحًا في الهواء بسكين الخبز والجبن: «ثمَّ أوتار في قلب الإنسان يحسن ألَّا تهتز، هذا هو الأمر».

صاحت (مـگز) مستديرة لتغادر: «أوه حسنًا، طالما أنك في نوبة غضب.».

قاطعها مستر (تاپرتت) وهو يمسك معصمها ليمنعها من الذهاب: «غضب أو لا غضب. ماذا تعنين يا (چزبل)؟ ماذا كنت ستقولين؟ أجيبيني».

ورغم هذا الأمر غير المهذب فعلت (مـگز) سعيدة ما طُلِب منها، وأخبرته كيف أن سيدتهما الشابة حين كانت وحدها في المروج بعد حلول الظلام هاجمها ثلاثة أو أربعة رجال طوال كانوا على وشك اختطافها وربما قتلها لولا وصول (چوزيف ولت) في الوقت المناسب ليجبرهم بيده العارية وحده على الهرب، فأنقذها مستثيرًا إعجاب الخلق به وحب وامتنان (دلّي ڤاردن).

قال مستر (تاپرتت) وهو يأخذ نفسًا طويلًا حين انتهت الحكاية ويدلِّك شعره حتى وقف مستقيمًا جامدًا على رأسه: «حسنًا جدًّا، لم يبق له على ظهر الأرض إلا أيام».

«أوه (سمن)!».

قال الصبي: «أقول لك إنَّ ما بقي له أيام، اتركيني، امضي لشأنك».

غادرته (مـگز) كما طلب منها، لكنها فعلت ذلك لرغبة أقوى من الاستجابة لطلبه، وهي أن تضحك في سرِّها. وحين نفثت شعورها بالرضى عادت إلى القاعة حيث كان الهدوء و(توبي) قد استثارا في

صانع الأقفال حاسة الكلام، فكان يميل إلى أن يسترجع أحداث اليوم في مرحٍ. غير أن السيدة (ڤاردن) التي كان تديُّنها العملي عادة من النوع الاسترجاعي ألجمت استرساله في الحديث بأن ألقت موعظة عن إثم مثل هذه التسليات، وأعلنت أن وقت النوم قد حان. هكذا انسحبت إلى فراشها، في هيئة صارمة كئيبة كأريكة (مايپول) الفاخرة، وتبعها إلى النوم بقية الموجودين.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

أفسح الشفق مكانه لليل بضع ساعات، ثم كان الوقت الآن عز الظهيرة في ذلك الجزء من المدينة الذي تنازلت صفوة المجتمع وسكنته -تلك الصفوة التي كانت كما هي الآن شديدة المحدودية حتى ليسهل إسكانها- بينما كان مستر (تشستر) متمدِّدًا على أريكة في غرفة ملابسه في (التمپل)، يتسلَّى بكتابٍ.

كان يبدو أنه يرتدي ملابسه على مراحل بطيئة، وحيث إنه الآن كان قد أنهى نصف الرحلة، فقد أخلد إلى راحة طويلة. كان في كامل أُبَّهته الممتدة إلى ساقيه وقدميه على أحدث صرعة أناقة آنذاك، لكن بقي شيء من زينته ليأخذه. كان المعطف ممطوطًا كفزَّاعة مهذبة على حامله المنفصل، والصدرية معروضة بحيث تظهر كأفضل ما يكون، وزينات اللباس المتنوعة موضوعة في أبهى ترتيب، لكنه رغم ذلك ظل راقدًا ورجلاه تتدلَّيان بين الأريكة والأرض، مركِّزًا في كتابه كما لو لم يكن أمامه إلَّا الفراش.

أخيرًا رفع عينيه إلى السقف وقال بلهجة من يتأمَّل في جدية ما كان يقرؤه: «بشرفي، بشرفي، هذا التأليف الأكثر أستاذية، وهذه الأفكار الأرقُّ على الإطلاق، وهذه الأخلاقيات الأكثر تهذيبًا، وهذه العواطف الأكثر

فروسية ونبلًا في الكون! آه يا (ند)، يا (ند)، فقط لو كنت تشكِّل عقلك على هذا المثال لكنَّا نشعر الشعور ذاته تجاه أي موضوع يمكن أن يقوم بيننا!».

كانت هذه المناجاة -مثلها في ذلك كمثل بقية ملاحظاته- موجَّهة إلى الهواء، فلم يكن (إدوارد) حاضرًا، وما كان الأب إلَّا منفردًا تمامًا.

وبينما يضغط الكتاب بيده في حنوٍّ وهو يضعه أمامه قال: «سيدي اللورد (تشسترفيلد). لو أنني كنت انتفعت بعبقريَّتك مبكرًا في تشكيل ابني على المثال الذي تركته للآباء العقلاء، لكان كلانا الآن غنيين. لا ريب أن (شكسپير) كان رائعًا جدًّا بطريقته، وكان (ملتون) جيدًا وإن كان ثرثارًا، وكان اللورد (باكون) عميقًا واسع المعرفة بالتأكيد، لكن الكاتب الذي يجب أن يكون فخر بلده هو سيدي اللورد (تشسترفيلد).[1]».

استغرق في التفكير مجددًا، وأخذ يعمل خلَّة أسنانه وهو يتابع:

«لقد ظننتُ أنني رجل محنَّك تمامًا، واغتررت بكوني ملمًّا تمامًا بكل تلك الفنون والبدع التي تميز رجال العالم من الريفيين السذَّج والفلاحين، وتفصل شخصيتهم عن تلك العواطف الموغلة في الفظاظة، تلك التي

---

(١) يقال إنّ ديكنز بنى شخصيّة سير چون تشستر على شخصيّة الدبلوماسيّ والكاتب والسياسيّ البريطانيّ فيليپ ستانهوپ لورد تشسترفيلد Philip Stanhope, 4th Earl of Chesterfield والكتاب المذكور بين يدي سير تشستر هنا هو غالبًا كتابه (رسائل إلى ابنه يعلّمه فنّ أن يصبح رجل دنيا) Letters to His Son on the Art of Becoming a Man of the World & a Gentleman وهو يضمّ أربعمائة رسالة وجّهها إلى ابنه غير الشرعيّ (فيليپ ستانهوپ) منذ عام ١٧٣٧ إلى عام وفاة الابن ١٧٦٨، مكتوبة بالفرنسية والإنـكليزية واللاتينية ليدرّب ابنه على هذه اللغات. وقد وصف الشاعر والكاتب العظيم صمويل چونسون هذه الرسائل بأنها «تعلّم مخاطبها أخلاق العاهرات وأساليب أستاذ الرقص» للترقّي إلى رتبة الچنتلمان.

يسمُّونها الشخصية الوطنية. وبعيدًا عن تحيُّزي الطبيعي لنفسي، فقد اعتقدت أنني حقًّا من رجال العالم. وبعد فإنني في كل صفحة كتبها هذا الكاتب المستنير أجد مجاملة آسرة لم تخطر ببالي من قبل، أو قطعة من الأنانية المفرطة لم أكن على دراية بإمكان وجودها أصلًا. ينبغي لي أن أحمرَّ خجلًا من نفسي أمام هذا المخلوق الرائع، لو كان للمرء أن يحمرَّ خجلًا لأي سبب وهو يذكر مبادئه. رجل مذهل! نبيل حقًّا! يستطيع أي ملك أو ملكة أن يصنعا (لوردًا)، أمَّا (تشسترفيلد) فلا يمكن أن يصنعه إلَّا الشيطان نفسه وملائكة الرحمة».

نادرًا ما يحاول المزيِّفون الخاوون أن يخفوا هذه الرذائل عن أنفسهم، لكنهم حتى وهم يعلنونها يدَّعون لأنفسهم الفضائل التي يتظاهرون باحتقارها، فيقولون: «فإن هذه هي الأمانة. هذا هو الصدق. البشرية كلها مثلنا لكنها لا تملك من الصراحة ما يجعلها تعلن ذلك». وكلما ازداد تظاهرهم بإنكار وجود أي إخلاص حقيقي في العالم، كلما ظنّ أنهم على الدرجة الأرفع من الإخلاص، وفي ذلك إطراء غير واعٍ من هؤلاء الفلاسفة لقيمة الصدق التي ستقلب سحرهم عليهم إلى يوم الدينونة.

وبعد أن أثنى مستر (تشستر) على مؤلِّفه المفضَّل كما أسلفنا القول تناول الكتاب ثانية في مزيد إعجابه به، وكان يهيِّئ نفسه لمتابعة استكشاف أخلاقياته الرفيعة، وإذا بجلبة على الباب الخارجي تزعجه، بدا أنَّ سببها محاولات خادمه أن يمنع دخول زائرٍ غير مرحَّب به.

قال رافعًا حاجبيه في تعبيرٍ كسولٍ عن الدهشة كما لو كانت الجلبة في الشارع ولا علاقة له بها من قريب أو بعيد:

«إنه لوقت متأخر بالنسبة إلى دائن مزعج. بعد وقتهم المعتاد بكثيرٍ. أظنها الذريعة المعتادة. لا ريب أنَّه مضطرٌّ إلى دفع مبلغٍ ثقيل غدًا. يا للمسكين، يفقد الوقت، والوقت هو المال كما يقول المثل الجيد، رغم أني لم أتحقَّق من صدقه أبدًا. حسنًا، ماذا الآن؟ تعرف أنني لست في البيت».

ردَّ الخادم الذي لم يكن أقلّ برودًا ولا مبالاة من سيده: «سيّدي، لقد أحضر رجل سوط الركوب الذي ضاع منك ذاك النهار، أخبرته بأنك خارج البيت، لكنه قال إنه سينتظر بينما أدخل السوط إلى الداخل، وإنه لن يذهب قبل أن أفعل».

ردَّ سيده: «لقد كان على حقٍّ تمامًا، وأنت غبيٌّ تفتقر إلى أدنى درجات الفطنة. أخبره بأن يدخل، واحرص على ألَّا يمسح حذاءه لأقل من خمس دقائق قبل أن يدخل».

وضع الرجل السوط على مقعدٍ وانسحب. أما سيده الذي سمع فقط وقع أقدامه على الأرض ولم يكلِّف نفسه أن يستدير وينظر إليه فقد أغلق كتابه وتابع مجددًا حبل الأفكار الذي قطعه دخول الخادم.

قال وهو يعالج صندوق سعوطه: «لو أن الوقت يساوي المال، فأنا مستعدٌّ لمساومة دائنيّ بأن أسدِّد لهم –همم، دعني أرى– كم من الوقت في اليوم؟ هناك قيلولتي بعد العشاء، ساعة، مرحبًا بهم فيها، فليتصرَّفوا فيها كيفما يحلو لهم. في الصباح بين إفطاري والجريدة أستطيع أن أدَّخر لهم ساعة أخرى، ولنقل في المساء قبل العشاء ساعة ثالثة. ثلاث ساعات في اليوم. بإمكانهم أن يسددوا لأنفسهم خلال الزيارات، مع الفائدة، على اثني عشر شهرًا. أظنني سأقترح عليهم الأمر. آه، قنطوري، أأنت هنا؟».

ردَّ (هيو) وهو يخطو إلى الداخل يتبعه كلبٌ فظٌّ عابس مثله: «ها أنذا، وقد تكبَّدت ما يكفي من المتاعب لأصل إلى هنا. لماذا طلبت مني أن آتي إلى هنا وأبقيتني أنتظر في الخارج بعد أن جئت؟».

قال (تشستر) رافعًا رأسه قليلًا عن الوسادة ليمسحه بنظره من رأسه إلى قدميه في لا مبالاة: «صديقي الطيب، أنا مسرور لرؤيتك، ومسرور لأني أملك بوجودك هنا الآن أفضل ما يثبت أني لم أبقك منتظرًا بالخارج، كيف حالك؟».

قال (هيو) بنفاد صبرٍ: «أنا في حال جيدة بما يكفي».

«تبدو في صحة موفورة حقًّا، اجلس».

قال (هيو): «أفضِّل أن أقف».

ردَّ مستر (تشستر) وهو ينهض خالعًا ببطء المعطف الفضفاض الذي يرتديه ليجلس إلى مرآة التسريحة:

«كما تشاء يا صديقي الطيب، كن على راحتك بأقصى ما تستطيع».

وإذ قال ذلك في لهجة بالغة التأدُّب واللطف، واصل التزيُّن ولم يلتفت من بعد أدنى التفات إلى ضيفه الذي ظل واقفًا في مكانه غير متأكد ممّا ينبغي له فعله، يرمق (تشستر) بنظرة فظَّة بين الفينة والفينة. ثم قال (هيو) بعد صمتٍ طويلٍ:

«هل ستتحدث إليَّ يا سيدي؟».

ردَّ مستر (تشستر): «أيُّها المخلوق الثمين، أنت مضطرب بعض الشيء ومعتلّ المزاج. سأنتظر إلى أن تستردَّ روحك، أنا لستُ في عجلة من أمري».

وكان لهذا السلوك أثره المراد، فقد أخجل الرجل وأخضعه وزاد حيرته وارتباكه، فقد كان (هيو) قادرًا على ردِّ الإساءة بالإساءة، ومكافأة العنف بعنفٍ يفوقه، أما هذا الاستقبال الهادئ الوادع المزدري الواثق بنفسه فقد جعله يشعر بوضاعته بطريقة أتم من أكثر الحجاجات تنميقًا. وقد أسهم كل شيء في خلق هذا الأثر؛ حديثه الفظّ مقابل لهجة الآخر اللطيفة المقنعة، وأسلوبه الوقح مقابل أسلوب مستر (تشستر) المهذَّب، وفوضى لباسه الخلق المهمل مقابل الأزياء الأنيقة التي رآها أمامه، إضافةً إلى ما تعجُّ به الغرفة من رفاهيات ونِعَم لا قبل له بها، والصمت الذي منحه فسحة من الوقت ليلاحظ كلَّ هذه الأشياء ويشعر إلى أيّ مدى أربكته، تضافرت هذه التأثيرات التي تؤتي غالبًا بعض الأثر على العقول المهذبة وتتحوَّل إلى قوة لا تقاوم حين تسلّط على عقلية كعقليته، تضافرت لتسكت (هيو) تمامًا. أخذ يقترب قليلًا قليلًا من مقعد مستر (تشستر)، وبعد أن استرق النظر إلى انعكاس وجهه في المرآة كما لو كان يبحث عن بعض التشجيع فيما يرتسم عليه من تعبير، قال أخيرًا، في محاولة فظَّة لإخراج كلامه وادعًا:

«هل ستتحدث إليَّ يا سيدي أم أنه ينبغي لي أن أغادر؟».

قال مستر (تشستر): «تكلَّم أنت. تكلَّم أنت يا صديقي الطيب، لقد تكلّمت أنا، أليس كذلك؟ والآن أنتظرك».

ردَّ (هيو) في مزيد حيرة: «إذن انظر يا سيدي، ألستُ أنا الرجل الذي تركتَ معه سوطك في السر حين ركبت مغادرًا (مايپول) وأخبرته بأن يحضره إليك متى أراد أن يراك في أمرٍ ما؟».

قال مستر (تشستر) رامقًا انعكاس وجهه القلق: «بالتأكيد هو أنت، إلا إن كان لك أخ توأم، وهو أمر غير محتمل حسبما أرى».

قال (هيو): «إذن فقد أتيت يا سيدي وأحضرته إليك ومعه شيء آخر، رسالة يا سيدي أخذتها من حاملها».

وبينما يتكلم وضع على التسريحة رسالة (دلّي) المفقودة، نفس الرسالة التي سبَّبت لها الكثير من المتاعب. قال مستر (تشستر) ناظرًا إليها دون أدنى دهشة أو سرور يمكن ملاحظتهما:

«هل أخذت هذه بالقوة يا صديقي الطيب؟».

قال (هيو): «ليس تمامًا، جزئيًّا».

«من كان حامل الرسالة الذي أخذتها منه؟».

«امرأة. ابنة (ڤاردن)».

قال مستر (تشستر) في مرحٍ: «أوه، حقًّا! ماذا أخذت غير ذلك منها؟».

«ماذا غير ذلك؟».

ردَّ الآخر وهو يمطُّ حروفَه إذ كان يثبِّت لصقة طبية صغيرة جدًّا على بثرة صغيرة قُرب ركن فمِه: «أجل، ماذا غير ذلك؟».

ردَّ (هيو) بعد أن تردَّد قليلًا: «حسنًا، قبلة».

«وماذا أيضًا؟».

«لا شيء».

قال مستر (تشستر) بنفس اللهجة الناعمة وهو يبتسم مرتين أو ثلاثًا ليختبر اللصقة: «أعتقد، أعتقد أنك أخذت شيئًا آخر. لقد سمعتهم يتحدثون عن شيء من المصوغات، شيء بسيط، شيء قليل القيمة بالفعل

حتى إنك ربَّما تكون قد نسيته، هل تذكر شيئًا من هذا القبيل؟ كسوار مثلًا؟».

دفع (هيو) يده في صدره وهو يغمغم بقسمٍ ما ليخرج السِّوار ملفوفًا بقطعة من القشِّ، وكان على وشك أن يضعه على المنضدة هو الآخر، لولا أنَّ راعيه أوقف يده وأشار إليه بأن يضعه في صدره مجددًا، وقال:

«لقد أخذت هذا لنفسك يا صديقي الممتاز، ولك أن تحتفظ به. أنا لستُ لصًّا ولا أتعامل في المسروقات، لا ترني إيّاه. يحسن بك أن تخفيه ثانية على الفور، ولا تدعني أرى أين تخبئه كذلك»، قالها وهو يدير رأسه بعيدًا.

ردَّ (هيو) بعنفٍ رغم ازدياد المهابة التي كان يستشعرها إزاء (تشستر): «لا تتعامل في المسروقات! ماذا تسمِّي هذا إذن يا سيدي؟».

قالها وهو يضرب الرسالة بيده الثقيلة، فردَّ مستر (تشستر) في هدوء: «أسمّي هذا شيئًا مختلفًا تمامًا، سأثبت ذلك حالًا كما سترى، أظنُّك عطشان، أليس كذلك؟».

مسح (هيو) شفتيه بكمِّه وأجاب بفظاظة: «نعم».

«اذهب إلى تلك الخزانة وأحضر لي زجاجة ستراها هناك، وكوبًا».

أطاع الأمر بينما راعيه يتابعه بعينيه، وحين أدار ظهره ابتسم (تشستر) كما لم يفعل حين كان (هيو) واقفًا إلى جوار المرآة، وحين عاد ملأ له الكوب وأذن له بالشراب. ولمَّا أتى (هيو) على هذه الجرعة صبَّ له كأسًا ثانية وثالثة.

قال (تشستر) وهو يملأ الكأس مجدّدًا: «كم كأسًا تستطيع أن تتحمَّل؟».

ردَّ (هيو) وهو يلقي بالجرعة في جوفه عبر زوره المشعر: «عدد ما تحب أن تعطيني. صبّ، املأ الكأس إلى حافته، كأس مترعة ذات قطرة في منتصفها! أعطني ما يكفيني من هذا، وسأقتل إن أمرتني بذلك».

قال مستر (تشستر) برصانة عظيمة: «حيث إنني لا أنوي أن آمرك بذلك، وحيث إنَّك ربما فعلته من تلقاء نفسك إن مضيت تشرب أكثر مما شربت، فسنتوقف عند الكأس التالية إن لم يكن لديك مانع يا صديقي الطيب، لقد كنت تشرب قبل أن تأتي إلى هنا».

صاح (هيو) في صخبٍ وهو يلوِّح بالكأس الفارغة عاليًا ويرمي بنفسه في وضع راقص بذيء: «أنا دائمًا أشرب ما استطعت إلى الشراب سبيلًا، دائمًا، ولماذا لا أفعل؟ هاهاها! أيّ شيء أحبّ إليَّ من الشراب؟ أيُّ شيء كان أحبّ إليَّ؟ هل دفع عني غيره برد الليالي القارس والجوع وأنا أتضوَّر جوعًا؟ هل منحني غيره قوة وشجاعة الرجال حين كان يحلو للرجال أن يتركوني أموت طفلًا سقيمًا؟ لم يكن لصدري أن يضمَّ قلب رجلٍ لولا الشراب. لولاه لكنتُ قد متُّ شهيد الجوع والبرد. من هوَّن عليَّ وسلَّاني وأنا مريضٌ ضعيفٌ تعس بساقين مرتعشتين وبصر معتلٍّ غير الشراب؟ لم أعرف أحدًا سواه فعل ذلك، إنني أشرب نخب الشراب يا سيدي. هاهاها!».

قال مستر (تشستر) وهو يرتدي ربطة عنقه في مزيد تأنٍّ ويحرك رأسه قليلًا من جانبٍ إلى آخر ليطمئنَّ إلى وضع ذقنه في مكانه الصحيح: «يا لك من شاب مرح، رفيق مبارك حقًّا».

قال (هيو) وهو يعرِّي ساعده المفتول إلى المرفق: «أترى هذه اليد يا سيدي؟ وهذه الذراع؟ لقد كانتا يومًا جلدًا على عظم، وكادتا تكونان ترابًا في مقبرة كنيسة للفقراء في ذلك الوقت، لولا الشراب».

قال مستر (تشستر): «تستطيع أن تغطّيهما، الأمر واضح من دون أن تشمِّر».

صاح (هيو): «ولولا الشراب لما تشجَّعت وأخذت قبلة من الحسناء الصغيرة المغرورة يا سيدي. هاهاها! كانت قبلة جيدة. حلوة كزهر العسل وحياتك! الفضل فيها للشراب. سأشرب نخب الشراب ثانية يا سيدي. صبّ لي كأسًا أخرى، هيًّا، كأسًا أخرى!».

قال راعيه وهو يرتدي صدريَّته في مزيد تأنُّق غير ملتفت إلى طلبه: «يا لك من صديقٍ واعدٍ، حتى إنني أجد نفسي مضطرًّا إلى تحذيرك من الاستسلام لدوافع الشراب وإلَّا فستجد نفسك مشنوقًا قبل أوانك. ما عمرك؟».

«لا أدري».

قال مستر (تشستر): «أيًّا ما كان، فأنت شابٌّ بما يكفي للهرب مما أسمِّيه الموت الطبيعي لعديد من الأعوام المقبلة. كيف تطمئن لوجودك بين يديّ على قِصر معرفة أحدنا بالآخر، وفي رقبتك حبل مشنقة؟ يا لحسن ظنِّكَ بالنّاس!».

تراجع (هيو) خطوة أو اثنتين ورمقه بنظرة يمتزج فيها الرعب بالدهشة والحنق. وما لبث راعيه أن تأمل صورة نفسه في المرآة برضًا عن النفس وأخذ يتكلَّم في نعومة كما لو كان يلوك حديثًا مبهجًا من أحاديث المدينة:

«السطو على العابرين في طرق الملك الرئيسة يا صديقي الشاب عملٌ بالغ الخطورة والحساسية. هو مبهجٌ –ليس لديَّ شكٌّ في ذلك– طالما دام، لكنه ككثيرٍ من المباهج في هذا العالم المؤقت نادرًا ما يدوم طويلًا. ولو أنَّك في سذاجة شبابك فتحت قلبك هكذا ببساطة لأيّ إنسان وحدَّثته عن هذا الأمر ، فأنا حقيقة أخشى أن يكون نشاطك هذا قصير الأجل للغاية».

قال (هيو): «كيف ذاك؟ عمَّ تتحدَّث يا سيدي؟ من جعلني أفعل ذلك؟».

قال مستر (تشستر) مستديرًا إليه في حدَّة لينظر إليه في مواجهة كاملة لأول مرة: «من؟ لم أسمعك، من ماذا؟».

ارتبك (هيو) وغمغم بشيء غير مسموع، فأردف مستر (تشستر) في لطفٍ بالغٍ:

«من كان ذلك؟ كلّي فضول أن أعرف. ربَّما هي ريفية جميلة؟ لكن احذر يا صديقي الطيب، لا ينبغي لك أن تؤمن لهنَّ دائمًا، خذ نصيحتي الآن وانتبه لنفسك».

بهذه الكلمات استدار مواجهًا المرآة مجددًا وتابع زينته. كان (هيو) ينوي أن يقول إنه هو نفسه –سائله هذا السؤال– هو من جعله يفعل ذلك، لكنَّ الكلمات وقفت في حلقه. كانت الطريقة البارعة التي قاده بها راعيه إلى هذه النقطة وأدار بها الحوار كله قد أربكته تمامًا. لم يشكّ لحظةً في أنه لو كان قد تفوَّه بالرد الذي كان على شفتيه حين استدار مستر (تشستر) وسأله بذلك الحرص لكان هذا الأخير قد سلَّمه للسجن على الفور ليُجرَّ وأمامه المسروقات أمام القضاة، وفي تلك الحالة لم يكن من شكٍّ في مآله إلى الشنق. هكذا ظفر رجل العالم بغرضه المتمثِّل في الصعود

على حساب هذا المتوحِّش الذي لم يكن إلَّا أداة. كان خضوع (هيو) كاملًا. كان يخشى (تشستر) إلى درجة لا تعبِّر عنها الكلمات، ويشعر أنَّ المصادفة والمكر قد نسجا شبكة حوله، بإمكان لمسة من يد خبيرٍ مثله أن تجعلها تربطه على الفور بالمشنقة.

بهذه الأفكار تعتمل في ذهنه، والدهشة تأكله في الوقت ذاته من كونه قد أتى إلى هنا يصخب واثقًا في هذا الرجل مطمئنًّا إليه، ثم انتهى به الأمر خاضعًا تمامًا في وقتٍ قليلٍ، وقف (هيو) منكمشًا على ذاته أمام (تشستر)، يسترق نظراتٍ قلقة إليه بين الفينة والفينة بينما ينهي تزيُّنه. وحين انتهى من زينته أخذ الرسالة وفضَّ ختمها ثم استرخى في مقعده ليقرأها على مهلٍ.

«كلمات بليغة حقًّا! رسالة امرأة حتى النخاع، مفعمة بما يسمِّيه الناس الحنان والتجرُّد والقلب وما إلى ذلك!».

وبينا يتكلم طوى الرسالة ثمّ وضعها في لهب الشمعة وهو يرمق (هيو) بنظرة كسولٍ كما لو كان سيقول «أترى هذا؟» وحين اشتعلت بالكامل ألقاها في المدفأة لتحترق عن آخرها، ثمّ ما لبث أن قال مستديرًا إلى (هيو):

«كانت موجَّهة إلى ابني، وقد أصبت تمامًا إذ أحضرتها إلى هنا. فتحتها على مسؤوليتي، وقد رأيت ما فعلت بها، خذ هذا مقابل تعبك».

خطا (هيو) خطوةً إلى الأمام ليتلقَّى قطعة النقود التي مدَّ إليه يده بها. وبينا يضعها في يده أضاف:

«إذا ما ألقت المصادفة في طريقك أيَّ شيء على هذه الشاكلة أو نما إلى علمك أي خبر تظن أنه ربما يهمُّني، أحضره إلى هنا، هل ستفعل ذلك يا صديقي الطيب؟».

قيل ذلك بابتسامة أوحت -أو ظنَّ (هيو) أنها أوحت- بأنه يقول ضمنًا: «تكاسل عن تنفيذ ذلك الأمر وسترى ما أفعله بك!» فأجاب (هيو) بأنه سيفعل ما طلب منه.

قال راعيه بلهجة موحية بأطيب رعاية: «ولا تلق بالًا أبدًا ولا تقلق بشأن ذلك التهور الصغير الذي تحدثنا عنه، أؤكّد لك أنَّ رقبتك آمنة في يدي يا صديقي الطيب كما لو كانت أصابع رضيع تلتفُّ حولها. خذ كأسًا أخرى، أنت الآن أهدأ».

قبلها (هيو) من يده، وجرعها صامتًا وهو يسترق النظر إلى وجهه المبتسم، فقال مستر (تشستر) بأكثر أساليبه جاذبية:

«ألا .. هاها! ألا تشرب نخب الشراب مجددًا؟».

جاءته الإجابة عابسة يصحبها شيء قريب من الانحناءة: «نخبك يا سيدي، أشرب نخبك».

«شكرًا، فليباركَّ الرب. بالمناسبة، ما اسمك يا ذا الروح الطيبة؟ اسمك (هيو)، أعرف بالطبع، أعني اسمك الآخر؟»

«ليس لديَّ اسم آخر».

«شخص غريب جدًّا! أتعني أنك لم تعرف لنفسك اسمًا ثانيًا أبدًا أم أنك لا تحب أن تقوله؟ أيُّهما؟».

أجاب (هيو) في سرعة: «كان يطيب لي أن أقوله إن استطعت، لا أستطيع. لقد طالما دعيت (هيو) فحسب. لم أعرف لي أبًا أبدًا ولم أره ولم أفكِّر به، وقد كنتُ صبيًّا في السادسة -صغيرًا ما زلت- حين شنقوا أمي في (تايبرن) على أعين ألفين من الناس، لم يكن يضيرهم أن يتركوها تعيش، كانت فقيرة بما يكفي».

صاح راعيه بابتسامة متعطِّفة: «يا له من شيء حزين! ليس لديَّ شكٌّ في أنها قد كانت امرأة جيدة جدًّا».

قال (هيو) بغتة: «أترى ذلك الكلب الذي هو أنا؟».

ردَّ راعيه ناظرًا إليه عبر مرآته: «وفيّ كما أظن؟ وذكي للغاية؟ الحيوانات الفاضلة الموهوبة، سواء منها البشرية أو العجماء، تبدو دائمًا قبيحة جدًّا».

قال (هيو): «كلب كهذا من نفس الفصيلة كان الشيء الوحيد الحي الذي نبح في ذلك اليوم. من بين الألفين وأكثر –إذ كان هناك زحام أكبر لكونها امرأة– لم يشفق عليها إلَّا الكلب وأنا. لو كان إنسانًا لكان يسرُّه أن يتخلَّص منها، فقد كانت مضطرة إلى إبقائه هزيلًا طاويًا، لكنَّ كونه كلبًا وافتقاره إلى عقل الإنسان جعلاه حزينًا لأجلها».

قال مستر (تشستر): «كان ذلك كئيبًا من هذا الحيوان بالتأكيد، ومناسبًا لكونه حيوانًا».

لم يحر (هيو) جوابًا، لكنَّه صفَّر لكلبه الذي قفز إذ سمع الصوت وجاء يتقافز ويلهو حوله، وتمنَّى ليلة طيبة لصديقه المتعاطف معه.

ردَّ (تشستر): «طابت ليلتك. تذكَّر، أنت في أمانٍ معي، في أمان تامٍّ. طالما أنك تستحقُّ هذا الأمان يا صديقي الطيب كما أتمنى أن تظلَّ مستحقًّا له دائمًا، فأنا صديق لك، تستطيع أن تعتمد على كتمانه. والآن انتبه لنفسك رجاءً، وفكِّر في الخطر الذي عرَّضت نفسك له، طابت ليلتك! بوركت!».

شعر (هيو) بالضّعة أمام المعنى المخبوء في هذه الكلمات كما ينبغي لمثله أن يشعر، وانسلَّ خارجًا من الباب في خضوع وذلَّة، في هيئة جدٍّ

مختلفة عن تلك التي دخل بها، حتى إنَّ راعيه حين خلا إلى نفسه اتسعت ابتسامته أكثر من ذي قبل، وما لبث أن قال وهو يأخذ مسحة سعوط:

«ومع ذلك فأنا لا يعجبني أنهم قد شنقوا أمَّه. إنَّ له عينين جميلتين، وأنا واثقٌ أنها كانت جميلة، لكنَّها غالبًا كانت فظَّة. حمراء الأنف خرقاء القدمين. نعم، كان ما حدث هو الأفضل بلا شكٍّ».

بهذا التأمُّل المواسي ارتدى معطفه ورمق انعكاسه في المرآة بنظرة وداعٍ واستدعى خادمه الذي حضر على الفور، وخلفه عربة وحاملاها، فقال مستر (تشستر):

«ياه! إنَّ محض أنفاس ذلك القنطور تبدو ملوَّثةً بالعربة والسُّلَّم. هنا يا (بيك). انضح الأرضية ببعض العطر، وخذ المقعد الذي جلس عليه بعيدًا وهوّه، وارم عليَّ قليلًا من هذا المزيج، فإنني أكاد أختنق!».

أطاع الخادم الأوامر، وبعد أن طهَّرت الغرفة وسيدها، لم يبق أمام مستر (تشستر) إلَّا أن يطلب قبَّعته ويطويها تحت إبطه في رقة، ثمَّ يأخذ مقعده في العربة ليحمل إلى الخارج وهو يدندن لحنًا عصريًّا.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

كيف قضى السيد المهذِّب المساء وسط رفقة ممتازة مدهشة، وكيف سحر كلَّ من اختلط بهم بسلوكه وتهذيب أسلوبه وحيوية حديثه وحلاوة صوته، وكيف لوحظ في أربعة أركان المكان أنَّ (تشستر) كان رجلًا من أصحاب المزاج السعيد الذي لا يجنح به شيء إلى الاضطراب، وأنَّ هموم العالم وأخطاءه لم تكن لتثقله إلَّا كثقل ملابسه عليه، وأنَّ ذهنه الهادئ الصافي ينعكس دائمًا على صفحة وجهه الباسم، وكيف أنَّ الشرفاء الذين عرفوه بفطرتهم أكثر من غيرهم كانوا ينحنون أمامه وينصاعون لكلِّ كلمة يفوه بها ويتسابقون للفوز بالتفاتة منه، وكيف أنَّ الناس الذين كان بهم الخير حقًّا مشوا مع التيار فتملَّقوا ونافقوا واستحسنوا، واحتقروا أنفسهم وهم مكبُّون على هذه الأمور، ولم يكن لديهم من الشجاعة ما يكفي لأن يقاوموا رغم ذلك، وباختصارٍ، كيف كان واحدًا ممَّن يتلقَّاهم ويعليهم في المجتمع -كما يقال- جموع من الناس ينفر كلٌّ منهم على حدة من ذلك الموضوع المشترك لاهتمامهم المسرف، كل هذه الأمور تقترح نفسها بالطبع، مثل هذه الأمور الشائعة لا تحتاج إلى أكثر من نظرة عابرة ليُنتهَى منها.

ينقسم محتقرو الإنسانية -إذا ما نحَّينا جانبًا الحمقى ومقلِّدي المحتقرين الحقيقيين- إلى نوعين، فأولهما من يعتقدون أن مؤهِّلاتهم لا يُلتفت إليها ولا تُقدَّر. وثانيهما من يتزلَّف إليهم ويداهنون وهم يعرفون افتقار أنفسهم إلى أي قيمة. ولنكن على يقينٍ من أنَّ أقسى كارهي البشرية ينتمون دائمًا إلى ذلك النوع الثاني.

جلس مستر (تشستر) في فراشه في الصباح التالي يرتشف قهوته ويتذكر بنوعٍ من الرضى المفعم بالاحتقار كيف سطع نجمه الليلة الماضية وكيف خطب ودَّه ولوطف، وإذا خادمه يحضر إليه قطعة صغيرة جدًّا من ورقة متَّسخة مختومة بإحكامٍ في موضعين، منقوش عليها من الداخل بحروفٍ كبيرة جميلة هذه الكلمات: «صديق، يرجو لقاء، عاجل. خاصّ. أحرقها إذا ما انتهيت من قراءتها».

قال السيد: «أين وجدت هذه بحق مؤامرة البارود؟!»(١).

ردَّ الرجل قائلًا إنَّ شخصًا ينتظر بالباب قد أعطاه إيَّاها.

قال مستر (تشستر): «بعباءة وخنجر؟».

يبدو أنه لم يكن من شيء مهدَّد في هيئة ذلك الرجل بخلاف مريلة جلدية ووجه متَّسخ.

«دعه يدخل».

دخل الزائر، كان مستر (تاپرتت)، وشعره ما زال واقفًا، وفي يده قفلٌ

(١) مؤامرة البارود Gunpowder Plot مؤامرة فاشلة لبعض الإنـكليز الكاثوليك سنة ١٦٠٥ لاغتيال الملك (چيمس الأول) وإعادة الملكيّة الكاثوليكية إلى إنگلترا بعد عقود من العنف تجاه الكاثوليك.

كبيرٌ، وضعه على الأرض في منتصف الغرفة كما لو كان على وشك القيام بعرض ما، يفترض وجود هذا القفل لاكتماله. قال بانحناءة كبيرة: «سيدي، أشكرك لتنازلك، وأنا مسرور لمقابلتك. اعذر المهنة الوضيعة التي أمتهنها يا سيدي، واشمل بعطفك إنسانًا مسكينًا كما تشي بذلك هيئته، تعتمل في صدره مشاعر أعلى بكثيرٍ من منزلته».

أزاح مستر (تشستر) ستار الفراش إلى الخلف، ونظر إليه بانطباعٍ غامضٍ مفاده أنّه مجنونٌ لم يكسر فحسب باب معتقله، لكنه أخذ معه القفل. انحنى مستر (تاپرتت) ثانية وعرض ساقيه كأفضل ما يكون، ثم قال واضعًا يده على صدره:

«هل سمعت يا سيدي بـ(غ. ڤاردن) صانع الأقفال واختصاصي الأجراس، من إصلاحاته منفَّذة على أتمِّ ما يكون في المدينة والريف، في كلركنول، لندن؟».

سأل مستر (تشستر): «ماذا إذن؟».

«أنا صبيُّه يا سيدي».

«ثمّ ماذا؟».

قال مستر (تاپرتت): «إحم! أتأذن لي في إغلاق الباب يا سيدي، وتعطيني كلمتك الغالية أنَّ ما يدور بيننا لن يخرج إلى غيرنا أبدًا؟».

اضطجع مستر (تشستر) في فراشه مجددًا في هدوءٍ، وأدار إلى الشبح الغريب الماثل أمامه وجهًا رابط الجأش تمامًا، بينما كان هذا الشبح قد أغلق الباب، فرجاه أن ينطق بما يريد، وأن يكون عاقلًا بقدر الإمكان من دون أن يضغط على نفسه.

قال مستر (تاپرتت) وهو يخرج منديل جيب صغيرًا وينفض طيّاته: «قبل كل شيء يا سيدي، حيث إنني ليست لديَّ بطاقة تعريف (حيث إنَّ حقد السادة يضعنا تحت هذا المستوى)، فاسمح لي أن أقدِّم أفضل بديل تسمح به الظروف. إذا أخذت هذا في يدك يا سيدي، ونظرت إلى الركن الأيمن» قال ذلك وهو يقدِّم المنديل في تهذيبٍ: «فسترى هويَّتي».

ردَّ مستر (تشستر) قابلًا المنديل في أدبٍ حيث أدار عينيه إلى حروف في حمرة الدم عند أحد أطراف المنديل:

«شكرًا لك. أربعة. سايمن تاپرتت. واحد. هل هذا.».

ردَّ الصبي: «دوِّن الأرقام يا سيدي، هذا هو اسمي. المقصود بها أن تكون توجيهات للغسالة، ولا علاقة لها بنفسي ولا بعائلتي. اسمك يا سيدي» أضاف (تاپرتت) وهو يدقِّق النظر إلى قلنسوة نومه: «هو (تشستر) كما أظن؟ لست بحاجة إلى خلعها يا سيدي، شكرًا لك. أستطيع ملاحظة (أ. ت) من هنا. وسنعتبر الباقي مفروغًا منه».

قال مستر (تشستر): «رجاءً يا مستر (تاپرتت). ألهذه القطعة المعقَّدة من الحدادة التي شرَّفتني بإحضارها معك علاقة مباشرة بالأمر الذي سنناقشه؟».

ردَّ الصبيّ: «ليست لها علاقة يا سيدي، المفروض أن تثبَّت على باب مخزن في شارع التّامز».

قال مستر (تشستر): «ما دام هذه هي الحال، ولأنَّ لها نكهة زيت أقوى مما أعطِّر به غرفة نومي عادة، فربما ستسدي إليَّ معروفًا وتضعها خارج الباب؟».

قال مستر (تاپرتت) موافقًا الفعل بالكلمة: «بالطبع يا سيدي».

«ستعذرني لأني طلبت هذا الطلب؟».

«أرجوك لا تعتذر يا سيدي. والآن إذا سمحت، إلى المهم».

طيلة هذا الحوار لم تظهر على وجه مستر (تشستر) إلا ابتسامته التي لا يتغيَّر هدوؤها وتهذيبها. أمَّا (سم تاپرتت) الذي لم يكن رأيه العالي في نفسه يسمح له بأن يشتبه في أنَّ أحدًا يمكن أن يلعب به، فقد فكر أنَّ ما يلقاه هنا شيء قريب من الاحترام الذي يستحقَّه، وقارن بين هذا السلوك المجامل من هذا الغريب وبين صانع الأقفال الفاضل لترجح لديه كفَّة الغريب تمامًا.

قال مستر (تاپرتت): «مما يحدث في منزلنا، عرفت أنَّ ابنك يرافق سيدة شابة على خلاف ما تراه له، وقد أساء ابنك إليَّ يا سيدي».

قال الآخر: «مستر (تاپرتت)، إنَّ هذا يحزنني حزنًا بالغًا».

ردَّ الصبيّ: «شكرًا سيدي. أنا مسرورٌ لسماعك تقول ذلك. إنه متكبِّر جدًّا يا سيدي، ابنك هذا متعجرف جدًّا».

قال مستر (تشستر): «أخشى أنه بالفعل متعجرفٌ. أتعرف أنني كنت أخشى ذلك من قبل وقد أكّدت الآن لي مخاوفي؟».

قال مستر (تاپرتت): «لو حكيت عن الأعمال الوضيعة التي كان عليَّ أن أنجزها لابنك يا سيدي، المقاعد التي كان عليَّ أن أسلِّمها له، والعربات التي كان عليَّ أن أناديها لأجله، والواجبات الكثيرة المهينة التي كان عليَّ أن أقوم بها لخاطره مما لا علاقة له البتّة بمثاقبي وعملي، لملأت

كتابًا مقدَّسًا لعائلة[١]. وإلى ذلك يا سيدي، فهو ليس إلاّ شابًّا، وأنا لا أعتبر عبارة «شكرًا يا (سم)» مناسبةً للتخاطب بيننا».

«مستر (تاپرتت)، إنَّ حكمتك تفوق عمرك، رجاءً واصل حديثك».

قال (سم) في مزيد امتنانٍ: «أشكرك لرأيك الطيب يا سيّدي، وسأحاول أن أواصل. والآن يا سيدي، لهذا السبب (وربما لسبب آخر أو اثنين لست مضطرًّا إلى الخوض فيهما) فأنا في جانبك. وما أخبرك به هو ذلك - أنه ما دام ناسنا يروحون ويجيئون إلى هنا وهناك وإلى أعلى وأسفل إلى ذلك الخان المرح القديم (مايپول)، يحملون الرسائل الشفهية والخطية ويحضرونها، فلن تستطيع أن تمنع ابنك من مرافقة تلك السيدة الشابة بالإنابة، حتى ولو عيَّنت عليه رقباء من حرس الفرسان ليل نهار في كامل ملابسهم الرسمية».

توقَّف مستر (تاپرتت) حينذاك ليلتقط أنفاسه، ثمَّ بدأ من جديدٍ:

«والآن يا سيدي، أصل إلى النقطة المهمة. ستسألني «كيف السبيل إلى منع ذلك؟» وسأخبرك كيف. لو أنَّ سيدًا شريفًا مهذَّبًا مبتسمًا مثلك.».

«مستر (تاپرتت)، حقًّا.».

قاطعه الصبي: «لا لا. أنا جادٌّ. أقسم أني جادٌّ. لو أنَّ سيّدًا شريفًا مهذَّبًا

---

(١) الكتاب المقدس للعائلة Family Bible هو كتاب مقدَّس يسلِّمه جيلٌ إلى الذي يليه في عائلة مسيحية، حيث يسجِّل فيه كلُّ جيل معلومات عن تاريخ العائلة كالمواليد والوفيات والتعميدات وتثبيتها والزيجات، ففي الكتاب المقدس للعائلة قسمٌ خاصٌّ لتدوين هذه المعلومات، وقد تلحق بها صور وقصاصات من الجرائد وخطابات إلى غير ذلك، وهي موجودة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا إلى الآن، وقد كانت شائعةً بنوعٍ خاصّ في بريطانيا الفكتورية. ويوضع الكتاب عادة على مذبح المنزل حيث يستخدم بانتظام في الصلوات العائليّة كما يستخدم كمصدر في أبحاث سلاسل النسب.

مبتسمًا مثلك تكلم عشر دقائق فحسب مع سيدة منزلنا العجوز -السيدة (ڤاردن)- وأطراها بعض الشيء، فسيكسبها لصفِّه إلى الأبد، وبعد تأمين هذه النقطة، أنَّ ابنتها (دلّي).».

هنا أشرب وجه مستر (تاپرتت) حمرة الخجل، وتابع: «لا يسمح لها من ذلك الوقت فصاعدًا أن تكون رسول العاشقين، وإلى أن تؤمِّن نقطة أمها، فلن يمنعها أيّ شيء أبدًا من القيام بذلك الدور. انتبه لذلك».

«مستر (تاپرتت). إن معرفتك بالطبيعة البشرية.».

قال (سم) عاقدًا ذراعيه في هدوءٍ رهيبٍ: «انتظر دقيقة. الآن أصل إلى النقطة المهمة. سيدي، هناك وغد في ذلك الـ(مايپول)، وحش في هيئة إنسان، متشرِّد من ألعن ما يكون، إن لم تتخلَّص منه بأن يُختطَف ويُبعَد على الأقلّ -لا أقل من ذلك يمكن أن يأتي بنتيجة- فسيزوِّج ابنك إلى تلك المرأة الشابة، بكل تأكيد كما لو كان هو رئيس أساقفة (كانتربري)[1] شخصيًّا. سيفعل ذلك يا سيدي لما يحمله تجاهك من كراهية وحقدٍ، فضلًا عن متعة فعل شيء شرير، وهي بالنسبة إليه جائزة الفعل. لو علمت كيف أن هذا الشاب (چوزيف ولت) -هذا اسمه- يتردد على منزلنا متوعِّدًا مهدِّدًا شاتمًا إيّاك، وكيف أرتعد حين أسمعه، فستكرهه أكثر مما أكرهه، أكثر مما أفعل يا سيدي».

ثم أضاف (تاپرتت) في عنفٍ، موقفًا شعره على استقامته، وهو يكزُّ على أسنانه: «لو أنَّ ذلك ممكن»

---

(١) Archbishop of Canterbury القائد الأعلى لكنيسة إنكلترا، والرئيس الرمزيّ للطائفة الإنجيلية حول العالم.

«ثَمَّ انتقامٌ شخصيٌّ صغير في ذلك يا مستر (تاپرتت)؟».

ردَّ (تاپرتت): «انتقام شخصي يا سيدي أو عاطفة شعبية أو كلاهما مجتمعين، دمَّره. (مـگز) تقول ذلك هي الأخرى. (مـگز) وأنا نقول الشيء نفسه. لا نستطيع تحمُّل التآمر والتخريب الجاريين؛ روحانا لا تطيقان ذلك. في المؤامرة (بارنابي ردچ) والسيدة (ردچ) أيضًا، لكن الوغد (چوزيف ولت) هو القائد. خططهم وتدابيرهم معروفة لي ولـ(مـگز). إن أردت معلومات عنهم اسألنا. دمِّر (چوزيف ولت) يا سيدي، اسحقه وكن سعيدًا».

بانتهائه من هذه الكلمات عقد مستر (تاپرتت) ذراعيه بحيث استقرَّت راحة كل يد على الكتف المقابلة، وقد بدا أنه لا يتوقَّع ردًّا، وأنه يعتقد أن بلاغته يترتب عليها بالضرورة أنَّ مستمعه يجب أن يكون مشدوهًا تمامًا وعاجزًا عن الكلام ومغلوبًا، ثم اختفى على طريقة أولئك النّذر الغامضين الذين قرأ عنهم في كتب الحكايات الرخيصة.

قال مستر (تشستر) وهو يريح وجهه حين مضى (سم) إلى حال سبيله: «هذا الرجل يمثِّل ممارسة جيدة. إنّ لديَّ بعض التحكُّم في ملامحي بلا أدنى شكٍّ. لكنه على كلٍّ يؤكّد تمامًا ما ارتبت فيه، وأحيانًا تكون الأدوات الخشنة ذات نفع، حين تفشل الأدوات الحادَّة. أخشى أنه ربما يتعيَّن عليَّ أن أثير خرابًا كبيرًا بين هؤلاء الفضلاء. ضرورة متعبة! إنني متعاطف معهم تمامًا».

قال ذلك وسقط في إغفاءة هادئة تحوَّلت إلى نومٍ سعيدٍ لطيفٍ، تمامًا كنوم الرضَّع في المهاد.

الفصل الخامس والعشرون

لنترك الآن ذلك الذي يفضِّله العالم ويحتفي به المجتمع ويتملَّقه، ذلك الشخص الأجدر بأن يوصف بـ(رجل العالم)، الذي لم يخاطر أبدًا بالإقدام على فعلٍ لا ينتمي إلى أفعال الرجال النبلاء، ولم يُتَّهم أبدًا بفعلٍ من أفعال الرجال على إطلاقهم، لنتركه راقدًا مبتسمًا -فحتى النوم الذي لا يؤثِّر في وجهه المتظاهر إلَّا أقل تأثير يصبح معه قطعة من النفاق البارد المعتاد- ولنتبع أثر مسافرين على أقدامهما متَّجهين إلى (تشغول).

(بارنابي) وأمه. و(غرپ) معهما بالطبع. كانت الأرملة تعاني في هذه الرحلة، حيث بدا لها كل ميل مؤلم أطولَ مما قبله، بينما (بارنابي) الذي كان يطيع كلَّ نزوة تعرض له يخفق هنا وهناك، فتارة يتركها خلفه ويتقدَّم مبتعدًا عنها، وتارة يتلكَّأ وحده خلفها، ومرة يندفع في حارة جانبية أو ممرٍّ فرعيٍّ تاركًا إياها لتمضي في طريقها وحدها إلى أن يعاود الظهور خلسة مباغتًا إيَّاها بصيحات مرحة مهتاجة، منصاعًا لطبيعته النزقة الهوائية. كان حينًا يناديها من فوق أعلى فرع في شجرة باسقة على جانب الطريق، وحينًا يستخدم عصاه الطويلة كزانة قفز ليثب فوق خندق أو سور أو حاجز خماسي الألواح، وحينًا يركض في رشاقة مدهشة ميلًا أو أكثر على الطريق المستوية، ليتوقف متريِّضًا مع (غرپ) على بقعة عشبية إلى أن تصل إليهما

أمه. كانت هذه متعه، وحين كانت أمه الصبور تسمع صوته الممراح أو تنظر في وجهه المتورِّد بالصحة لم تكن لتطفئهما بكلمة أو همسة حزينة واحدة، رغم أنهما كانا مصدر معاناة بالنسبة إليها بقدر ما كانا علامة على سعادته.

والنظر إلى أمارات الاستمتاع شيءٌ جديرٌ بالاهتمام، خاصة إن كان استمتاعًا متحررًا وحشيًّا على وجه الطبيعة، حتى لو كان استمتاع إنسان أبله. وجديرٌ كذلك بالاهتمام أن يعرف المرء أن السماء قد تركت القدرة على السعادة في صدر مخلوق كهذا، وجديرٌ بالاهتمام من بعد أن يتأكد الإنسان من أنه رغم أن البشر قد يسحقون ببساطة في بعضهم البعض هذه القدرة، إلَّا أن الخالق العظيم للبشرية يمنُّ بها حتى على من يحتقر ويستهان بهم من صنيعة يده. من ذا الذي لا يسرُّه أن يرى أبله مسكينًا سعيدًا في ضوء الشمس أكثر من أن يرى إنسانًا عاقلًا ملتاعًا في ظلمات السجن؟!

أيُّها الكئيبون المتجهِّمون الذين يرسمون على وجه النعمة اللا متناهية عبوسًا سرمديًّا، اقرؤوا في الكتاب الخالد المفتوح أمام أعينكم ذلك الدرس الذي تعلّمه إياكم هذه الحقيقة. صوره ليست بالأسود والأصباغ القاتمة، وإنما بألوان مشرقة برَّاقة، وموسيقاه ليست تنهُّدات وصيحات ألم -إلَّا إن أغرقتموها بأنفسكم- وإنما أغانٍ وأصوات مبهجة. استمعوا إلى الأصوات المليون الصادحة في جو الصيف، وحاولوا أن تجدوا بينها صوتًا واحدًا له كآبتكم. تذكروا إن استطعتم الشعور بالأمل والسعادة اللتين يوقظهما كلُّ عودٍ سعيد للنهار في صدور الناس الذين لم يجوروا على طبيعتهم، وتعلَّموا بعض الحكمة حتى من الحمقى الذين تنتعش قلوبهم ولا يدرون لماذا، حين يأتي النهار وفي إهابه المرح والسعادة.

كان صدر الأرملة مفعمًا بالهمِّ، مثقلًا بالخوف الخفيِّ والحزن، لكنَّ سرور قلب ابنها أسعدها، وخفَّف وطأة الرحلة الطويلة. كان أحيانًا يطلب منها أن تستند إلى ذراعه، ويبقى إلى جوارها في ثباتٍ لمسافة قصيرة، غير أنَّ الأقرب إلى طبيعته كان أن يجول هنا وهناك، ولم تكن هي تؤثر شيئًا على أن تراه حرًّا سعيدًا، ولا حتى أن يبقى إلى جوارها، وذلك أنها كانت تحبه فوق ما كانت تحب نفسها.

كانت قد خرجت من المكان الذي يقصدانه مباشرة بعد وقوع ذلك الحدث الذي غيَّر وجودها كلَّه، ولم تواتها الشجاعة لتزوره لاثنين وعشرين عامًا. كان هذا المكان قريتها التي ولدت فيها. ما أكثر الذكريات التي ازدحمت في ذهنها حين لاحت هذه القرية في الأفق!

اثنان وعشرون عامًا. حياة ابنها بالكامل وتاريخه. في آخر مرة نظرت وراءها إلى هذه الأسطح بين الأشجار كانت تحمله رضيعًا بين ذراعيها. كم مرة في الليل والنهار جلست بجانبه مذ ذاك، تفتّش عن فجر العقل الذي لم يلح أبدًا، وكم خشيت وارتابت وتمنَّت، من بعد أن فرض اليقين نفسه عليها بزمان! إنَّ الخطط الصغيرة التي احتالت بها لتجرّبه، والأمارات الصغيرة التي أظهرها بطريقته الطفليَّة -لا على البلادة بل على شيء أسوأ بكثيرٍ، مروّع، لا علاقة لدهائه بالطّفولة- عادت جميعًا بصورها الحية إلى ذاكرتها، كما لو كان ما حدث قد حدث أول أمس. عادت الغرفة التي اعتادا المكث فيها، والبقعة التي كانت تحمل مهده. وبينا هو الآن شابٌّ ذو وجه عفريتي -لكنَّه حبيب إليها كما كان- يحملق إليها بنظرة مستثارة خاوية ويدندن أغنية خرقاء وهي تجلس إلى جواره وتهزُّه، احتشدت تفاصيل طفولته الأولى كلها أمام عين خيالها، وربما كان أقل هذه التفاصيل أهمية أوضحها في عودته.

وطفولته المتأخِّرة كذلك، بما فيها من تخيُّلات غريبة ورعب غير مفهوم من أشياء مألوفة أضفى عليها خياله الحياة، وذلك الفزع الذي تجلَّى بطيئًا متدرِّجًا والذي ولد فيه ذكاؤه المطفأ قبل ميلاده هو، وكيف كان يواسيها ويعزِّيها رغم كل ذلك أنه لم يكن كغيره من الأطفال، فظلَّت مؤمنة بالنمو البطيء لعقله حتى أصبح رجلًا، وإذ ذاك اكتملت طفولته لتبقى. تقافزت في صدرها هذه الأفكار القديمة واحدة وراء الأخرى، تقافزت عنيفة بعد سباتها الطويل، وأمرّ من ذي قبل.

أخذت ذراعه وهرولا عبر شارع القرية. كان الشارع كما اعتادته قديمًا، لكنه كان مختلفًا كذلك وقد تغيَّرت أجواؤه. كان التغيُّر فيها هي، لا في الشارع، لكنَّ ذلك لم يخطر أبدًا ببالها، وأخذت تتعجَّب من تغيُّره، أين يكون وما هو.

كان الجميع يعرفون (بارنابي)، وقد احتشد حوله أطفال المكان، تمامًا كما كانت تفعل في طفولتها مع آبائهم وأمهاتهم حول متسوِّل أحمق. لم يعرفها أحدٌ منهم. مرَّا بالبيوت التي تتذكَّر كلًّا منها جيدًا، والأفنية والمزارع، ثم ضربا في الحقول فعادا وحيدين كما بدآ.

كان منزل (وارن) نهاية رحلتهما. كان مستر (هاردال) يمشي في الحديقة، وما لبث أن فتح البوابة الحديدية إذ بصر بهما يمرّان بها، وأمرهما أن يدخلا. قال للأرملة:

«أخيرًا استجمعت فؤادك وزرت مكانك القديم. أنا سعيد لذلك».

ردَّت: «للمرة الأولى والأخيرة يا سيدي».

«الأولى منذ سنوات عدة، لكن ليست الأخيرة».

«بل الأخيرة».

قال مستر (هاردال) ناظرًا إليها ببعض الدهشة: «أتعنين أنك بعد أن بذلت هذا الجهد مصمِّمة على ألَّا تواصليه وعازمة على النكوص؟ لا يليق بك هذا. لقد طالما قلت لك إنه ينبغي لك أن تعودي إلى هنا. أنا أعلم أنك ستكونين هنا أسعد منك في أيِّ مكان آخر. أمّا بالنسبة إلى (بارنابي) فهذا بيته».

قال (بارنابي) وهو يفتح السلة: «وبيت (غرپ)».

قفز الغراب إلى الخارج في رصانة ليحطّ على كتفه وأخذ يخاطب مستر (هاردال) صائحًا -ربما في إشارة إلى استعداده لقبول وجبة خفيفة: «(پلي) سخّني البرّاد كي نشرب الشّايا!».

قال مستر (هاردال) في طيبة وهو يشير إليها أن تمشي معه إلى المنزل: «أنصتي إليَّ يا (ماري). لقد كانت حياتك مثالًا للصبر والصمود، إلَّا فيما يتعلَّق بهذه الجزئية التي طالما آلمتني كثيرًا. يكفيني أن أعرف أنك قد حلَّت بك المصيبة القاسية التي حرمتني أخي الوحيد وحرمت (إمّا) أباها، دون أن أكون مضطرًّا إلى افتراض أنك تجمعين بيننا وبين من أوقع بنا وبك هذه المصيبة، وهو ما أفترضه أحيانًا».

صاحت: «أجمع بينك أنت وبينه يا سيدي؟!».

قال مستر (هاردال): «أظنُّ حقًّا أنك تفعلين. بل أكاد أعتقد أنه لأن زوجك كان مرتبطًا بقريبنا بالكثير من الروابط، ومات في خدمته ودفاعًا عنه، أصبحت بطريقة ما تربطين بيننا وبين مقتله».

ردّت: «واأسفاه! قليلًا ما تعرف ما بقلبي يا سيدي. ما أقل ما تعرف من الحقيقة!».

قال مستر (هاردال) مخاطبًا نفسه أكثر مما يخاطبها: «من الطبيعي أن تفعلي ذلك، ومن المحتمل جدًّا أن تفعليه دون أن تعي ذلك. نحن عائلة تصدَّعت. إنَّ المال إذا أنفقته أسخى وأثرى الأيدي فلن يكون إلَّا تعويضًا فقيرًا عمَّا عانيته، فما بالك إن كانت يدٌ كأيدينا، معوزة مغلولة، فما سيكون إلَّا مهزلة بائسة. يعلم الله أنَّ هذا ما أشعر به» ثمَّ أضاف في سرعة: «لماذا أتعجَّب إن كانت تفعل؟!».

ردَّت في جدية بالغة: «هكذا تظلمني حقًّا يا سيدي العزيز، لكن حين تسمع ما أستأذنك في قوله.».

قال وقد لاحظ تلعثمها واضطرابها: «فسأتأكد من شكوكي؟ حسنًا!».

حثَّ الخطى قليلًا، ثمَّ ما لبث أن تباطأ ليكون بجانبها وقال: «وهل قطعت كل هذه المسافة أخيرًا لتتحدثي إليَّ فحسب؟».

ردَّت: «أجل».

غمغم: «اللعنة على حالنا التعيسة، نحن الشحاذين المتكبِّرين الذين يتجنَّبنا الفقراء والأغنياء على السواء، إذ يجد الفقراء أنفسهم مضطرِّين إلى معاملتنا بالتظاهر بالاحترام البارد، ويتكبَّر الأغنياء علينا في كل فعل وقول، وكلما اقتربوا منَّا يزدادون كبرًا وعجرفة. لماذا إذن إن كان ذلك مؤلمًا لك -كما أظنُّه قد كان- كسرت لهذا الغرض سلسلة العادة التي صيغت عبر اثنين وعشرين عامًا؟ أما كان بإمكانك أن ترسلي إليَّ لتعلميني ببغيتك وتطلبي أن آتيك؟».

أجابت: «لم يكن هناك وقتٌ يا سيدي، لم أتَّخذ قراري إلَّا البارحة، وحين اتَّخذته شعرت أنَّي لا ينبغي لي أن أؤجِّله يومًا. يومًا؟! بل لا يجب أن أفقد ساعة قبل أن أتحدث إليك».

إذ ذاك كانوا قد وصلوا إلى المنزل. توقَّف مستر (هاردال) هنيهة، ونظر إليها كما لو كان يعجب لما في أسلوبها من همَّة. غير أنَّه حين لاحظ أنها لم تنتبه له وإنما نظرت إلى أعلى وهي ترتعد، إلى حيث الجدران القديمة التي ارتبطت في وعيها بتلك الفظائع، قادها عبر درج خاص إلى غرفة مكتبته حيث كانت (إمّا) جالسةً تقرأ في النافذة. وحين رأت الشابة من القادم نهضت مسرعة ووضعت كتابها جانبًا، ورحَّبت بها في دفء حقيقي مع وفرة من الكلم الطيِّب والدموع. غير أنَّ الأرملة تراجعت أمام ذراعيها المفتوحتين للعناق كما لو كانت تخافها، وسقطت مرتجفة في مقعدٍ.

قالت (إمّا) بلطفٍ: «إنها العودة إلى هذا المكان بعد هذا الغياب الطويل، رجاءً عمَّاه اقرع الجرس، أو .. لا، سيجري (بارنابي) بنفسه ويطلب النبيذ».

صاحت (ماري): «لا لا. سيكون له طعم آخر. لا أستطيع أن أمسَّه. لا أريد إلَّا الراحة دقيقة. لا شيء إلَّا هذا».

وقفت الآنسة (هاردال) جوار مقعدها، تنظر إليها بشفقة صامتة. ظلَّت لحظات ساكنة تمامًا، ثم نهضت واستدارت جهة مستر (هاردال) الذي كان قد جلس في مقعده المريح وأخذ يتأمَّلها بانتباه ثابتٍ.

وإذا أخذت الحكاية المرتبطة بهذا المنزل بعين الاعتبار، فإنه يبدو كما قلنا آنفًا المسرح المناسب لوقوع فعل كذلك الذي شهده. كانت الغرفة التي تضم الآن هذا الجمع -على قربها الشديد من تلك التي وقعت فيها الجريمة- كئيبة مظلمةً متجهِّمة، تثقلها الكتب التي أكلها

الدُّود، وقد أماتتها وعزلتها الستائر التي شحب لونها وكتمت كلَّ صوتٍ، وظلَّلتها في حدادٍ أشجارٌ تطرق أغصانها المخشخشة زجاج النوافذ كل حين كالأشباح، وخيَّم فيها جوٌّ شبحيٌّ كئيب أكثر مما عداها من غرف المنزل. حتى الجمع الماثل هنا كان مناسبًا تمامًا لهذه البقعة. الأرملة بوجهها المطرق البادي الفزع، ومستر (هاردال) العابس الواجم أبدًا، وابنة أخيه إلى جواره تشبه صورة أبيها ولا تشبهها، تلك الصورة التي كانت تحدِّق إليهم في لومٍ من الجدار المسود، و(بارنابي) بنظرته الخاوية وعينيه المهتاجتين، كانوا جميعًا مناسبين للمكان، مأخوذين في لحم أسطورته. بل حتى الغراب الذي قفز إلى المنضدة وبدا كما لو كان مستحضر أرواح منكبًّا على دراسة مجلَّد ضخم مفتوح على المكتب، كان متَّسقًا في هيئته تمامًا مع الباقين، وكان يبدو للناظر كأنه روح الشر وقد تجسَّدت تنتظر وقت عبثها.

قالت الأرملة قاطعة الصمت: «لا أكاد أعرف كيف أبدأ، ستظنُّون عقلي مضطربًا».

ردَّ مستر (هاردال) بلطفٍ: «سيشهد لك سياق حياتك الهادئة البريئة مذ كنت هنا آخر مرة. لماذا تخشين أن تثيري مثل هذا الاشتباه؟ إنك لا تتحدثين إلى أغراب. ليس عليك أن تطلبي اهتمامنا أو حرصنا عليك للمرة الأولى، كوني نفسك، تشجَّعي. تعرفين أنَّ أي نصيحة أو مساعدة أستطيع إسداءها إليك لك الحق فيها من دون شكٍّ وبلا ثمنٍ».

قالت: «ماذا لو أنني قد جئت اليوم يا سيدي -أنا التي ليس لها في هذه الأرض إلا صديق واحد غيرك- لأرفض مساعدتك من هذه اللحظة،

ولأقول إنني منذ الآن أنطلق وحيدة في هذا العالم من دون عون، لأغرق أو أطفو حسبما شاءت السماء!».

قال مستر (هاردال) في هدوءٍ: «لو أنك قد جئت إليَّ لمثل هذا الغرض، فسيكون لديك مبرر ما لاتخاذ هذا المسلك الغريب، وسيكون مبررًا له ثقله بالطبع، إن كان للمرء أن يتخيَّل إمكان وجود شيء بهذه الغرابة».

ردَّت: «هذه يا سيدي هي مأساة كربي. لا أملك أن أعطيك مبررًا. كل ما أستطيع قوله هو كلمتي العارية. إنه واجبي واضطراري، واجبي الملزم. ولو لم أنفِّذه فسأكون تعسة وضيعة آثمة. أما وقد قلت ذلك، فحرام عليَّ أن أتفوَّه بالمزيد».

وكما لو كانت قد استراحت بقول كل ذلك، وشجَّعت نفسها على إكمال مهمَّتها، أخذت بعد ذلك تتحدث بصوتٍ أثبت وطريقة أشجع.

«تشهد عليَّ السماء كما يشهد قلبي –وقلبك سيدتي الشابة سيشهد لأجلي، أعرف ذلك– أنني قد عشت منذ ذلك الوقت الذي نتذكَّره جميعًا في مرارة في إخلاصٍ ثابتٍ وامتنان لهذه الأسرة، تشهد السماء أنني أينما يمَّمت فسأظل أحفظ هذه المشاعر لكم خالصة. وتشهد كذلك أنَّ هذه المشاعر عينها هي وحدها التي تملي عليَّ المسلك الذي ينبغي لي أن آخذه، والذي لن يصرفني عنه شيء منذ الآن فصاعدًا كما أرجو».

قال مستر (هاردال): «هذه ألغاز غريبة!».

ردَّت: «ربما لن تفسَّر أبدًا في هذا العالم يا سيدي. في عالم آخر ستكشف الحقيقة في وقتها المناسب» ثم أضافت في خفوتٍ: «ولتبعد السماء هذا الوقت بعيدًا!».

قال مستر (هاردال): «دعيني أتأكَّد أنني أفهمك، فإنني أرتاب في حواسي. أتعنين أنك عازمة على حرمان نفسك بإرادتك من يد المساعدة التي ظللت تتلقّينها منَّا أمدًا بعيدًا، وأنَّك قررت أن تتوقَّفي عن تلقِّي المعاش السنوي الذي قررناه لك منذ عشرين عامًا، وأن تتركي المنزل، بيتك ومتاعك، وتبدئي حياة جديدة، وكل ذلك لسببٍ سريٍّ أو وهمٍ بشعٍ مستعص على الشرح لم يوجد إلَّا الآن وكان كامنًا كلَّ ذلك الزمان؟ بحق الرب، أيّ ضلالة تلك التي تسيِّرك؟».

أجابت: «حيث إنني شاكرة أعظم الشكر لطيبة أرباب هذا المنزل، من منهم على قيد الحياة ومن ماتوا، وحيث إنني لا يطيب لي أن ينهار سقفه ويسحقني تحته، ولا أن تنزف جدرانه نفسها دمًا إذ ينطق اسمي بينها وتسمعه، فإنني لن أعيش من الآن فصاعدًا على نعمائهم، ولن أدعها تساعدني على الحياة»، ثم أضافت بغتة: «أنت لا تعرف فيم يمكن أن تستخدم مساعدتكم هذه، وإلى يد من يمكن أن تنتهي، أنا أعرف وأرفضها».

قال مستر (هاردال): «بالتأكيد تستخدمينها أنت».

«كان ذلك فيما مضى، أمَّا الآن فلا، ربّما هي الآن -بل إنها بالفعل- منذورة لأغراض تسخر من الموتى في قبورهم، لا يمكن لمساعداتكم أن تثمر معي، ستجلب قضاءً آخر شديد الوطأة على رأس ابني العزيز الذي ستعاني براءته لأجل إثم أمِّه».

صاح مستر (هاردال) وهو ينظر إليها في عجبٍ: «أيّ كلام هذا! بين أيِّ رفاق وقعت؟ إلى أيِّ إثم استدرجت في عمرك؟».

«أنا آثمة، وبريئة رغم ذلك، مخطئة ومصيبة رغم ذلك، حسنة النيَّة رغم اضطراري إلى حماية ومساعدة الأشرار. لا تسألني المزيد من الأسئلة يا سيدي، لكن صدِّق أني أستحقُّ الإشفاق أكثر مما أستحق أن أُدان. عليَّ أن أغادر منزلي غدًا، فسيظلُّ مسكونًا ما دمتُ أعيش فيه. وإن كان مقدَّرًا أن أعيش في سلامٍ فيجب أن يكون مسكني المستقبلي سرًّا. ولو ضلَّ ولدي المسكين طريقه ذات يوم لا تغره بإفشائه ولا ترسل من يراقب طريق عودته، فسيتعيَّن علينا أن نهرب مجدَّدًا إن طوردنا. والآن وقد طرحت عن كاهلي هذا العبء أتوسَّل إليكَ -وإليكِ كذلك يا عزيزتي الآنسة (هاردال)- أن تثقا بي إذا استطعتما، وأن تحسنا الظنَّ بي كما اعتدتما أن تفعلا. إن متُّ ولم أستطع أن أخبر بسرِّي حتى في وقت موتي -وهو أمرٌ محتملٌ- فسيكون أخفّ على صدري في تلك الساعة لما فعلته اليوم، وفي ذلك اليوم، وفي كلِّ يوم حتى يأتي ذلك اليوم، سأصلِّي لأجلكما وأشكركما، ولن أزعجكما أكثر من ذلك».

لمَّا انتهت من قولها كانت على وشك المغادرة لولا استبقياها، ورجواها بكثيرٍ من الكلمات المطمئنة والتوسُّلات الطيبة أن تراجع ما فعلته، وفوق ذلك أن تسكن إليهما وتفصح عمَّا يثقل نفسها بكلِّ هذه المرارة. فلما وجد مستر (هاردال) أنها لا تعير محاولاتهما لإقناعها أذنًا صاغية اقترح كحلٍّ أخيرٍ أنَّ عليها أن تثق بـ(إمّا) التي ربما لا تهابها كما تهابه، لكونها شابة ما زالت، ومن جنسها فوق ذلك. غير أنها انكمشت إزاء هذا الاقتراح بنفس الكراهة البالغة التي أظهرتها حين التقتا. وكان أقصى ما استطاعا أن يأخذاه منها وعدًا بأن تستقبل مستر (هاردال) في منزلها الليلة المقبلة، وأن تراجع قرارها ومحاولاتهما لإثنائها عنه إلى أن يحدث ذلك،

رغم قولها إنه لا أمل في حدوث تغيُّر على هذا الصعيد من ناحيتها. وإذ توصَّلوا إلى هذا الشرط أخيرًا، لم يكن يطيب لهما أن يتركاها تغادر وهي رافضة أن تأكل أو تشرب شيئًا في منزلهما، لكنها خرجت مع (بارنابي) و(غرپ) كما دخلوا، عبر الدرج الخاص وبوابة الحديقة، حيث لم يروا أحدًا ولم يرهم أحدٌ في طريقهم.

كان شيئًا مدهشًا في الغراب أنه طيلة اللقاء لم يرفع عينه عن كتابه، تمامًا كما لو كان وغدًا بشريًّا بالغ المكر يتنصَّت على كلِّ ما يدور تحت قناع التظاهر بالاستغراق في القراءة. وكان يبدو أن الحوار ماثل في ذهنه بقوة، إذ رغم أنه حين خلوا إلى أنفسهم مجدَّدًا أخذ يصدر الأوامر بتحضير برَّادات تستعصي على الحصر لتناول الشاي، إلَّا أنه كان مستغرقًا في التفكير، وبدا أنَّ استغراقه هذا نابعٌ من شعور مجرَّد بالواجب أكثر مما هو نابع من أيّ رغبة في أن يبدو مقبولًا أو أن يكون ما يسمَّى عادة رفيقًا جيدًا.

كان مقرَّرًا أن يعودوا أدراجهم بالعربة. وحيث كان لديهم ساعتان قبل ميعاد انطلاقها، وكانوا بحاجة إلى الراحة وبعض الترويح، فقد ألحَّ (بارنابي) على أن يزوروا (مايپول). غير أنَّ أمه التي لم تكن تحبّ أن يتعرَّف إليها أيٌّ ممن كانوا يعرفونها قديمًا، والتي كانت إضافة إلى ذلك تخشى أن يرسل مستر (هاردال) -إن أعاد التفكير في الأمر- رسولًا إلى ذلك الملهى يطلبها، اقترحت أن ينتظروا بدلًا من ذلك في فناء الكنيسة. وحيث كان سهلًا على (بارنابي) أن يشتري ويحمل إلى هناك بعض الأغذية المتواضعة مما يحتاجون إليه، قبل اقتراحها في سرور، وما لبثوا أن جلسوا في فناء الكنيسة يتناولون عشاءهم المتواضع.

هنا أيضًا كان الغراب مستغرقًا في التأمُّل، فبعد أن أنهى عشاءه أخذ يمشي رائحًا غاديًا في هيئة راضية، تمامًا كهيئة شخصٍ مسنٍّ يضع يديه تحت ذيول معطفه، وبدا كما لو كان يقرأ المنقوش على أحجار القبور بذائقة ناقدة جدًّا. وكان أحيانًا بعد أن يطيل تفحُّص أحد شواهد القبور يوقف منقاره على ذلك القبر ويصيح بصوته الأجشّ: «أنا عفريت! أنا عفريت! أنا عفريت!» غير أنه كان من غير الواضح ما إذا كان يخاطب بملاحظاته هذه أي شخص مفترض في القبر أو يقذفها كملاحظات عامة فحسب.

كانت بقعة هادئة جميلة، لكن حزينة بالنسبة إلى أم (بارنابي)، فقد كان مستر (روبن هاردال) يرقد هناك، وقرب المدفن الذي يضمُّ رفاته ينتصب حجرٌ يخلِّد ذكرى زوجها، عليه وصفٌ موجزٌ لكيفية وتوقيت فقدانه حياته. جلست هنا شاردة اللب إلى أن انقضى وقتهم، ونبَّههم البوق البعيد لاقتراب العربة.

حين سمع (بارنابي) الصوت –وقد كان نائمًا على العشب– قفز مسرعًا، أمَّا (غرب) الذي بدا أنه يفهم الصوت مثلهما تمامًا فقد مشى مباشرة إلى سلَّته، وهو يتوسَّل إلى المجتمع في عمومه –كما لو كان يقصد شكلًا من أشكال السخرية منهم، سخرية تتصل بوجوده في مقابر الكنيسة– ألَّا ييأسوا أبدًا وألَّا يقولوا سنموت! بعد قليلٍ كانوا على ظهر العربة يتحرَّكون على الطريق.

مرَّت العربة بـ(مايپول) وتوقَّفت عند بابه. كان (چو) بالبيت، وقد خرج (هيو) ببطءٍ ليسلِّم الطرد الذي طلبته العربة. لم يكن ثَمَّ خوف من

أن يخرج (چون) العجوز، فقد كان بإمكانهما أن يرياه من سطح العربة مستغرقًا في النوم في حانته المريحة. كان ذلك جزءًا من شخصية (چون). كان يتحرَّى أن ينام وقت مرور العربة. كان يحتقر التسكُّع، وكان يرى عربات البريد هذه أشياء يجب أن تجرَّم، تثير اضطرابًا في سلام البشرية، وكآلاتٍ مهتاجة دائبة الحركة مشغولة تطلق ضوضاء أبواقها، لا تليق أبدًا بكرامة الإنسان، ولا تناسب إلَّا الفتيات الطائشات اللاتي لا يفعلن شيئًا إلَّا الثرثرة والتسوق. ولو تصادف أن يسأله أيٌّ غريبٍ سيِّئ الحظ عن تلك العربات المؤذية كان يجيبه «لا نعرف شيئًا عن عربات البريد هنا يا سيدي، لا نحجزها، ولا يطيب لنا أن نفعل. إنها مزعجة أكثر مما هي ذات فائدة، بضجيجها وضوضائها. إذا أردت أن تنتظرها، تستطيع أن تفعل، لكنَّا لا نعرف أيَّ شيء بخصوصها، ربما تمرُّ وربما لا. يوجد حامل رسائل، كان ينظر إليه باعتباره جيدًا بما يكفي بالنسبة إلينا حين كنت صبيًّا».

حين تسلَّق (هيو) العربة أسدلت نقابها على وجهها وظلَّت كذلك وهو في مؤخِّرة العربة يتهامس مع (بارنابي). لكن لا هو ولا أي شخص آخر حادثها أو لاحظها أو كان لديه أدنى فضول بشأنها، وهكذا، غريبة زارت القرية التي كانت مسقط رأسها والتي عاشت فيها طفلة مرحة وفتاة حلوة وزوجًا سعيدة، وغريبة غادرتها. تلك القرية التي عرفت فيها كلَّ مباهج حياتها، ودخلتها في أقسى أحزان تلك الحياة.

* * *

الفصل السادس والعشرون

قال مستر (هاردال): «وأنت لا يدهشك أن تسمع ذلك يا (ڤاردن)؟ حسنًا! لقد طالما كنتما -أنت وهي- صديقين حميمين، وإذا كان لأيِّ إنسان أن يفهمها فهو أنت بلا ريبٍ».

ردَّ صانع الأقفال: «أستميحك العذر يا سيدي، أنا لم أقل إنني أفهمها، لا يمكنني أن أفترض أبدًا أنني أفهم أي امرأة، إنه ليس شيئًا يسيرًا. غير أنني لستُ دهشًا إلى ذلك الحدِّ يا سيدي بالتأكيد، كما توقَّعتني أن أكون».

«هل لي أن أسألك لماذا لستَ دهشًا إلى ذلك الحدِّ يا صديقي الطيِّب؟».

ردَّ صانع الأقفال في إحجامٍ بادٍ: «لقد رأيت يا سيدي، رأيت فيما يتصل بها شيئًا ملأني بالريبة والاضطراب. لقد صادقت أناسًا سيئين، لا أدري متى وكيف، غير أني واثق بأنَّ بيتها مأوًى للصِّ قاتل على الأقل، هكذا يا سيدي اتضح لك ما تريد!».

«ڤاردن!».

«عينا رأسي هما شاهداي يا سيدي، ولأجل خاطرها يطيب لي أن أكون نصف أعمى، لو كان ثمَّ سبيلٌ إلى أن أكذِّب هاتين العينين. لقد حفظتُ السرَّ إلى الآن، وأعرف أنه لن يخرج عن شخصك، لكني أخبرك

أنني بعيني رأسي وأنا في كامل يقظتي رأيت في ممر بيتها ذات مساء بعد حلول الظلام قاطع الطريق الذي سرق وجرح مستر (إدوارد تشستر)، وهدَّدني أنا الآخر في الليلة ذاتها».

قال مستر (هاردال) في عجلة: «ولم تحاول أن تقبض عليه؟».

ردَّ صانع الأقفال: «سيدي، هي نفسها منعتني، أمسكت بي بكلِّ ما أوتيت من قوة وتعلَّقت بي حتى أفلت تمامًا».

وحين وصل إلى هذه النقطة شرع يحكي بإطنابٍ تفاصيلَ ما جرى تلك الليلة. دار هذا الحديث في صوتٍ خفيضٍ في القاعة الصغرى بمنزل صانع الأقفال، تلك القاعة التي قاد (غابرييل) الأمين زائره إليها فور وصوله. كان غرض زيارة مستر (هاردال) أن يرجوه أن يرافقه إلى منزل الأرملة، علَّه يظفر بعون من قدرته على الإقناع وتأثيره فيها، وقد خرج الحوار من رحم هذا الظرف.

قال (غابرييل): «لقد أحجمت عن تكرار كلمة واحدة من ذلك لأي إنسان، إذ لن يعود هذا عليها بنفع، بل ربما يضرُّها أيما ضرر. ولأكون محقًّا، فقد اعتقدت وتمنيتُ أن تأتيني وتحدِّثني عن هذا الأمر وتخبرني كيف وقع، لكن رغم أني قد وضعت نفسي عامدًا في طريقها أكثر من مرة أو مرتين، فإنها لم تقترب من هذا الموضوع أبدًا، إلَّا بنظرة».

ثمّ أضاف صانع الأقفال الحسن الطوية: «والحق أنها كانت نظرة مفعمة بما لا تستطيع الكلمات ولو كثرت أن تعبِّر عنه، فقد قالت بين ما قالت في استعطافٍ: «لا تسألني عن أي شيء» حتى إني لم أسأل عن أي شيء. أعرف يا سيدي أنك ستظنُّني عجوزًا أحمق. لو كان مريحًا أن تسمِّيني هكذا، فافعل ذلك رجاءً».

ردَّ مستر (هاردال) بعد صمتٍ: «إنني منزعجٌ تمامًا مما تخبرني به، ما المعنى الذي تراه في كل ذلك؟».

هزَّ صانع الأقفال رأسه ونظر في ريبة من النافذة إلى الضوء الآخذ في الخفوت.

قال مستر (هاردال): «لا يمكن أن تكون قد تزوجتْ مجدّدًا».

«ليس دون علمنا بالتأكيد يا سيدي».

«ربما أقدمت على ذلك خوفًا من أن تقود هذه الزيجة إن عرف بها إلى بعض الاعتراض والعزل، لنفترض أنها تزوَّجت من دون حيطة -وهو أمرٌ ليس بالمستحيل، فقد كانت حياتها وحيدة مملة لأعوامٍ جدّ كثيرة- واتضح أنَّ الزوج همجيٌّ، فستكون إذن حريصة على إخفائه، وستأنف في الوقت ذاته من جرائمه. ربما كانت هذه هي الحقيقة، إنه تفسير يتجاوب بقوة وسياق حديثها كلِّه أمس، ومن شأنه أن يفسِّر مسلكها. هل تفترض أنَّ (بارنابي) على علمٍ بهذه الظروف؟».

ردَّ صانع الأقفال هازًّا رأسه: «من المستحيل القطع بإجابة يا سيدي، وقريب من المستحيل أن نحاول معرفة الحقيقة منه. لو أنَّ افتراضاتك تمثِّل الحقيقة فإنني أرتجف لأجل هذا الفتى، ذلك الشخص الذي هو أكرم من أن تساء معاملته».

قال مستر (هاردال) في صوتٍ أخفض مما اعتاده طيلة الحوار: «ألا يمكن يا (ڤاردن) أن تكون هذه المرأة قد خدعتنا وأضلَّتنا منذ البداية؟ ألا يمكن أن تكون هذه الصلة قد انعقدت خلال حياة زوجها وأدَّت إلى ما تعرفه من أنَّ زوجها وأخي قد..».

صاح (غابرييل) مقاطعًا: «رحماك يا رب! سيدي! لا تراودنَّك مثل هذه الأفكار السوداء لحظة. منذ خمسة وعشرين عامًا، أين كان بالإمكان العثور على فتاة مثلها؟ آنسة مرحة جميلة ضحوك برَّاقة العينين! فكِّر فيما كانته يا سيدي. إنه لممَّا يؤلمني الآن -حتى الآن، رغم أني قد شبت وأصبحت لي ابنة قد بلغت مبلغ النساء- أن أفكِّر فيما كانته وما أصبحته الآن. كلنا يتغيَّر، لكنَّ هذا فعل الزمن. الزمن يباشر عمله بأمانة، وأنا لا أبالي بما يفعل. انسَ الزمن يا سيدي. عامله جيدًا وسيكون رفيقًا ودودًا، حريصًا على ألَّا يسوءك. أمَّا الهم والمعاناة -وهذان قد غيَّراها- فهما شيطانان يا سيدي، شيطانان سريَّان مختلسان مخرِّبان، يطآن أجمل زهور جنَّات عدن، ويدمِّران في شهر ما لا يدمِّره الزمن في سنة. تصوَّر لدقيقة ما كانت عليه (ماري) قبل أن يعملا أسلحتهما في قلبها الغضِّ ووجهها، كن عادلًا معها في هذه النقطة، ثم احكم فيما إذا كان ما قلته ممكنًا».

قال مستر (هاردال): «أنت رجل طيب يا (ڤاردن)، ومحقٌّ تمامًا. لقد ظللت أتأمَّل هذا الموضوع طويلًا، حتى إنَّ كلَّ نفس من الشك يعيدني إليه مجدّدًا، أنت محقٌّ تمامًا».

صاح صانع الأقفال بعينين تبرقان وصوتٍ مخلصٍ ثابتٍ: «ليس ذلك يا سيدي.. ليس لأنني طلبت يدها قبل (ردج) وفشلت أقول إنها كانت أفضل منه بكثيرٍ، كانت ستبدو أفضل بكثيرٍ مما أستحق أنا الآخر لو قبلتني. لكنها كانت أفضل مما يستحق بكثيرٍ حقًّا، وهو لم يكن حرًّا وصريحًا معها بما يكفي. أنا لا ألوم ذكراه بذلك، هذا المسكين، لكني أريد أن أضعها أمامك كما كانت حقًّا فحسب. بالنسبة إليَّ، فسأحتفظ بصورتها

القديمة في ذاكرتي، وبينا أفكِّر في ذلك وفيما بدَّل حالها أظلُّ صديقًا لها، وأحاول أن أستعيد لها سلامها». ثمّ صاح مضيفًا: «والويل لي يا سيدي! اعذر الكلمة، لكني سأفعل الشيء نفسه ولو تزوَّجت خمسين قاطع طريق في سنة، وسأعتقد أن ذلك مكتوبٌ في دليل البروتستانتي كذلك، وإن قالت (مارثا) إنه غير موجودٍ، سأظل صديقًا لها بكل ما في طاقتي إلى يوم الدين!».

لو كانت القاعة الصغيرة المظلمة قد امتلأت بضبابٍ كثيفٍ انقشع في لحظة فتركها مضيئة برَّاقة، لم يكن ذلك بأجلب للبهجة المباغتة لها من ذلك الانفجار الذي صدر عن صانع الأقفال المتحمِّس. صاح مستر (هاردال) بصوتٍ يقاربه امتلاءً وفخامة: «حسنًا ما قلت!» وطلب منه أن يخرج معه من دون مزيد كلام. انصاع له صانع الأقفال وخرج معه طواعية، وما لبثا أن ركبا عربة أجرة كانت منتظرة بالباب وانطلقا في التوِّ.

نزلا في ركن الشارع وصرفا العربة ثمَّ مشيا إلى المنزل. لم يجئ ردٌّ على أول طرقاتهما على الباب، ولم تقابل الطرقة الثانية إلا نتيجة مشابهة، لكنَّ إطار نافذة القاعة رُفِع إلى أعلى بهدوءٍ بعد الطّرقة الثالثة الأقوى من سابقتيها، وصاح صوتٌ منغَّمٌ:

«(هاردال) صديقي العزيز، أنا مسرور للغاية لرؤيتك، ما أكثر ما تحسَّن مظهرك منذ لقائنا الأخير! لم أركَ أبدًا أفضل من الآن! كيف حالك؟».

أدار مستر (هاردال) عينيه إلى النافذة من حيث صدر الصوت، رغم أنه لم تكن به حاجة إلى أن يفعل ليتعرَّف المتحدث، ولوَّح مستر (تشستر) بيده وابتسم في ترحابٍ مجاملٍ ثم قال:

«سيُفتح الباب على الفور، ليس ثَمَّ مخلوق هنا باستثناء أنثى متهالكة ليقوم بمثل هذه المهام. هل ستعذر عجزها؟ لو كانت في طبقة اجتماعية أعلى لكانت مصابة بالنَّقرس. لكن حيث هي ليست إلَّا امرأة تقطع الخشب وتجرُّ الماء بنفسها، فهي مصابة بالظّلاع.[1] عزيزي (هاردال)، إنَّ هذه فوارق طبقية طبيعية، ثق بذلك».

بمجرد أن سمع مستر (هاردال) ذلك الصوت عادت إلى وجهه نظرته المكفهرَّة المرتابة فأمال رأسه بعيدًا في جمودٍ وأدار ظهره للمتحدِّث، قال مستر (تشستر):

«لم يُفتَح الباب بعد؟! ياه! أرجو ألَّا تكون تلك النفس العجوز قد عثرت قدمها في نسج عنكبوت تعسٍ في الطريق، ها هي هناك أخيرًا! أرجوك ادخل!».

دخل مستر (هاردال) يتبعه صانع الأقفال. ثم سأل وهو يستدير بنظرة ملأى بالدهشة إلى العجوز التي فتحت الباب عن السيدة (ردچ) وعن (بارنابي)، ردَّت وهي تهزُّ رأسها المسنَّ أنَّ كليهما قد غادر إلى الأبد، وأنَّ هناك سيدًا في القاعة يستطيع أن يخبرهما بالمزيد، كان هذا كلَّ ما تعرفه.

قال مستر (هاردال) وهو يقف أمام هذا السَّاكن الجديد: «رجاءً سيدي، أين الإنسانة التي أتيت إلى هنا لأراها؟».

ردَّ: «صديقي العزيز، ليست لديَّ أدنى فكرة».

قال الآخر في نبرة صوتٍ مكتومة: «عبثك في غير وقته، وموضوعه

---

(١) الظّلاع ترجمة لاسم مرض الروماتزم Rheumatism وأصلها الداء الذي يصيب الدواب فتظلع منه، أي تعرج في مشيتها.

لم يحسن اختياره، احتفظ به لأصدقائك ولا تنفقه عليَّ أنا، ليست لديَّ رغبة في أن أحظى بلقب (صديقك) ولديَّ من إنكار الذات ما يدعوني إلى رفضه».

قال مستر (تشستر): «سيدي الطيب العزيز، أنت سخن من المشي. أرجوك اجلس. صديقنا ..».

ردَّ مستر (هاردال): «ليس إلَّا رجلًا بسيطًا مخلصًا لا يستحقُّ اهتمامك على الإطلاق».

قال صانع الأقفال في صراحة: «اسمي غابرييل ڤاردن يا سيدي».

قال مستر (تشستر): «فلَّاح إنـگـليزيّ ثمين! فلَّاح في غاية الشَّرف طالما سمعت ابني (ند) العزيز يتحدث عنه، وطالما أردتُ أن أراه. (ڤاردن) صديقي العزيز، أنا مسرور بمعرفتك».

ثم أضاف وهو يستدير في كسلٍ إلى مستر (هاردال): «أنت تعجب الآن لرؤيتي هنا، الآن أنا واثق أنَّك مندهشٌ».

نظر إليه مستر (هاردال)، في غير محبَّة ولا إعجاب، وابتسم محتفظًا بسلامه. قال مستر (تشستر):

«سيُحَلُّ هذا اللغز في لحظة، في لحظة. ألا تنتحى معي جانبًا برهة؟ أتذكر اتفاقنا الصغير بشأن (ند) وابنة أخيك العزيزة يا (هاردال)؟ أتذكر قائمة من يساعدونهما في مؤامرتهما البريئة؟ أتذكر هذين الشخصين في تلك القائمة؟ صديقي العزيز. هنِّئ نفسك وهنِّئني، لقد دفعت لهما ما يرضيهما».

قال مستر (هاردال): «لقد ماذا؟!».

ردَّ صديقه المبتسم: «اشتريتهما، لقد وجدت أنه من الضروري أن آخذ خطوات جادة نحو إنهاء تلك العلاقة بين الولد والبنت، وبدأتُ بإزاحة هذين المساعدين، هل أنت دهش؟ ماذا يمكن أن يقاوم تأثير القليل من المال؟ لقد كانا يحتاجان إليه، وقد اشتريتهما به. ليس لدينا ما نخشاه من ناحيتهما الآن، لقد ذهبا».

ردَّد وراءه مستر (هاردال): «ذهبا! إلى أين؟».

«صديقي العزيز، وعليك أن تسمح لي بأن أقول مجدَّدًا إنَّك لم تبد أبدًا شابًّا هكذا، ولا صغيرًا هكذا كما تبدو الليلة. يعلم الرب أين ذهبا. أعتقد أنَّ (كولمبس) نفسه لن يعثر لهما على أثرٍ. بيني وبينك، لديهما أسبابهما المخبوءة، لكن فيما يتعلَّق بهذه النقطة نذرتُ أن أحفظ السرَّ. لقد واعدتك أن تراك هنا الليلة، أعرف ذلك، لكنَّها وجدت ذلك غير مناسب فلم تستطع أن تنتظر. هاك مفتاح الباب. أخشى أنك ستجده كبيرًا إلى درجة غير مريحة، لكن حيث إنَّ المنزل ملكك، فأنا واثق أنَّ طبيعتك السمحة ستتسامح مع ذلك الأمر يا (هاردال)!».

* * *

الفصل السابع والعشرون

وقف مستر (هاردال) في قاعة الأرملة ومفتاح الباب في يده، مديرًا بصره بين مستر (تشستر) و(غابرييل ڤاردن)، وبين الفينة والفينة ينظر إلى أسفل حيث المفتاح، كما لو كان يأمل أن يُفتَح اللغز المستغلق من تلقاء ذاته، إلى أن نبَّهه مستر (تشستر) وهو يرتدي قبَّعته وقفَّازيه ويسأل في عذوبة عمَّا إذا كانا سيمشيان في الاتجاه ذاته، أجابه:

«لا. طريقانا يفترقان إلى أبعد مدى كما تعرف، سأبقى هنا الآن».

ردَّ الآخر: «ستكون محزونًا يا (هاردال)، ستكون بائسًا مكتئبًا تعيسًا للغاية. إنَّه مكان أبعد ما يكون في وصفه عمَّا يناسب طباعك، أنا أعرف أنه سيجعلك بائسًا للغاية».

قال مستر (هاردال) متخذًا مقعده: «دعه يفعل، وعش على هذه الفكرة. طابت ليلتك!».

ردَّ مستر (تشستر) بدعاءٍ وديٍّ لطيفٍ وهو يتظاهر بأنه لم ينتبه مطلقًا لتلويحة اليد الفجَّة التي جعلت هذا الوداع يوشك أن يكون طردًا، ثم سأل (غابرييل) عن الاتجاه الذي سيأخذه. ردَّ صانع الأقفال متردِّدًا:

«طريقك يا سيدي ستكون شرفًا فوق ما يطمح إليه أمثالي».

قال مستر (هاردال) دون أن ينظر إليهما: «أريدك أن تبقى هنا لحظات قليلة يا (ڤاردن)، لديَّ كلمة أقولها لك».

قال مستر (تشستر) بتأدُّب لا يُصدَّق: «لن أتطفَّل على حواركما لحظة أخرى، أرجو أن يكون حوارًا مرضيًا لكليكما! فليباركما الرب!».

ثم ما لبث أن تركهما بعد أن قال ذلك ومنح صانع الأقفال ابتسامة شديدة التألق، وبينما يمشي عبر الشارع قال لنفسه:

«مخلوق مؤسف الجبلّة، ذاك الجلف. بشاعة تحمل في إهابها عقابها. دبٌّ ينهش نفسه. وهنا يجد المرء إحدى المزايا التي لا تُقدَّر بثمن لسيطرة الإنسان على ميوله، لقد كدت في هذين اللقاءين القصيرين أنقضُّ على هذا الشخص خمسين مرة. من كل ستة رجال سيخضع خمسة لهذا الدافع. غير أني بإخضاع ميولي أجرحه جرحًا أعمق وأنفذ مما لو كنت أمهر رجل سيف في أوربا وكان هو الأسوأ»، ثمّ أضاف وهو يدقُّ مقبض سلاحه: «إنَّك حقًّا آخر وسيلة في جعبة الرجل العاقل، نستطيع أن نلجأ إليك فقط حين نستنفد كلَّ ما يقال ويفعل. أما أن نهرع إليك قبل ذلك، وبالتالي نجنِّب أعداءنا الكثير، فما هذه إلَّا طريقة بربرية للحرب، لا تليق تمامًا بأيِّ رجلٍ يمتُّ حتى بصلة بعيدة إلى رهف المشاعر أو التهذيب».

كانت تعلو وجهه ابتسامة بالغة السرور وهو يحدِّث نفسه هكذا، حتى إن ذلك جرَّأ متسوِّلًا على أن يتبعه لأجل صدقة، فتعقَّب خطاه مسافة. كان ذلك مرضيًا له، فقد شعر أن في ذلك إطراءً لقوة تعابير وجهه، وكمكافأة للمتسوِّل سمح له بأن يتعقَّبه إلى أن طلب عربة، وإذ ذاك صرفه بمباركة حارَّة لطيفة. وبينا يأخذ مقعده في العربة أضاف بحكمة:

«وهو شيء لا يقلُّ سهولة عن السَّبِّ، وأكثر مناسبة للوجه. إلى كلركنول أيُّها المخلوقان الطيِّبان، إذا سمحتما!».

جعل هذا الحمل المجامل حاملي العربة في غاية النشاط، فأخذا يخبَّان في سرعة معقولة إلى (كلركنول). وبعد أن ترجَّل في نقطة محددة عيَّنها لهما على الطريق ونقدهما شيئًا أقل مما توقَّعاه من راكبٍ لطيف الحديث مثله، استدار داخلًا الشارع الذي يضم منزل صانع الأقفال، وما لبث أن وقف أسفل ظل المفتاح الذهبي. ظلَّ مستر (تاپرتت) الذي كان مستغرقًا في العمل تحت نور المصباح في ركن الورشة غير واعٍ بوجوده إلى أن أفزعته يد وُضِعت على كتفه فأدار رأسه.

قال مستر (تشستر): «المثابرة روح العمل وحجر أساس النجاح، سأنتظر منك يا مستر (تاپرتت) أن تدعوني إلى العشاء حين تصبح اللورد محافظ لندن».

رد الصبي واضعًا مطرقته على المنضدة وفاركًا أنفه بظهر يده المهبَّبة تمامًا: «سيدي، أنا أحتقر اللورد المحافظ وكل ما يمتُّ إليه بصلة. لتراني اللورد المحافظ يا سيدي، يجب أن نعيش حالة مجتمعية أخرى. كيف حالك يا سيدي؟».

«أنا أفضل يا مستر (تاپرتت) لأني أنظر إلى وجهك المخلص مجددًا، أتمنى أن تكون على ما يرام».

قال (سم) وهو ينهض ليقترب من أذنه هامسًا بصوتٍ أجش: «حالتي يا سيدي كما يمكن أن تكون حالة أيّ إنسان يتعرَّض لما أتعرَّض له من

انتهاكات، حياتي حمل عليَّ. لولا الانتقام للاعبت الحياة (ملكًا أم كتابةً) مخاطرًا بالخسارة».

قال مستر (تشستر): «هل السيدة (ڤاردن) بالبيت؟».

ردَّ (سم) وهو يحدجه بنظرة مركَّزة التعبير: «سيدي، إنها بالبيت، هل وددت أن تراها؟».

أومأ مستر (تشستر) إليه إيجابًا، فقال (سم) وهو يمسح وجهه بفوطته:

«إذن تعال من هنا يا سيدي، اتبعني يا سيدي. أتأذن لي في أن أهمس في أذنك نصف ثانية؟».

«على الرحب والسِّعة».

رفع مستر (تاپرتت) نفسه على أطراف أصابع قدميه، وقرَّب شفتيه من أذن مستر (تشستر)، ثم تراجع برأسه دون أن يقول أيَّ شيء، ونظر إليه في حدَّة ثم قرَّبهما من أذنه ثانية، ثم تراجع برأسه ثانية، وأخيرًا همس: «الاسم (چوزيف ولت)، ششش! لا أقول المزيد!».

وبعد أن قال ذلك أشار إلى الزائر بأسلوبٍ غامضٍ أن يتبعه إلى باب القاعة، حيث أعلن مقدمه بصوتٍ نبيلٍ/ حاجبٍ:

«مستر (تشستر)».

ثم أضاف وهو ينظر عبر الباب ثانية كما لو كان يذيِّل ما نطق به بملاحظة: «وليس مستر (إدوارد)، للعلم. إنّه والده».

قال مستر (تشستر) وهو يتقدَّم بقبَّعته في يده إذ لاحظ تأثير هذا الإعلان الأخير الشارح: «لكن لا تدعي والده.. لا تدعي والده يكون عائقًا أو معطِّلًا عن انشغالاتك المنزلية يا آنسة (ڤاردن)».

صاحت (مـگز) مصفِّقة بيديها: «أوه! الآن! ها هو! ألم أكن أقول ذلك كثيرًا؟ لقد ظنَّ السيدة (ڤاردن) ابنتها! حسنًا، إنها حقًّا تبدو كذلك، تبدو كذلك بالفعل. فقط فكِّري في هذا يا سيدتي!».

قال مستر (تشستر) بأرقّ نبراته: «هل يعقل أن هذه هي السيدة (ڤاردن)؟ إنني دهش. هذه ليست ابنتك يا مسز (ڤاردن)؟ لا لا. أختك».

ردَّت مسز (ڤاردن) وقد احمرَّ وجهها في شبابٍ وافرٍ: «ابنتي بالفعل يا سيدي».

صاح الزائر: «آه! مسز (ڤاردن)! آه! سيدتي، يا لَسعادة الإنسانية حقًّا حين نكرِّر أنفسنا في آخرين ونبقى شبابًا مثلهم رغم ذلك. يجب أن تسمحي لي بتحيَّتك -تقليد البلاد يا سيدتي العزيزة- وتحية ابنتك كذلك».

أظهرت (دلّي) بعض النفور من أداء هذا الطقس، لكنَّ السيدة (ڤاردن) وبَّختها بحدة وأصرَّت على أن تؤدِّيه في التوِّ. وقالت بكثيرٍ من الصرامة إن الكِبر إحدى الخطايا السبع الموبقات، بينما التواضع فضيلة، ولذا رغبت أن تقبَّل (دلّي) على الفور وعلى رغمها، لتفهمها أنه أيًّا ما كان ما ترى أمها تفعله فلا بأس من أن تفعله هي الأخرى دون أن تتجشَّم مشقَّة تعقُّله أو التفكير فيه، حيث إنَّ التفكير في هذه الحالة إيذاء وعقوق وخرق مباشر لمبادئ الكنيسة.

إثر هذا التقريع انصاعت (دلّي)، على رغمها تمامًا، إذ كانت هناك نظرة إعجابٍ جريئة واضحة على وجه مستر (تشستر)، وإن كانت تحاول أن تكون نظرة مهذبة، الأمر الذي أزعجها جدًّا. وبينا هي واقفة مطرقة

تتحاشى أن ترفع عينيها لئلَّا تقابل عينيه، نظر إليها في استحسان ثم استدار إلى أمها.

«ما أسعد صديقي (غابرييل) الذي لم أتعرَّف عليه إلَّا الليلة يا مسز (ڤاردن)».

تنهَّدت السيدة (ڤاردن) هازّة رأسها: «آه!».

وتنهَّدت (مـگز) بدورها: «آه!».

قال مستر (تشستر) في تعاطفٍ: «هل هذه هي الحال؟ يا ويلي!».

غمغمت (مـگز) وهي تتقدَّم إليه بخطىً حذرة: «ليست لدى سيدي (غابرييل) يا سيدي إلَّا نيَّة حسنة في أن يكون شاكرًا ممتنًّا كما تأمره طبيعته، لكلِّ ما يملك مما تسمح قدراته بشكره» ثم أضافت وهي تلقي نظرة جانبية على السيدة (ڤاردن) وتزرع في تصريحها زفرة حارَّة: «لكننا يا سيدي.. لكنَّنا لا نعرف أبدًا حقيقة قيمة بعض الكروم وأشجار التين إلَّا حين نفقدها، وهو ما يجعل الأمر أسوأ يا سيدي بالنسبة إلى هذه الأشجار، إذ تثقل وطأة هذا الازدراء على ضمائرها حين تذهب بعيدًا لتثمر حقَّ إثمارها في مكانٍ آخر» وأدارت الآنسة (مـگز) عينيها إلى أعلى لتشير إلى جهة ذلك المكان.

وحيث إنَّ السيدة (ڤاردن) قد سمعت بوضوحٍ، وكان يُراد لها أن تسمع كلَّ ما قالته (مـگز)، وحيث إنَّ هذه الكلماتٍ بدت كما لو كانت تحمل على أجنحة المجاز نبوءةً أو إنذارًا بأنها سوف تسقط مبكرًا تحت وطأة محاولاتها وترتحل ببساطة إلى النجوم، فقد بدأت على الفور تشعر بالوهن، وما لبثت أن تناولت مجلدًا من دليل الپروتستانتي من منضدة

مجاورة وأسندت إليه ذراعها كما لو كانت هي الأمل والمجلَّد مرساتها.[1] فلما أدرك مستر (تشستر) ذلك ورأى أي حروف تحلِّي الغلاف الخلفي للمجلَّد، تناوله بلطفٍ من يدها وأخذ يقلِّب صفحاته المرفرفة.

«كتابي المفضَّل يا سيدتي العزيزة. ما أكثر ما.. ما أكثر ما استخلصت من صفحاته دروسًا أخلاقية صغيرة سهلة لابني العزيز (ند) مبكرًا جدًّا في حياته، من قبل ما يستطيع تذكّره (كانت هذه الفقرة صحيحةً تمامًا). أتعرفين (ند)؟».

قالت السيدة (ڤاردن) إنها قد نالت هذا الشرف، وما ألطفه من سيد شاب. قال مستر (تشستر) وهو يأخذ بعض السّعوط:

«أنت أمٌّ يا سيدة (ڤاردن)، وتعرفين ما أشعر به كأب حين يُثنى عليه. إنه يسبِّب لي بعض المتاعب، الكثير من المتاعب. إنه ذو طبيعة جوَّالة يا سيدتي، من زهرة إلى زهرة، من حلوى إلى حلوى، لكن على كلٍّ فإن عمره هو وقت مطاردة الفراشات من العمر، وينبغي لنا ألَّا نقسو على مثل هذه الصغائر».

---

(١) As though she were Hope & that her Anchor يشير (ديكنز) إشارةً بصرية إلى صليب البحَّار Mariner's Cross or Anchored Cross وهو أحد أقدم الرموز البصرية في المسيحية، حيث تمثّل فيه المرساة الأمل والهدوء والمثابرة، استنادًا إلى الآية السادسة من الإصحاح التاسع عشر من رسالة بولس الرسول إلى العبرانيّين ضمن العهد الجديد، حيث تشير إلى السيد المسيح: «الذي هو لنا كمرساة للنفس مؤتمنة وثابتة، تدخل إلى ما داخل الحجاب» وينسب استخدام المرساة كرمز إلى (سلوقس) الأول، ومن ثمَّ تبنَّى اليهود في الإمبراطورية السلوقية رسمه على عملاتهم، وبالتالي كان استخدام المرساة كرمزٍ شائعًا ومألوفًا لدى المسيحيين الأوائل (عن كتاب لورا كلوپنغ: التقاليد والعادات والرموز في الديانة البروتستانتية Laura KlÖpping: Customs, Habits and Symbols of the Protestant Religion (2012).

وهنا رمق (دلّي) بنظرة ليكتشف أنها كانت مصغية بوضوحٍ إلى ما قاله، وهو الأمر الذي كان يبتغيه! تابع:

«الشيء الوحيد الذي أمانع فيه مما يتعلَّق بهذا الميل الصغير لدى (ند) هو -وإنَّ ذكر اسمه يذكِّرني بالمناسبة بأني موشك على أن أرجوك أن أتحدث إليك على انفرادٍ لدقيقة- الشيء الوحيد الذي أمانع فيه هو أنَّ ذلك الميل يأخذ بنصيبٍ من الخيانة. والآن، رغم أني قد أحاول إخفاء الحقيقة عن نفسي في حبي لـ(ند)، إلَّا أني دائمًا أعود إلى ذلك، أعني أننا إن لم نكن مخلصين فإننا لا نساوي شيئًا، لا نساوي شيئًا على ظهر البسيطة. دعينا نكون مخلصين يا سيدتي العزيزة.».

غمغمت السيدة (ڤاردن): «وپروتستانتيين».

«وپروتستانتيين قبل كل شيء، لنكن مخلصين وپروتستانتيين، على جادَّة الأخلاق، على جادَّة العدل (لكن دائمًا مع ميلٍ إلى الرحمة)، على جادّة الأمانة، على جادّة الصدق، وسنربح. إنها نقطة غير مهمَّة حقًّا، لكنَّها شيء ملموسٌ في النهاية. إننا نبني أساسًا وأرضية من الخير، نستطيع أن نعلي فوقهما بناءً ثمينًا».

لنكن واثقين الآن أنَّ السيدة (ڤاردن) فكَّرت أنها إزاء شخصية كاملة، إزاء مسيحي وديع تقيٍّ أصيل قد تمكَّن من كل هذه المزايا العصيَّة على التحصيل، وامتلك ناصية كلِّ الفضائل الأصلية، ثم ها هو يزعم أنَّ امتلاكها وحده ليس شيئًا كبيرًا، ويجاهد لتحصيل المزيد من الفضائل. وذلك أنَّ هذه السيدة الطيبة لم ترتب أبدًا -ككثيرٍ من النساء والرجال الطيِّبين- في صدق نزوع أي متحدِّث إلى التقليل من شأن امتلاكه الفضيلة والتهوين

من قدر معالي الأمور كأنه يقول «أنا لست مغرورًا، أنا من تسمعون بفضائله لكني لا أعتبر نفسي أفضل من الآخرين، فأرجوكم دعونا نغيِّر الموضوع». ولقد احتال (تشستر) وقال ما قاله بطريقة توحي بأن قوله قد انتزع من صدره انتزاعًا، فكان أثره باهرًا.

انتبه مستر (تشستر) لِمَا تركه من انطباعٍ -فقد كان لا يبارى في سرعة اكتشافه مثل هذه الأشياء- فأتبع ضربته بطرح بعض الشعارات الفاضلة الغامضة بعض الشيء والعامة بطبيعتها، وقد كانت شعاراتٍ لا ريبَ في صدقها، تنحو أحيانًا نحو البدهيَّات ونوافل القول التي ابتذلت من كثرة ما قيلت، لكنه كان يقولها بصوتٍ ساحرٍ وسكينة وسلام نفسيٍّ نادرين، حتى إنها بدت شعارات جديدة كأفضل ما يكون. ولا عجب في ذلك، فكما تصدر الآنية الخاوية أصواتًا أكثر موسيقية بكثيرٍ مما تصدره الملأى حال سقوطها، يجد المرء غالبًا أن العواطف الفارغة هي الأعلى طنينًا في عالمنا، وهي التي تستملح نكهتها أكثر مما عداها.

أخذ مستر (تشستر) يتحدث إليهم بألذ أسلوبٍ يتصوَّره المرء، وفي يد ممدودة قليلًا المجلَّد، ويده الأخرى مزروعة بخفَّة في صدره، فسحر كلَّ مستمعيه تمامًا، رغم اهتماماتهم وأفكارهم المتناقضة. وحتى (دلّي) التي كانت عابسة تمامًا بين نظراته الثاقبة وتحديق مستر (تاپرتت) لم تجد بدًّا من الاعتراف في دخيلة نفسها بأنه كان السيد الأحلى كلامًا بين كل من رأتهم. بل حتى الآنسة (مـگز) التي كانت منقسمة بين الإعجاب بمستر (تشستر) والغيرة القاتلة من سيدتها الشابة كان لديها متَّسع من الوجدان يكفي لأن تدغدغ عواطفها. كذا مستر (تاپرتت) رغم انشغاله كما رأينا بالتحديق إلى ساحرة قلبه لم يستطع أن يصرف فكره تمامًا عن صوت

الساحر الآخر. فكرت السيدة (ڤاردن) بينها وبين نفسها أنها لم تستفد في حياتها من حديث أبدًا كاليوم، وحين نهض مستر (تشستر) ورجاها أن يحادثها على انفرادٍ ثم أخذها من يدها وقادها على مدِّ ذراعه صاعدين السُّلَّم إلى أفضل غرف الجلوس، كانت توشك أن تعتبره فوق البشر.

قال وهو يقبِّل يدها في رقة: «سيدتي العزيزة. تفضَّلي بالجلوس».

إذ ذاك استحضرت السيدة (ڤاردن) لنفسها جوًّا ملكيًّا وجلست. ابتدرها مستر (تشستر) وهو يسحب مقعدًا تجاهها:

«أتخمِّنين الموضوع الذي أودُّ التحدُّث فيه؟ هل تتنبَّئين بغرضي؟ إنني أبٌ حان يا عزيزتي السيدة (ڤاردن)».

ردَّت: «أنا واثقة بذلك يا سيّدي».

ردَّ وهو يدقُّ غطاء صندوق سعوطه: «أشكرك. ما أثقل المسؤوليات الخلقية الملقاة على عواتق الآباء يا مسز (ڤاردن)».

رفعت السيدة (ڤاردن) يديها قليلًا وهزَّت رأسها ونظرت إلى الأرض كما لو كانت ترى خلال الكرة الأرضية مباشرة إلى الجانب الآخر المقابل منها، وإلى رحابة الفضاء فيما بعده. تابع مستر (تشستر):

«لا أخفيك سرًّا، أنا أحب ابني كثيرًا يا سيدتي، ولحبي إيَّاه على هذا النحو أودُّ أن أنقذه من أن يحدث مأساة. تعرفين علاقته بالآنسة (هاردال). لقد شجّعته بنفسك عليها، وكان من فرط طيبتك أن فعلت. إنني ممتنٌّ، شديد الامتنان لك، لاهتمامك بشأنه، لكني أؤكِّد لك يا سيدتي العزيزة أنه اهتمامٌ جانبه الصواب».

تلعثمت السيدة (ڤاردن) وهي تعبِّر عن أسفها.. قاطعها:

«آسف سيدتي العزيزة، لا تأسفي أبدًا لشيء ودود كهذا، صادر عن حسن نية، يليق بشخصك. غير أنَّ هناك أسبابًا جادة معتبرة، واعتبارات عائلية ضاغطة، وبعيدًا حتى عن هذه الأمور، فهناك نقاط خلاف دينية تفرض نفسها وتجعل زواجهما مستحيلًا، مستحيلًا تمامًا. كان يطيب لي أن أذكر هذه الظروف لزوجك، لكنَّه -واعذريني فيما سأقوله- يفتقر إلى سرعة إدراكك وعمق حسِّك الخلقي. يا لَه من منزلٍ جيد التهوية معتنىً به على الوجه الأكمل. لهذه العلامات على الرعاية الأنثوية والعناية بالشؤون المنزلية سحرها البالغ بالنسبة إلى رجل مثلي أرمل منذ زمنٍ طويلٍ».

بدأت السيدة (ڤاردن) تعتقد -لا تدري لماذا- أنَّ مستر (تشستر) الشاب مخطئ بالتأكيد، بينما مستر (تشستر) الكبير محقٌّ بلا شكٍّ. تابع شيطانها بلهجته الأكثر إقناعًا:

«قيل لي إنَّ ابني (ند) قد فاز بعون ابنتك الجميلة وزوجك ذي القلب الصادق».

ردَّت السيدة (ڤاردن): «أكثر بكثيرٍ مما فاز بعوني يا سيدي، أكثر بكثيرٍ، لقد طالما لعبت برأسي الشّكوك، إنه.».

اقترح مستر (تشستر): «مثال سيئ، هو كذلك بلا شكٍّ. إنَّ ابنتك في سنٍّ تجعل من غير الحكمة أن نضع أمام عينيها مثالًا يشجِّع الشباب على التمرُّد على آبائهم في هذا الأمر البالغ الأهمية. أنت محقَّة تمامًا. كان ينبغي لي أن أفكِّر في ذلك، لكنَّه فاتني، أعترف بذلك. ما أسمى جنسكنَّ سيدتي العزيزة بالنسبة إلى جنسنا فيما يتعلَّق بنفاذ البصيرة والحكمة».

هنا اتخذت السيدة (ڤاردن) مظهر الحكيمة كما لو كانت قد قالت حقًّا ما يستحقّ أن يجرَّ عليها هذا الإطراء، بل إنها باختصارٍ اعتقدت اعتقادًا راسخًا أنها قد قالت مثل ذلك الشيء الحكيم، وازداد إيمانها بحصافتها كثيرًا.

قال مستر (تشستر): «سيدتي العزيزة، إنك تشجِّعينني على أن أكون أوضح معك. ابني وأنا مختلفان بخصوص هذه النقطة. كما تختلف حبيبته الشابة مع الوصيِّ عليها بخصوصها. والنقطة الفارقة هي أن واجب ابني تجاهي وشرفه وكلَّ رابط جادٍّ واعتبار مهمٍّ تحتِّم جميعًا عليه أن يتزوَّج امرأة أخرى».

قالت السيدة (ڤاردن) رافعة يديها: «خطب امرأةً أخرى!».

«سيدتي العزيزة، بل ربّي وعلّم ومرّن بوضوحٍ لهذا الغرض، بوضوحٍ لأجل هذا الغرض. لقد قيل لي إنَّ الآنسة (هاردال) إنسانة جذَّابة للغاية».

قالت السيدة (ڤاردن): «أنا ظئرها وأعرف ذلك؛ إنها أفضل شابة في العالم».

«ليس لديَّ أدنى شك في ذلك. أنا واثق بأنها كذلك. وأنت بصفتك تمثِّلين لها هذه العلاقة الحانية ينبغي لك أن تتحرّي سعادتها. والآن هل أستطيع -كما قلت لـ(هاردال) الذي يتَّفق معي تمامًا بهذا الخصوص- أن أقف متفرجًا وأتركها لترمي بنفسها -رغم كونها من عائلة كاثوليكية- بين ذراعي شابٍّ بلا قلبٍ على الإطلاق؟ إنها ليست تهمة في حقِّه أنه بلا قلبٍ، إذ إنَّ الشباب الذين غاصوا عميقًا في لهو المجتمع وأعرافه نادرًا ما تكون لهم قلوبٌ. لا تنمو قلوبهم أبدًا يا سيدتي العزيزة قبل الثلاثين، ولا أعتقد

-لا، لا أعتقد أبدًا- أنني كان لديَّ قلبٌ حين كنت في مثل عمر (ند)».

قالت السيدة (ڤاردن): «أوه، سيدي، أعتقد أنك كنت بقلبك حينذاك. من المستحيل أنَّ إنسانًا مثلك له مثل قلبك الآن كان يفتقر يومًا ما إلى القلب».

أجاب وهو يهزُّ كتفيه في وداعة: «أتمنى أن يكون لديَّ القليل من القلب. يعلم الرب! لكن لنعد إلى (ند). ليس لديَّ شكٌّ في أنك قد فكرت أنني أعترض على الآنسة (هاردال)، ولذا تدخَّلت في إحسان لصالحه. شيء طبيعيّ تمامًا! سيدتي العزيزة، أنا أعترض عليه! عليه هو! أصرُّ على أنَّ اعتراضي على (ند) نفسه».

كانت السيدة (ڤاردن) مشدوهة تمامًا لهذا التصريح. تابع:

«لو أنَّه وفَّى بشرف بذلك الاعتبار الجاد الذي حدثتك عنه -وعليه أن يكون شريفًا يا مسز (ڤاردن) وإلَّا فليس من صلبي- فستكون في متناوله ثروة. إنه ذو عاداتٍ شديدة الإسراف إلى درجة الخراب، ولو أنه في لحظة عناد وانسياق وراء النزوة تزوج هذه الشابة فحرم نفسه بذلك الوسيلة إلى إرضاء متعه التي طالما اعتادها، فإنه يا سيدتي العزيزة سيكسر قلب تلك المخلوقة اللطيفة. مسز (ڤاردن)، سيدتي الطيبة، يا ذات الروح العزيزة، ها أنذا أضع الأمر بين يديك، هل يمكن أن تحتمل تضحية كهذه؟ هل يجوز العبث بقلب الأنثى على هذا النحو؟ سلي قلبك يا سيدتي العزيزة، أتوسَّل إليك أن تسألي قلبك».

فكرت السيدة (ڤاردن): «إنَّ هذا السيد قديسٌ حقًّا»، ثم أضافت بصوتٍ عالٍ كما تقتضي طبيعة الأمر:

«لكن إن أخذت حبيب الآنسة (إمّا) بعيدًا عنها يا سيدي، ماذا سيحدث لقلب تلك المسكينة؟».

قال مستر (تشستر) في لهجة ما أبعدها عن الارتباك: «هذه النقطة عينها التي أردت أن أصل إليها في حديثنا. إنَّ زواجها من ابني الذي أجدني مضطرًّا إلى التبرُّؤ منه ستتبعه سنوات من البؤس. سينفصلان يا سيدتي العزيزة في اثني عشر شهرًا. أما أن يكسر هذا التعلُّق المتوهم أكثر مما هو حقيقي، كما يعرف كلانا جيدًا، فلن يكلِّف هذا الفتاة العزيزة إلَّا القليل من الدموع، وبعدها تعود إلى سابق سعادتها. وأمامك حالة ابنتك الشابة التي تركناها في الأسفل، وهي التي تُعَد صورتك الحية».

هنا سعلت السيدة (ڤاردن) ورسمت ابتسامة مصطنعة، فتابع:

«ثم شاب -آسف لأن أقول إنه شابٌّ منحلٌّ ذو شخصية لا مبالية- سمعت (ند) يتحدث عنه، كان اسمه (بلت)، أو (پلت) أو (ملت).».

قالت السيدة (ڤاردن) وهي تعقد يديها في عجرفة: «ثَمَّ شابٌّ اسمه (چوزيف ولت) يا سيدي».

صاح مستر (تشستر): «إنه هو، لنفترض الآن أن هذا الـ(چوزيف ولت) كان يطمح إلى حبِّ ابنتك الجذَّابة، وأفلح في أن يشغلها».

تدخَّلت السيدة (ڤاردن) في تشامخ: «سيكون مناسبًا لما هو عليه من الوقاحة أن يتجرَّأ على التفكير في شيء كهذا».

«سيدتي العزيزة، هذا هو الأمر بحذافيره. أعرف أنَّ ذلك كان ليكون شبيهًا بوقاحته، وإنه لممَّا يشبه وقاحة (ند) أن يفعل هو الآخر ما فعله، لكنَّك لن تحجمي والأمر كذلك بسبب حفنة دموع من عيني ابنتك

الجميلة عن أن تجهضي ميولهما في مهدها. لقد كنت أنوي أن أناقش زوجك هكذا حين رأيته في منزل السيدة (ردچ) هذا المساء.».

قاطعته السيدة (ڤاردن) بانفعالٍ: «كان الأولى بزوجي أن يكون في بيته، فذلك خيرٌ له من أن يذهب إلى منزل السيدة (ردچ) كثيرًا هكذا، لا أعرف ما يفعل هناك. لا أدري ما يدفعه إلى الانشغال بشؤونها من الأساس يا سيدي».

ردَّ مستر (تشستر): «لو لم أبد معبِّرًا عن توافقي مع هذه العواطف التي عبَّرت عنها لتوّك بالقوة التي ربما انتظرتها مني، فما ذلك إلَّا لأنَّ وجوده هناك يا سيدتي العزيزة وصعوبة أن أفتح معه النقاش قاداني إلى هنا، وأظفراني بسعادة لقاء إنسانة أفهم تمامًا أنَّ إدارة شؤون عائلتها بالكامل، فضلًا عن قيادة هذه العائلة ونجاحها مرتكزة على شخصها».

بذلك تناول يد السيدة (ڤاردن) ثانية، وبعد أن طبع عليها قبلة بالتودُّد المبالغ فيه الذي كان يطبع ذلك العصر، بطريقة هزلية بعض الشيء، ما جعلها أعمق أثرًا في عيني السيدة الطيبة التي لم تعتد ذلك، واصل سفسطته الممزوجة بالنفاق والتزلُّف على نفس المنوال الذي بدأه، متوسِّلًا إليها أن تبذل أقصى ما في وسعها من نفوذ لمنع زوجها وابنتها من المضي في دعم خطبة (إدوارد) للآنسة (هاردال)، ومن مساعدة أو تشجيع أيّ من طرفي العلاقة بأي طريقة. لم تكن السيدة (ڤاردن) إلَّا امرأة، وكان لها نصيبها من الغرور والعناد وحب التسلُّط. دخلت في تحالفٍ سريٍّ هجوميٍّ دفاعيٍّ مع زائرها المتملِّق، وقد صدَّقت حقًّا كما كان سيفعل كثيرون إن

رأوه وسمعوه، أنها بهذا التحالف كانت تنصر الصدق والعدل والأخلاق بطريقة مجاوزة لما درج عليه الناس.

أما وقد أفرح مستر (تشستر) نجاح مفاوضاته أيما فرح، وشعر في دخيلة نفسه باستمتاعٍ ما فوقه استمتاع، فإنه ما عتَّم أن قادها عبر الدرج إلى أسفل على نفس هيئة صعودهما، وبعد أن كرَّر طقس التحية السابق متضمِّنًا (دلّي) ثانية، استأذن بعد أن أكمل غزو قلب الآنسة (مـگز) بتساؤله عن إن كان من الممكن أن تضيء له هذه السيدة الشابة الطريق إلى الباب.

قالت (مـگز) عائدة بالشمعة: «أوه، سيدتي، أوه، يا ألطاف الرب يا سيدتي! إنه سيدٌ نبيلٌ! هل وُجِد من قبل ملاكٌ يتكلم مثله ؟ وما أحلى هيئته من رجلٍ! مستقيمٍ ونبيلٍ، حتى إنه يبدو كأنه يزدري الأرض التي يطأها، ورغم ذلك فهو بالغ اللطف والتواضع، حتى ليبدو كأنه يقول: «لكنني سألتفت إلى هذه الأرض هي الأخرى». وكلما فكرت في أنه اعتقد أنَّك الآنسة (دلّي)، وأنَّ الآنسة (دلّي) أختك، أوه! ربَّاه! لو أنني كنت سيدي، ألم أكن لأغار منه؟!».

وبَّخت السيدة (ڤاردن) خادمتها على ما نطقت به من حديث الغرور، لكنه كان توبيخًا بالغ اللطف والرقة، بل مفعمًا بالابتسام حقًّا، قائلة إنها فتاة طائشة حمقاء خفيفة العقل، تتجاوز بها روحها كلَّ الحدود المفروضة، ولا تعني ولا تنتبه لمعنى نصف ما تقوله، وإنها ستغضب منها إن لم تكفّ عن ذلك.

قالت (دلّي) مستغرقة في التفكير: «من ناحيتي، أكاد أعتقد أن مستر (تشستر) يشبه (مـگز) من هذه الجهة، فرغم كل تأدُّبه وحديثه المنمَّق، أنا واثقة بأنه كان يلهو بنا أكثر من مرة في حديثه».

ردَّت السيدة (ڤاردن): «لو أقدمتِ على قول ذلك ثانية واغتياب الناس في وجودي أيتها الآنسة، فسأصرُّ على أن تأخذي شمعة وتذهبي إلى فراشك في التوِّ، كيف تجرؤين يا (دلّي)؟ إنك تدهشينني، إنَّ وقاحة سلوكك كلِّه هذا المساء شائنة».

ثمَّ صاحت ربة المنزل المحتدَّة والدموع تطفر من عينيها: «هل سمع أيّ إنسان من قبل ببنتٍ تقول لأمّها إنها كانت ألعوبة في يد أحدهم؟!».

يا لَتقلُّب مزاج السيدة (ڤاردن)!

* * *

الفصل الثامن والعشرون

بعد أن ترك مستر (تشستر) منزل صانع الأقفال ذهب إلى مقهى بارز في (كوڤنت غاردن). هناك جلس طويلًا إلى عشائه المتأخِّر وهو يسلِّي نفسه مستمتعًا للغاية بتذكُّر أنشطته الأخيرة، ويهنئ نفسه أيما تهنئة على ذكائه العظيم. علا وجهه تعبيرٌ هادئ حميدٌ للغاية متأثِّرًا بهذه الأفكار، حتى إنَّ النادل القائم مباشرة على خدمته شعر بأنه مستعدٌّ للموت دفاعًا عنه، ووقر في ذهنه –إلى أن تسلَّم (تشستر) فاتورة المقهى، فحرَّره من هذه الفكرة ما تقاضاه من أجرٍ زهيدٍ للغاية مقابل أتعاب بالغة قام بها– أنَّ زبونًا رسوليًّا كهذا يعدل وحده نصف دستة من الزبائن على أقل تقديرٍ.

وقد أخَّرته زيادة عن الوصول إلى بيته زيارة إلى طاولة القمار، لا كمغامر متحمِّس قلق، لكن كشخصٍ يعتبرها مكافأة لنفسه أن يقامر بقطعتين أو ثلاث كشكلٍ من أشكال الاحترام لحماقات المجتمع، ثم يبتسم وهو يوزع بركاته بالتساوي على الفائزين والخاسرين. كان من عادته أن يأمر خادمه بأن يأوي إلى فراشه في ميعاده المحدد من تلقاء ذاته ما لم يتلقَّ أوامر منه بخلاف ذلك، وأن يترك شمعة على درجة السلَّم المشتركة. كان على بسطة السلَّم مصباحٌ كثيرًا ما استخدمه في إشعال الشمعة متى عاد إلى البيت متأخرًا، وحيث إنه كان يحمل مفتاح الباب، فقد كان يستطيع أن يدخل ويأوي إلى فراشه متى شاء.

فتح زجاج المصباح الخافت الضوء الذي استطارت ذبالته المحترقة المنتفخة كأنف السكِّير جمرات صغيرة حين لمستها الشمعة، وأخذت ترمي بشررٍ ساخنٍ، ما صعَّب إيقاد فتيل الشمعة الخامل، وبينا هو منشغل هكذا إذا جلبة توقفه، كأنها شخيرٌ عميقٌ آتٍ من فوقه بعدة درجات سلَّم، فأخذ يتسمَّع. كانت صوت تنفُّس ثقيل لشخصٍ نائمٍ قريبًا منه. لقد رقد أحدهم على الدرج المفتوح، ونام نومًا عميقًا. وبعد أن أشعل الشمعة أخيرًا وفتح باب شقته صعد في هدوءٍ وهو يحمل الشمعة عاليًا فوق مستوى رأسه، وأخذ يقلِّب بصره فيما حوله بحذرٍ، وكلُّه فضول أن يرى أيَّ نوع من الرجال ذاك الذي اختار مثل هذا المأوى غير المريح لبياته.

كان الراقد (هيو)، ورأسه على البسطة بينا أطرافه الضخمة تمتدُّ فوق نصف دستة من درجات السلَّم، ممدَّدًا في لا مبالاة كما لو كان ميتًا ألقاه هنا بمحض الصدفة حملته السكارى، ووجهه أعلى ما فيه، وشعره الطويل متدلٍّ كعشبٍ برِّيٍّ على مخدَّته الخشبية، وصدره الضخم يعلو ويهبط بتلك الأصوات التي عكَّرت المكان والزمان على غير العادة.

أما ذلك الذي عثر فيه هكذا على غير المتوقَّع فقد كان على وشك أن يقطع نومه بأن يدفعه بقدمه، لولا نظر إلى وجهه المدار إلى أعلى فألجم نفسه عن ذلك الفعل، وما لبث أن انحنى وأظلَّ الشمعة بيده، وأخذ يتفحَّص ملامحه من كثبٍ. ورغم قربه منه في هذا الفحص الأوَّليِّ إلَّا أنه لم يكفه، فقد أخذ يمرُّ الضوء وهو يظلُّه بحرصٍ كما في المرة الأولى على وجهه من جهة إلى أخرى، وهو مع ذلك يتفحَّصه بعين باحثة.

وبينا هو على هذه الحال إذا النائم يستيقظ في غير فزعٍ ولا تقلُّب. كان ثَمَّ سحرٌ في لقاء نظرته الثابتة هكذا بغتة، ما سلب الآخر حضور ذهنه فلم يسحب نظرته الفاحصة، وأجبره على أن يقابل عينيه. هكذا ظلَّا يحدِّق كلٌّ منهما إلى صاحبه، إلى أن قطع مستر (تشستر) الصمت أخيرًا وسأله في نبرة خافتة لماذا يرقد هنا.

أجاب (هيو) وهو يجاهد ليعدِّل وضعه إلى الجلوس وهو ما زال يحدِّق إليه باهتمامٍ: «لقد ظننتك جزءًا من حلمي، لقد كان حلمًا غريبًا، أرجو ألَّا يتحقَّق أبدًا يا سيدي».

«لماذا ترتعد هكذا؟».

زمجر وهو يهزُّ نفسه وينهض: «أظنُّه البرد، ومع ذلك فأنا لا أكاد أعرف أين أنا».

قال مستر (تشستر): «أتعرفني؟».

أجاب: «نعم، أعرفك، لقد كنت أحلم بك، إننا لسنا حيث كنت أظنُّنا، هذا مريح».

كان ينظر حوله وهو يتكلم، وبالأخص كان ينظر إلى أعلى، كما لو كان يتوقع بعض التوقُّع أن يكون واقفًا تحت شيء كان موجودًا في حلمه. ثم فرك عينيه وهزَّ نفسه ثانية وتبع قائده إلى غرفه الخاصة.

أوقد مستر (تشستر) الشموع المنتصبة على منضدة زينته، ثم قرَّب مقعدًا مريحًا على عجلاتٍ من المدفأة التي كانت ما زالت مشتعلة، وأثار أوار المدفأة فصار مبهجًا ثم جلس أمامها وأمر زائره الفظ: «تعال هنا» وأن يخلع له نعليه.

ثم قال بينما (هيو) جاث على إحدى ركبتيه ينفِّذ ما أمر به: «لقد كنتُ تسكر مجددًا يا صديقي الممتاز».

«أبدًا أبدًا يا سيدي، لقد مشيت الأميال الاثني عشر الطوال وظللت أنتظر هنا، لا أدري كم انتظرت، ولم أذق طعم الشراب منذ وقت الغداء في الظهر».

قال مستر (تشستر): «ولا تستطيع يا صديقي المبهج أن تفعل شيئًا أفضل من أن تسقط نائمًا وتهزُّ أساس المبنى بشخيرك؟ ألا تستطيع أن تحلم وأنت وسط تبنك في بيتك، وأنت كلب أحمق هكذا، حتى تحتاج إلى أن تأتي إلى هنا لتحلم؟ ناولني خفَّيَّ هذين، وامشِ برفقٍ».

أطاعه (هيو) في صمتٍ. فقال مستر (تشستر) وهو يرتديهما:

«وأنصت إليَّ يا عزيزي السيد الشاب. في المرة القادمة حين تحلم، لا تجعلني في حلمك، وإنما ليكن فيه كلب أو حصان من تلك التي تعتادها وتعرفها جيّدًا. املأ لنفسك الكأس مرة واحدة، ستجدها مع الزجاجة في نفس المكان، واجرعها لتوقظ نفسك».

أطاعه (هيو) ثانية بحماسٍ أكبر، وبعد ذلك مثل بين يدي راعيه. قال مستر (تشستر):

«والآن ماذا تريد مني؟».

ردَّ (هيو): «كانت هناك أخبار اليوم، كان ابنك في منزلنا، جاء على ظهر حصان. حاول رؤية الفتاة لكنه لم يفلح. ترك خطابًا أو رسالة في حوزة (چو)، لكن (چو) تشاجر مع العجوز بخصوص تلك الرسالة حين مضى ابنك لشأنه، ولم يكن يطيب للعجوز أن يدع الرسالة توصل إلى وجهتها.

إنه يقول -أعني العجوز- إن أحدًا من ناسه لن يتدخَّل ويورِّطه في متاعب. يقول إنه رب فندق ويعيش على معاملات كلِّ الناس».

ابتسم مستر (تشستر): «إنه جوهرة، والأجمل أنه جوهرة غبية، حسنًا؟».

«ابنة (ڤاردن)، تلك الفتاة التي قبَّلتها».

قال مستر (تشستر) في رصانة: «وسرقت منها السّوار في طريق الملك، نعم، ماذا عنها؟».

«لقد كتبت رسالة في منزلنا إلى السيدة الشابة، تقول فيها إنها قد فقدت الخطاب الذي أحضرتُه إليكَ وأحرقته. كان (چو) منوطًا بحمل تلك الرسالة غير أنَّ العجوز احتبسه في المنزل طيلة اليوم التالي عامدًا لكي لا يوصلها. في الصباح التالي أعطانيها لأوصلها، وها هي ذي».

قال مستر (تشستر) وهو يلفُّ رسالة (دلّي) بين إبهامه وسبَّابته مصطنعًا الدهشة: «إذن فأنت لم توصل الرسالة يا صديقي الطيب؟».

ردَّ (هيو): «افترضت أنك ستحب أن تنتهي إلى يدك، فكرت أنك ما دمت أحرقتَ واحدة فستحب أن تحرق الجميع».

قال مستر (تشستر): «صاحبي الطائش. إنَّك حقًّا إن لم تميِّز بطريقة أفضل، ستنتهي حرفتك بغتة على نحوٍ مدهشٍ. ألا تعرف أنَّ الخطاب الذي أحضرته إليَّ كان موجَّهًا إلى ابني الذي يسكن نفس هذا المكان؟ ألا تستطيع تمييز أي اختلاف بين الخطابات الموجَّهة إليه وتلك الموجَّهة إلى غيره؟».

قال (هيو) وقد أحبطه هذا التقريع إذ كان يتوقَّع ثناءً رفيعًا: «إن لم تكن تريدها فأعطنيها وسأوصلها. لا أعرف كيف أرضيك يا سيدي».

ردَّ راعيه وهو يضعها جانبًا بعد تدبُّرٍ لحظة: «سأوصلها بنفسي، هل تخرج السيدة الشابة للتنزُّه في الصباحات الرائقة؟».

«غالبًا، والظهر وقتها المعتاد».

«بمفردها؟».

«نعم، بمفردها».

«أين؟».

«في الأفنية التي أمام المنزل، تلك التي يقطعها الممشى».

قال مستر (تشستر) بهدوءٍ كما لو كانت من معارفه المألوفين: «إذا كان الطقس مناسبًا فربما أرمي بنفسي في طريقها غدًا. مستر (هيو)، إذا ما ركبت إلى باب (مايپول) فستسدي إليَّ خدمة بأن تتظاهر بأنَّك لم ترني إلَّا مرة واحدة. عليك أن تخمد امتنانك وتحاول نسيان تسامحي في موضوع السِّوار. من الطبيعي أن يُثار الموضوع على لسانك، وهو يشرِّفك، لكن حين يكون حولنا آخرون، فعليك -لمصلحتك وأمانك- أن تكون كما اعتدت أن تكون، وكما لو كنت لا تدين لي بأيِّ واجب، ولم تقف أبدًا بين هذه الجدران. هل تفهمني؟».

فهمه تمامًا. وبعد هنيهة غمغم بأنه يرجو ألَّا يورِّطه راعيه في أي متاعب بخصوص هذه الرسالة الأخيرة، فهو قد احتفظ بها ليسرّه فحسب. أخذ يواصل هذا الحديث إلى أن أسكته مستر (تشستر) بلهجة الراعي المنعم قائلًا:

«صديقي الطيب، لقد أعطيتك وعدي، كلمتي، تعهُّدي المختوم، فإنَّ تعهُّدًا لفظيًّا معي يساوي تعهُّدًا مختومًا، بأني سأحميك دائمًا ما استحققت

ذلك. والآن هدِّئ من روعك. أرِح بالك، أرجوك. حين يضع إنسان نفسه بالكامل تحت تصرُّفي كما فعلتَ، فإنني أشعر حقًّا بأنَّ له حقًّا ما عليَّ. وإنني أميل إلى الرحمة والتسامح تحت تلك الظروف أكثر مما أستطيع أن أخبرك يا (هيو). انظر إليَّ باعتباري حاميك واطمئنَّ أرجوك إلى أنك بخصوص موضوع تلك الهفوة تستطيع أن تحتفظ بأخفّ قلبٍ ينبض في صدر آدمي، ما دمنا ظللنا صديقين. أترع هذه الكأس ثانية لتنعشك في رحلة عودتك إلى البيت. إنني حقًّا خجلٌ تمامًا من اضطرارك إلى قطع تلك المسافة، والآن فليباركَّ الربّ هذه الليلة».

قال (هيو) بعد أن جرع الكأس: «إنهم يظنونني نائمًا نومًا عميقًا في الحظيرة، هاهاها! باب الحظيرة مغلق لكنَّ الجواد قد خرج يا سيدي».

ردَّ صديقه: «يا لك من صديقٍ مرحٍ، وإنني أحبُّ حسَّك المرح أكثر شيء. طابت ليلتك، انتبه لنفسك بأقصى ما تستطيع لأجلي».

من الجدير بالملاحظة أنّ كلًّا منهما كان يحاول استراق النظر إلى صاحبه طيلة هذا اللقاء، ولم يملأ عينيه منه أبدًا. تبادلا نظرةً وجيزةً عجلةً حين همَّ (هيو) بالمغادرة، ثم صرف كلٌّ منهما عينيه على الفور، وهكذا افترقا. أغلق (هيو) الباب المزدوج خلفه بحرصٍ وهدوءٍ، وبقي مستر (تشستر) في مقعده المريح بنظرة ثابتة على نار المدفأة. ثم قال بعد أن أمضى وقتًا طويلًا في التأمُّل، بتنهدٍ عميقٍ وتغيير عسير في وضع جلوسه كما لو كان يصرف موضوعًا آخر من دائرة أفكاره ويعود إلى ذلك الذي شغله طيلة اليوم:

«حسنًا! الموضوع يتعقَّد؛ لقد ألقيتُ القنبلة وستنفجر حسبما أعتقد في ثمان وأربعين ساعة، وستبعثر هؤلاء الطيبين من حولها إلى درجة مدهشة. سنرى!».

أوى إلى فراشه ونام، لكنه ما لبث أن قام فزعًا، ظانًّا أنَّ (هيو) واقفٌ بالباب الخارجي، ينادي بصوتٍ غريبٍ لا يشبه صوته، مستئذنًا في الدخول. كان ظنًّا متمكِّنًا منه تمامًا، مفعمًا بذلك الرعب الغامض الليلي الذي تولد فيه مثل هذه الرؤى، حتى إنه نهض من فراشه وأخذ سيفه المغمد في يده وفتح الباب ونظر إلى الدرج في الخارج، وإلى البقعة التي كان (هيو) راقدًا فيها، بل إنه كلَّمه باسمه، لكنَّ الظلام والهدوء كانا مخيِّمين تمامًا، فما لبث أن عاد وئيدًا إلى فراشه، وبعد أن أمضى ساعة في الترقُّب المضني سقط في النوم ثانية ولم يستيقظ إلى الصباح.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

دائمًا يحكم أفكار الدنيويِّين قانون جذب أخلاقيٍّ يشبه قانون الجذب الطبيعي في كونه يشدُّهم إلى الأرض. وسدىً يناشدهم مجد النهار الساطع والأعاجيب الساكنة في سماء الليل المزدانة بالنجوم. ليس ثمَّ علامات في الشمس أو القمر أو النجوم ليقرؤوها. إنهم كبعض الحكماء الذين ما إن يتعلموا الاسم اللاتيني لكل كوكب حتى ينسوا تمامًا تلك المجرَّات السماوية الصغيرة كالبر والتسامح، والحب والرحمة الكونيين، رغم أنها مجرَّات دائمة السطوع في بريق ليل نهار، حتى إنها لا تخفى على الأعمى، أولئك الحكماء الذين إن نظروا إلى أعلى حيث السماء المرصَّعة بالنجوم لم يروا فيها شيئًا إلَّا انعكاس حكمتهم العظيمة وعلمهم المستقى من الكتب.

من العجيب أن يتخيل المرء هؤلاء الناس من أهل الدنيا، مشغولي الفكر، وهم يرفعون أبصارهم إلى الأجرام الساطعة فوقنا، تلك التي تفوق الحصر، ليجعلوها تعكس الصور التي تضمُّها أذهانهم فحسب. إنَّ الرجل الذي لا يعيش إلَّا في أنفاس الأمراء تلوح لناظريه صدور أهل البلاط نجومًا. أما الحقود فيلمح ما لجيرانه من شرف حتى في السماء. بالنسبة إلى جامع المال وجمهور أهل الدنيا في عمومه فإنَّ الكون العظيم في إجماله فوقنا يلتمع بقطع الإسترليني الخارجة لتوّها طازجةً من دار

سكِّ النقود، مطبوعة برأس الحاكم، فهي دائمًا وأبدًا تحول بينهم وبين السماء أينما تقلَّبت أبصارهم. وهكذا تحول بيننا وبين ملائكتنا الأفضل ظلال رغباتنا لتكسف سطوعهم.

كان كلُّ شيء طازجًا بهيجًا كما لو كان العالم لم يخلق إلَّا هذا الصباح، بينا مستر (تشستر) راكب في خطىً هادئة عبر طريق الغابة. كان الطقس دافئًا لطيفًا رغم أننا في بداية الموسم، وكان الشجر مورقًا والعشب وأسيجة الشجيرات خضراء والهواء مفعمًا بالموسيقى من أغاني الطيور، وفوقها جميعًا كانت القبَّرة تصبُّ في الجو أغنى أنغامها. كان الندى يتألَّق فوق كل ورقة خضراء غضَّة في البقاع الظليلة، وأما حيث تسطع الشمس فقد كانت قطرات الألماس تبرق كما لو كانت لا تقوى على فراق عالم جميل كهذا ولا على أن يقصر وجودها هكذا. حتى الريح الخفيفة التي كانت خشخشتها لطيفة الوقع على الأذن كخرير ماءٍ منسابٍ، كان لها أملها ووعدها، وكانت –إذ تخلِّف في مسارها عبقًا بهيجًا حيثما خفقت– تهمس باتصالها بالصيف ومقدمه السعيد.

أخذ الراكب الوحيد يقلِّب بصره بين الأشجار من ضوء الشمس إلى الظل إلى ضوء الشمس مرة أخرى، بخطوة مطمئنة، وكان بالطبع ينظر فيما حوله من وقتٍ إلى آخر، لكن لم تكن لتشغله فكرة بشأن اليوم أو المشهد الذي يخترقه بدابَّته بخلاف كونه محظوظًا بما عليه من اللباس لأنَّ الطقس مناسب له. حين كانت تجول هذه الفكرة بخاطره كان يبتسم في لا مبالاة، لكنها ابتسامة رضا عن النفس أكثر مما هو رضا عن أيّ شيء آخر، وهكذا واصل ركوبه على صهوة جواده الكميت، وقد كانت هيئته تسرُّ تمامًا كهيئة الجواد، غير أنه ربما كان أقلَّ حساسية من الجواد بكثيرٍ لكلِّ تلك المؤثِّرات المبهجة التي كان محاطًا بها.

بعد وقتٍ لاحت له مداخن (مايپول) الضخمة، لكنه لم يعجِّل خطوته مثقال ذرَّة، بل اتجه إلى مدخل الخان بنفس الوقار الهادئ. كان (چون ولت) يدفئ وجهه الأحمر أمام نارٍ عظيمة في الحانة، مفكِّرًا ببصيرة نافذة وسرعة بديهة وهو ينظر إلى السماء الصافية أن الأمور إن استمرَّت على ما هي عليه فلربما يكون ضروريًّا أن يتخلَّى عن نيران المدفأة ويفتح النوافذ على مصاريعها. وما كان منه إلَّا أن أسرع ليمسك بركاب (تشستر) وأخذ ينادي (هيو) في نشاطٍ بالغٍ.

قال (چون) دهشًا إلى حدٍّ ما من سرعة ظهور (هيو): «أوه، أنت هنا، أليس كذلك؟ خذ هذه الدابَّة الثمينة إلى الحظيرة، واعتنِ به عناية فوق الخاصة إن أردت الاحتفاظ بعملك. إنه يحتاج إلى قدرٍ من العناية يا سيدي، هذا المخلوق الفاني الكسول».

ردَّ مستر (تشستر) مناولًا (هيو) اللجام وهو يترجَّل ويرد تحيَّته بإشارة لا مبالية من يده صوب قبَّعته: «لكن لديك ابنًا، لماذا لا تستفيد منه؟».

ردَّ (چون) بجدية عظيمة: «الحق يا سيدي أن ابني.. ماذا؟ هل تتنصت أيُّها الوغد؟».

ردَّ (هيو) مغضبًا: «من الذي يتنصَّت؟ يا لَه من شيء حلو أن يسمعك المرء تتحدَّث! هل تسمح لي بأن آخذه إلى الداخل حتى يهدأ؟».

صاح (چون) العجوز: «امش به ذهابًا وجيئة بعيدًا عن هنا إذن. وحين تراني أتبادل الحديث مع سيدٍ نبيلٍ ابق بعيدًا» ثم أضاف مستر (ولت) بعد وقفة طويلة جدًّا كانت عيناه البطيئتان خلالها مثبَّتتين على (هيو) بينما ينتظر بصبرٍ عظيمٍ أيّ أفكارٍ قد تخطر بباله: «فإن لم تكن تعرف ما مسافتك، فسنجد طريقة لتعريفك بها قريبًا جدًّا».

هزَّ (هيو) كتفيه في ازدراءٍ، وما لبث أن عبر إلى الجانب الآخر من البقعة الخضراء الصغيرة بطريقته المختالة اللا مبالية، وهناك أخذ يقتاد الجواد ذهابًا وجيئة واللجام ملقىً من دون اهتمامٍ على كتفه، بينما يسترق النظرات إلى سيده بين الفينة والفينة من تحت حاجبيه الكثَّين، في هيئة ما أشأمها!

أمَّا مستر (تشستر) الذي كان ينظر إليه باهتمامٍ خلال هذه المشادّة القصيرة من دون أن ينتبه له فقد خطا إلى داخل الرواق ثمَّ استدار بغتة إلى مستر (ولت) قائلًا:

«تحتفظ بخدمٍ غريبي الأطوار يا (چون)».

أجاب المضيف: «غريبون إلى درجة تسترعي النظر بالتأكيد يا سيدي. لكن خارج الأبواب، فيما يتصل بالجياد والكلاب وما إليها فلا يوجد في إنگلترا رجلٌ أفضل من (هيو) خادم (مايپول) هذا».

ثم أضاف مستر (ولت) بلهجة رجلٍ يشعر بطبيعة نفسه السامية: «هو غير صالح لحياة المنزل، أعترف بذلك، لكنَّ هذا الشاب لو كان لديه قليلٌ من الخيال يا سيدي.».

قال مستر (تشستر) في نغمة متأمِّلة بدت موحية بأنه كان سيقول الشيء نفسه لو لم يكن هناك من يسمعه: «أجدني مستعدًّا أن أقسم على أنه الآن إنسانٌ نشيطٌ».

ردَّ (چون) وقد ارتسم تعبيرٌ ما على وجهه: «نشيط يا سيدي! هذا الشاب؟ هالّو! أنت أيها السيد! أحضر هذا الحصان إلى هنا، واذهب لتعلِّق شعري المستعار على دوَّارة الريح لتري هذا السيد ما إذا كنت نشيطًا أم غير ذلك!».

لم يحر (هيو) جوابًا، لكنَّه ألقى اللجام إلى سيده واختطف الشعر المستعار من فوق رأسه بأسلوب عجل جاف للغاية حتى إنَّ ذلك أربك مستر (ولت) جدًّا رغم كونه قد فعل كلّ ذلك نزولًا على رغبته، وما لبث أن تسنَّم في نشاط ذروة الناغط المنتصب أمام الخان وعلَّق الشعر المستعار على دوَّارة الريح لتدور في مكانها كالسفود. وبعد أن أنجز هذا الأداء ألقى الشعر المستعار إلى الأرض وانزلق على النغط في سرعة بالغة لتلمس قدماه الأرض تقريبًا في اللحظة نفسها التي لمس فيها الشعر المستعار الأرض.

قال (چون) مستعيدًا هيئته الفخمة المعتادة: «هاك يا سيدي، لن ترى ذلك في منازل كثيرة بخلاف (مايپول) حيث السكنى الطيبة للإنسان والدواب، ولا ذلك أيضًا، رغم أنه لا شيء بالنسبة إليه».

كان يشير بهذه الملاحظة الأخيرة إلى وثوب (هيو) إلى صهوة الجواد كما فعل في زيارة مستر (تشستر) الأولى، واختفائه سريعًا عبر بوابة الحظيرة.

كرَّر مستر (ولت) وهو يمشِّط شعره المستعار برسغه، عازمًا في قرارة نفسه على أن يوزِّع تعويضًا صغيرًا عمَّا لحق هذا الجزء من هندامه من الغبار والضرر على بنود فاتورة ضيفه:

«هذا بالنسبة إليه لا شيء. بإمكانه أن يخرج من أي فتحة ضيقة في الخان. لم يوجد أبدًا من قبل شاب مثله يرمي بنفسه هكذا دون أن يؤذي عظامه. ومن رأيي يا سيدي أن هذا يرجع إلى افتقاره إلى الحد الأدنى من الخيال، وأننا لو استطعنا أن نحشر الخيال في عقله –وهو شيء لن نتمكَّن

منه- فلن يستطيع أن يفعل ذلك مجدَّدًا، لكننا كنَّا نتكلم يا سيدي عن ابني».

ردَّ زائره مستديرًا ثانية إلى رب الخان بطمأنينة وجهه المعتادة: «حقًّا يا (ولت)، حقًّا يا صديقي الطيب، ماذا عنه؟».

قيل إنَّ مستر (ولت) غمز قبل أن يجيب سائله. لكن حيث إنه لم يعرف عنه أبدًا أنه قد اتّهم بخفَّة مسلك كهذه، لا قبل هذا الحوار ولا بعده، فيمكننا أن ننظر إلى هذا القيل باعتباره تلفيقًا حاقدًا من أعدائه، ربما يكونون قد بنوه على تفصيلة لا ريب في حدوثها تتعلَّق بأخذه ضيفه بزرِّ الصدر الثالث لمعطفه -إذا ما عددنا إلى أسفل من عند الذقن- وصبّه ردَّه في أذنه، هامسًا في اعتدادٍ بالنفس:

«سيدي، أنا أعرف واجبي. لا نريد هنا قصص حبٍّ لا يعلم الآباء بتفاصيلها. أنا أحترم سيدًا شابًّا معيَّنًا، آخذًا إيَّاه على محمل السيد الشاب، وأحترم سيدة شابة معينة، آخذًا إيَّاها على محمل الفتيات الشابات، لكني ليس لي علم بهما معًا كزوجين، لا علم لي إطلاقًا. أمَّا ابني يا سيدي فهو في دوريّته».

قال مستر (تشستر) الذي فكَّر بالطبع أنَّ كون إنسان في دوريّة يعني أنه يمشي في مكانٍ ما: «لقد ظننتني رأيته منذ لحظة ينظر من نافذة الركن».

ردَّ (چون): «لا شكَّ أنك رأيته يا سيدي، إنه في دورية الشرف يا سيدي، غير مسموح له بمغادرة الخان. لقد فكَّرت مع مجموعة من أصدقائي الذين يتردَّدون على (مايپول) ذات مساء في أفضل ما يفعل معه لمنعه من فعل أي شيء مؤسف ضد رغباتك، وهكذا وضعناه في دوريَّته. وأكثر من ذلك يا سيدي أنه سيظل وقتًا طويلًا غير مسموح له بمغادرة دوريته، أؤكد لك ذلك».

وحين فرغ مستر (ولت) من الإفصاح لضيفه عن هذه الفكرة الذكية التي نبعت من تصفُّح رفاق القرية جريدة تضم بين ما تضم حكاية عن ضابط زيد في زمن دوريته ريثما يظهر حكم المحكمة العسكرية عليه، ابتعد مستر (ولت) عن أذن ضيفه وضحك ثلاثًا ضحكًا مكتومًا مسموعًا في آن، دون أن تتغيَّر ملامحه. لم يكن من شأن هذه المقاربة للضحك التي لا يعرف غيرها في حياته -والتي لا ينخرط فيها إلَّا نادرًا وفي المناسبات القصوى- أن تلوي شفته أبدًا أو أن تحدث ولو تغييرًا طفيفًا في ذقنه السمين العظيم المزدوج، لا، ولا حتى هزة طفيفة. ذلك الذقن الذي كان في هذه الأوقات كما في غيرها يبقى صحراء تامة في خارطة وجهه العريضة، خلاءً رهيبًا مملًّا لا يتغيَّر.

وحتى لا يُدهَش أحدٌ من اتخاذ مستر (ولت) هذه الطريقة الجريئة في الحوار إزاء شخص طالما كان يحترم وجوده، شخص طالما كان يدفع بسخاء كلما مرَّ بـ(مايپول)، فينبغي لنا أن نقول إن فطنته وحكمته هما ما دفعاه إلى الانخراط في إظهار حسِّه الفكاهي الذي بيَّنَّاه لتوِّنا، على غير العادة. فإن مستر (ولت) بعد أن أخضع الأب والابن لميزان عقله في حرصٍ، وصل إلى نتيجة واضحة مفادها أن السيد العجوز زبون أفضل من السيد الشاب. وحيث إنه قد ألقى صاحب الخان على نفس الميزان الذي كان قد مال بالفعل للاعتبار السالف، وأخذ يزيد كفَّته برغباته القوية في أن تسير الأمور ضد (چو) التعيس، فضلًا عن معارضته كمبدأ عامٍّ لكل أمور الحب والزواج، فقد وصلت كفة (تشستر) العجوز سريعًا إلى الأرض، بينما طاشت كفَّة السيد الشاب بدعواه الخفيفة إلى السقف. ولم يكن مستر (تشستر) بحالٍ من ذلك النّوع من الرّجال الذي قد لا يلمح بوضوح دوافع

مستر (ولت)، غير أنّه قد كال له آيات الشّكر كما لو كان (ولت) أحد أخلص من سطعوا على الأرض من الشّهداء. ثمّ ما لبث أن تركه مثنيًا على ذائقته العظيمة وحسن تقديره، معتمدًا عليهما في أن يعدَّ له العشاء الذي يعتبره ملائمًا لهذه المناسبة، وواصل طريقه قاصدًا منزل (وارن).

متأنِّقًا أكثر مما اعتاد، متبنِّيًا أسلوبًا غاية في التهذيب، ورغم كون هذا الأسلوب نتيجة تدرُّب ودراسة طويلة فإنه لاءمه واتَّحد به تمامًا، مؤلِّفًا قسماته في أوفر تعبيراتها سكينة وجاذبية، ومرتديًا باختصارٍ ذلك الستر الذي ينطق بأن الأهمية التي يعلِّقها على ما يتركه من انطباعٍ أبعد ما تكون عن الضآلة، اقتحم حدود التنزُّه المعتادة للآنسة (هاردال). ولم يكن قد مضى مسافة بعيدة بعد ولا قلَّب بصره فيما حوله طويلًا حين رأى قوامًا أنثويًّا يقترب منه. ولمَّا لمح هيئتها ولباسها وهي تعبر جسرًا خشبيًّا صغيرًا بينهما اطمأنَّ إلى أنه قد عثر على تلك التي أتى راغبًا في رؤيتها. ألقى بنفسه في طريقها، وما هي إلَّا خطوات وكان كلٌّ منهما قرب الآخر.

رفع قبَّعته وتنحَّى عن طريقها سامحًا لها بأن تمرَّ به. ثم ما لبث أن استدار معجلًا كما لو كانت الفكرة لم تخطر بباله إلا الآن وقال بصوتٍ مهتاجٍ:

«معذرةً، هل أخاطب الآن الآنسة (هاردال)؟».

توقَّفت مرتبكةً بعض الشيء وقد باغتها ذلك الغريب وأجابت: «نعم».

قال وهو يرسم تعبيرًا مطريًا لجمالها: «أخبرني شيء ما بأنَّك لا يمكن أن تكوني شخصًا آخر. آنسة (هاردال)، إنني أحمل اسمًا ليس بمجهول

لديك، أشرف ويؤلمني في الوقت ذاته بأنَّ له رنَّة مبهجة في أذنك. أنا رجل تقدَّم بي العمر كما ترين. أنا والد ذلك الذي تشرِّفينه وتعلين قدره فوق من عداه من الرجال. ألي أن أرجوك أن نتحدَّث معًا دقيقة هنا، لأسباب معتبرة تملؤني غمًّا؟».

أيّ إنسان لا خبرة له بالخداع وله قلب شاب مخلص كان يمكن أن يرتاب في صدق المتحدِّث؟ لا سيَّما أن الصوت كان أقرب إلى صدىً باهت لصوتٍ آخر يعرفه جيدًا ويعشق سماعه؟ أمالت رأسها وتوقَّفت مطرقة.

«أبعد قليلًا أحدنا عن الآخر بين هذه الأشجار، إنها يد رجل عجوز يا آنسة (هاردال)، يد مخلصة صدِّقيني».

وضعت يدها في يده إثر هذه الكلمات، وتركته يقودها إلى مقعدٍ قريبٍ ثم قالت بصوتٍ خافتٍ:

«أنت تقلقني يا سيدي، أرجو ألَّا تكون حاملًا أخبارًا سيئة».

أجاب وهو يجلس جوارها: «لا أحمل أي أخبار تتوقَّعينها. (إدوارد) بخيرٍ، بخيرٍ تمامًا. عنه أريد أن أتحدَّث بالتأكيد، لكن ليس ثمَّ أخبار سيئة لأطلعك عليها بخصوصه».

أحنت رأسها ثانية وبدت كما لو كانت ترجوه أن يواصل حديثه، لكنها لم تقل شيئًا.

«إنني واعٍ لكوني أتحدث إليك من موقف ضعف يا عزيزتي آنسة (هاردال). صدِّقيني، أنا لم أنسَ مشاعر صباي إلى هذه الدرجة التي تجعلني لا أعرف أنك لا تميلين إلى الارتياح لي. لقد سمعت بي موصوفًا ببرودة القلب والقسوة والأنانية.».

قاطعته بأسلوبٍ مختلفٍ وصوتٍ أثبت: «أنا يا سيدي لم أسمع بك أبدًا يتحدَّث عنك بأوصاف قاسية أو ينقصها الاحترام، إنك تظلم طبيعة (إدوارد) كثيرًا إذا ظننته قادرًا على الإتيان بمثل هذه الدناءة أو الوضاعة».

«سامحيني يا سيدتي الشابة الحلوة، لكنَّ عمَّك.».

ردَّت وقد احمرَّت وجنتاها: «وليس ذلك في طبيعة عمي هو الآخر، ليس من شيمه أن يطعن في الظلام وليس من شيمي أن أحبَّ أفعالًا كهذه».

نهضت بينما تتحدَّث وكانت موشكة على تركه، لكنَّه استبقاها بيدٍ حانية ورجاها بلهجة ملؤها الإقناع أن تسمعه دقيقة أخرى، حتى إنها لم تجد بدًّا من الانصياع له، وما لبثت أن جلست ثانية.

قال مستر (تشستر) ناظرًا إلى أعلى مناجيًا الهواء: «وهي هذه النفس المخلصة البريئة النبيلة يا (ند) التي قدرت على أن تجرحها بهذه البساطة؟ يا له من عارٍ عليكَ يا ولدي».

استدارت إليه في عجلة بنظرة مزدرية وعينين متوهِّجتين. كان ثمَّ دموع تترقرق في عيني مستر (تشستر) لكنه أسرع بتجفيفهما كما لو كان يأبى أن يُرى ضعيفًا، ونظر إليها في مزيجٍ من الإعجاب والتعاطف. قال:

«لم أكن لأصدِّق حتى هذه اللحظة أنَّ أفعال شابٍّ طائش يمكن أن تؤثِّر فيَّ كما أثَّرت أفعال ابني. لم أعرف أبدًا إلى هذه اللحظة قدر قلب المرأة الذي يفوز به الشباب ببساطة ويطوِّحونه بعيدًا بنفس البساطة. صدِّقيني يا سيدتي الشابة العزيزة، أني لم أكن أعرف إلى الآن قدرك، ورغم أنَّ كراهية الخداع والزَّيف قد أجبراني على البحث عنك، حتى إني كنت سأفعل ما فعلته ولو كنتِ أفقر بنات جنسك وأقلهنَّ مواهب، إلَّا أني

كنت سأفتقر إلى الثبات الكافي لهذه المواجهة لو كنت قد رسمتك في خيالي على ما أنت عليه في الحقيقة».

أوه! لو قدِّر للسيِّدة (ڤاردن) أن ترى الرجل الفاضل وهو يقول هذه الكلمات والحنق يلمع في عينيه، ولو قدِّر لها أن تسمع صوته المتهدِّج المتكسِّر، ولو قدِّر لها أن تراه واقفًا عاري الرأس هكذا في الشمس يصبُّ بلاغته بحماسة نادرة!

نظرت إليه (إمّا) في صمتٍ، بوجه ملؤه الكبرياء، لكنَّه شاحبٌ يرتعد مع ذلك. لم تنبس ببنت شفة ولم تتحرك، لكنها ظلت تحدِّق إليه كما لو كانت تودُّ لو ترى إلى داخل قلبه.

قال مستر (تشستر): «إنني أطرح كل قيد تفرضه العاطفة الطبيعية على بعض الرجال، وأنفض عني كل رابطة، خلا رابطة الصدق والواجب. آنسة (هاردال)، لقد خُدِعتِ، خدعك عاشقك غير الجدير بك، ابني، غير الجدير بي».

ظلَّت محدقة إليه بثباتٍ، ولم تفه بحرفٍ.

«لطالما كنت معارضًا تصريحه لك بالحب. ستكونين عادلة معي يا آنسة (هاردال) بأن تتذكَّري ذلك. كنَّا عمُّك وأنا عدوّين في شبابنا، ولو كنت أبحث عن الانتقام لوجدته هنا. لكنَّنا نصبح أحكم حين يتقدَّم بنا العمر، ولقد عارضت محاولته هذه من البداية. لقد تنبَّأت بنهاية مسعاه، ولو كنت أستطيع لأنقذتك».

اهتزَّ صوتها قائلة: «أفصح عمَّا تريد يا سيدي، إنك تخدعني، أو أنت نفسك مخدوع، أنا لا أصدقك، لا أستطيع ولا ينبغي لي أن أصدِّقك».

قال مستر (تشستر) ملاطفًا: «أولًا، حيث ربما كنت تكنِّين مشاعر غاضبة تجعلني شخصًا غير مقبول لك، فأرجوك تناولي هذه الرسالة. لقد وصلت إلى يدي بالصدفة والخطأ، وكان المقرَّر لها أن تفسِّر لك -كما قيل لي- عدم إجابة ابني رسالة أخرى أرسلتها إليه».

ثم تابع السيد الطيب في لهجة مفعمة بالعاطفة: «لا قدَّر الله يا آنسة (هاردال) أن يكون في قلبك الطيِّب سببٌ لا أساس له يدعوك إلى التّشاجر معه. يجب أن تعرفي -وسترين بنفسك- أنه لم يكن مخطئًا هنا».

كان يبدو أنَّ هناك شيئًا في غاية الإخلاص والشرف والورع والصدق والعدل في هذا المسلك، شيئًا جعل الشخص المستقيم الذي لجأ إليه جديرًا تمامًا بالتصديق، حتى إن (إمّا) شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبها لأول مرة، استدارت وانفجرت باكية، انحنى مستر (تشستر) فوقها وقال بلهجة لطيفة شريفة:

«لكم أتمنَّى يا فتاتي العزيزة أن لو كان بيدي أن أذهب عنك علامات حزنك هذه، لا أن أزيدها. إن ابني -ابني المخطئ، فلن أدعوه عامدًا (مجرمًا) في هذا الأمر، فإن الرجال في مثل سنِّه، لا سيَّما أولئك الذين كانت لهم مغامرة أو مغامرتان عاطفيتان من قبل، يتصرفون من دون رويَّة، بل تقريبًا من دون أن يعرفوا حجم ما يرتكبونه من خطأ- أقول إن ابني سيحنث بعهد الحب الذي عاهدك عليه، بل إنه قد حنث به بالفعل. هل أتوقَّف هنا، وأترك الأمور تأخذ مجراها وقد حذَّرتك، أم أواصل حديثي؟».

أجابت: «ستواصل يا سيدي وتفصح عمَّا تريد قوله بوضوحٍ، عادلًا مع كلينا، هو وأنا».

قال مستر (تشستر) منحنيًا فوقها في مزيدٍ من الحنوِّ: «فتاتي العزيزة، التي يطيب لي أن أدعوها (ابنتي) لولا حرمان الأقدار، إنَّ (إدوارد) يحاول أن يقطع علاقتكما استنادًا إلى تظاهرٍ بالغ الزيف والكذب. معي دليل ذلك بخط يده هو. سامحيني لو كنتُ قد راقبت سلوكه، فأنا أبوه، وقد كنتُ مهتمًّا بسلامك وشرفه، ولم تكن أمامي وسيلة أفضل مما لجأت إليه. على مكتبه في هذه اللحظة رسالة معدَّة لإرسالها إليك، يخبرك فيها بأنَّ فاقتنا -فاقتنا معًا أنا وهو يا آنسة (هاردال)- تمنعه من مواصلة تقدُّمه لطلب يدك، ويعرض فيها، بل يقترح بملء إرادته أن يطلقك من إسار عهدك له، ويتحدث في جزالة -هذا شيء كثيرًا ما يفعله الرجال في هذه الحالات- عن أنه سيكون أجدر باهتمامك مع الوقت، وما إلى ذلك. إنها رسالة لا يكتفي فيها بصراحة بأن يهجرك -سامحيني على هذه الكلمة، أهيب بكبريائك وكرامتك أن يعيناك- أخشى أنه لا يكتفي بأن يهجرك لصالح أخرى كانت استهانتها به أول ما أوحى له بعاطفته القصيرة نحوك، فوُلِدت هذه العاطفة في مهد الكبرياء الجريحة، لا، بل يتكلَّف أن يجعل من فعله هذا فضيلة وشيئًا جديرًا بالاحترام».

نظرت إليه في كبرياء مرة أخرى، كما لو كانت صادرة عن دافعٍ لا إراديٍّ، وردَّت بقلبٍ مكلومٍ:

«إن كان ما تقوله صدقًا يا سيدي، فإنّه بذلك يتجشَّم مشقَّة لا داعي لها في سبيل تنفيذ ما صمَّم عليه، إنه مهتمٌّ كثيرًا بسلامي النفسي، إنني أشكره شكرًا جزيلًا».

ردَّ: «ستختبرين صدق ما أخبرك به يا عزيزتي الشابة بتسلُّم الرسالة التي أحدِّثك عنها أو عدم تسلُّمها. (هاردال) صديقي العزيز، إنني مسرورٌ

بلقائك رغم أننا نلتقي في ظروفٍ استثنائية، وفي مناسبة كئيبة، أرجو أن تكون على ما يرام».

حين سمعت السيدة الشابة هذه الكلمات رفعت عينيها المغرورقتين بالدموع، فلمَّا رأت أن عمَّها كان واقفًا حقًّا أمامهما، وكانت في الوقت نفسه لا تقوى على محاولة سماع أو نطق كلمة واحدة فوق ما قيل، انسحبت عجلة وتركتهما. وقفا ينظر كلٌّ منهما إلى صاحبه وإلى شبحها المبتعد، ومكثا مدة طويلة لا ينبسان ببنت شفة.

أخيرًا قال مستر (هاردال): «ماذا يعني هذا؟ فسِّره لي، لماذا أنت هنا؟ ولماذا معها؟».

ردَّ الآخر مستعيدًا أسلوبه المعهود في استعدادٍ لا حدود له وهو يلقي بنفسه على الأريكة بلهجة ضجرة:

«صديقي العزيز، لم ينقض زمنٌ طويل على إخبارك إياي في ذلك الخان العتيق المبهج الذي أنت مالكه الموقَّر -ويا له من مكان ساحر للريفيين ذوي الصحة الموفورة الذين لا يخشون الإصابة بالبرد- بأنَّ لي رأسَ وقلبَ روحٍ شريرة في كل ما يتعلَّق بالخداع، فكرت إذ ذاك -حقًّا فكرت- أنك تطريني، غير أني الآن أعجب لبصيرتك، وحين أنحِّي غروري جانبًا، أجدني أظنُّ حقًّا أنك لم تنطق إلا الصدق. هل تقمَّصت أبدًا الإخلاص البالغ والحنق الحقيقي؟ صديقي العزيز، إن لم تكن قد فعلت، فإنك لا يمكن أن تتصور إلى أي مدى ينهك المرء أن يفعل ذلك».

تفرَّسه مستر (هاردال) بنظرة ملؤها الاحتقار البارد ثم قال عاقدًا ذراعيه: «أعرف أنك تستطيع أن تتملَّص من تقديم تفسير، لكني يجب أن أحصل على تفسير، وبمقدوري أن أنتظر».

ردَّ صديقه وهو يضع ساقًا فوق أخرى بتكاسلٍ: «لا، على الإطلاق يا صديقي الطيب، لن تنتظر لحظة، إنه أسهل شيء في العالم. في كلماتٍ قليلة، لقد كتب لها (ند) رسالة، خطابًا صبيانيًّا صادقًا عاطفيًّا، لم يغادر بعد مكتبه، إذ إنه لم يجرؤ على إرساله. سمحت أنا لنفسي -وهو شيء يكفيني كعذرٍ على اقترافه عاطفتي الأبوية وقلقي على ابني- وألممتُ بفحوى الرسالة. وصفت لابنة أخيك الفحوى -ويا لها من إنسانة جذَّابة يا (هاردال)، مخلوقة ملائكية تمامًا- ملوِّنًا إيَّاها بما يناسب غرضنا، انتهى الأمر. لك أن تبقى مرتاح البال، لقد انتهى كل شيء. ها هما محرومان من وسطائهما وأتباعهما، وها هي قد أثيرت غيرتها وكبرياؤها بأقصى ما يمكن، وليس ثم من سيطلعها على جليَّة الأمر، وأنت ستؤكِّد ما قلته أنا، وستجد أنَّ علاقتهما ستنتهي بردِّها. إذا ما تسلَّمت رسالة (ند) قبل ظهر الغد، فلك أن تؤرِّخ انفصالهما ابتداءً من ليلة غد. لا، شكرًا أرجوك، أنت غير مدين لي بأي شيء، لقد فعلتُ ما فعلتُ لأجل نفسي، ولو أنني قد مضيت قدمًا باتفاقنا بكل حماس تمنَّيته أنت نفسك، فما فعلت ذلك إلَّا لدوافع أنانية حقًّا».

ردَّ الآخر: «أنا ألعن هذا الاتفاق كما تسمِّيه بكلِّ قلبي وروحي، لقد عُقِد في ساعة شرٍّ، لقد ربطت نفسي إلى كذبة، وتحالفتُ معك، ورغم أني لم أفعل ذلك إلا لدافع تقيٍّ، ورغم أنه قد كلَّفني جهدًا لا يتصوَّره إلا قلة، فإنني أكره وأحتقر نفسي على هذه الفعلة».

قال مستر (تشستر) بابتسامة فاترة: «أنت سخن جدًّا».

«نعم أنا سخن، إن برودك يثير جنوني. الموت يا (تشستر) لو كان دمك يجري أسخن في عروقك ولو لم تكن هناك قيود عليَّ كتلك التي تغلّني وتمنعني. حسنًا، لقد انتهى الأمر كما تقول، ويمكنني أن أصدِّقك في هذه النقطة. حين يستبدُّ بي الندم على هذه الخيانة، فسأذكرك وأذكر زيجتك، وأحاول أن أبرِّر لنفسي بهذا التذكُّر إقدامي على قطع ما بين (إمّا) وابنك بأي ثمن، الآن ألغيت الرابطة بيننا ونستطيع أن نفترق».

قبَّل مستر (تشستر) يده بلطفٍ، واضطجع في ذلك الوضع المتكاسل في مقعده، بالوجه الهادئ نفسه الذي احتفظ به طيلة اللقاء، حتى حين رأى رفيقه معذَّبًا مشحونًا بالانفعال لدرجة أنه يهتزُّ من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وأخذ يراقبه وهو يبتعد، ثم قال رافعًا رأسه ليتابع ابتعاده:

«كبش فدائي وعامل سخرتي أيام المدرسة، وصديق الأيام التالية الذي لم يستطع أن يحتفظ بحبيبته بعد أن فاز بها، وألقاني في طريقها لأفوز بالجائزة، ها أنذا أنتصر في الحاضر والماضي. واصِل نباحك أيُّها الوغد التَّعس الهيَّاج، فالحظ لم يحالف إلَّاي، يحلو لي أن أسمعك».

كانت البقعة التي شهدت لقاءهما في طريق مشجرة، واصل مستر (هاردال) مساره في خطٍّ مستقيمٍ من دون أن يحيد يمنة أو يسرة، وعلى مسافة معتبرة تصادف أنه قد التفت برأسه، فلما رأى رفيقه قد نهض يراقب ابتعاده توقف كما لو كان يتوقع بطريقة ما أن يتبعه فانتظر مجيئه. قال مستر (تشستر) ملوِّحًا بيده كما لو كانا أعزَّ صديقين قبل أن يستدير موليًا (هاردال) ظهره:

«ربما يصل الأمر إلى ذلك يومًا ما، لكن ذلك لم يحن بعد، لم يحن بعد يا (هاردال). الحياة ممتعة لي بما يكفي، كئيبة بالغة الثقل لك. لا، إنه لمن الضعف حقًّا أن يستلَّ المرء سيفه ليقارع رجلًا كهذا، مرضيًا نوازعه، إلا إذا ما دعت الضرورة القصوى».

رغم ذلك استلَّ سيفه في أثناء مشيه، وجرت عيناه من مقبض السيف إلى ظبته عشرين مرة وهو شارد اللبِّ، غير أن التفكير يلد التجاعيد، فما لبث أن أغمد السيف حين ذكر ذلك، وفرَّج عن جبينه المقطِّب، وأخذ يدندن لحنًا مرحًا بأسلوبٍ أعظم مرحًا، واستعاد هدوء الجبل الذي لا تهزُّه ريحٌ.

❋ ❋ ❋

الفصل الثلاثون

ثَمَّ مثلٌ مألوفٌ يذكر طائفة مزعجة من الناس، ما إن يُترَك لهم شبرٌ حتى يطمعوا في ذراعٍ، لن نذكر الأمثلة البارزة لجلّادي الإنسانية الشجعان هؤلاء، الذين فرش مسارهم الظريف في الحياة من المهد إلى اللحد بالدم والنار والخراب، والذين يبدون كما لو كانوا لم يوجدوا لغرضٍ آخر غير تعليم الإنسانية أنه كما أن غياب الألم هو اللذة، فكذلك الأرض إن طُهِّرت من وجودهم فلربما تُعتبَر مكانًا مباركًا، لن نذكر تلك الأمثلة الهائلة، فسيكفينا أن نشير إلى (چون ولت) العجوز.

لمَّا طال اعتداء (چون) العجوز على شبرٍ طيبٍ غير منقوصٍ من حرية (چو)، ولمَّا اقتطع ذراعًا فلمنكيَّة[1] في مسألة خروجه من إقامته المحددة تلك، أصبح شديد الاستبداد متعاظم الطغيان، حتى إن شهوة القهر لديه أصبحت لا تعرف حدودًا، وكلما ازداد خضوع (چو) الشاب أصبح (چون) العجوز أشدَّ استبدادًا. سرعان ما تبدَّدت تلك الذراع المقتطعة، وقامت مكانها الياردات فالفراسخ فالأميال، وواصل (چون) العجوز

(١) ذراع فلمنكيّة Flemish Ell وحدة قياس، يقول (رتشارد هايس Richard Hayes) عن وحدة الذراع Ell سنة ١٧٤٠م إنها كانت مستخدمةً في إنكلترا لقياس أنواع محدودة من المنسوجات تسمَّى الهولندية Hollands، وإن الفلمنكيّة تحديدًا كانت تُستخدم في قياس بسط الحوائط، وهو يعادل تقريبًا ٦٨,٦ سنتيمترًا.

استبداده بأكثر الأساليب إمتاعًا، مقتطعًا من هنا فائضًا، مجتزًّا من هناك بعضًا من حرية الكلام أو الفعل، سالكًا طريقه الصغيرة بتعاظمٍ واستقواء كما يفعل أوفر الطغاة حظًّا من المجد، أولئك الذين تُنصَب تماثيلهم في الطرق العامة، سواء منهم من عاش قديمًا أو في الزمن الحديث.

وكما يغري العظماء منافقوهم وأتباعهم بإساءة استغلال القوة (إذا ما احتاجوا إلى ذلك الإغراء، وهو شيء لا يحدث كثيرًا)، فكذا اضطر (چون) العجوز إلى هذه الممارسات السلطوية تصفيق وإعجاب رفاقه في (مايپول)، أولئك الذين كانوا خلال الفواصل بين انكبابهم على غلايينهم وجرار نبيذهم يهزُّون رؤوسهم ويقولون إن مستر (ولت) أبٌ من النوع الإنـگـليزي القديم الجيد، خلو من البدع المستحدثة والأهواء الجديدة، وإنه يذكرهم بما كان عليه آباؤهم حين كانوا صبية، وإنه لا غبار عليه إطلاقًا، وإنه لو كان هناك كثيرون مثله لكان ذلك لخير البلد، وإنه لممَّا يدعو إلى الرثاء ألَّا يوجد مثله كثير، إلى غير هذه الملاحظات الأصيلة مما يشبهها. ثم إنهم كانوا يتلطَّفون لـ(چو) ليفهموه أن كل ذلك لصالحه وأنه يومًا ما سيجد نفسه ممتنًّا له، وكان مستر (كبّ) بالأخص يلقِّنه أنه حين كان في مثل سنِّه لم يكن أبوه يفكِّر في إعطائه ركلة أبوية أو لكمة في الأذنين أو لطمة على الرأس إلى غيرها من التوبيخات الصغيرة بأكثر مما يفكر في واجبات الحياة العادية الأخرى، وكان يضيف إلى ذلك ملاحظة أخرى وهو يرمقه بنظراتٍ بالغة الجدية، مفادها أنه ربما لولا تلك التربية الحكيمة لما كان الشخص الذي هو إياه وهو يتحدث إليه الآن، وهو أمرٌ محتملٌ جدًّا، إذ إنه كان أغبى كلب بين رفاقه بلا شكٍّ. وباختصارٍ فإنه فيما بين (چون) العجوز وأصدقائه لم يكن ثَمَّ شابٌّ تعسٌ يتنمَّر عليه ويوبَّخ

ويغاظ ويتوعد ويضايق باستمرارٍ ويُدفَع إلى الضجر من حياته كالمسكين (چو ولت).

أصبحت هذه الحال هي المألوفة المتعارف عليها، لكنَّ حرص (چون) على التباهي باستعلائه على ابنه أمام عيني مستر (تشستر) دفعه إلى تجاوز المألوف في ذلك اليوم فبالغ في همز وإغاظة ابنه ووريثه، لدرجة أنه لولا يمين مغلَّظة حلفها (چو) على أن يبقي يديه في جيوبه ما دام أنهما غير مشغولتين بأي شيء، لما كان ممكنًا أن نعرف ما كان عساه أن يصنع بهما. لكن لكلِّ شيء آخر، وقد انتهى اليوم ونزل مستر (تشستر) الدَّرج أخيرًا واعتلى صهوة جواده الذي كان مهيَّأً لدى الباب.

وحيث لم يكن (چون) العجوز موجودًا إذ ذاك، فقد هرع (چو) إلى الخارج ليمسك بركاب الضيف ويعينه على الركوب، وقد كان قبل جالسًا في الحانة يجترُّ مصيره البائس ومحاسن (دلّي ڤاردن) العديدة. وما إن استوى مستر (تشستر) على السرج وشرع (چو) ينحني له انحناءة مهذبة حتى جاء (چون) العجوز مسرعًا من جهة الرواق وأمسك بتلابيبه قائلًا:

«لا شيء من ذلك أبدًا، لا شيء من ذلك، لن تكسر دوريَّتك. كيف تجرؤ على الخروج من الباب من دون إذن؟ إنك تحاول أن تهرب، أليس كذلك؟ وأن تجعل من نفسك خائنًا مرة أخرى؟ ماذا تقصد بذلك يا سيد؟».

قال (چو) متوسِّلًا وقد لاحظ الابتسامة المرتسمة على وجه زائرهما والسعادة التي قدَّمها له ما هو فيه من خزي:

«أطلقني يا أبي، إن هذا في غاية السوء. مَن هذا الذي يريد أن يهرب؟».

صاح (چون) وهو يهزُّه: «من يريد أن يهرب! من يا ترى؟ أنت أيها السيد، أنت!».

ثم أضاف وإحدى يديه تضيِّق الخناق على ابنه والأخرى تعضد أثر انحناءة التوديع للزائر: «أنت أيها السيد الصبي الذي يريد أن يتسلل إلى المنازل ويثير الخلافات بين السادة النبلاء وأبنائهم، أليس كذلك؟ إيه! أمسك عليك لسانك أيها السيد!».

لم يحاول (چو) أن يرد، كان ذلك هو الظرف المتوج لما يتعرض له من إذلالٍ. حرَّر نفسه من قبضة أبيه وألقى نظرة غاضبة صوب الضيف المغادر ثم دخل إلى الخان، وما لبث أن أخذ يفكِّر وقد ألقى ذراعيه على منضدة في الغرفة المشتركة ووضع عليها رأسه:

«لولاها، لولا (دلّي) التي لا أطيق أن تصدِّق أنني الوغد الذي سيصوِّرون للجميع أنه هو إن هربت، لتركت هذا الخان الليلة إلى الأبد».

وحيث كان المساء قد زحف بالفعل فقد كان (سولومون دايزي) و(توم كبّ) و(پاركس) الطويل مجتمعين في الغرفة المشتركة كذلك، وشهدوا جميعًا من النافذة ما حدث للتوِّ. وحين انضم إليهم مستر (ولت) بعد قليل تلقَّى إطراءاتهم بمزيد رصانة، ثم أشعل غليونه جالسًا بينهم، ليقول بعد صمتٍ طويلٍ:

«سنرى أيها السادة مَن سيد هذا المنزل ومَن ليس كذلك؟ سنرى ما إذا كان الصبية سيحكمون الرجال أم أن الرجال سيحكمون الصبية».

وافقه (سولومون دايزي) مع إيماءات استحسان: «وهذا عين الصواب

كذلك، عين الصواب يا (چوني). حسن جدًّا يا (چوني)، لا فضَّ فوك يا مستر (ولت)، براڤو يا سيدي».

نقل (چون) إليه عينيه في بطء وأطال النظر إليه، ليجيب أخيرًا وقد بلغ الارتياع بسامعيه مبلغه: «حين أحتاج إلى تشجيعٍ منك أيها السيد فسأطلبه منك، دعني وشأني أيها السيد. آمل أن أستطيع أَن أتابع أموري من دونك. لا تتدخَّل في شؤوني أيها السيد إذا سمحت».

ناشده الضئيل: «لا تغضب يا (چوني) فأنا لم أقصد أيَّ إساءة».

رد (چون) في عنادٍ يفوق المعتاد منه بعد نجاحه الأخير: «حسنًا جدًّا أيها السيد. لا تلتفت إلى ذلك، أستطيع أن أعتمد على نفسي في الوقوف ثابتًا أيها السيد، هكذا أعتقد، من دون دعمك».

وبعد أن نطق مستر (ولت) بهذا الرد المفحم ثبَّت عينيه على الغلَّاية، وسقط فيما يشبه غيبوبة التبغ. وحيث كان هذا المسلك المحيِّر من جانب المضيف قد أخمد الروح المعنوية للرفاق فقد خيَّم الصمت على الجميع فترة طويلة، قبل أن يقرِّر مستر (كبّ) أخيرًا أن يقول وهو ينهض لينفض الرماد عن غليونه، إنه يأمل أن يكون (چو) قد تعلَّم أن يطيع والده في كل شيء من الآن فصاعدًا، وإنه قد اكتشف اليوم أنه ليس ممن يمكن أن يعبث المرء معهم، وإنه ينصح (چو) -إذا جاز قول ذلك بطريقة شاعرية- بأن يحذر عين أبيه مستقبلًا.

قال (چو) رافعًا عينيه وقد احتقن وجهه: «وأنا أنصحك أنا الآخر بألَّا تخاطبني».

صاح مستر (ولت) وهو ينهض بغتة ويستدير: «أمسك عليك لسانك أيها السيد».

صاح (چو) وهو يضرب المنضدة بقبضته حتى لقد رنَّت الأباريق والأكواب مجدَّدًا: «لن أفعل يا أبي، إن هذه الأشياء صعب تحمُّلها منك بما يكفي، وأنا لن أتحمَّلها من أي مخلوقٍ آخر بعد الآن، لذا أقول يا مستر (كبّ)، لا تخاطبني».

قال مستر (كبّ) متهكمًا: «لماذا؟ من أنت حتى لا تخاطب يا (چو)؟ هاه؟!».

لم يحر (چو) جوابًا، لكنه عاد إلى جلسته القديمة بهزة رأس منذرة، تلك الجلسة التي كان يطيب له أن يحتفظ بها في سلامٍ إلى أن يغلق الخان أبوابه في الليل، لولا أن دهشة الرفاق من وقاحة الفتى الشاب أثارت مستر (كبّ) فردَّ عليه ردودًا متهكِّمة كانت أكثر مما يحتمله اللحم والدم. وثب (چو) وقد تزاحم عليه في لحظة واحدة غيظ وحنق سنين طوال، وقلب المنضدة وانقضَّ على غريمه الطويل وأخذ يضربه بكل ما أوتي من قوة، وأنهى الأمر بأن ألقاه بسرعة مدهشة على كومة من المباصق في الركن، فلما غاص (كبّ) بينها ورأسه إلى الأمام في ارتطامٍ هائلٍ انتهى راقدًا ممددًا بين الحطام، ذاهلًا عاجزًا عن الحراك، ثم ما لبث (چو) أن تقهقر إلى غرفة نومه، غير منتظر أن يتلقَّى ثناء الحاضرين على ما أحرزه من نصرٍ، ولمَّا كان يعتبر نفسه في حالة حصار فقد كوَّم كلَّ ما استطاع حمله من أثاث وراء الباب ليكون متراسًا، وقال وقد جلس على سريره ومسح وجهه الغاضب:

«لقد فعلتها الآن، لطالما عرفت أن هذه اللحظة ستأتي أخيرًا، ينبغي لي أن أفارق (مايپول)، أنا متشرِّدٌ جوَّالٌ، ستكرهني أكثر وإلى الأبد، لقد انتهى كل شيء!».

الفصل الحادي والثلاثون

جلس (چو) وأخذ يتسمَّع وقتًا طويلًا وهو يفكِّر في حظِّه التعيس، متوقِّعًا أن يسمع وقع خطواتهم على الدرج في أي لحظة، أو أن يحيِّيه أبوه العزيز باستدعاء ليذعن على الفور من دون شرطٍ، ويسلِّم نفسه توًّا. غير أنه لم يسمع صوتًا ولا وقع خطىً، ورغم أن أصداءً بعيدة قد وصلت إلى أذنيه مشيرة إلى اضطرابٍ غير عاديٍّ بالأسفل، تشبه صوت أبواب تُغلَق وخلق يهرعون إلى داخل الغرف ويخرجون منها، تلك الأصداء التي أخذت تدوِّي من حين إلى آخر في الممرات الكبيرة مخترقة إليه معتزله النائي، رغم ذلك فإن ملاذه لم تزعجه أي أصوات قريبة، ذلك الملاذ الذي جعلته تلك الضوضاء البعيدة يبدو أهدأ، فكان رتيبًا مفعمًا بالكآبة كأي خلوة راهبٍ.

أخذ الظلام يخيِّم رويدًا رويدا. تغبَّشت مرائي أثاث الغرفة القديم الطراز، وانبسطت ظلال قطعه بأشكالها المختلفة. لقد كانت تلك الغرفة أقرب إلى مشفىً لكل منقولات المنزل المعتلّة، فما لبثت المقاعد والمناضد التي كانت في النهار أشبه بمعاقين حقيقيين أن اكتسبت سمتًا مريبًا غامضًا، وما لبث السِّتار القديم الحرشفي المصنوع من جلد الهند الذي حال لونه، والمربوط بأربطة مذهبة، ذلك الستار الذي كثيرًا ما منع

أنفاس البرد القارس من دخول الغرفة في الزمن الغابر، وأحاط بالكثير من الوجوه الفرحة داخل الغرفة، ما لبث أن عبس في وجه (چو) بهيئة جنازية، وانتصب على ارتفاعه الكامل في ركنه المخصَّص له كشبحٍ كئيبٍ يرتقب أن يسأل. وكانت ثَمَّ لوحة لوجه أمام النافذة، وجه لواء غريب عجوز رمادي العينين، ذات إطار بيضاوي، بدا كما لو كانت عينه تطرف وينعس حين خفت الضوء، وحين خبا آخر شعاعٍ يبرق من ضوء النهار أخيرًا، بدا كأنه يغلق عينيه في جدية حقيقية، ويسقط في نومٍ عميقٍ. كان ثَمَّ سكونٌ وغموضٌ يلفُّ كلَّ شيء، حتى إن (چو) لم يجد بدًّا من احتذاء ما حوله فكان أن نعس بدوره، وأخذ يحلم بـ(دلّي) إلى أن دقت ساعة كنيسة (تشغول) الثانية.

وإلى الآن لم يأتِ أحدٌ. توقفت ضوضاء المنزل البعيدة، وكان السكون يلفُّ كل ما هو خارج الأبواب، لا يقطعه كل حين إلَّا نباح كلب جهوري، وحفيف الأغصان إذا ما مسَّتها ريح الليل. حدَّق من النافذة بأسىً إلى كلِّ شيء يعرفه تمامًا ويرقد الآن نائمًا في ضوء القمر الخافت، ثم أخذ يفكر في الجلبة التي حدثت مؤخرًا وهو في طريقه إلى مقعده السابق، حتى بدت له لطول تفكيره كما لو كانت قد حدثت منذ شهر. وهكذا انقضت الليلة بين الإغفاء والتفكير والمشي إلى النافذة والنظر منها، إلى أن بدأ الستار القديم العابس وبدأت عشيرة المقاعد والمناضد تفصح عن أشكالها المعتادة، وبدا اللواء الرمادي العينين كما لو كانت عيناه تطرفان ويتثاءب وينهض نفسه، إلى أن استعاد يقظته كاملة أخيرًا، وقد بدا غير مرتاحٍ مجهدًا مبرودًا إلى أقصى درجة في غبش الصباح الكئيب.

بدأت الشمس تلوح من فوق أشجار الغابة، لتنثر خلال الضباب المنكمش قضبانًا ذهبية برَّاقة، وإذ ذاك أسقط (چو) من نافذته إلى الأرض تحتها صرة صغيرة وعصاه المؤتمنة، وأعد نفسه لينزل خارجًا.

لم تكن مهمة بالغة الصعوبة، فقد كانت هناك بروزات كثيرة ونتوءات أسقف في طريقه، حتى إنها جسَّدت سلسلة من الدرجات غير المتقنة، ولم يكن ثَمَّ عائقٌ أكبر من قفز أقدام قليلة في النهاية. أسرع (چو) بالوقوف على الأرض الصلبة وعلى كتفه عصاه وصرَّته، ونظر إلى (مايپول) العتيق نظرة ربما تكون الأخيرة.

لم يناجه، فهو لم يكن أديبًا عظيمًا. ولم يلعنه كذلك، فلم تكن في صدره ضغينة تجاه أي شيء على الأرض. بل إنه قد شعر بعطفٍ تجاهه أكثر من أي وقتٍ مضى، وهكذا قال بملء قلبه: «فليباركْ الرب!» كأمنية أخيرة وقت الفراق، وولَّاه دبره.

أخذ يسير حثيثًا، وقد امتلكته أفكارٌ عظيمة حول الالتحاق بالجندية والموت في بلدٍ أجنبي حار يفترش أرضه الرمل، تاركًا ما لا يعلم إلَّا الله إحصاءه من الثروة مجسَّدة في مال الغنائم لـ(دلّي) التي ستتأثر أيما تأثُّر حين تعرف بذلك. وهكذا واصل طريقه في عنفوان، مفعمًا بمثل تلك الرؤى الصبيانية التي كانت آنًا دموية وآنًا كئيبةً وإن كانت دائمًا تتمحور وتدور حول (دلّي)، حتى طرقت أذنيه ضوضاء لندن، وانتصب في الأفق أمامه خان (الأسد الأسود).

لم تكن الساعة قد جاوزت الثامنة، وقد عجب من في (الأسد الأسود) أيما عجب لرؤيته دالفًا إلى المكان بقدمين مغبرتين في هذه الساعة

المبكرة، من دون فرس رمادية تحمله وترافقه. لكنه حين طلب إفطارًا يُعَد بأقصى سرعة، وأظهر علاماتٍ لا ريب فيها على شهية مفتوحة حين وضع أمامه الطعام، استقبله (الأسد) كعادته بترحابٍ كريمٍ وعامله بذلك التمييز الذي كان له الحق في المطالبة به لكونه عميلًا منتظمًا للخان ومن المنتمين إلى رابطة أصحاب الفنادق.

كان هذا (الأسد) أو مالك الفندق -فقد كان يشار إليه بصفتي الإنسان والوحش، لكونه قد طلب من الفنان الذي رسم علامة فندقه أن يحمِّل ملامح الحيوان الملكي المرتسم ضمن تلك العلامة أكبر قدر من المشابهة لوجهه هو نفسه، كما في مقدرة هذا الفنان وعلى قدر مهارته- كان سيدًا له من سرعة البديهة واللَّمَّاحية ما لـ(چون) المقتدر نفسه تقريبًا. غير أن الفرق بينهما يكمن في أنه بينما تصدر حكمة مستر (ولت) البالغة وحدَّة ذكائه عن طبيعته وحدها لا يعضّدها شيء، فإن (الأسد) كان مدينًا دينًا بالغًا للجعة التي كان يتجرع منها جرعاتٍ هائلة كانت كفيلة بإغراق كل قدراته أو اكتساحها، إلَّا مقدرته العظيمة على النوم، تلك التي احتفظ بها تامة إلى درجة مدهشة. هكذا كان الأسد ذو الصرير المرتسم على باب الفندق -إحقاقًا للحقِّ- أسدًا خائرًا داجنًا نعسان، وحيث إن هذه التمثيلات الاجتماعية لتلك الطائفة المتوحشة تتسم عادة بطابع تقليديٍّ -حيث ترسم غالبًا في أوضاع مستحيلة التحقُّق وبألوان لا نعرفها على الأرض- فقد كان الأكثر جهلًا بالحقيقة بين الجيران كثيرًا ما يفترضون أن الأسد المصوَّر على باب الفندق هو الصورة الشخصية لصاحب الفندق كما يظهر في مناسباتٍ كحفل تأبين أو مأتم.

حين فرغ (چو) من إفطاره واغتسل ومشَّط شعره قال: «من ذلك الشخص الصاخب في الغرفة المجاورة؟».

ردَّ الأسد: «إنه رقيب تجنيدٍ».

جفل (چو) رغمًا عنه، ها هو الشيء عينه الذي كان يحلم به طيلة الطريق.

تابع الأسد: «ولكم كنت أتمنى أن ينزل أي مكانٍ بخلاف مكاني هذا، إن الحفل صاخبٌ بما فيه الكفاية، لكن ليس فيه نفعٌ. الكثير من الصراخ وأقل القليل من الصوف.(١) أنا واثق بأن أباك لم يكن ليحبهم هو الآخر».

ربما لم يكن ليحبهم تحت أي ظرف، وربما لو كان يعرف ما يجول في تلك اللحظة بخاطر (چو) لتضاءل احتمال محبَّته إيَّاهم أكثر وأكثر. قال (چو) وهو ينظر إلى مرآة دائرية صغيرة معلَّقة في الحانة:

«هل يجنِّد لمصلحة .. لمصلحة كتيبة جيدة؟».

ردَّ مالك الفندق: «أظنه كذلك، ليس ثَمَّ فارقٌ تحدثه نوعية الكتيبة التي يجنِّد لمصلحتها. قيل لي إنه ليس ثَمَّ فارقٌ كبيرٌ بين رجل جيد وآخر إذا ما رمي كلاهما بالرصاص».

قال (چو): «ليس كلهم يُرمى بالرصاص».

أجاب (الأسد): «لا، ليس كلهم. أولئك الذين يرمون به -إذا ما افترضنا أن ذلك يفعل في يسر- هم الأفضل حظًّا في رأيي».

---

(١) الكثير من الصراخ وأقل القليل من الصوف Great cry but very little wool مثل يضرب للدلالة على عبثية المسعى، وهو مأخوذ من فكرة جزِّ الخنازير Pig-Shearing حيث المتوقّع من مسعىً كهذا أن يسفر عن الكثير من صراخ الخنازير، ولا صوف على الإطلاق!

ردَّ (چو): «آه! لكنَّك لا تبالي بالمجد».

قال (الأسد): «بماذا؟».

«بالمجد».

ردَّ (الأسد) بلا مبالاة متعالية: «لا، لا أبالي. أنت محقٌّ في ذلك يا مستر (ولت). حين يأتي (المجد) إلى هنا ويطلب شيئًا يشربه ويفك جنيهًا ليدفع حسابه فسأعطيه طلبه مجانًا. إنني مؤمن يا سيدي بأن أذرع (المجد) لا تستطيع القيام بعملٍ قويٍّ».

لم تكن هذه الملاحظات مريحة على الإطلاق. خرج (چو) وتوقف عند باب الغرفة المجاورة وأخذ يتسمَّع. كان الرقيب يصف حياة عسكرية. كان يقول إنها حياة شراب كلها، عدا فواصل متكررة من الأكل وممارسة الحب. المعركة أفضل شيء في العالم حين يفوز بها الجانب الذي أنت فيه، والإنـگـليز يفوزون دائمًا. قال صوتٌ متردِّدٌ في أحد الأركان: «وماذا إذا ما قُتِلت يا سيدي؟».

ردَّ الرقيب: «حسنًا أيها السيد، لنفترض حدوث ذلك، ماذا إذن؟ بلدك تحبك يا سيد، جلالة الملك چورچ الثالث يحبك، ستكرِّم ذكراك وتبجِّل وتحترم، الجميع يحبونك وممتنون لك، واسمك مدوَّن بالكامل في دفتر في مكتب الحرب. ويحكم أيها السادة! سنموت جميعًا إن عاجلًا أو آجلًا، أليس كذلك؟».

سعل الصوت ولم يزد حرفًا على ما قاله. دلف (چو) إلى الغرفة. كان ستة رهطٍ مجتمعين في الحانة ينصتون بآذان صاغية. بدا أحدهم مذبذبًا، مائلًا إلى التطوع في الجيش، وكان سائق عربة نقل يرتدي بذلة العمل. أما الباقون الذين لم يكونوا مائلين ميله بحال فقد أخذوا يشجعونه بقوة

على التطوّع (حسب ما تملي عادات البشر)، ويدعمون حجج الرقيب، ويتضاحكون فيما بينهم. قال الرقيب الذي كان جالسًا على مبعدة منهم بعض الشيء يحتسي نبيذه:

«لا أقول شيئًا يا أولاد، بالنسبة إلى الفتيان أصحاب الأرواح المقدامة».

وهنا ألقى نظرة على (چو)، وتابع: «فإن الوقت قد حان. أنا لا أريد استدراجكم. أرجو ألَّا نكون قد وصلنا إلى أن الملك يحتاج إلى ذلك، ما نريده هو الدم الشاب النشيط، لا اللبن والماء. لن نأخذ خمسة من كلِّ ستة، إننا نريد رجالًا ممتازين، هذا ما نريده. لن أحكي حكايات مدرسية، لكننا لو أحصينا كلَّ ابن لأحد السادة، ممن يحملون السلاح في قواتنا بسبب بعض الشكوك التي تحاصرهم والخلافات الصغيرة مع أقربائهم، .».

هنا وقع بصره على (چو) مجدَّدًا، بسلامة نيَّة بالغة، حتى إنَّ (چو) أشار إليه، فما كان منه إلَّا أن تقدَّم إليه على الفور.

كانت ملاحظته الأولى وهو يربِّت ظهره أن قال: «بالله إنك سيد نبيل! أنت سيد نبيل متخفٍّ، وهكذا أنا، دعنا نتعاهد على الصداقة».

لم يفعل (چو) ذلك بالضبط، لكنهما تصافحا وشكره (چو) على رأيه الطيب، قال له صديقه الجديد:

«تريد أن تخدم، ستفعل، لقد خلقت لذلك، أنت بطبعك واحدٌ منَّا، ماذا ستشرب؟».

ردَّ (چو) بابتسامة فاترة: «لا شيء الآن، لم أحسم أمري بعد».

صاح الرقيب: «شجاع مثلك لم يحسم أمره بعد! هيَّا، دعني أجذب الجرس جذبة وستحسم أمرك في نصف دقيقة، أنا واثق بذلك».

أجاب (چو): «أنت محقٌّ في ذلك، فإنك إن جذبت الجرس هنا حيث الكل يعرفني فما أسرع ما ستنتهي تطلُّعاتي إلى الجندية. انظر في وجهي، أنت تراني، أليس كذلك؟».

ردَّ الرقيب حالفًا: «أراك، وإن عينيَّ هاتين الـ..» وهنا استخدم نعتًا ما ثم واصل: «لم تقعا من قبل أبدًا على شابٍّ أفضل أو أحسن تأهيلًا ليخدم مليكه وبلده».

قال (چو): «أشكرك، أنا لم أسألك لأني أحتاج إلى ثناء، لكني أشكرك على كلِّ حالٍ. هل أبدو وغدًا حقيرًا أو كذَّابًا؟».

ردَّ الرقيب بتأكيداتٍ كثيرة منتقاة على أنه لا يبدو كذلك، وأن والده نفسه (والد الرقيب) لو قال إنه يبدو كذلك فسيطيب له أن يطعن ذلك السيد العجوز ثم يعتبره فعلًا شريفًا. عبَّر (چو) عن امتنانه له ثم واصل:

«إذن تستطيع أن تثق بي وبما أقوله، أعتقد أنني سأتطوَّع الليلة في كتيبتك. وسبب عدم إقدامي على ذلك في التوِّ أنني لا أريد أن أفعل ما لن أستطيع تذكُّره حتى يجيء الليل، أين أجدك هذا المساء؟».

ردَّ صديقه ببعض الإحجام، وبعد مناشدة طويلة غير مجدية بخصوص حسم الأمر في التوِّ واللحظة، أن مكانه سيكون في (كروكت بلت) في شارع (تاور)(١)، حيث يمكنه أن يجده مستيقظًا حتى منتصف الليل، أو نائمًا إلى وقت الإفطار غدًا.

سأله (چو): «وإذا جئت –وهو احتمال مليون إلى واحد– فمتى ستأخذني خارج لندن؟».

---

(١) The Crooked Billet in Tower Street

ردَّ الرقيب: «غدًا في الثامنة والنصف صباحًا ستخرج خارج البلاد إلى بلدٍ مشمسٍ مليء بالغنائم، مناخه أفضل مناخ في العالم».

قال (چو) مصافحًا إيَّاه: «السفر إلى الخارج عين ما أريده، تستطيع أن تنتظرني».

صاح الرقيب ممسكًا بيد (چو) في يده وهو في غمرة الإعجاب: «إنك لأنت الفتى المناسب لنا، أنت الصبي الخليق بمطاردة حظِّه. لا أقول ذلك لأنني أحسدك، أو لأن جهد صعودك سأنسب بعضه إلى نفسي، لكنني لو كنت قد ربّيت وعلِّمت مثلك لكنت الآن مقدِّمًا».

قال (چو): «ويحك يا رجل! إنني لست صغيرًا إلى هذا الحد، مجبر أخوك لا بطل، ما دفعني إلى ذلك إلَّا خلوّ وفاضي وتعاسة بيتي، والآن إلى اللقاء».

صاح الرقيب ملوِّحًا بقبَّعته العسكرية: «لأجل الملك والوطن!».

صاح (چو) مفرقعًا بأصابعه: «لأجل الخبز واللحم!» وافترقا على ذلك.

لم يكن في جيبه إلَّا أقل القليل من المال، أقل القليل حقًّا، حتى إنه بعد أن دفع مقابل إفطاره -الذي كان أشرف وربما أشد أنفة من أن يضيفه إلى حساب والده- لم يتبقَّ معه إلا بنس واحد. غير أنه كان شجاعًا بما يكفي لأن يقاوم إلحاح الرقيب الودود، لا سيَّما أن الرقيب انتظره لدى الباب بالكثير من التأكيدات على الصداقة الأبدية، وطلب منه أن يسدي إليه معروفًا ويقبل شلنًا واحدًا يغطي نفقة المسكن المؤقَّت. وبعد أن رفض (چو) عروضه، سواء منها النقد والإقراض، انطلق كما جاء مصطحبًا

العصا والصرَّة، عازمًا على أن يبذل ما في وسعه ليعيش اليوم، وما لبث أن توجَّه إلى منزل صانع الأقفال في غسق الليل، فقد كان مصمِّمًا على أن يتجلَّد لمصيره، لكنه حنَّ إلى كلمة وداعٍ يقولها لساحرته (دلّي ڤاردن).

سار عبر (آيلنتن) ومنها إلى (هايغات)، وافترش أحجارًا وبوابات عدة، لكن لم تكن للأجراس أصواتٌ تناشده أن يستدير على عقبيه. فإنه من بعد (وتنتن) النبيل، أعدل التجار وأصدقهم، أصبحت الأجراس أقلَّ تعاطفًا مع البشرية، لا تدق إلا للمال وفي مناسبات الدولة. زاد عدد المتشردين، وأصبحت السفن تغادر (التَّامز) قاصدة أماكن نائية، لا تحمل على متنها غيرهم، غير أن الأجراس صامتة، لا تدق أبدًا لتناشد إنسانًا أو لتأسى له، هكذا اعتادت الأجراس رؤية حالهم وأصبحت دنيوية تمامًا.(١)

اشترى (چو) رغيفًا لينكمش بذلك ما في حافظته من المال إلى الحال التي كانت عليها حافظة (فرتوناتس) الشهير، مع فارق بالطبع،

---

(١) يحيلنا ديكنز هنا إلى شخصية (رتشارد وتنتن Richard Whittington ١٣٥٤ – ١٤٢٣) التاجر والسياسي الإنـگليزيّ الذي خدم كحاكم للندن أربع مرات، منها ثلاث بالانتخاب ومرة بالتعيين، كما كان عضوًا في البرلمان. وقد موَّل في حياته مشروعات عامة كثيرة كما أوصى بثروته لإنشاء مؤسسة خيرية ما زالت إلى الآن تساعد المحتاجين. لكنَّ الإشارة هنا بالتحديد إلى الحكاية الشعبية المستلهمة من حياته والمبنية على شخصه، وهي حكاية (دك وتنتن وقطّه Dick Whittington & His Cat) التي تحكي عن الصبي الفقير (دك) الذي ينطلق إلى لندن باحثًا عن حظِّه، وفي صحبته قطُّه، ولا يجد من النجاح إلا قليلًا في البداية فيقرر العودة إلى بلدته جلسترشير Gloucestershire، لكن بينما هو في طريق خروجه من لندن، متسلّقًا تلّ (هايغات Highgate Hill) يتناهى إلى سمعه صوت أجراس كنيسة (سان ماري لو بو St. Mary-Le-bow) ويعتقد أنها تبعث إليه برسالة، فلا يلبث أن يستدير على عقبيه داخلًا لندن مجدَّدًا، ويخوض سلسلة مغامرات تنتهي بأن يصبح حاكم لندن مرة واثنتين وثلاثًا! والآن يوجد في تل (هايغات) مستشفى كبير اسمه (مستشفى وتنتن Whittington's Hospital) يخلِّد هذه الوقعة المفترضة.

تلك الحافظة الذي لم يكن يتغيَّر ما بها من رصيد أيًّا ما كانت احتياجات صاحبها. في هذا العصر الواقعي الذي ماتت فيه كلُّ الكائنات الخرافية ودفنت، ما زالت هناك حافظات كثيرة لها هذه السمة. يعبِّر في الحساب عن المبلغ الكلي الذي تحتويه بدائرة، وسواء أضيف هذا المبلغ إلى نفسه أو ضرب في نفسه فإن نتيجة المسألة أسهل من أي نتيجة رقمية معروفة.

أخيرًا حلَّ المساء، فلوى عنان خطاه قاصدًا منزل صانع الأقفال، مفعمًا بشعور الوحدة والانهيار الذي يشعر به من لا مأوى له ولا بيت، ووجد نفسه متوحِّدًا تمامًا في هذا العالم للمرة الأولى في حياته. وكان قد أخَّر نفسه إلى الآن لمعرفته بأن السيدة (ڤاردن) كانت تخرج أحيانًا منفردة أو برفقة (مـگز) وحدها لحضور المحاضرات في المساء، فكان يرجو مخلصًا أن يكون هذا المساء أحد مساءاتها المنذورة للتثقُّف الأخلاقي.

أخذ يروح ويغدو في الضفة الأخرى من الشارع أمام المنزل مرتين أو ثلاثًا، وحين عاد إلى المنزل ثانية لمح تنورة تخفق أمام الباب. كانت تنورة (دلّي)، إذ إنها لا يمكن أن تكون لغيرها. لم يكن لفستان إنسانة غيرها ذلك التدفق، استجمع شجاعته وتبعها إلى داخل ورشة المفتاح الذهبي.

ما إن لاحظت ظلًّا منعكسًا على الباب حتى التفتت إليه. أوه! ذلك الوجه! فكر (چو): «لولا ذلك الوجه لما هاجمت المسكين (توم كبّ) كما فعلت، إنها أجمل عشرين مرة مما اعتادت أن تكون، خليقة بأن تتزوج أحد اللوردات!».

لم يقل ذلك وإنما فكر فيه فحسب، وربما بدا عليه ذلك التفكير كذلك. كانت (دلّي) مسرورة برؤيته، وآسفة لأن أباها وأمها كانا بالخارج

الآن. ورجاها (چو) ألا تلتفت إلى ذلك إطلاقًا. تردَّدت (دلّي) في أن تقوده إلى قاعة الاستقبال، فقد كانت مظلمة إظلامًا يكاد يكون تامًّا، وترددت في الوقت ذاته في أن تظل واقفة تكلِّمه في الورشة التي كانت مضاءة مفتوحة على الشارع. بطريقة ما، أصبحا أمام الكير الصغير، وأخذ (چو) يدها في يده -ولم يكن له مثل هذا الحق، فما أعطته إيّاها إلَّا لتظل مهتزَّة- فكانت هيئتهما أقرب إلى زوجين يقفان أمام مذبح بيتهما، وكان ذلك أكثر شيء مربك في العالم.

قال (چو): «لقد أتيت مودِّعًا. مودِّعًا، لا أدري إلى كم من الأعوام، ربما إلى الأبد، فأنا مسافر إلى خارج البلاد».

والآن فقد كان هذا بالضبط ما لم يكن ينبغي له أن يقوله، ها هو يتحدث كسيدٍ نبيلٍ طليقٍ، حرٍّ في أن يذهب ويأتي ويتجوَّل في العالم كما يحلو له، في حين أن صانع العربات الشريف قد أقسم لها البارحة أنها تقيِّده بقيودٍ من حديدٍ، وصرَّح في كلماتٍ كثيرة بأنها تقتله ببطء، وأنه يتوقع أن تنتهي حياته خلال أسبوعين ليترك عمله لأمِّه.

حرَّرت (دلّي) يدها من يده وقالت: «حقًّا!». قالتها بنفس اللهجة التي كان يمكن أن تقول بها «يا لها من ليلة لطيفة»، وباختصارٍ فقد قالتها معقَّمة من العواطف، تمامًا كالكير الذي أمامهما.

قال (چو): «لم أستطع أن أذهب من دون أن آتي لرؤيتك، لم يطاوعني قلبي».

كانت (دلّي) آسفة إلى درجة فوق طاقة تعبيرها لأنه تجشَّم تلك المتاعب. إنَّ الطريق طويلة جدًّا ومن المؤكَّد أن أمامه الكثير لينجزه. وكيف حال مستر (ولت) ذلك السيد النبيل الكبير العزيز..

صاح (چو): «أهذا كل ما تودِّين قوله؟!».

كله! ربَّاه! ماذا كان الرجل يتوقَّع؟ كانت مضطرة إلى تناول مريلتها في يدها لتنظر إلى حاشيتها من طرفٍ إلى طرفٍ، لتمنع نفسها من الضحك في وجهه، لا لأنَّ نظرته كانت تربكها، لا، ليس لهذا على الإطلاق.

كانت خبرة (چو) محدودة في أمور الحب، ولم تكن لديه فكرة عن اختلاف الفتيات عن أنفسهنَّ باختلاف الوقت، فقد كان يتوقَّع أن يلقى (دلّي) ثانية على نفس الحال التي تركها عليها ليلة ركب إلى جوارها في تلك الأمسية اللذيذة، ولم يكن بأقل استعدادًا لهذا التغيُّر منه لأن يرى الشمس والقمر يتبادلان موقعيهما. طيلة النهار كان يرفع معنويات نفسه بفكرة غامضة مفادها أنها ستقول بلا شكٍّ: «لا تذهب» أو «لا تتركنا» أو «لماذا تذهب؟» أو «لماذا تتركنا؟» أو ستشجِّعه بأي قول من هذا القبيل، بل إنه قد جال بخاطره احتمال أن تنفجر باكية، وأن تلقي بنفسها بين ذراعيه، أو أن تسقط مغشيًّا عليها من دون كلمة أو إشارة تسبق ذلك، أمَّا هذا المسلك الذي اتخذته حقيقة فلم يدر بخلده شيء يقترب منه، حتى إنه لم يستطع إلَّا أن ينظر إليها في دهشة صامتة.

خلال ذلك استدارت (دلّي) إلى أركان مريلتها وأخذت تقيس الجوانب وتسوِّي التجعُّدات، وكانت صامتة كصمته. أخيرًا بعد توقُّف طويل قال (چو) «وداعًا» فقالت (دلّي) «وداعًا» بابتسامة مطمئنَّة كما لو كان ذاهبًا إلى الشارع المجاور وسيعود على العشاء.

قال (چو) مادًّا كلتا يديه: «تعالي، (دلّي)، عزيزتي (دلّي)، دعينا لا نفترق على هذا النحو، أنا أحبك جدًّا، من كل قلبي وروحي، بكل صدقٍ

وجدية أحبَّ بهما رجلٌ امرأةً في هذا العالم كما أعتقد. أنا رجل فقير كما تعرفين، أفقر الآن مما كنت من قبل، إذ إنني قد هربت من البيت، لعجزي عن تحمُّله أكثر مما تحمَّلته، وعليَّ أن أجاهد طريقي من دون عون من أحد. إنك جميلة، جذَّابة، محبوبة من الجميع، ثرية وسعيدة، وأتمنى أن تظلِّي هكذا دائمًا! لا قدَّر الله أن أجعلك غير ما أنت عليه، لكن امنحيني كلمة تواسيني. قولي لي شيئًا طيِّبًا. أعرف أني لا حقَّ لي في انتظارها منك، لكني أسألها لأني أحبك، وسأصون أقلَّ كلمة تفوهين بها طيلة حياتي. (دلّي) عزيزتي، أليس لديك ما تقولينه لي؟».

لا، لا شيء. كانت (دلّي) مغناجًا بطبعها، كما كانت طفلة مدلَّلة. لم تكن تتصوَّر أن تُباغت بكلِّ ذلك على هذا النحو. لو كان صانع العربات في محلِّه لكانت عيناه مغرورقتين بالدموع، ولكان قد جثا على ركبتيه وسخر من نفسه وعقد يديه في ضراعة وضرب صدره في عنفٍ وأخذ يشد ربطة عنقه، وقارف كلَّ ما هو من الشعر بسبيلٍ. لم يكن (چو) مضطرًّا إلى السفر إلى الخارج، ليس لديه حقٌّ في أن يكون قادرًا على هذا الفعل، لو كان مقيَّدًا بقيودٍ من حديدٍ لما كان قادرًا على ذلك.

قالت: «لقد قلت وداعًا مرتين، أبعد عني ذراعك فورًا يا مستر (چوزيف) وإلَّا فسأنادي (مـگز)».

ردَّ (چو): «أنا لن ألومك، إنه خطئي بلا ريب. أحيانًا كنت أفكِّر أنك لا تزدرينني تمامًا، لكم كنت غافلًا، كل من رأى الحياة التي عشتها يجب أن يزدريني، وأنت أكثر من أي آخر، فليباركِّ الرب».

وانصرف. انصرف حقًّا. انتظرت (دلّي) برهة علَّه يعود، واختلست

نظرة عبر الباب فمسحت الشارع من طرفه إلى طرفه بعينيها بقدر ما سمح بذلك الظلام المتزايد، ثم دخلت ثانية وانتظرت برهة أطول، وصعدت إلى الطابق العلوي وهي تدندن لحنًا، ثم أغلقت على نفسها الباب ووضعت رأسها على فراشها، وأخذت تبكي كما لو كان فؤادها يوشك أن ينفطر. رغم ذلك فإن مثل هذه الطبائع مزيج تناقضات عدة، حتى إن (چو ولت) لو كان قد عاد تلك الليلة أو في اليوم التالي أو بعد أسبوع أو شهر فبنسبة مائة إلى واحد ستعامله (دلّي) بالأسلوب نفسه ثم تبكي بعد ذلك مكروبةً بالدرجة نفسها.

بمجرد خروجها من الورشة برز من خلف مدخنة الكير بحرصٍ وجه كان قد ظهر من نفس المخبأ مرتين أو ثلاثًا دون أن يراه أحد، وجه بعد أن اطمأنَّ إلى أنه الآن وحده تبعته ساقٌ ثم كتفٌ، وهكذا على مراحل، حتى وقفت هيئة مستر (تاپرتت) معلنة حضوره، وعلى رأسه قبَّعة ورقية بنيَّة مائلة في إهمالٍ إلى أحد جانبيها، ويداه على خاصرتيه، قال الصبي:

«هل خدعتني أذناي أم أنني أحلم؟ هل يجب أن أشكرك أيها الحظ أم ألعنك؟ أيُّهما؟».

نزل من عليائه برصانة، وأخذ قطعة مرآته وألصقها على الحائط على المقعد المعتاد، ثم أدار رأسه ونظر إلى ساقيه متفحِّصًا وقال:

«لو أنهما حلم فلتكن للتماثيل مثل هذه الرؤى، ولتنحتها إذا ما استيقظت. هذه حقيقة. ليس للنوم أطراف كهاتين. ارتعد يا (ولت) وايئس، إنها لي! إنها لي!».

بهذه التعابير المنتصرة أمسك بمطرقة وضرب بها الملزمة[1] ضربة ثقيلة، كأنه يوجِّهها بعين خياله إلى جمجمة أو رأس (چوزيف ولت). بعد ذلك انفجر مقهقهًا إلى درجة أفزعت الآنسة (مـگز) رغم كونها في المطبخ البعيد عن الورشة، ثم ما لبث أن غمر رأسه في حوض ماء ثم استعان بمنشفة في باب الخزانة، أدَّت دورًا مزدوجًا، فكتمت مشاعره وجفَّفت وجهه.

أمّا (چو) فبعد أن غادر بيت صانع الأقفال محزونًا محبطًا، وإن كان ممتلئًا شجاعة رغم ذلك، اتخذ طريقه إلى (كروكت بلت)، وهناك سأل عن صديقه الرقيب الذي لم يكن ينتظر أحدًا سواه فاستقبله بذراعين مفتوحتين. وفي غضون خمس دقائق من وصوله إلى ذلك الملهى كان مسجَّلًا بين المدافعين الشجعان عن وطنه، وفي غضون نصف ساعة حيّي بعشاء فاخر من كرش مسلوق وبصل، معدّ كما أكد له صديقه أكثر من مرة بناء على أمر سريع من جلالة الملك المعظَّم.

وكان أن بدا (چو) على قدر هذه الوجبة التي ساغت له كما تكون اللذة بعد صومه الطويل، وبعد أن أتبعها بعدة كؤوس مخلصة شربت نخب الوطن سيق إلى حشيَّة من القش في عليَّة فوق الحظيرة، وهناك أغلق عليه مبيته هذه الليلة.

اكتشف في الصباح التالي أن عناية صديقه العسكري المفضال قد زيَّنت قبَّعته بعددٍ من الأشرطة الملونة التي أضفت عليها مظهرًا نشيطًا، ثم

(١) الملزمة Vice أداة تثبيت وشدٍّ مصنوعة من المعدن أو الخشب، تتكوَّن من فكَّين يقفلان ويفتحان، تستخدم في النجارة، أو صناعة الأدوات المعدنية كما هي الحال هنا.

اتجه إلى ضفة النهر في رفقة ذلك الرقيب وثلاثة شبَّان آخرين جُنِّدوا حديثًا مثله، يلفُّهم ضبابٌ بالغ الكثافة، حتى إنه لم يترك ظاهرًا منهم للعيان إلا ثلاثة أحذية ورابعًا طويل الرقبة ومعطفًا ونصف معطف. وهنا انضم إليهم عريفٌ وأربعة أبطال آخرين، كان منهم اثنان ثملان تتملكهما الشجاعة، واثنان صاحيان نادمان، لكن كلًّا منهم كان مثل (چو)، معه عصاه المتربة وصرَّته. أبحرت هذه الرفقة في قاربٍ يقصد (غرافـزإند)، ومنها كان عليهم أن يسيروا إلى (تشاتم)[1]. كانت الريح معهم، ولم يمر كثير وقت حتى كانت لندن وراءهم لا شيء إلَّا ضبابًا مظلمًا، كشبحٍ عملاقٍ معلَّقٍ في الهواء.

* * *

(١) Gravesend مدينة في شمال غربيّ مقاطعة (كنت)، تبعد عن وسط لندن بواحد وعشرين كيلومترًا، وتقع على الضفة الجنوبية لنهر التّامز، وقد منحها موقعها الجغرافي أهميةً احترابيَّة (استراتيجية) طيلة التاريخ الاتصالي والبحري لجنوب شرق إنگلترا. أما تشاتم Chatham فهي مدينة أخرى في نفس المقاطعة كانت لها أهمية بحرية بدورها.

الفصل الثاني والثلاثون

المصائب لا تأتي فرادى، هكذا تقول الحكمة. ولا شك في أن المتاعب تتَّسم بغريزة القطيع إلى أقصى درجة، ولكونها تطير في أسرابٍ، فهي عرضة لأن تحط كما تشاء لها نزواتها، فتزدحم على رؤوس بعض التعساء حتى لا تبقي بوصة فارغة على أرؤسهم التعيسة، بينما لا تلتفت إلى آخرين قد يمثِّلون مستراحًا لا يقل جودة لأخامص أقدامها، كما لو لم يكن لهم وجودٌ. وربما حدث أن سربًا من المتاعب يشرف في طيرانه على لندن ويبحث عن (چوزيف ولت) فلا يتمكَّن من العثور عليه يسرع هابطًا حسبما اتفق ليحطَّ على أول شاب يلفت انتباه السِّرب ويستقر على رأسه عوضًا عن (جوزيف). رغم هذا الاحتمال، فالمؤكد أنه في اليوم نفسه الذي غادر فيه (چو) تجمهرت المتاعب حول أذني (إدوارد تشستر)، وأخذت تطنُّ وتخفق بأجنحتها مضطهدة إيَّاه حتى لقد أصبح في غاية الشعور بالتعاسة.

كان الوقت مساء، لم يجاوز الثامنة بعد، حين جلس مع أبيه وحدهما للمرة الأولى ذلك اليوم وقد وضع أمامهما النبيذ والحلوى. كانا قد تناولا غداءهما معًا، غير أنَّ ثالثًا كان حاضرًا تلك الوجبة معهما، ولم يكن أحدهما قد رأى صاحبه منذ ليلة أمس حين تقابلا على المائدة.

كان (إدوارد) متحفِّظًا صامتًا، أمَّا مستر (تشستر) فكان أكثر مرحًا مما اعتاد، لكنه لم يبد حريصًا على أن يفتح حوارًا مع شخص مختلف المزاج، فنفث خفَّة روحه في ابتساماتٍ ونظراتٍ متألِّقة، ولم يبذل أيَّ جهدٍ في إيقاظ انتباه ابنه. هكذا ظلَّا وقتًا والأب مستلقٍ على أريكة في لا مبالاته الناعمة المعتادة، والابن جالس أمامه مطرقًا، منشغلًا كما كان واضحًا بأفكارٍ مؤلمة مربكة.

أخيرًا قال مستر (تشستر) بضحكة شديدة الجاذبية: «عزيزي (إدوارد)، لا تمدَّنَّ تأثيرك الكسول إلى الإبريق، اسمح له بأن يدور بيننا، ولا تدع روحك تركد هكذا أبدًا».

اعتذر له (إدوارد) وناوله الإبريق ثم ارتدَّ إلى حاله الأولى. رفع مستر (تشستر) كأسه عاليًا أمام النور قائلًا:

«إنك تخطئ إن لم تملأ كأسك؛ إنَّ للنبيذ ألف أثرٍ مبهجٍ إذا ما تناولته باعتدالٍ، لا بإفراطٍ فإنَّ ذلك يسيء إلى الرجال، إنه يجعل العين تلمع ويحسِّن الصوت ويضفي حياة جديدة على أفكار المرء وحديثه، فعليك بتجربته يا (ند)».

صاح ابنه: «آه! أبي. لو.».

قاطعه أبوه في عجلة وهو يخفض كأسه ويرفع حاجبيه في تعبيرٍ فزعٍ مرتعبٍ: «صديقي الطيب، بحق السماء لا تناديني بهذا اللقب القديم الذي عفا عليه الزمن؛ راعِ اللياقة بعض الشيء، هل أنا أشيب أو متغضِّن الوجه؟ هل أمشي على عكَّازين؟ هل فقدت أسناني حتى تتبنَّى معي ذلك الخطاب؟ يا إلهي، ما أشد فظاظة ذلك!».

ردَّ (إدوارد): «لقد كنتُ على وشك أن أحدِّثك من قلبي يا سيدي، في جو الثقة الذي ينبغي له أن يسود بيننا، وها أنت تعوقني من البداية».

قال مستر (تشستر) رافعًا يده الرقيقة في توسُّل: «(ند)، لا تتحدث بهذا الأسلوب المتوحِّش. على وشك أن تتحدث من قلبك. ألا تعرف أنَّ القلب جزءٌ ساذجٌ من تكويننا، مركز الأوعية الدموية وما إلى ذلك، وليست له علاقة بما تقوله وما تفكِّر فيه فوق علاقة ركبتيك بذلك؟ كيف أمكنك أن تكون مبتذلًا سخيفًا هكذا؟ يجب أن تترك هذه الإشارات التشريحية للسادة سالكي مهنة الطب، إنها حقًّا لا تتمتع بالقبول في المجتمع. إنك تدهشني تمامًا يا (ند)».

ردَّ ابنه: «حسنًا! ليس ثَمَّ ما يجرح أو يداوى أو يراعى، أنا أعرف معتقداتك يا سيدي، ولن أتفوَّه بكلمة أخرى».

قال مستر (تشستر) مرتشفًا نبيذه: «أنت مخطئ هنا كذلك، أنا أقول في وضوحٍ إن هذه الأشياء موجودة. نحن نعرف أنها موجودة. كما أخبرت فإن أهل الطبقات الدنيا يطبخون ويلتهمون قلوب الحيوانات كالعجول والضأن وما إليها، ويستمتعون بنكهتها أيما استمتاع. يطعن الرجال أحيانًا في قلوبهم، أو يضربون في قلوبهم بالرصاص، أمَّا الكلام من القلب أو إلى القلب، أو أن يكون المرء دافئ القلب أو بارده أو مكسور القلب أو أن يكون قلبًا كله أو ألَّا يملك قلبًا، أفٍّ! هذه أمور لا معنى لها يا (ند)!».

ردَّ ابنه وقد رآه يتوقَّف ليسمح له بالكلام: «لا شكَّ في ذلك يا سيدي، لا شكَّ في ذلك».

قال مستر (تشستر) كما لو كان يوضح ما يقصده بمثلٍ عابرٍ: «وتلك

ابنة أخ (هاردال)، شعلة حبِّك السابقة، لا ريب أنها كانت في خيالك قلبًا كلها، والآن ليس لديها قلبٌ على الإطلاق، ورغم ذلك فهي نفس الشخص بالضبط يا (ند)».

صاح (إدوارد) وقد احمرَّ وجهه: «لقد تغيَّرت يا سيدي، وأعتقد أنها قد تغيَّرت بوسائل شريرة».

قال أبوه: «لقد حظيت برفضٍ هادئ أليس كذلك؟ مسكين يا (ند)، لقد أخبرتك الليلة السابقة بما سيحدث. أتسمح بأن تناولني كسَّارة البندق؟».

صاح (إدوارد) ناهضًا من مقعده: «لقد عبث أحدهم بها، وخدعت خدعة خائنة. لن أصدِّق أبدًا أن إطلاعي إيَّاها على حقيقة وضعي هو ما غيَّرها على هذا النحو، أنا متأكد أنها تشعر بأنها محاصرة ومعذَّبة. لكن رغم انتهاء اتفاقي معها وانكسار عهدنا بما لا يسمح بإصلاحه، ورغم اتهامي افتقارها إلى الثبات والصدق، مع نفسها ومعي، فإنني لا أصدِّق الآن ولن أصدِّق أبدًا أنها قد اتخذت هذا المسلك منقادة بدوافع خسيسة أو بمحض إرادتها المحايدة».

ردَّ أبوه في مرحٍ: «إنك تخجلني بحماقة طبعك الذي آمل مخلصًا ألَّا يكون انعكاسًا لطبعي، لكننا لا نعرف أنفسنا أبدًا. بالنسبة إلى السيدة الشابة فقد فعلت ما هو طبيعيٌّ تمامًا ولائقٌ يا صديقي العزيز، ما اقترحته بنفسك كما علمت من (هاردال)، وما توقعت أنا -من دون أن آتي بذلك ما يدلُّ على حكمة بالغة- أن تفعله. لقد افترضتْ أنك غنيٌّ أو على الأقل غنيٌّ إلى درجة معقولة، ووجدتك فقيرًا. الزواج عقد مدنيٌّ، والناس يتزوجون ليحسِّنوا أوضاعهم الدنيوية ويجوِّدوا هيئتهم، إنه أمرٌ يتعلَّق بالمسكن

والأثاث والخدم وملابس الخدم والتجهيزات وما إلى ذلك. وحيث إنَّ السيدة فقيرة وأنت كذلك، فالأمر منته هكذا. لا تستطيع أن تعرض لهذه الاعتبارات دون أن تحترم الأعراف. أنا أشرب هذه الكأس نخبها وأحترمها وأكرِّمها لما هي عليه من رجاحة العقل. إنه درسٌ لك، أترع كأسك (ند)».

ردَّ ابنه: «إنه درس أتمنى ألَّا أربح من ورائه شيئًا، ولو فرضته السنون والخبرة على..».

قاطعه أبوه: «لا تقل على القلب».

قال (إدوارد) في حرارة: «على رجالٍ أفسدتهم الدنيا ونفاقها، فلتحمني السماء من معرفته».

ردَّ أبوه رافعًا نفسه قليلًا على الأريكة وناظرًا في وجهه مباشرة: «حسنًا أيها السيد، كفانا ما قيل في هذا الأمر، رجاءً تذكَّر مصلحتك وواجبك وما تمليه عليك الأخلاق وعواطفك تجاه أبيك وكل ما هو من ذلك بسبيلٍ. وهي أمور من المبهج أن تفكر فيها، وإلَّا فستندم».

قال (إدوارد): «لن أندم أبدًا على حفاظي على احترامي لنفسي يا سيدي. سامحني إن قلت إنني لن أضحِّي به إذا أمرتني، وإنني لن أسير في الطريق التي يطيب لك أن آخذها، والتي تخدمها مشاركتك السرية في ذلك الانفصال الذي حدث بيني وبينها».

رفع أبوه نفسه إلى أعلى قليلًا مرة أخرى، وأخذ ينظر إليه كما لو كان يملؤه الفضول أن يعرف ما إذا كان مصمِّمًا تمامًا وجادًّا فيما يقول، ثم غاص في الأريكة بهدوءٍ مجدَّدًا، وقال بأهدأ نبرة ممكنة وهو يتناول نقله:

«إدوارد، كان لوالدي ابن في حماقتك وفيه مثل ما فيك من عواطف

العقوق والوضاعة، فما كان منه إلَّا أن حرمه الميراث ولعنه ذات صباحٍ بعد الإفطار. وإني لأتذكَّر تلك الحادثة هذا المساء بوضوحٍ استثنائيٍّ. أذكر أني كنت إذا ذاك آكل فطائر بالمربَّى. عاش حياة تعيسة (أعني ذلك الابن) ومات شابًّا، وكان ذلك إطلاقًا سعيدًا للعائلة من قيد وجوده، فقد كان عارًا عليها. هو أمرٌ محزنٌ يا (إدوارد) أن يجد الأب نفسه مضطرًّا إلى اللجوء إلى هذه التدابير القاسية».

ردَّ (إدوارد): «هو كذلك. ومحزن كذلك أن يجد الابن نفسه مرفوضًا تحت كل ظرف وهو يقدم لأبيه حبَّه وشعوره بواجبه نحوه كأفضل وأصدق ما يكونان، فيكون مضطرًّا إلى عقوقه».

ثم أضاف في المزيد من الجدية رغم اكتساء صوته نبرة ألطف: «أبي العزيز، لقد فكرت كثيرًا فيما جرى بيننا حين ناقشنا هذا الموضوع أول مرة، لتكن بيننا ثقة حقيقية لا مزيفة، اسمع ما ينبغي لي قوله».

ردَّ أبوه في برودٍ: «حيث إنني أتوقع فحواه ولا يمكن أن يخيب توقعي يا (إدوارد)، فإنني أرفض. لا يمكنني أن أسمع، أنا واثق أن ما ستقوله سيعكِّر مزاجي، وهو أمر لا أستطيع تحمُّله. إذا كنت تنتوي أن تفسد خططي لتأسيس حياتك والحفاظ على وضعنا النبيل وكبريائنا اللائقة التي طالما حافظت عليها عائلتنا، وإذا كنت باختصارٍ مصمِّمًا على أن تميل إلى المسلك الذي اخترته لنفسك، فعليك أن تأخذ هذا المسلك ومعه لعنتي عليك. أنا في غاية الأسف، لكن لا يوجد حقًّا بديلٌ آخر».

قال (إدوارد): «ربما تحرك لسانك باللعنة، لكنها لن تكون أكثر من زفرة فارغة. لا أصدِّق أنَّ في مقدور أي إنسانٍ على ظهر الأرض أن يجلب

لعنة السماء على أخيه الإنسان -وولده على وجه الخصوص- أكثر مما هو في مقدوره أن يسقط قطرة أو ندفة ثلج من الغيوم بأمرٍ مغرورٍ ينطق به، احذر يا سيدي ما تفعله».

ردَّ أبوه وهو يدير وجهه إليه في تكاسلٍ ويكسر بندقة أخرى: «أنت مارقٌ تمامًا من الدين، عاق إلى أبعد مدى، نجس إلى درجة مفزعة، لدرجة أنني ينبغي لي أن أقاطعك هنا. من المستحيل أن نواصل ما نحن فيه على هذا النحو، فلتسد إليّ خدمة ولتقرع الجرس، وسيأتي الخادم ليقودك إلى الخارج. أرجوك لا تعُد إلى هذا المكان أبدًا، امضِ أيها السيد ما دام لم يعد لديك أيُّ حسٍّ أخلاقيٍّ، واذهب إلى الشيطان بكامل رغبتي، طاب يومك».

غادر (إدوارد) الغرفة من دون كلمة أو نظرة أخرى، وأدار ظهره إلى هذا المنزل إلى الأبد. كان وجه الأب محتقنًا ساخنًا قليلًا، لكنَّ أسلوبه لم يتغيَّر حيث دقَّ الجرس ثانية وخاطب الخادم حين دخل:

«(بيك). إذا حدث أنَّ هذا السيد الذي غادر المكان لتوِّه.».

«أرجو المعذرة يا سيدي، أتعني مستر (إدوارد)؟».

«أكان هنا إلَّا واحد أيها الأبله لتسأل هذا السؤال؟ إذا ما أرسل هذا السيد في طلب ملابسه فدعه يأخذها، أتسمعني؟ وإذا ما حضر في أي وقت فأنا لست بالبيت، ستخبره بذلك وتغلق الباب».

هكذا بدأ الناس بعد وقتٍ قصيرٍ يتهامسون أن مستر (تشستر) كان قليل الحظ في ولده الذي سبَّب له الكثير من الغم والحزن. وقد دهش الطيبون الذين سمعوا ذلك وردَّدوه لغيرهم أكثر من ذي قبل من رباطة

جأشه واتزانه، وقالوا يا لَرِقَّة حاشية هذا الرجل الذي تعرَّض لكلِّ ذلك وبقي هادئًا وادعًا. وحين كان يرد اسم (إدوارد) كان وجهاء المجتمع يهزُّون رؤوسهم ويضعون أصابعهم على شفاههم ويتنهَّدون في هيئة بالغة الكآبة. أما أولئك الذين كان لهم أبناء في مثل سنِّه فقد كان يتملَّكهم الغيظ والحنق ويتمنَّون لأجل الفضيلة أن يصبح في عداد الأموات. واستمرَّ العالم يدور كعادته لخمسة أعوام ستصمت عنها حكايتنا هذه.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

ذات مساء شتويٍّ في مطلع عام ١٧٨٠ لميلاد السيد المسيح هبَّت ريحٌ شمالية شديدة مع حلول الظلام، وخيَّم الليل أسود كئيبًا. كنست الشوارع المبتلَّة عاصفة ثلجية عنيفة حادَّة كثيفة شديدة البرودة، وأخذت تخشخش على النوافذ المرتعدة. كانت اللافتات تهتز أكثر مما تحتمله داخل إطاراتها المقرقعة، فلا تلبث أن تساقط إلى الرصيف وتتهشَّم عليه، والمداخن القديمة المتداعية تتمايل وتترنَّح في العاصفة، وتزلزل كثيرٌ من أبراج الكنائس في تلك الليلة كما لو كانت الأرض مضطربة.

لم يكن الوقت مناسبًا لأن يتحدَّى هذا الطقس الهائج أي إنسان في مقدوره أن يحصل على النور والدفء بأي وسيلة. في المقاهي الراقية تجمَّع الضيوف حول النار ونسوا أن يكونوا مجاملين، فبات كلٌّ منهم يقول لصاحبه في سعادة خفية إنَّ العاصفة تزداد قسوتها كلَّ دقيقة. كان في كلِّ خان متواضع على ضفة النهر جماعته من الأفظاظ المجتمعين حول المدفأة، يتحدثون عن سفن غارقة في البحر، فقد كل من كان على متنها، ويحكون حكايات كثيرة كئيبة عن انهيار السفن وغرق من عليها، ويتمنَّون أن يكون من يعرفونهم قد نجوا، ثم يهزُّون رؤوسهم في شكٍّ. وفي المساكن الخاصة كان الأطفال يتجمَّعون حول النار بدورهم وينصتون في سعادة يشوبها الفرق إلى حكايات الأشباح والعفاريت، والأجسام الطويلة

التي ترتدي الأبيض وتقف إلى جوار السرر، والناس الذين ذهبوا ليناموا في الكنائس القديمة فلمَّا نُسوا هنالك وجدوا أنفسهم بمفردهم في هدأة الليل، إلى أن يرتعد هؤلاء الأطفال إذا ما جالت بخاطرهم فكرة الغرف المظلمة في الطوابق العليا، ورغم ذلك كان يجتذبهم سماع الريح تعوي، فيتمنَّون أن تظلَّ على ما هي عليه. كان هؤلاء السعداء المحتمون بالجدران يتوقفون بين الفينة والفينة لينصتوا، أو كان أحدهم يرفع أصبعه ويصيح «أنصتوا!»، ثم يسمع فوق دمدمة المداخن وطقطقة الثلج المرتطم بزجاج النوافذ صوتٌ مباغت معول يهزُّ الجدران كما لو كان يد مارد، ثم تسمع زمجرة مبحوحة كما لو كان البحر قد قام، ثم تدويم واصطخاب كما لو كان الهواء قد جنَّ، وبعد ذلك عواء طويل لأمواج الريح وهي تجرف ما أمامها لتترك لحظة من السكون.

كانت أنوار (مايپول) ساطعة في مرحٍ في هذه الليلة رغم افتقادها وجود من يشهدها في الشوارع الخالية. بورك ستار النافذة القديم الأحمر -ذلك الأحمر القاني الياقوتي البرَّاق- وهو يمتزج ببعضه مكوِّنًا نهرًا واحدًا غنيًّا من السّنا، وبوركت النار والشمعة، وبورك اللحم والشراب والصحبة، حتى إنَّ الخان ليشرق كعين ممراحة على ذلك البلقع الكئيب خارج الأبواب! أما في الداخل، فأي بساط ينافس رمل (مايپول) الذي ينغم الخطى، وأي موسيقى ترقى إلى مرح أعواد حطبه المطقطقة في المدفأة، وأي عطر يعدل أنفاس مطبخه الشهية، وأي طقس يرتفع إلى دفئه الحميم المفعم بالأنس؟! بورك الخان العتيق، ما أثبت وقفته! ما أشد ما زمجرت الريح الحاقدة حول سقفه المتين، وما أكثر ما لهثت وهي تصارع مداخنه الواسعة التي ظلَّت تنفث من حلوقها المضيافة سحبًا عظيمة من الدخان في

وجه الريح متحدِّية إياها، وفوق كل ذلك، ما أصبر الريح في خشخشتها واندفاعها صوب النوافذ، تريد أن تطفئ ذلك النور المبهج الذي يأبى أن ينطفئ، بل كان يخرج من هذا الصراع أكثر سطوعًا ولمعانًا!

وكذا تلك الوفرة الغنيَّة السخيَّة التي يتمتَّع بها هذا الخان الطيِّب! لم يكن يكفيه أن تزمجر نارٌ واحدة وتطقطق في مدفأته الواسعة، فكان في القرميد الذي يبلِّط المدفأة ويطوِّقها خمسمائة نار مرتعشة تومض في سطوعٍ. لم يكن يكفيه أن يحتمي من الليل الموحش في الخارج بستارٍ واحدٍ أحمر يلقي بأثره المبهج على الغرفة. كان في غطاء كلِّ قدرٍ وكلِّ شمعدان وكلِّ إناء من النحاس الأحمر أو الأصفر أو الصفيح معلَّق على الجدران تعاليق حمراء متورِّدة تفوق الحصر، تومض وتبرق مع كلِّ حركة لألسنة اللهب في المدفأة، وتفرش مساحات شاسعة من نفس اللون الغني حيثما تقلَّب البصر. كانت ألواح السنديان التي تبطِّن الحائط تعكس هذا اللون وهجًا عميقًا مطفأً، مثلها في ذلك مثل المقاعد والأعمدة والأرائك. بل كان في أعين الشرب أنفسهم نيران وستائر حمراء، وفي أزرار ملابسهم وفي نبيذهم وفي الغلايين التي كانوا يدخِّنونها.

جلس مستر (ولت) فيما كان مكانه المعتاد منذ خمسة أعوام، وعيناه معلَّقتان بالغلاية الأبدية. جلس هناك مذ دقَّت الساعة الثامنة، لا يلوح عليه من مخايل الحياة إلا تنفُّسه بشخيرٍ عالٍ ثابتٍ رغم كونه في كامل يقظته، ورفعه كأسه إلى شفتيه بين الفينة والفينة، أو دقّه الرماد إلى خارج غليونه، وملؤه إياه مجدَّدًا. كانت الساعة الآن العاشرة والنصف. كان رفيقاه مستر (كبّ) و(فل پاركس) الطويل كالأيام الخوالي، ولساعتين فانيتين ونصف لم ينبس أحدهم ببنت شفة.

ثم سؤال نترك للفلسفة إجابته: هل يكتسب الناس بقوة جلوسهم معًا في المكان نفسه وفي الأوضاع نفسها بالنسبة إلى بعضهم بعضًا وفعلهم الأشياء نفسها لأعوام عديدة حاسَّة سادسة أو قوة ما مجهولة بدلًا من الحاسَّة السادسة، تعين كلًّا منهم على التأثير في أصحابه؟ المؤكَّد أنَّ (چون ولت) العجوز ومستر (پاركس) ومستر (كبّ) كانوا على قلب رجلٍ واحدٍ اتفاقًا على كونهم رفاقًا مرحين للغاية، ذوي أرواح أقرب إلى أن تكون مختارة، حتى إنَّهم كانوا يتبادلون النظرات فيما بينهم كلَّ حين كما لو كان هناك تبادل أفكار أبديٌّ بينهم، ولم يكن أحدهم يعتبر نفسه أو جاره صامتًا بحالٍ، وحين كانت تلتقي عينا أحدهم بعيني آخر كان يومئ بالإيجاب كما لو كان يقول: «لقد عبَّرت عن وجهة نظرك خير تعبير يا سيدي فيما يتَّصل بهذا الأمر، وأنا متفق معك تمامًا».

كانت الغرفة دافئةً جدًّا، والتبغ جيدًا للغاية، والنار مدفئةً تمامًا، حتى إن مستر (ولت) أخذته رويدًا رويدًا سنة من النوم، لكن حيث كان قد اكتمل اكتسابه فن التدخين في أثناء النوم بحكم طول إلفه هذه العادة، وحيث كان تنفُّسه لا يختلف في يقظة أو منامٍ، فيما عدا أنه كان يعاني في المنام أحيانًا شيئًا من عسر التنفُّس (كالذي يلقاه النجار وهو يسوِّي لوح الخشب حين تبهته عقدة)، لم ينتبه أيٌّ من رفاقه لنومه حتى لقي إحدى تلك العقبات فاضطرته إلى البدء من جديدٍ.

قال مستر (پاركس) هامسًا: «لقد سقط (چوني) نائمًا».

قال مستر (كبّ): «نومًا عميقًا».

لم يتفوَّه أيٌّ منهما بكلمة أخرى إلى أن عثر مستر (ولت) في عقدة أخرى بالغة الصعوبة جعلته يتشنَّج، لكنَّه تغلَّب عليها أخيرًا من دون أن يستيقظ، بجهدٍ فوق طاقة البشر تمامًا.

قال مستر (كبّ): «إنه ينام نومًا أعمق مما ينامه في العادة».

ردَّ باستهانة مستر (پاركس) الذي ربما كان هو نفسه ثقيل النوم: «ما أبعده عن ذلك» ثم أدار عينيه إلى منشورٍ ملصقٍ على رفِّ الموقد، مزيَّن عند قمَّته بصورة تمثِّل شابًّا غضَّ الإهاب يركض مبتعدًا بسرعة بالغة، حاملًا صرّة على كتفه تتدلَّى من نهاية عصا، ولتوصيل الفكرة نجد إلى جواره علامة إصبعية إلى الاتجاه الصحيح وصوَّة تدلُّ على المسافة. كذلك أدار مستر (كبّ) عينيه إلى نفس الوجهة، وأخذ يتفرَّس الملصق كما لو كانت هذه هي المرة الأولى التي تقع فيها عيناه عليه. لم يكن هذا الملصق إلا ورقة صاغها مستر (ولت) بنفسه إثر اختفاء ولده (چوزيف)، يعلم بها النبلاء والأعيان والجمهور بعامة أنه قد ترك بيته، واصفًا لباسه ومظهره، عارضًا مكافأة خمسة جنيهات لأي شخص أو جماعة يحملونه ويعيدونه سالمًا إلى (مايپول) في (تشغول) أو يودعونه أيًّا من سجون جلالة الملك إلى أن يأتي أبوه لاستعادته. وقد أصرَّ مستر (ولت) بعنادٍ في هذا الإعلان -رغم نصح أصدقائه وتوسُّلاتهم- على وصف ابنه بأنه (ولدٌ صغيرٌ)، وأكثر من ذلك وصفه طوله كما لو كان أقصر من طوله الحقيقي بثمان عشرة بوصة إلى قدمين، وهما تفصيلتان ربما أسهمتا بقدرٍ في أن الإعلان لم يسفر عن شيء بخلاف نقل ما يقرب من خمسة وأربعين هاربًا إلى (تشغول) في أوقاتٍ مختلفة وبتكاليف باهظة، تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشرة.

نظر مستر (پاركس) ومستر (كبّ) نظرة غامضة إلى هذه الورقة ثم نظر كلٌّ منهما إلى صاحبه وإلى (چون) العجوز. منذ ألصقها مستر (ولت) بيديه لم يحدث أبدًا أن أشار إلى هذا الموضوع بكلمة أو إيماءة، ولم يشجع أحدًا على أن يشير إليه. لم يكن لدى أحد أدنى تصوُّر عمَّا يمكن أن تكون عليه أفكاره وآراؤه فيما يخص هذا الأمر، وما إذا كان يتذكَّره أم قد نسيه، بل ما إذا كانت لديه فكرة أي فكرة عمَّا إذا مثل هذا الأمر قد وقع. ولذا لم يجرؤ أحدٌ على الإشارة إلى هذا الأمر في حضوره، حتى وهو نائم، ولهذه الأسباب الكافية كان صديقاه المجتبيان هذان صامتين الآن.

في هذه الأثناء كان مستر (ولت) قد دخل تشابكًا من العقد، حتى لقد بدا واضحًا أنه يجب أن يستيقظ وإلا فسيموت. آثر الخيار الأول وفتح عينيه قائلًا:

«إن لم يأتِ خلال خمس دقائق فسأتعشَّى من دونه».

كان من يعود إليه هذا الضمير قد ذكر آخر مرة في الساعة الثامنة. أما وقد اعتاد السيدان (پاركس) و(كبّ) طريقة الحديث هذه فقد ردَّا من دون صعوبة بأن (سولومون) قد تأخَّر حقًّا، وإنهما ليعجبان ماذا حدث ليؤخِّره هكذا.

قال (پاركس): «أفترض أن العاصفة لم تعصف به تمامًا، إنها من القوة بحيث تطيح برجلٍ في قامته في يسرٍ. أتسمعها؟ إنها لتطلق بنادق عظيمةً حقًّا، أعتقد أنه ستكون الليلة في الغابة انهيارات عدة، وغدًا تكون على الأرض أغصان مكسورة كثيرة».

ردَّ (چون) العجوز: «أعتقد أنها لن تكسر أيَّ شيء في (مايپول)، دعها تحاول، أنا أسمح لها. ما هذا؟».

صاح (پاركس): «الريح، إنها تعوي كمسيحي، وقد ظلَّت تعوي هكذا طيلة الليل».

سأل (چون) بعد تأمُّل دقيقة: «هل سمعت أبدًا أيها السيد الريح تقول (مايپول)؟».

قال (پاركس): «لماذا؟ هل سمع ذلك إنسان ما؟».

أضاف (چون): «ربما ولا (أهوي)؟».

«لا. ولا حتى هذه».

قال مستر (ولت) من دون تأثُّرٍ: «حسنًا أيها السيد، إذن فإذا كانت هذه هي الريح الآن، وإذا انتظرت أنت وقتًا قليلًا من دون كلامٍ، فستسمعها تقول الكلمتين بوضوحٍ».

كان مستر (ولت) محقًّا. بعد أن أصاخا سمعيهما لحظاتٍ قليلة استطاعا أن يميِّزا بوضوحٍ هذه الصيحة تتكرر بحدة وعنفٍ، فوق الزمجرة والصخب السائد خارج الأبواب، ما يشي بأن الصيحة آتية من شخصٍ في كربٍ عظيمٍ أو رعبٍ بالغٍ. نظر كلٌّ منهم إلى صاحبيه وامتقعت وجوههم وحبسوا أنفاسهم ولم يحرك أحدهم ساكنًا.

في هذه الملمَّة أظهر مستر (ولت) شيئًا من حدَّة ذهنه وسعة حيلته اللتين قد جعلتاه مثار إعجاب أصدقائه وجيرانه. فبعد أن نظر برهة إلى رفيقيه في صمتٍ، صفَّق بيديه على خدَّيه، وأطلق زمجرة جعلت الكؤوس ترقص والعوارض الخشبية تغني. كانت خوارًا طويل المدى متنافرًا، تدحرج مع الريح، ولمَّا كان قد أفزع كلَّ صدىً، فقد جعل الليل مائة مرة أشد صخبًا، كانت نهيقًا عميقًا عاليًا كئيبًا بدا صادرًا عن ناقوس بشري. ثم

ما لبث أن اقترب قليلًا من النار وقد انتفخ في رأسه ووجهه كلُّ وريد بما بذل من جهد وغمر ملامحه القرمزي الحي، ثم قال في كبرياء وهو يولي النار ظهره:

«لو كان في ذلك عزاءٌ لأي بشرٍ فمرحبًا بهم، ولو لم يكن، فأنا آسف لأجلهم. لو أن أيًّا منكما أيها السيدان يريد أن يخرج ليرى ما الأمر فله ذلك، أما أنا فليس بي فضول لذلك».

وبينما يتحدث كانت الصيحة تقترب وتقترب، والخطى تمر بالنافذة، ومزلاج الباب يرفع، ثم فتح الباب وأغلق بعنفٍ، وهرع (سولومون دايزي) إلى داخل الغرفة وفي يده مصباحٌ مضاءٌ والمطر ينصبُّ من لباسه المضطرب.

كان من الصعب أن يتخيَّل المرء صورة أكثر اكتمالًا للرعب من تلك التي جسدها الرجل الضئيل. كان وجهه مندًّى بحبَّات العرق، وركبتاه تدق إحداهما أختها، وأطرافه ترتعد، وخانته قدرته على الكلام تمامًا، وها هو واقف يلهث، محملقًا إليهم بنظراتٍ شاحبة شحوب الموتى، حتى لقد أعداهم فزعه رغم جهلهم بسببه، وما لبثوا أن حملقوا بدورهم إليه كأنهم يعكسون هيئته المضطربة الفزعة، من دون أن تواتيهم الجرأة على أن يسألوه، إلى أن اندفع (چون ولت) العجوز في نوبة جنونٍ مؤقَّتٍ إلى ربطة عنقه، وما لبث أن أمسكه من هذا الجزء من زيِّه وأخذ يهزُّه حتى بدا أنَّ أسنانه نفسها تصلصل في رأسه.

قال (چون): «أخبرنا ما الأمر أيها السيد، وإلا قتلتك، أخبرنا ما الأمر أيها السيد، وإلا فسأضع رأسك تحت الغلاية في ثانية، كيف تجرؤ على

أن تبدو هكذا؟ هل يطاردك أحدهم؟ ماذا تعني؟ قل شيئًا، وإلا فسأكون موتك، سأقتلك».

كاد مستر (ولت) في هياجه ينفِّذ كلمته هذه بالحرف -فقد كانت عينا (سولومون دايزي) بالفعل تدوران في محجريهما بطريقة مقلقة، وأخذت تصدر من حنجرته أصواتٌ حلقيَّة كما يحدث لشخص يختنق- حتى إن الواقفين معهما وقد استعادا وعيهما بعض الشيء أبعداه عن ضحيته بالقوة، وأجلسا كاتب الأبرشية الضئيل في مقعدٍ. وبعد أن أدار عينيه الخائفتين في أركان الغرفة تضرّعَ إليهم بصوتٍ خافتٍ أن يعطوه بعض الشراب، والأهم أن يغلقوا باب الخان ويرتجوا مصاريع الغرفة على الفور. لم يكن هذ الطلب الأخير باعثًا لسامعيه على الطمأنينة أو الاستبشار، لكنَّهم استجابوا له مع ذلك بأسرع ما يمكن، وبعد أن ناولوه كأسًا من البراندي والماء الذي يكاد يغلي، ارتقبوا أن يسمعوا ما عساه يحكيه.

قال (سولومون) مصافحًا (ولت): «أوه چوني، أوه پاركس، أوه تومي كبّ، لماذا غادرت هذا المنزل الليلة؟! في التاسع عشر من آذار بين كلِّ ليالي السنة، في التاسع عشر من آذار!».

اقتربوا جميعًا من النار. أجفل (پاركس) الذي كان أقربهم إلى الباب واسترق نظرة إلى ما حوله. سأل مستر (ولت) بكثيرٍ من الاستياء ماذا يعني بذلك بحق الشيطان، ثم أردف: «فليسامحني الرب!» واسترق نظرة إلى ما حوله بدوره واقترب منهم.

قال (سولومون دايزي): «حين غادرتكم الليلة لم أفكر إلا قليلًا في أي يوم نحن من أيام الشهر. إنني لم أدخل أبدًا إلى الكنيسة وحدي بعد حلول

الظلام في مثل هذا اليوم لسبعة وعشرين عامًا. لقد سمعت أنه كما نحتفظ بذكرى ميلادنا ونحن أحياء، فكذلك أشباح الموتى غير المرتاحين في قبورهم تحتفظ بذكرى الأيام التي ماتوا فيها. آه من زمجرة هذه الريح!».

لم ينطق أحدٌ بكلمة، كانت الأعين كلُّها مثبَّتة على (سولومون)، قال:

«كان ينبغي لي أن أعرف أي ليلة هذه من طقسها الفظيع. ليس ثَمَّ ليلة مثلها في السنة كلها، دائمًا. إنني لا أنام مطمئنًّا أبدًا في فراشي في التاسع عشر من آذار».

قال (توم كبّ) بصوتٍ خفيضٍ: «أكمل، ولا أنا كذلك».

رفع (سولومون دايزي) كأسه إلى شفتيه ثم وضعها على الأرض بيدٍ مرتجفة حتى إنَّ الملعقة أخذت تطنُّ داخلها كجرسٍ صغيرٍ، ثم تابع:

«هل قلت لكم إننا دائمًا نرتدُّ إلى هذا الموضوع بطريقة غريبة كلما حلَّ التاسع عشر من آذار؟ هل تظنُّون أنها محض مصادفة أنني قد نسيت أن أملأ ساعة الكنيسة؟ إنني لم أنس ذلك أبدًا في أي وقتٍ آخر رغم كونه عملًا مملًّا يجب أن يكرَّر يوميًّا. لماذا يجب أن يسقط من ذاكرتي في هذا اليوم دون غيره؟ بعد أن تركتكم، حرصت على أن أعجل إلى هناك بقدر الإمكان، لكن كان يجب أن أذهب إلى البيت أولًا لإحضار المفاتيح، وحيث إنَّ الريح والمطر كانا يضربانني بعنفٍ طيلة الطريق فقد كان يكفيني ما أبذله من جهدٍ للاحتفاظ بساقيَّ على الأرض لئلَّا تطيشا في الريح. وصلتُ إلى هناك أخيرًا وفتحت باب الكنيسة ودخلت. لم أقابل نفسًا واحدة طيلة الطريق، ولكم أن تحكموا ما إذا كان ذلك كئيبًا أو غير ذلك، لم يرِد أيٌّ منكم أن يرافقني. لو كان لكم أن تعرفوا ما

سيحدث لكنتم محقِّين في ذلك الإحجام. كانت الريح قوية جدًّا، حتى إنه لم يكن في استطاعتي أن أغلق باب الكنيسة إلا بوضع ثقل جسدي كله عليه، ورغم ذلك فقد انفتح عن آخره مرتين بعنفٍ بالغٍ حتى إن أيًّا منكم كان سيقسم لو كان مستندًا بجسده إليه مثلي أن أحدهم كان يدفع الباب من الخارج. رغم ذلك أدرتُ المفتاح ودخلت إلى برج الناقوس وملأت الساعة التي كان ملؤها قد شارف النفاد وكانت على وشك أن تقف تمامًا بعد نصف ساعة.

وإذ أخذت مصباحي وتهيأت لمغادرة الكنيسة تذكرت فجأة أن اليوم التاسع عشر من آذار. باغتني هذا وصدمني كما لو كانت يدٌ قد ضربت هذه الذكرى على جبهتي، وفي اللحظة نفسها سمعت صوتًا خارج البرج صاعدًا من بين القبور».

هنا قاطع (چون) العجوز المتحدِّث في عجلة ورجا مستر (پاركس) -الذي كان جالسًا أمامه مباشرة وكان يحدِّق إلى نقطة فوق رأسه- لو كان يرى شيئًا أن يتفضَّل بذكر ما يراه. اعتذر مستر (پاركس) وقال إنه كان ينصت وحسب، فما كان من مستر (ولت) إلَّا أن ردَّ عليه مغضبًا بأن إنصاته بهذا التعبير على وجهه ليس بمرغوبٍ فيه، وأنه إن لم يكن قادرًا على أن يبدو كبقيَّة الناس، فالأفضل أن يضع منديل جيبه على رأسه. وعد مستر (پاركس) في خضوعٍ بأن ينصاع لذلك إذا ما تطلَّب الأمر، فاستدار مستر (ولت) إلى (سولومون) طالبًا منه أن يواصل الحكي. انتظر الضئيل إلى أن مرَّت بسلامٍ زوبعة عنيفة من الريح والمطر كادت تزلزل الخان المتين وتدكُّه إلى أساسه، ثم انصاع وواصل:

«لا تقولوا أبدًا إن ذلك كان خيالي أو صوتًا آخر ظننته ما أخبركم به، لقد سمعت الريح تصفر خلال أقواس الكنيسة، سمعت برج الكنيسة يصرخ ويزعق، سمعت المطر وهو ينهمر عنيفًا على الجدران، شعرت بالأجراس تهتزُّ، رأيت الحبال تتأرجح ذهوبًا وجيئة، وسمعت ذلك الصوت».

قال (توم كبّ): «ماذا كان يقول؟».

«لا أعرف. لا أعرف إن كان قد نطق شيئًا، لقد كان أقرب إلى صيحة كتلك التي يمكن أن يصيحها أيٌّ منَّا إذا طاردنا شيء مرعبٌ في حلمٍ وانقضَّ علينا ونحن في غفلة، ثم ما لبث أن خفت كما لو كان يدور حول الكنيسة».

قال (چون) وهو يشهق شهقة طويلة ويقلِّب بصره فيما حوله كأنه يتنفَّس الصعداء: «لا أرى في ذلك شيئًا ذا بال».

ردَّ صديقه: «ربما، لكن ذلك ليس كلَّ شيء».

سأل (چون) متوقِّفًا وهو يمسح وجهه في مريلته: «ماذا تنوي أن تضيف أيها السيد؟ هل هناك المزيد؟ بماذا تنوي أن تخبرنا بعد ذلك؟».

«ما رأيته».

ردَّد ثلاثتهم منحنين إلى الأمام: «رأيته؟».

قال الضئيل وتعبير وجهه يصدِّق ما قد وقر في نفسه أيما تصديق: «حين فتحت باب الكنيسة لأخرج، حين فتحت باب الكنيسة لأخرج، وهو ما فعلته بغتة، إذ إنني أردت أن أغلقه ورائي قبل أن تفاجئني زوبعة أخرى، مرَّ بي شيء قريب من هيئة إنسان، مرَّ قريبًا جدًّا مني حتى إنني لو كنت قد مددت أصبعًا للمسته. كان عاري الرأس في العاصفة، أدار رأسه من دون أن يتوقَّف وثبَّت عينيه في عينيَّ، كان شبحًا، روحًا».

صاح ثلاثتهم في نفسٍ واحدٍ: «شبح من؟».

وفي غمرة انفعاله -حيث تهاوى في مقعده مرتعدًا، ولوَّح بيده كما لو كان يتوسَّل إليهم ألَّا يسألوه أكثر من ذلك- لم يسمع إجابته منهم إلَّا العجوز (چون ولت) الذي تصادف أن كان يجلس قريبًا منه.

صاح (پاركس) و(توم كبّ) وهما ينقِّلان بصريهما في فضولٍ بالغٍ بين (سولومون دايزي) و(مستر ولت): «من؟ من كان ذلك؟».

قال مستر (ولت) بعد وقفة طويلة: «أيُّها السادة، لا حاجة بكم للسؤال، شيء على هيئة رجل مقتول، إنه التاسع عشر من آذار».

تبع ذلك سكونٌ عميقٌ كأنَّ على رؤوسهم الطير، ثم قال (چون):

«إذا أخذتم بنصيحتي، فالأفضل لنا جميعًا أن نحتفظ بذلك سرًّا؛ مثل هذه الحكايات لن يكون مقبولًا في بيت (وارن)، دعونا نحتفظ به لأنفسنا الآن تحت أي ظرف، لئلَّا نتورَّط في أي متاعب ولئلَّا يفقد (سولومون) مكانه. لا يهم إن كان الأمر حقيقة مثل ما قال أو غير ذلك، صح ما يقوله أو لم يصح، لن يصدِّقه أحدٌ».

ثم أضاف وهو ينظر إلى أركان الغرفة بطريقة شفَّت أنه كثلَّة غيره من الفلاسفة لم يكن مرتاحًا تمامًا إلى نظريَّته:

«أما بالنسبة إلى الاحتمالات، فأنا عن نفسي لا أعتقد أنَّ شبحًا لرجلٍ كان عاقلًا في حياته يمكن أن يخرج للتجوال في مثل هذا الطقس، كل ما أعرفه أني لن أفعل ذلك إن كنت شبحًا».

لكن الثلاثة الآخرين عارضوا بشدة هذا المذهب المبتدع، وأخذوا يستعرضون سوابق كثيرة توضح أنَّ مثل هذا الجو النكد هو الأكثر

ملاءمة لتلك الظهورات، واحتجَّ مستر (پاركس) -الذي كان لديه شبحٌ في عائلته من ناحية الأم- لإثبات الأمر في براعة ومقدرة على الإيضاح لدرجة أنَّ شيئًا لم ينقذ (چون) من أن يضطرَّ إلى سحب رأيه إلا ظهور العشاء في الوقت المناسب، فما كان منهم إلا أن عكفوا عليه بشهيَّة مفتوحة على مصراعيها. حتى (سولومون دايزي) نفسه -بقوة الأثر الجيد للدفء والنور والبراندي والصحبة الطيِّبة- استعاد نفسه لدرجة أن أمسك بسكِّينه وشوكته بأسلوبٍ مشرِّف تمامًا، وأظهر مقدرته على الأكل والشرب بطريقة بدَّدت كلَّ المخاوف من أن يكون ما تعرَّض له من فزعٍ قد ترك في نفسه أذًى دائمًا.

بعد فراغهم من العشاء اجتمعوا حول المِدفأة مجدَّدًا، وكما هو شائع في مثل هذه المناسبات أخذوا يثيرون كلَّ ما هو من الأسئلة الموجَّهة بسبيل، ليحيطوا الحكاية بالمزيد من الرعب والمفاجآت. غير أنَّ (سولومون دايزي) رغم هذه الإغراءات لزم حكايته الأصلية في ثباتٍ، وكرَّرها كثيرًا، بتنويعاتٍ بسيطة وأيمان مغلَّظة على صدقها وحقيقيَّتها، حتى إنَّ سامعيه كانوا يعجبون لها أكثر مما عجبوا في السماع الأول، ولهم عذرهم. وحين اتخذ وجهة نظر (چون ولت) إلى الأمر فيما يخصُّ جواز إشاعة الحكاية خارج هذه الصحبة، إلا إذا عاود الشبح الظهور له، حيث ينبغي له في تلك الحال أن يستشير الكاهن على الفور، فقد اتفق تمامًا على أنهم يجب أن يكتموا الحكاية. وحيث إنَّ معظم الناس يطيب لهم أن يكون لديهم سرٌّ يحكونه، علَّه يزيد في أهميَّتهم، فقد وصلوا إلى هذه النتيجة باتفاقٍ كاملٍ.

وحيث كانت الساعة قد تأخرت كثيرًا الآن، وجاوزت ساعة افتراقهم المعتادة بكثيرٍ، افترق الرفاق أخيرًا. أسرع (سولومون دايزي) بشمعة جديدة في مصباحه إلى بيته تحت حراسة (فل پاركس) الطويل ومستر (كبّ) اللذين كانا أكثر عصبية منه. أمَّا مستر (ولت) فبعد أن رافقهم إلى الباب مودِّعًا، عاد ليجمع شتات أفكاره مستعينًا بالغلَّاية، وليستمع إلى عاصفة الريح والمطر التي لم يكن هياجها قد هدأ مثقال ذرَّة بعد.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

قبل أن يواصل (چون) العجوز النظر إلى الغلَّاية لعشرين دقيقة كاملة ركَّز أفكاره وربطها بقصة (سولومون دايزي). وكان كلما زاد التفكير فيها ازداد إعجابه بحكمته هو نفسه وازدادت رغبته في أن يعجب بها مستر (هاردال) كذلك. وأخيرًا قرَّر أن يسرع إلى بيت (وارن) قبل أن يأوي إلى فراشه، علَّه يدعم شخصية رئيسة مهمَّة في تلك الحكاية، ويبادر إلى ما قد يقدم عليه (سولومون) وصديقاه، إذ كان يعرف أنَّ الحكاية ستصل بتنويعة من المبالغات من خلال هؤلاء الثلاثة إلى عشرين شخصًا على الأقل، وبينهم مستر (هاردال) نفسه على الأرجح قبل وقت إفطار الغد. فكَّر وهو يتناول بيده شمعة ويضعها في ركنٍ بعيدٍ عن مهبِّ الريح ويفتح نافذة في خلفية المنزل تطلُّ على الحظائر:

«إنه مالك المنزل، لم نلتقِ في الأعوام الأخيرة كثيرًا كما اعتدنا أن نلتقي، فإن العائلة تمر بتغيُّرات، ومن اللائق ومن الكرامة أن أقف إلى جوارهم بقدر الإمكان، فإنَّ التهامس بتلك الحكاية من حوله سيغضبه، ومن الجيد أن يحظى المرء بثقة إنسان له طباعه، ويقف موقفًا لائقًا بالإضافة إلى ذلك. هالّوا! (هيو)! (هيو) هالّوا!».

بعد أن كرَّر هذه الصيحة دستة مرات فأفزع كلَّ حمامة من نومها، انفتح باب في أحد الأبنية العتيقة الخربة، وسأل صوتٌ غليظٌ ما المشكلة الآن حتى إن الإنسان لا يستطيع حتى أن ينام في هدوءٍ، قال (چون):

«ماذا! ألم تحظَ بما يكفيك من النوم أيها المتذمِّر لكي يوقظك المرء مرة؟».

ردَّ الصوت وهو يتثاءب ويهزُّ نفسه: «لا، لم أحظ بنصف ما يكفيني».

قال (چون): «لا أعرف كيف تستطيع النوم والريح تعوي وتزمجر من حولك وتجعل البلاطات تتطاير كأوراق اللعب، لكن ليس هذا موضوعنا. التحِف بشيء وتعال، فإنك يجب أن تأتي معي إلى بيت (وارن)، وأسرع».

عاد (هيو) إلى عرينه بكثيرٍ من التمتمة والتذمُّر الخافت، ثم ظهر مجدَّدًا وهو يحمل مصباحًا وهراوة ويلتحف من رأسه حتى أخمص قدمه بغطاء خيلٍ عتيقٍ مترهِّلٍ كريه. استقبل مستر (ولت) هذا الكائن عند الباب الخلفي، وأشار إليه بدخول الحانة بينما التحف هو بعددٍ من المعاطف وأغطية الرأس، وربط وجهه بأوشحة ومناديل وعقد الأربطة من حوله، حتى لقد بات ملغزًا أنه قادرٌ على التنفُّس.

قال (هيو): «أنت لا تأخذ رجلًا إلى الخارج قرب منتصف الليل في هذا الجو من دون أن تنفث فيه بعض الشجاعة، أليس كذلك يا سيدي؟».

ردَّ مستر (ولت): «بلى، أفعل أيها السيد. أنفث فيه الشجاعة -كما تقول- حين يعيدني سالمًا إلى البيت، أمَّا ثباته في وقفته على رجليه فليس بذي أهمية. والآن ارفع هذا المصباح عاليًا من فضلك وتقدَّم خطوة أو اثنتين لتريني الطريق».

أذعن (هيو) بلطفٍ لا مبالٍ ونظرة توَّاقة إلى قناني الخمر. وبعد أن أصدر (چون) العجوز تعليماته الصارمة لطبَّاخه بأن يراعي إغلاق الأبواب في غيابه وألا يفتح لأحدٍ غيره وإلَّا فسيطرد، تبع (هيو) إلى جوف الظلمة المتوعدة بالخارج.

كانت الطريق رطبة كئيبة، والليل حالك الظلمة، حتى إن مستر (ولت) لو كان قائد نفسه لخاض في بركة خيل عميقة على مسافة لا تزيد على بضع مئات من الياردات من بيته، ولكان بالتأكيد قد أنهى اشتغاله بتلك المهنة بذلك الفعل الوضيع. غير أن (هيو) الذي كان يتمتع ببصرٍ لا يقل حدة عن أي صقر -وحتى بغض النظر عن هذه الموهبة كان قادرًا على أن يعرف طريقه إلى أي بقعة لا تبعد عن الخان بأكثر من دستة أميال وهو معصوب العينين- أخذ يجرُّ (چون) العجوز إلى الأمام وهو لا يستمع إلى تقريعه، واتخذ طريقه هو دون أي التفات أو رجوع إلى سيده. وهكذا أسرعا ضد اتجاه الريح بقدر استطاعتهما، حيث (هيو) يسحق العشب المخضل بخطاه الثقيلة ويواصل المسير في صمتٍ منذرٍ كعادته المتوحشة، و(چون ولت) يتبعه متخلِّفًا عنه مسافة ذراع، ملتقطًا خطاه مقلِّبًا بصره فيما حوله، تارة إلى البرك والمصارف، وتارة إلى تلك الأشباح الشاردة التي ربما تجول في الطرقات، وعليه مخايل الهلع والارتباك كما استطاع إلى التعبير عنها سبيلًا وجهه الجامد الملامح.

أخيرًا كانا يقفان في الممشى العريض المفروش بالحصى أمام بيت (وارن). كان ظلام حالك يلفُّ المبنى، ولم يكن من شيء يتحرك قربه إلا هما. غير أن شعاع ضوء كان يسطع من غرفة برج منعزلة، فما لبث مستر (ولت) أن أمر قائده بأن يتقدَّمه صوب هذا البصيص من الراحة وسط المشهد البارد الكئيب الساكن.

قال (چون) وهو ينظر إلى أعلى في إحجام: «الغرفة القديمة، شقة مستر (روبن) نفسه، كُن معنا يا رب! إني لأعجب من جلوس أخيه هناك في ساعة متأخرة من الليل، في هذه الليلة بالذات».

سأله (هيو) وهو يمسك بالمصباح قريبًا من صدره ليحمي الشمعة من مهب الريح وهو يسوِّي ذبالته بأصابعه: «لماذا؟ أين ينبغي له أن يجلس إذن؟ إنها مريحة بما يكفي، أليس كذلك؟».

قال (چون) في ازدراءٍ: «مريحة! لديك فكرة مريحة عن الراحة بالفعل أيها السيد. أتدري ما حدث في هذه الغرفة أيها الجلف؟».

صاح (هيو) ناظرًا إلى وجه (چون) السمين: «لماذا؟ أيّ شيء مما حدث يجعل الغرفة أسوأ؟ هل يجعلها ذلك تحمي من فيها من المطر والثلج والريح بدرجة أقل؟ هل هي أقل دفئًا أو جفافًا لأنَّ إنسانًا قُتِل فيها؟ هاهاها! لا تصدِّق ذلك أبدًا يا سيدي، لا يؤثِّر رجلٌ واحدٌ ذلك التأثير».

ثبَّت مستر (ولت) عينيه الكسولتين على تابعه، وبدأ يفكر بما يشبه الوحي أنه من الممكن حقًّا أن يكون شخصية على درجة من الخطورة وأنه ربما يكون من الملائم أن يتخلَّص منه يومًا ما. كان أكثر حصافة من أن يفوه بأي شيء، لا سيَّما أن أمامه رحلة العودة إلى البيت، ولذا استدار إلى البوابة الحديدية التي دار هذا الحوار القصير أمامها، وجذب ذراع الجرس المعلَّقة إلى جوارها. وحيث كان البرج الذي يسطع الضوء منه في أحد أركان المبنى، لا يفصله عن الممرِّ إلا ممشى من مماشي الحديقة تفتح عليه هذه البوابة، فقد رفع مستر (هاردال) مصاريع النافذة على الفور وسأل من هناك.

قال (چون): «أستميحك العذر يا سيدي، لقد كنت أعرف أنك تسهر، فتجرَّأت على المجيء، خاصة أن لديَّ ما أقوله لك».

«(ولت)، أليس كذلك؟».

«من (مايپول)، في خدمتك يا سيدي».

أغلق مستر (هاردال) النافذة متراجعًا، ثم ما لبث أن ظهر على بابٍ في قاع البرج، وعبر ممشى الحديقة إلى البوابة ففتحها وأذن لهما بالدخول.

«إنك زائرٌ متأخرٌ يا (ولت)، ما الأمر؟».

قال (چون): «لا شيء ليتحدث عنه يا سيدي، حكاية تافهة فكرت أنك يجب أن تعرف بها، لا شيء سوى هذا».

«دع رجلك يتقدَّمنا بالمصباح، وأعطني يدك، الدرج ملتوٍ ضيِّق، على رسلك بهذا المصباح أيها الصديق، إنك تؤرجحه كما لو كان مبخرة».

كان(هيو) قد وصل إلى البرج بالفعل، فأمسك بالمصباح في مزيدٍ من الثبات، وصعد أولًا، ملتفتًا وراءه بين الفينة والفينة ليلقي بالضوء على الدرج أسفل منه. ولما كان مستر (هاردال) يتبعه مباشرة فقد نظر إلى وجهه الكالح فلم يرقه، وبادله (هيو) النظرات من أعلى باهتمامٍ بينما يصعدون الدرج الملتوي الذي انتهى إلى غرفة صغيرة ملحقة بتلك التي رأيا الضوء ينبعث منها. دلف مستر (هاردال) أولًا، وقادهما عبرها إلى الغرفة الأخرى حيث جلس إلى مكتبٍ كان قد نهض من ورائه حين دقَّا الجرس.

قال مشيرًا إلى (چون) العجوز الذي ظل منحنيًا لدى الباب: «ادخل» ثم أضاف في عجلة لـ(هيو) الذي كان قد دخل هو الآخر: «ليس أنت أيها الصديق. (ولت)، لماذا أحضرت هذا الرجل إلى هنا؟».

ردَّ (چون) رافعًا حاجبيه وخافضًا نبرته إلى مستوى الصوت الذي أُلقي به السؤال: «سيدي، إنه حارسٌ جيدٌ كما ترى».

قال مستر (هاردال) ناظرًا إليه وهو يتحدث: «لا تثق بذلك تمامًا. أنا أرتاب فيما تقول، فإن له عينًا شريرة».

ردَّ مستر (ولت) وهو يسترق نظرة إلى العضو الذي يتحدثان عنه: «ليس في عينه خيالٌ بالتأكيد».

قال مستر (هاردال): «ثق بأنه ليس ثَمَّ خيرٌ فيها. انتظر في تلك الغرفة الصغيرة أيها الصديق وأغلق الباب بيننا».

هزَّ (هيو) كتفيه، وانصاع لما أُمِر به بنظرة مزدرية شفَّت أنه إمَّا أن يكون قد سمع ما كانا يتهامسان به وإمَّا خمَّن فحواه. وحين غاب عن نظريهما استدار مستر (هاردال) إلى (چون) وطلب منه أن يخبره بما لديه، لكن بصوتٍ خفيضٍ فإن وراء الباب آذانا.

بعد هذا التحذير قصَّ مستر (ولت) في همسٍ مداهن كلَّ ما سمعه وقاله تلك الليلة، مشدِّدًا بالأخصِّ على حكمته هو نفسه، واهتمامه العظيم بالعائلة، ورعايته لسلامهم النفسي وسعادتهم. حرَّكت القصة مستمعه أكثر مما توقع، كان مستر (هاردال) يغيِّر وضعية جلوسه كثيرًا، وينهض ويذرع الغرفة، ويعود مجدَّدًا ليطلب منه أن يعيد الكلمات التي استخدمها (سولومون) بالنص بقدر مستطاعه، كما صدرت عنه إشارات أخرى تشي جميعًا بكونه مضطربًا مرتبكًا، حتى إن ذلك أدهش مستر (ولت).

قال (هاردال) في نهاية حديث طويل: «لقد أصبت تمامًا حين أمرتهم بأن يحتفظوا بهذه القصة سرًّا، إنه توهُّمٌ أحمق من جانب ذلك

الرجل المخبول، أذكته مخاوفه وإيمانه بالخرافة. غير أن الآنسة (هاردال) ستضطرب إن وصلت الحكاية إلى مسمعيها رغم أنها بالتأكيد ستميِّز الأمر على هذا النحو، فهي حكاية وثيقة الصلة بموضوعٍ مؤلمٍ لنا جميعًا، حتى إنه ليصعب أن نسمعها في حيادٍ. لقد كنت في غاية الحكمة وقد أسديت إليّ معروفًا كبيرًا. إنني في غاية الامتنان لك».

كان هذا معادلًا لأكثر توقعات (چون) تفاؤلًا، لكنه كان يفضِّل أن ينظر مستر (هاردال) إليه وهو يتحدث، إن كان حقًّا ممتنًّا لصنيعه، أكثر من أن يظل يذرع الغرفة متحدثًا بشكلٍ متقطِّعٍ هكذا، متوقِّفًا كل حين بنظرة ثابتة إلى الأرض، ليواصل الحركة في عجلة كشخصٍ شارد اللبِّ لا يبدو عليه أنه يعي ما يقول أو يفعل.

غير أن ذلك كان أسلوبه، وقد كان جدَّ مربك لـ(چون) حتى إنه قد جلس إثر ذلك بلا حراكٍ وقتًا طويلًا، لا يدري ما عساه أن يفعل. بعد وقتٍ نهض، وأخذ مستر (هاردال) يحدق إليه لحظة كما لو كان قد نسي تمامًا وجوده هنا، ثم صافحه وفتح الباب. أما (هيو) الذي كان غارقًا في نومٍ عميقٍ على أرضية الغرفة الملحقة -أو يتظاهر بذلك- فقد هبَّ واقفًا حين دخلا، وارتدى معطفه في عجالة ثم أمسك بهراوته ومصباحه واستعد لنزول الدرج.

قال مستر (هاردال): «امكث. هل سيشرب هذا الرجل؟».

ردَّ (چون ولت): «يشرب! إنه قادر على أن يشرب (التَّامز) لو كان ماؤه حرِّيفًا بما يكفي يا سيدي. سيشرب شيئًا حين يعود إلى البيت، أمَّا الآن فهو أفضل من دون شراب».

قال (هيو): «لا، لقد أنجزنا نصف المسافة. يا لك من سيدٍ صعبٍ! سأعود إلى البيت في حال أفضل إن جرعت كأسًا ممتلئة! هيَّا!».

وإذ لم يحر (چون) جوابًا، أخرج مستر (هاردال) كأس نبيذ، وناولها لـ(هيو) الذي ما إن أمسكها بيده حتى ألقى جزءًا منها إلى الأرض.

قال (چون): «ماذا تقصد برشِّ شرابك هكذا على أرضية منزل سيد نبيل يا سيد؟».

ردَّ (هيو) رافعًا الكأس فوق مستوى رأسه ومثبِّتًا عينيه على وجه مستر (هاردال): «إنني أشرب نخبًا، نخب هذا المنزل وسيده».

بذلك تمتم شيئًا بينه وبين نفسه وشرب الباقي، ثمّ وضع الكأس أرضًا وتقدَّمهما من دون كلمة أخرى. شعر (چون) أن هذا التظاهر الاحتفالي قد سبَّب له فضيحة، لكنه لما رأى أن (هاردال) لم يلتفت كثيرًا إلى ما قاله (هيو) وما فعله، وأن أفكاره كانت منشغلة بأمور أخرى، لم يقدِّم اعتذارًا ونزل الدرج في صمتٍ، ثم عبر الممشى فالبوابة إلى الخارج. توقَّفا على الجانب الآخر من البوابة ليتمكَّن (هيو) من الإمساك بالمصباح، بينما أغلقها مستر (هاردال) من الداخل، ثم رأى (چون) في دهشة -كما دأب أن يقول فيما بعد- أن (هاردال) كان شاحبًا للغاية، وأن وجهه تغيَّر كثيرًا، وظهر عليه الإنهاك مذ دخلا منزله، حتى لقد بدا شخصًا آخر.

كانا في الطريق المفتوحة مجددًا، وكان (چون ولت) يمشي خلف حارسه كما أتيا، مفكِّرًا بثباتٍ فيما رآه لتوِّه، وإذا (هيو) يسحبه بغتة جانبًا، وفي اللحظة نفسها تقريبًا مرَّ بهم ثلاثة فرسان مسرعين، احتكَّ أقربهم بكتفه، ثم ما لبثوا أن أوقفوا خيلهم بغتة بقدر ما سمح اندفاعهم، ووقفوا ساكنين ينتظرون أن يتقدَّما إليهم.

الفصل الخامس والثلاثون

حين رأى (چون ولت) أن الفرسان داروا حولهما بذكاءٍ وتراصَّ ثلاثتهم جنبًا إلى جنب في الطريق الضيقة، منتظرين أن ينضمَّ إليهم هو وتابعه، خطر له بسرعة غير معتادة أنهم قطَّاع طرق بلا شكٍّ، ولو كان (هيو) مسلَّحًا ببندقية مكان الهراوة المتينة لأمره دون تردُّد بإطلاقها تاركًا النتيجة للحظ، ولكان قد راعى أمانه الشخصي بالهرب على الفور بينما ينفِّذ (هيو) أمره. لكنه تحت الظروف غير المواتية التي وجد نفسه وحارسه فيها اعتبر أنه من الفطنة أن يتبنَّى أسلوب قيادة آخر، ولذا همس في أذن تابعه أن يخاطبهم بأكثر اللهجات ودًّا وسلامًا. وليكون (هيو) مواكبًا لهذه التعليمات مبنىً ومعنىً خطا إلى الأمام وشهر عصاه أمام عيني أقرب الفرسان إليه، وسأله في غلظة ماذا يقصد هو ورفاقه إذ كانوا على وشك أن يطرحوهما أرضًا تحت سنابك خيلهم، ولم يطوِّفون بطريق الملك في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل.

كان الرجل الذي خاطبه على وشك أن يجيب إجابة غاضبة بنفس اللهجة العنيفة، لولا ألجمه الفارس الذي في المنتصف، حيث توسَّط بينهما بلهجة القائد وسأل بصوتٍ عالٍ بعض الشيء وإن لم يكن فظًّا أو كريهًا:

«من فضلكما، هل هذه طريق لندن؟».

ردَّ (هيو) بفظاظة: «إذا اتَّبعتها كما يجب، فهي طريق لندن».

قال نفس الشخص: «كلَّا يا أخي، إنك إنـگـليزيّ جافٌّ، إن كنت إنـگـليزيًّا من الأساس، وهو أمر كنت سأرتاب فيه بقوة لولا لسانك الإنـگـليزي. أنا واثق بأنَّ رفيقك سيجيبني بطريقة أكثر تحضُّرًا، ماذا تقول أيها الصديق؟».

قال (چون): «أقول إنها بالفعل طريق لندن يا سيدي»، ثم أضاف بصوتٍ خفيضٍ وهو يستدير إلى (هيو): «ولكم أتمنَّى لو كنت في أي طريقٍ أخرى أيها المتشرِّد. هل مللت حياتك يا سيد حتى إنك تحاول استفزاز ثلاثة رجال مستميتين تمامًا يستطيعون أن يواصلوا سحقنا بخيولهم ذهابًا وجيئةً إلى أن نموت ثم يسحلونا خلفهم ليغرقونا بعد عشرة أميال؟».

تساءل المتحدث نفسه: «كيف المسافة إلى لندن من هنا؟».

أجاب (چون) بلهجة مقنعة: «من هنا يا سيدي ثلاثة عشر ميلًا، مسافة سهلة».

ألقى هذه الصفة للمسافة محاولًا إغراء المسافرين بأن يواصلوا طريقهم مبتعدين عنهما سريعًا، لكن بدلًا من أن يؤتي القول ثمرته المرجوَّة جعل الشخص نفسه يقول: «ثلاثة عشر ميلًا! تلك مسافة طويلة!» وتبع ذلك فاصلٌ قصيرٌ من التردُّد.

قال السيد نفسه: «رجاءً، هل هناك أيّ فنادق في الجوار؟».

حين طرقت كلمة (فنادق) سمع (چون)، استجمع روحه المعنوية بطريقة مدهشة وتبخَّرت مخاوفه إذ أثيرت حاسَّة (مدير الخان) داخله، فردَّ وهو يضغط مؤكِّدًا صيغة الجمع في إجابته:

«ليست هناك فنادق، لكن فندق واحد هو خان (مايپول)، هو فندق حقًّا، لن ترى مثله كثيرًا».

قال الفارس مبتسمًا: «ربما أنت مديره؟».

ردَّ (چون) في دهشة كبيرة من اكتشاف الرجل لهذه الحقيقة: «أجل يا سيدي».

«وكيف هي المسافة من هنا إلى (مايپول)؟».

«قرابة ميل».

كان (چون) بسبيله إلى إضافة أنها أقصر مسافة في العالم، لولا الفارس الثالث الذي كان إلى تلك اللحظة محتفظًا بموقعه في الخلفية قليلًا، إذ قال مقاطعًا: «وهل لديك فراشٌ ممتازٌ يا مدير الخان؟ همم! فراش يمكنك أن تنصح به، فراش أنت واثق بجودة تهويته، فراش نام فيه شخص محترم على الوجه الأمثل، لا تشوبه شائبة؟».

ردَّ (چون): «نحن لا نستقبل في فندقنا الأراذل يا سيدي، أمَّا بالنسبة إلى الفراش نفسه.».

قاطعه السيد الذي تحدث أولًا: «قل، بالنسبة إلى ثلاثة فرش، فسنحتاج إلى ثلاثة إذا مكثنا، رغم أنَّ صديقي يتحدث عن واحدٍ».

«لا. لا يا سيدي. إنك بالغ الصلاح وبالغ الطيبة، لكنَّ حياتك على قدرٍ من الأهمية للأمة في هذه الأوقات العصيبة بحيث لا يجوز أن تُقرن إلى حياة مسكينة لا فائدة لها كحياتي. إن قضية عظيمة يا سيدي، جليلة الشأن، تعتمد عليك. أنت قائدها وبطلها، حارسها المتقدِّم وطليعتها. إنها قضية هياكلنا وبيوتنا، وطننا وإيماننا. دعني أنام على كرسيٍّ أو على بساطٍ

أو في أي مكان. لن يتذمَّر أحدٌ إن أصابني بردٌ أو حمَّى. فليقض (چون غروبي) الليل ملتحفًا السماء، لن يتذمَّر أحدٌ لأجله. لكنَّ أربعين ألف رجل من أهل جزيرتنا هذه التي يضربها الموج -عدا النساء والأطفال- أنظارهم وأفكارهم معلَّقة بلورد (چورچ غوردن)، ويصلُّون لأجل عافيته وقوته كل يوم من مطلع الشمس إلى مغربها». ثم أضاف المتحدث وهو يقف في ركابه: «سيدي، إنها قضية مجيدة ولا يجب أن تنسى. سيدي، إنها قضية جليلة ولا يجب أن يجازف بها. سيدي، إنها قضية مقدسة ولا يجوز أن يتخلَّى عنها».

صاح اللورد رافعًا قبَّعته في صرامة عظيمة: «إنها قضية مقدسة، آمين».

قال السيد الطويل النفس في لهجة يشوبها العتاب: «(چون غروبي)، لقد قال اللورد آمين».

ردَّ (غروبي) جالسًا كتمثالٍ على حصانه: «لقد سمعت اللورد يا سيدي».

«أفلا تقول مثله آمين؟».

لم يحر (غروبي) جوابًا على ذلك، لكنه ظلَّ جالسًا ناظرًا أمامه. قال السيد الآخر:

«أنت تدهشني يا (غروبي)، في أزمة كالتي نمرُّ بها، حيث تبكي الملكة (إليزابث) -تلك الملكة البتول- في قبرها، وتتبختر (ماري) الدموية منتصرة بجبين ملؤه الظلام والعبوس..».

صاح (غروبي) في غلظة: «أوه، أيها السيد، ما جدوى الحديث عن (ماري) الدموية في ظروف كالتي نحن فيها الآن، حيث اللورد مبتلٌّ

الملابس متعب من طول الركوب؟ دعنا نواصل طريقنا إلى لندن يا سيدي أو نأوي إلى أقرب مكان على الفور، وإلا فسيكون على (ماري) الدموية التعسة أن تتحمَّل المسؤولية عن المزيد من المصائب، وإني لأعتقد أنها قد اقترفت من الأذى في قبرها فوق ما اقترفته في حياتها».

إذ ذاك كان مستر (ولت) الذي لم يسمع أبدًا كلماتٍ بهذه الكثرة تُنطَق في الوقت نفسه، أو تُلقى بمثل هذه الطلاقة والتشديد كما ألقاها ذو النفس الطويل، الذي كان مخُّه عاجزًا تمامًا عن الإحاطة بما سمعه أو إدراكه حتى لقد سلَّم بضياعه، كان هنا قد استفاق بدرجة سمحت له بأن يلفت انتباههم إلى أنَّ متَّسعًا في (مايپول) يكفي الرفقة كلها: فرشًا جيدة ونبيذًا محترمًا، وترفيهًا ممتازًا للبشر والدواب، وغرفًا خاصة للتجمُّعات ما كبر منها وما صغر، ووجبات عشاء تقدَّم سريعًا إذا ما طلبت، وحظائر خيل منتقاة، ومكانًا مأمونًا لعربات المقيمين فيه، وباختصارٍ، كان قد استفاق بما سمح له بأن يجترَّ تلك العبارات الدعائية المنقوشة على أجزاءٍ مختلفة من مبنى الخان، والتي تعلَّم على مدار أربعين عامًا أن يكرِّرها بدقة لا بأس بها. وبينا هو يفكر فيما إذا كان ممكنًا أن يحشر أي عبارات جديدة تخدم الغرض نفسه، إذا الرجل الذي تحدَّث أولًا يستدير إلى ذي النفس الطويل صائحًا:

«ما تقول يا (غاشفورد)؟ أنمكث في ذلك الخان الذي يحدثنا عنه أم نواصل طريقنا؟ قرِّر أنت».

ردَّ الشخص المتحدِّث إليه بلهجة ناعمة: «إذن يا سيدي اللورد، فسأعترف بأن عافيتك وروحك -وهما بعين الرب- المهمَّتين لقضيتنا

العظيمة، قضيتنا الطاهرة الصادقة.» وهنا خلع اللورد قبعته ثانية رغم اشتداد المطر، فتابع الرجل: «تحتاجان إلى النقاهة والراحة».

قال لورد (چورچ غوردن): «تقدَّمنا يا مدير الخان وأرِنا الطريق، وسنتبعك بقدر خطوتك».

قال (چون غروبي) في صوتٍ خفيضٍ: «إذا أذنت لي يا سيدي اللورد، فسأغيِّر مكاني وأركب أمامك، لا يبدو صديق مدير الخان أمينًا، وربما يكون من الجيد أن يكون المرء حريصًا معه».

قال مستر (غاشفورد) عائدًا إلى الخلف في عجلة: «إن (چون غروبي) محقٌّ تمامًا. سيدي اللورد، لا يصحُّ أن يجازف بحياة ثمينة كحياتك، تقدَّم (چون). إذا اشتبهت في الرجل لأيِّ سبب يتراءى لك، ففجِّر رأسه».

لم يحر (چون) جوابًا، غير أنه نظر أمامه كما كان يبدو أنَّها عادته كلما تكلم كاتب السر، وأمر (هيو) بمواصلة السير، وتبعه محافظًا على قربه منه. وبعدهما كان اللورد، وزمام جواده بيد مستر (ولت)، وفي ذيل الركب كاتب سر اللورد، فقد كان يبدو أن هذه وظيفة (غاشفورد).

حثَّ (هيو) الخُطى، ناظرًا إلى الخادم من خلفه كلَّ حين، وقد كان جواد هذا الأخير في عقبي (هيو) طيلة الرحلة، وناظرًا إلى حافظة مسدساته شزرًا، تلك الحافظة التي كان يبدو أنه يعتبرها ذات أهمية كبرى. كان رجلًا ربعة متين البنيان ضخم العنق من الصنف الإنـگـليزي المخلص، وكما كان (هيو) يمسحه بعينيه، كان هو يمسح (هيو)، حادجًا إيَّاه خلال ذلك بنظرة ازدراء صراح. كان أسنَّ بكثيرٍ من خادم (مايپول)، يبدو في الخامسة والأربعين، لكنه كان من الطراز الرصين العنيد الذي لا يهتز لشيء، ذلك

الطراز الذي إن غلب يومًا في ملاكمة أو غيرها من المعارك لا يلقي بالًا إلى ذلك وإنما يواصل بهدوءٍ إلى أن يفوز.

قال (هيو) متهكِّمًا: «إذا ضلَّلتك الآن فسـ... هاهاها! أعتقد أنك ستطلق النار على رأسي».

لم يكن (چون غروبي) بأكثر تجاهلًا منه لهذه الملاحظة منه لو كان أصم وكان (هيو) أبكم، ولم يكن منه إلا أن واصل الركوب في هدوءٍ ونظرته ثابتة على الأفق.

قال (هيو): «هل جرَّبت عمرك مصارعة مع رجلٍ حين كنتَ شابًّا يا سيدي؟ هل تجيد المبارزة بالهراوة؟».

حدجه (چون غروبي) بنظرة جانبية لا ينقص من اطمئنانه شيء، لكنه لم يتفضَّل عليه بكلمة واحدة. فقال (هيو) وهو يتمنطق بهراوته بمهارة كتلك التي كانت تعجب السذَّج في ذلك الزمن:

«هكذا. هوپ!».

ردَّ (چون غروبي) لاطمًا حارسه بسوطه وضاربًا رأسه بقاعدة السوط: «أو هكذا. أجل، لعبت فترة قصيرة. إنك تطيل شعرك زيادة، ولو كان أقصر قليلًا لكنت قد كسرت جمجمتك».

كانت ضربة حادة جدًّا، مدوية الصوت كيفما اتفق، وكان واضحًا أنها قد أدهشت (هيو) الذي بدا لوهلة مائلًا إلى أن يجرَّ رفيقه الجديد هذا من سرجه. غير أنه لمَّا وجد ملامحه لا تنضح بأي حقد أو نشوة ظفر أو غضب أو أيّ فكرة باقية ممّا حدث تشير إلى كونه قد أزعجه، وليس هناك إلا الوجهة الأولى التي تحدِّق إليها عيناه بثباتٍ، ولمَّا وجد أسلوبه لا مباليًا

رصينًا كما لو كان لم يفعل إلا أن هشَّ ذبابة، ركبته الحيرة ومال إلى أن يعتبره زبونًا صارمًا صرامة غير عادية، حتى إنه لم يزِد على أن ضحك وصاح: «أحسنت!» ثم غيَّر اتجاهه قليلًا وواصل قيادة الركب في صمتٍ.

لم تمض إلا دقائق قليلة وكانت الرفقة تتوقَّف عند باب (ماپپول). ترجَّل لورد (چورچ) وكاتب سرِّه سريعًا وعهدا بحصانيهما إلى خادمهما الذي استدلَّ بـ(هيو) وقاد الخيل إلى الحظيرة. تبع اللورد ورفيقه مستر (ولت) إلى الغرفة المشتركة، سعيدين بالنجاة من عنف تلك الليلة، ووقفا يستدفئان أمام النار البهيجة ويجفِّفان ملابسهما، بينما انشغل (ولت) بالأوامر والتجهيزات التي يتطلَّبها ضيفه الممتاز.

وبينا هو داخل إلى الغرفة خارج منها في نشاطٍ وعزمٍ على إنجاز ترتيباته، كانت لديه فرصة لملاحظة المسافرين اللذين لم تكن قد أتيحت له إلى الآن فرصة لمعرفة شيء عنهما بخلاف صوتيهما. كان اللورد – تلك الشخصية العظيمة التي شرَّفت (ماپپول)- رجلًا ربعة ضامرًا شاحب البشرة، أقنى الأنف ذا شعر طويل بني محمرٍّ ممشَّط بعناية على استقامته ناعم حول أذنيه، أملس دون أقل بقية من تجعُّد. كان مرتديًا تحت قبائه بذلة كاملة سوداء لا تحليها زينة من أي نوع، بالغة جودة التفصيل. وقد أضاف وقار هندامه مع رقة في خدِّيه وتصلُّب في مشيته عشر سنوات على الأقل إلى عمره، غير أن قامته كانت قامة شخص لم يجاوز الثلاثين بعد. وبينا هو واقف يتأمَّل في بريق النار الأحمر، كان من المدهش أن يرى المرء عينيه الواسعتين البراقتين اللتين شفَّتا اضطرابًا في الفكر والقصد، يتنافر بقوة مع رباطة جأشه واتزان هيئته، وكذا مع لباسه الأنيق الحزين. لم يكن في تعبير عينيه شيءٌ جافٌّ أو قاسٍ، ولا في وجهه النحيل الوادع الذي

يكتسي مسحة كآبة، غير أن نظرته كانت تشي باضطرابٍ يصعب تحديده، يعدي من ينظرون إليه، ويملؤهم بضربٍ من الشفقة عليه، غير أنه كان يتعذَّر على هؤلاء أن يشرحوا سبب هذه الشفقة.

أمَّا (غاشفورد) صاحب سرِّه فكان أطول، ذا قوام حاد الزوايا، عالي الكتفين بارز العظام غليظًا. كان لباسه تقليدًا للباس سيده، محتشمًا وقورًا للغاية، وأسلوبه رسميًّا متحفِّظًا. كان لهذا السيد جبينٌ ناتئ، ويدان وقدمان وأذنان تتسم جميعًا بالغلظ، وعينان تبدوان كما لو كانتا قد تقهقرتا بطريقة غير طبيعية إلى داخل رأسه واحتفرتا كهفًا لتختبآ به. كان أسلوبه سهلًا متواضعًا، وإن كان ماكرًا خبيثًا. كانت له هيئة رجل راقد أبدًا يرتقب شيئًا لن يحدث أبدًا، غير أنه كان يبدو صبورًا، بالغ الصبر، يتمسَّح ككلبٍ صغيرٍ. وحتى الآن بينما يستدفئ ويفرك كفَّيه أمام النار كان يبدو كمن يعتبر نفسه يستمتع بذلك كواحدٍ من العامة، ورغم تأكُّده من أن سيده لم يكن ينظر إليه، كان ينظر هو إلى وجهه من آن إلى آخر، ويبتسم بأسلوبٍ مهذبٍ ملؤه التوقير كما لو كان يتدرب على هذا السلوك.

كان هذان هما الضيفين اللذين مسحهما (چون ولت) العجوز بنظراته الثابتة الثقيلة مائة مرة، وكان يتقدَّم نحوهما الآن وفي كلِّ يد شمعدان، راجيًا أن يتبعاه إلى غرفة أفضل تليق بهما. ومن الغريب أن بعض الناس يبدو أنهم يجدون لذة عظيمة في التفوُّه بالألقاب، كتلك التي يجدها أصحاب الألقاب أنفسهم في الاحتفاظ بها، فها هو (چون) يقول:

«إذ إنه يا سيدي اللورد، هذه الغرفة سيدي اللورد ليست المكان المناسب لسعادتك، وينبغي لي أن أستميح سعادتك العذر لإبقائي جنابك هنا دقيقة واحدة سيدي اللورد».

بهذا الخطاب صعد بهما (چون) الدرج إلى الشقة الأميرية التي كانت كأشياء أخرى كثيرة أميرية باردة لا راحة بها. كان وقع خطواتهما الذي يتردَّد صداه في الغرفة الفسيحة يصكُّ سمعيهما بصوتٍ أجوف، وما ضاعف كآبة جو الغرفة البارد الرطب مقارنته بذلك الدفء البيتي الذي خلَّفاه وراءهما.

رغم ذلك لم تكن هناك فائدة من اقتراح العودة إلى المكان الذي تركوه وراءهم، فقد كانت التجهيزات جارية على قدمٍ وساقٍ لدرجة أنه لم يكن ثَمَّ وقتٌ لإيقافها. قادهما (چون) منحنيًا في احترامٍ إلى ركن المدفأة، وفي يديه الشمعدانان الطويلان، ودخل (هيو) بخطىً واسعة ومعه شعلة متَّقدة وكومة حطبٍ ما لبث أن ألقاها على أرضية المدفأة وأوقدها، بينما أحضر (چون غروبي) معه حقيبة السفر الكبيرة التي كان يحملها على حصانه، ووضعها على الأرضية، وكانت في قبعته شارة زرقاء كبيرة كان يبدو أنه يزدريها بقوة، وعلى الفور كان ثلاثتهم مشغولين بمدِّ الستار وفرش المفارش وتفحُّص الفرش وإشعال مدافئ غرف النوم، وتعجيل العشاء والاطمئنان إلى أن كل شيء مريح على الوجه الأمثل بأسرع ما يمكن. وفي أقل من ساعة وُضِع أمامهم العشاء فطعموا ورُفِعت الصحون، وبعد ذلك جلس لورد (چورچ) وصاحب سرِّه بأقدام منتعلة أخفافها وسيقان ممدودة أمام المدفأة، يلتذَّان ببعض الخمر الساخن.

قال (غاشفورد) وهو يملأ كأسه برضا بالغٍ: «هكذا ينتهي يا سيدي اللورد العمل المبارك ليومنا هذا المبارك».

قال اللورد رافعًا رأسه: «ولأمسنا المبارك كذلك».

وهنا عقد صاحب السر كفَّيه قائلًا: «آه! أمسنا المبارك حقًّا! إن پروتستانتي (سفك) رجال صدق أتقياء[1]. فرغم أن آخرين من مواطنينا ضلُّوا طريقهم في الظلمات كما ضللنا نحن طريقنا الليلة سيدي اللورد، كانت طريق أولئك الرجال نورًا ومجدًا».

قال لورد (چورچ): «هل أثَّرت فيهم يا (غاشفورد)؟».

«أثَّرت فيهم سيدي اللورد! أثَّرت فيهم! لقد تصايحوا بأن تقودهم ضد البابويِّين، ونذروا انتقامًا رهيبًا ينزلونه على رؤوسهم، وكانوا يزمجرون كمن مسَّتهم .».

قال اللورد: «لا تقل الشياطين».

«الشياطين! سيدي اللورد! كمن مسَّتهم الملائكة!».

قال لورد (چورچ) وهو يدفع يديه في جيوبه ثم يخرجهما ثانية ليعضَّ أظافره، وينظر إلى النار في قلقٍ: «أجل، بالتأكيد الملائكة، بلا شكٍّ. بالطبع مسَّتهم الملائكة، أليس كذلك يا (غاشفورد)؟».

قال صاحب السر: «أنت لا تشكُّ في ذلك سيدي اللورد؟».

ردَّ اللورد: «لا لا. لا، ولم يمكن أن أشكَّ؟ أفترض أنه من قلَّة الدين حتمًا أن يشكَّ المرء في ذلك. أليس كذلك يا (غاشفورد)؟» ثم أضاف دون انتظار إجابة: «رغم وجود بعض الشخصيات المزعجة السيئة المظهر بينهم بالتأكيد».

قال صاحب السر وهو ينظر في حدَّة إلى عيني الآخر المطرق وهما تلمعان ببطء في أثناء حديثه: «حين مهَّدت بذلك الاستهلال النبيل،

---

(١) Suffolk (Silent L): مقاطعة في أقصى شرق إنكلترا.

وحين أخبرتهم بأنك لم تكن أبدًا من طائفة الفاترين الرعاديد، وأمرتهم بأن ينتبهوا لكونهم مستعدين لاتِّباع من سيقودهم، ولو كان إلى حتوفهم، وحين تحدثت عن مائة وعشرين ألف رجلٍ على الحدود مع أسكتلندا على استعدادٍ لأخذ تعويضهم بأنفسهم في أي وقت إن لم يسلَّم إليهم طواعية، وحين صحت: «ليهلك البابا وكل أتباعه الوضيعين، وقوانين العقوبات الموجهة إليهم لن تلغى أبدًا، ما كان للإنـگـليز أيد وأفئدة» ولوَّحت بيدك فلمست بها سيفك، وحين صحت: «لا للبابوية» وصحت: «لا، ولا حتى لو خضنا في برك من الدم» وقذفوا قبَّعاتهم وصاحوا: «هورّاه! ولا حتى لو خضنا في برك من الدم، لا للبابوية! لورد چورچ! يسقط البابويُّون، لتنزل النقمة على رؤوسهم». حين قيل وفُعِل كلُّ ذلك، وكانت كلمة منك يا سيدي قادرة على إثارة الجموع أو إسكاتها، آه! حينذاك شعرت ما تكون العظمة حقًّا! وفكرت، متى كانت هناك قوة كقوة لورد (چورچ غوردن)!».

صاح وعيناه تلمعان: «إنها قوة عظيمة، أنت محقٌّ، هي قوة عظيمة. لكن، عزيزي (غاشفورد)، هل قلت كلَّ ذلك حقًّا؟».

صاح صاحب السر وهو ينظر إلى أعلى: «وأكثر من ذلك! آه! وأكثر من ذلك!».

سأل بابتهاجٍ واضح: «وأخبرتهم بما تقول، عن المائة والأربعين الآلاف في أسكتلندا، حقًّا؟ لقد كان ذلك جريئًا!».

«قضيَّتنا هي الجرأة، الصدق دائمًا جريء».

«بالتأكيد، وكذلك الدين، أهو جريء يا غاشفورد؟».

«الدين الحق جريء بالطبع سيدي اللورد».

ردَّ وهو يتململ في مقعده ويعضُّ أظافره كما لو كان سيقلِّمها إلى اللحم: «وهذا هو ديننا، ليس ثمَّ شكٌّ في أنَّ ديننا هو الدين الحق. أنت تشعر بالثِّقة بذلك كما أشعر يا (غاشفورد)، أليس كذلك؟».

تذمَّر (غاشفورد) وهو يقرِّب مقعده منه، ويبدو كمن يشعر بأن أسيء إليه، ويضع يده المسطَّحة العريضة على المنضدة:

«هل يسألني أنا سيدي اللورد؟ أنا؟» كرَّرها وهو يطوي تجاويف عينيه الداكنة عليه بابتسامة كريهة: «أنا الذي جذبني سحر بلاغة سيدي اللورد في أسكتلندا منذ أقلّ من عام فنبذت أخطاء الكنيسة الرومانية وتعلَّقت به بصفته صاحب اليد التي استنقذتني في الوقت المناسب من قاع هاوية؟».

رد الآخر وهو يهزُّه من يده وينهض من مقعده ليذرع الغرفة في قلقٍ: «حقًّا، لا. لا، أنا لم أعن ذلك» ثم أضاف وهو يتوقف فجأة: «مما يدعو إلى الفخر أن يقود المرء الناس يا (غاشفورد)».

رد صاحب السر المطواع: «بقوة العقل كذلك».

«أجل، صدقت. ربما يسعلون ويتهكَّمون ويتذمَّرون في البرلمان، ويقولون إنني أحمق أو مخبولٌ، لكن أيُّهم قادر على أن يثير هذا البحر اللجب من البشر ويجعله يرتفع ويزمجر كما يشاء؟ لا أحد».

كرَّر (غاشفورد): «لا أحد».

«أيُّهم يستطيع أن يقول بخصوص أمانته ما أستطيع قوله عن أمانتي؟ أيُّهم رفض رشوة وزير تقدَّر بألف جنيه في العام ليتخلَّى عن مقعده لآخر؟ لا أحد».

كرَّر (غاشفورد) ثانية وهو يتناول نصيب الأسد من النبيذ الساخن خلال ذلك: «لا أحد».

قال لورد (چورچ) وقد احمرَّ وجهه وارتفع صوته بينما يضع يده المحمومة على كتفه: «وحيث إننا أمناء صادقون، أصحاب قضية مقدسة يا (غاشفورد)، وحيث إننا الوحيدون الذين يهتمون بجموع الناس في الشوارع والوحيدون الذين تهتم بهم هذه الجموع، فسنساندهم إلى النهاية، وسنطلق صيحة ضد هؤلاء البابويين اللا- إنـگـليز، سيتردَّد صداها في طول البلاد وعرضها، وستجلب عليهم هازمة كالرعد. سأستحق شعار نبالتي: «نودي فاصطفي فوفَّى»».

قال صاحب السر: «نادته السماء».

«أنا».

«اصطفاه الشعب».

«أجل».

«وفَّى لكليهما».

«للجموع!».

من العسير أن نحاول نقل فكرة صحيحة عن الإثارة التي كان يجيب بها تلقينات صاحب سره، وعن سرعة نطقه، وعنف لهجته وإشاراته، تلك كان يتخلَّلها شيءٌ وحشيٌّ عصيٌّ على السيطرة، يجاهد مسلكه التطهُّري، فيفلت من إسار كلِّ قيد. أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهوبًا بضع دقائق، ثم توقف بغتة وصاح:

«(غاشفورد)، لقد أثَّرت فيهم أمس كذلك، أوه! أجل، لقد فعلتها!».

رد صاحب سره المتواضع، واضعًا يده على قلبه: «لقد سطعت بضوءٍ منعكسٍ منك سيدي اللورد. فعلت أفضل ما في وسعي».

قال سيده: «لقد أحسنت، أنت سندٌ عظيم ثمين. هلَّا قرعت الجرس لـ(چون غروبي) ليحمل حقيبة السفر إلى غرفتي وانتظرت هنا إلى أن أبدِّل ملابسي؟ وسننتهي من العمل كما اعتدنا، إن لم تكن متعبًا للغاية».

«متعبًا للغاية سيدي اللورد؟! لكنه حرصه على الآخرين. مسيحي من رأسه إلى أخمص قدمه!».

بهذه المناجاة أمال صاحب السر القارورة ونظر في حدة إلى النبيذ الساخن ليرى كم بقي منه. ظهر (چون ولت) و(چون غروبي) معًا، يحمل أحدهما الشمعدانين الكبيرين، والآخر حقيبة السفر، وقادا اللورد المضلل إلى غرفته، تاركين صاحب السر وحيدًا ليتثاءب ويهزُّ جسده، ثم يسقط نائمًا أمام المدفأة.

همس في أذنه (چون غروبي) بعد ما بدا له كلحظة فقدان وعي: «والآن مستر (غاشفورد)، سيدي، سيدي اللورد في فراشه».

كان رد صاحب السر: «أوه، جيد جدًّا يا (چون)، شكرًا (چون). ليس بأحدٍ حاجة إلى السهر، أعرف غرفتي».

قال (چون): «أتمنى ألا تكون مقبلًا على إقلاق نفسك الليلة أو إقلاق سيدي اللورد بالمزيد عن (ماري) الدموية. لكم يطيب لي لو أنَّ المخلوق المبارك العجوز لم يولد من الأساس».

رد صاحب السر: «لقد قلت إنك تستطيع أن تأوي إلى فراشك يا (چون)، أظنك لم تسمعني».

تابع (چون غروبي) وهو ينظر كعادته إلى بعيدٍ جدًّا ولا يظهر اهتمامًا بتلك الملاحظة: «بين (ماري الدموية) وشارات القبعات الزرقاء والملكة (بس) المجيدة و(لا للبابوية) والجمعيات البروتستانتية وإعداد الخطب،

كاد سيدي اللورد يجنُّ. حين نخرج إلى الشارع يتبعنا جمعٌ من الصعاليك يصيحون: «(غوردن) إلى الأبد» حتى إنني لأخجل من نفسي ولا أدري إلى أين أنظر. وحين نكون بين الجدران، يأتون مزمجرين صارخين من حول المنزل كثلَّة من الشياطين، وبدلًا من أن يأمر سيدي بأن يُطردوا بعيدًا، يخرج إلى الشرفة ويحطُّ من قدر نفسه بإلقاء الخطب عليهم، ويسميهم (رجال إنگلترا)، و(إخوته المواطنين)، كما لو كان شغوفًا بهم وممتنًّا لمجيئهم. لا أستطيع أن أتبيَّن الأمر، لكنهم جميعًا ممتزجون بطريقة ما أو بأخرى بتلك التعسة (ماري) الدموية، ويصيحون باسمها إلى أن تبحَّ أصواتهم. كلُّهم پروتستانتيون كذلك، كلُّ رجلٍ وصبي بينهم. وإنني أرى أن الپروتستانتيين شغوفون بالملاعق جدًّا، وبالأطباق الفضية بعامة، متى تركت البوابات مفتوحة بالمصادفة. ولكم أتمنى أن يقف الأمر عند ذلك، وألا يكون المزيد من الضرر بسبيله إلى الحدوث، لكنك إن لم توقف هؤلاء المشاكسين في الوقت المناسب يا مستر (غاشفورد) –وأنا أعرفك، فأنت الرجل الذي ينفخ في النار– فستجد أنَّ شوكتهم قد قويت بعض الشيء بالنسبة إليك. وفي إحدى تلك الليالي حين يكون الطقس أدفأ ويشعر الپروتستانتيون بالعطش، سيهدمون لندن، وأنا لم أسمع أبدًا أن (ماري) الدموية قد مضت في أفعالها إلى ذلك الحد!».

كان (غاشفورد) قد تبخَّر منذ وقتٍ طويلٍ، ولم يستمع إلى هذه الملاحظات إلا الهواء. ثبَّت (چون غروبي) قبَّعته على رأسه إذ لم يتأثَّر البتَّة باكتشاف ذلك، جاعلًا طرف القبَّعة الخطأ إلى الأمام لئلَّا يزعجه ظل الشارة المؤذية، وانسحب إلى فراشه، هازًّا رأسه بأسلوبٍ منذرٍ بالغ الكآبة إلى أن بلغ حجرته.

الفصل السادس والثلاثون

توجه (غاشفورد) صوب غرفة سيده بوجه مبتسمٍ لا ينقص شيئًا من سيما التوقير العميق والتواضع، وهو يسوِّي شعره ويدندن نغمة مزمور. وإذ اقترب من باب لورد (چورچ) تنحنح ودندن بقوة أكبر.

كان ثَمَّ بون شاسع بين ما يتشاغل به هذا الرجل الآن من جهة وتعبير ملامحه المنفِّر الحقود من جهة. كان جبينه الناتئ يكاد يخفي عينيه، وشفته ملفوفة في ازدراء، وحتى كتفاه قد بدوا يتبادلان التهكم في همسات مسترقة مع أذنيه الكبيرتين الخافقتين.

غمغم في خفوتٍ وهو يتلصَّص عبر باب الغرفة: «ششش! يبدو نائمًا. هو كذلك بالفعل. كثير من الترقُّب، كثير من الهم، كثير من الفكر. آه! فليحفظه الرب من شهيد! إنه قديس، لو أنَّ قديسًا تنفَّس على هذه الأرض الشريرة».

وضع شمعته على منضدة ومشى على أطراف أصابعه إلى المدفأة، ثم جلس على مقعدٍ أمامها وظهره إلى الفراش وأخذ يحدِّث نفسه كمن يفكر بصوتٍ عالٍ: «مخلِّص بلده ودين بلده، صديق مواطنيه الفقراء، عدو المتكبرين والقساة. محبوب المنبوذين والمقهورين. تقدسه الأفئدة الشجاعة الوفية لأربعين ألف إنـگـليزي. ما أسعد نوم من هو كل ذلك!». وهنا تنهَّد وأخذ يدفئ يديه ويهز رأسه كما اعتاد الناس أن يفعلوا حين تكون أفئدتهم مفعمة بالمشاعر، ثم زفر تنهيدة حارة أخرى ومضى يدفئ يديه مجدّدًا.

قال لورد (چورچ) الذي كان راقدًا على جنبه من دون أن يغمض له جفن، يحدِّق إليه منذ دخوله: «لماذا يا (غاشفورد)؟».

قال (غاشفورد) وهو يجفل ملتفتًا إليه كما لو كان في غاية الدهشة: «سيدي، سيدي اللورد، لقد أقلقت نومك».

«لم أكن نائمًا».

كرَّر في ارتباكٍ مصطنعٍ: «لم تكن نائمًا! بماذا أستطيع أن أعقِّب على تفوُّهي في حضرتك بأفكار... لكنها صادقة، إنها صادقة!» هكذا صاح صاحب السر ماسحًا عينيه بكمِّه في عجلة وتابع: «ولماذا ينبغي لي أن أندم لأنك سمعتها؟».

قال اللورد المسكين مادًّا يده في عاطفة جياشة: «(غاشفورد)، لا تندم على ذلك. إنك تحبني وأنا أعرف ذلك. تحبني تمامًا. أنا لا أستحق مثل ذلك التبجيل».

لم يحر (غاشفورد) جوابًا وإنما أمسك اليد وقبَّلها، ثم ما لبث أن نهض وتناول من الحقيبة مكتبًا صغيرًا وضعه على المنضدة قرب المدفأة وفتحه بمفتاحٍ كان في جيبه ثم جلس أمامه وأخرج قلمًا، وقبل أن يغمسه في المحبرة مصَّه، ربما ليهدِّئ حال فمه الذي كان يعلوه ما زال شبح ابتسامة.

سأله لورد (چورچ): «كيف هي أرقامنا منذ آخر ليلة تسجيل؟ هل أصبحت قوتنا حقًّا أربعين ألفًا أم أننا نقرِّب لأقرب رقم دائري حين نتحدث عن قوة رابطتنا؟».

رد (غاشفورد) ملقيًا نظراته على أوراقه: «مجموعنا يتجاوز الآن هذا الرقم بثلاثة وعشرين».

«وماذا عن الميزانية؟».

«لا تتحسَّن كثيرًا، غير أن هناك بعض المنِّ يتنزَّل علينا في هذه الصحراء سيدي اللورد[١]. هممم! في ليل الجمعة زارتنا فلوس الأرامل.[٢] «أربعون زبّالًا، ثلاثة وأربعة بنسات. حاجب كنيسة مسنٍّ في أبرشية سان مارتن، ستة بنسات. قارع أجراس في الكنيسة الرسمية، ستة بنسات. رضيع بروتستانتي مولود حديثًا، نصف بنس. مشعلو مصابيح الطرق المتحدون، ثلاثة شلنات منها واحد مزيَّف. سجناء (نيوغات) المعادون للبابوية، خمسة وأربعة بنسات. صديق في مصحة (بدلم)[٣]، شلنان وستة بنسات. (دنس) الشانق، شلن واحد».

---

(١) Manna in the Wilderness المنّ الذي نزل على بني إسرائيل في الصحراء لدى خروجهم من مصر، وذكره في سفر الخروج (إصحاح ١٦ - آية ٣١): "ودعا بيت إسرائيل اسمه «منًّا». وهو كبزر الكزبرة، أبيض، وطعمه كرقاقٍ بعسلٍ» كما أنه مذكور كثيرًا في القرآن، كما في الآية ٨٠ من سورة (طه): ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾.

(٢) فلوس الأرامل The Widows' Mites إشارة إلى درس فلسي الأرملة، وهي حكاية موجودة في العهد الجديد، في إنجيلي (مرقس: إصحاح ١٢: الآيات ٤١ - ٤٤) و(لوقا: إصحاح ٢١: الآيات ١-٤)، ففي (مرقس) يأتي النص هكذا: "وجلس يسوع تجاه الخزانة، ونظر كيف يلقي الجمع نحاسًا في الخزانة. وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيرًا . فجاءت أرملة فقيرة وألقت فلسين، قيمتهما ربع. فدعا تلاميذه وقال لهم: «الحقّ أقول لكم: إنّ هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الّذين ألقوا في الخزانة، لأن الجميع من فضلتهم ألقوا. وأمَّا هذه فمن إعوازها ألقت كلَّ ما عندها، كلَّ معيشتها».

(٣) Bedlam مستشفى نفسي عريق في لندن، أنشئ عام ١٢٤٧ كمركزٍ لتجميع الصدقات لخدمة الكنيسة الصليبية وربط إنـكترا بالأرض المقدّسة، ثم تحوَّلت إلى وظيفتها المعروفة تاريخيًّا، وتحوَّل اسمها المشتقّ من Betlehem (بيت لحم) إلى علم على المصحَّات النفسيَّة في الثقافة الإنـكليزية.

قال اللورد: «إن (دنس) هذا رجلٌ مخلصٌ، لقد رأيته وسط الجموع في شارع (ولبك) الجمعة الماضية».

رد صاحب السر: «رجل طيب، رجل وفيٌّ مخلص شديد الحماس».

قال لورد (چورچ): «يجب أن يشجّع، اكتب ملاحظة بشأن، سأتحدث معه».

أذعن (غاشفورد) ومضى يقرأ من قائمته: «أصدقاء العقل، نصف جنيه. أصدقاء الحرية، نصف جنيه. أصدقاء السلام، نصف جنيه. أصدقاء الإحسان، نصف جنيه. أصدقاء الرحمة، نصف جنيه. رابطة متذكِّري (ماري الدموية)، نصف جنيه. الكلاب الثيران المتحدون، نصف جنيه».

قال لورد (چورچ) وهو يقضم أظافره في شراسة: «الكلاب الثيران المتحدون جمعية جديدة، أليس كذلك؟».

«كانوا يُعرَفون فيما سبق بـ(الفرسان الصبيان) يا سيدي اللورد، يبدو أنهم غيَّروا اسمهم بعد أن انتهت صلاحية عقود عمل أعضائها القدامى تدريجيًّا، رغم أنهم ما زال بينهم صبيان حرف وعمَّال».

سأل لورد (چورچ): «ما اسم رئيسهم؟».

قال (غاشفورد) قارئًا مما أمامه: «الرئيس مستر (سايمن تاپرتت)».

«أذكره، أليس هو الرجل الضئيل الذي يحضر معه أحيانًا إلى اجتماعاتنا أختًا مسنَّةً، وأحيانًا أنثى أخرى لا أشك في كونها يقظة الضمير وإن كانت تفتقر إلى الجمال؟».

«هو عينه سيدي اللورد».

قال لورد (چورچ) مفكرًا: «(تاپرتت) رجلٌ مخلصٌ، أليس كذلك يا (غاشفورد)؟».

«من أشدهم إخلاصًا سيدي اللورد. يشم رائحة المعركة من بعيد كجواد الحرب، يلقي بقبَّعته إلى أعلى في الشارع كما لو كان ملهمًا، ويلقي خطبًا بالغة التأثير من فوق أكتاف أصدقائه».

قال لورد (چورچ غوردن): «اكتب ملاحظة بشأنه، ربما نقدِّمه إلى موقع ثقة».

رد صاحب السر مذعنًا للأمر: «هذا كل ما هنالك، عدا صندوق السيدة (ڤاردن) -فتح أربع عشرة مرة- سبعة شلنات وستة بنسات بين فضة ونحاس، ونصف جنيه ذهبي، و(مـگز)، حيث أعطتنا مدَّخرات أجرتها الربعية، واحد وثلاثة بنسات».

قال لورد (چورچ): «(مـگز)؟ هل هو اسم رجل؟».

أجاب صاحب السر: «الاسم مسجَّل في القائمة علمًا على امرأة، أظنُّها الأنثى الطويلة النحيلة التي تحدثت عنها لتوِّك سيدي اللورد باعتبارها تفتقر إلى الجمال، التي تأتي أحيانًا للاستماع إلى الخطب مع (تاپرتت) والسيدة (ڤاردن)».

«إذن فالسيدة (ڤاردن) هي السيدة المسنَّة. أليس كذلك؟».

أومأ صاحب السر إيجابًا وهو يهرش قصبة أنفه بريشة قلمه. قال لورد (چورچ):

«إنها أخت يملؤها الحماس. مدَّخراتها ما زالت تنفعنا، وهي تمدُّنا بالمزيد بحرارة. هل انضمَّ إلينا زوجها؟».

رد صاحب السر وهو يطوي أوراقه: «رجل خبيث غير جدير بامرأة كهذه. ما زال في الظلمات خارج دائرتنا، يرفض الانضمام بثباتٍ».

«فلتقع التَّبعات على رأسه يا (غاشفورد)!».

«سيدي اللورد!».

أخذ يتقلَّب على فراشه في اضطرابٍ وهو يتحدث: «ألا تعتقد أنَّ هؤلاء الناس سيتركونني إذا ما حانت ساعة الحسم؟ لقد تحدثت لأجلهم بشجاعة، وغامرت كثيرًا ولم أدَّخر شيئًا. لن يتخاذلوا عني، أليس كذلك؟».

قال (غاشفورد) بنظرة ذات مغزى، كانت تعبيرًا ارتسم رغم إرادته عن أفكاره، أكثر مما هي تأكيد واعٍ لكلماته، حتى إن الآخر أشاح بوجهه بعيدًا: «لا خوف من هذه الناحية سيدي اللورد، ثق بأنه لا خوف من هذه الناحية».

قال بحركة أكثر اضطرابًا من ذي قبل: «ولا من... غير أنه لا يمكن أن يلحقهم أذى من التحزُّب معنا لذلك المقصد. الحقّ معنا رغم أن القوة ضدنا. أنت متأكِّد من ذلك مثلي. صدقًا، ألستَ متأكِّدًا مثلي؟».

كان صاحب السر بسبيله إلى ابتداء كلامه بـ»أنت لا ترتاب.» حين قاطعه الآخر في نفاد صبرٍ:

«أرتاب؟ لا، من قال إنني أرتاب؟ لو كنت أرتاب، هل كنت سأطرح الأقارب والأصدقاء وكلَّ شيء لأجل هذا البلد التعس، هذا البلد التعس».

ثمّ أخذ يصيح قافزًا في فراشه بعد أن كرَّر عبارة «لأجل هذا البلد التعس» لنفسه اثنتي عشرة مرة على الأقل، وتابع:

«الذي تخلَّى عنه الرب كما تخلَّى عنه البشر، وترك لعصابة خطيرة من القوى البابوية، نهبًا للفساد والوثنية والاستبداد! من قال إنني أرتاب؟ ألم أناد وأجتب وأف؟ أخبرني، ألم أناد وأجتب وأف؟».

صاح (غاشفورد): «للرب والوطن ولنفسك».

«أجل، وسأظل وفيًّا، أكرِّر، سأظلُّ وفيًّا إلى النهاية. من يقول مثلما أقول؟ أنت؟ هل يقول مثلي أي إنسان على ظهر الأرض؟».

أطرق صاحب السر وعلى سيماه تعبير الموافقة التامة على كل ما قيل وسيقال، وما لبث لورد (چورچ) الذي غاص في فراشه تدريجيًّا أن سقط نائمًا. ورغم وجود شيء مضحك جدًّا في أسلوبه الحامي، خاصة إذا قرن إلى هيئته الهزيلة وحضوره المضطرب، فإنه لم يكن ليستثير الابتسام في أي إنسان على قدر من الطيبة، وحتى إذا أثار الابتسام فإن ذلك الإنسان سيشعر في اللحظة التالية بالأسف وربما الغضب من نفسه لاستسلامه لدافع الضحك. كان هذا اللورد مخلصًا في عنفه وارتباكه. كانت أسوأ الكفايات الواضحة في تكوينه طبيعته المعرَّضة للحماس المزيَّف وغرور القيادة. ولا يبقى بعدهما إلَّا الضعف. الضعف النقي. وإنه حظ الضعفاء التعس أنَّ إشفاقهم وعواطفهم وثقتهم -كل تلك الأشياء التي تعدُّ فضائل لدى أصحاب التكوين العقلي الأفضل- تنحدر إلى درك النقائص، أو تنقلب مباشرة إلى رذائل.

جلس (غاشفورد) يضحك في خفوتٍ من حماقة سيده، مسترقًا نظرات خبيثة صوب فراشه، حتى قرأ في تنفُّسه العميق الثقيل أنه يمكن أن ينسحب الآن. أغلق مكتبه الصغير وأعاده إلى الحقيبة، ثم أخذ من بطانة سرية منشورين مطبوعين قبل أن ينسحب خارجًا في حذرٍ، وهو ينظر وراءه إلى وجه النائم الشاحب الذي كان الريش المغبر الذي يتوِّج سرير (مايپول) يلوِّح فوق رأسه في حزن وكآبة كما لو كان السرير تابوتًا.

توقَّف على الدرج متسمِّعًا ليتأكد من أن الهدوء يخيِّم تمامًا، وليخلع نعليه حتى لا ينبِّه وقع خطاه أيَّ إنسان خفيف النوم يمكن أن يكون في محيط حركته، ثم نزل إلى الدور الأرضي، ودفع أحد منشوريه أسفل باب الخان الكبير. وإذ أنجز ذلك تسلَّل في هدوءٍ عائدًا إلى غرفته، وأسقط المنشور الآخر من النافذة إلى الفناء، ملفوفًا بحذرٍ على حجرٍ لينقذه من لعب الريح.

كان مكتوبًا عليهما من الخلف «إلى كل پروتستانتي قُدِّر لهذا المنشور أن يقع بين يديه»، وأمَّا فحواه فكانت ما يلي:

«الرجال والإخوة، من يجد هذا المنشور فليأخذه نذيرًا بضرورة الانضمام على الفور إلى أصدقاء لورد (چورچ غوردن). ثَمَّ أحداثٌ عظيمة تحدث الآن، ونحن في زمنٍ عصيبٍ خطيرٍ. اقرؤوا هذا جيدًا واحتفظوا به نظيفًا، وأسقطوه في مكان آخر. لأجل الملك والبلد. الاتحاد».

قال (غاشفورد) وهو يغلق النافذة: «المزيد المزيد من البذار، متى يأتي الحصاد!».

* * *

الفصل السابع والثلاثون

أن تحيط أي شيء مهما كان بشعًا أو تافهًا بجوٍّ من الغموض يعني أن تضفي عليه سحرًا خفيًّا وقوة جاذبية لا يستطيع الجمهور أن يقاومها. ولطالما دأب الكهنة المزيفون والأنبياء المزيفون والأطباء المزيفون والوطنيون المزيفون والعباقرة المزيفون من كلِّ صنفٍ مخاطبة سذاجة العوام وهم يلفُّون بالغموض أفعالهم، مكتسبين بذلك قوة سحر خاصة، ولطالما كانوا مدينين لهذه القوة باكتساب اليد العليا للصدق والحس المشترك والاحتفاظ بها إلى أجل مسمًّى، أكثر مما هم مدينون لأيِّ عنصرٍ آخر مما في جعبة الدجل. فالفضول قد كان منذ بدء الخليقة عاطفة مهيمنة. وليحكم المرء قبضته -وإن كان في جانب الخطأ- على الشطر غير المفكِّر من البشرية، فما عليه إلَّا أن يوقظ الفضول ويسيل لعابه بدرجاتٍ طفيفة، ويحرص مع ذلك دائمًا على ترك شيء مخبوء.

ولو وقف أحدهم على جسر لندن مناديًا المارَّة إلى أن يبحَّ صوته بالانضمام إلى لورد (چورچ غوردن)، وإن كان لهدفٍ لا يفهمه أحدٌ، وبالتالي فهو هدفٌ ذو سحرٍ خاصٍّ، فإنَّ الاحتمالات تخبرنا بأنَّه ربما نجح في التأثير في عشرين شخصًا في شهر. أما لو أهيب على الملأ بكلِّ البروتستانتيين المتحمسين أن ينضمُّوا إلى رابطة هدفها المعلن هو التغنِّي بترنيمة أو اثنتين كلَّ حين والاستماع إلى بعض الخطب المحايدة، وفوق

ذلك تقديم التماس إلى البرلمان لئلَّا يقر ميثاقًا يقضي بإلغاء قانون العقوبات الموجَّه إلى كهنة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، حيث يبطل ذلك الميثاق عقوبة السجن مدى الحياة التي كان يحكم بها على من يعلِّمون الأطفال عقيدة تلك الكنيسة، كما يبطل إسقاط حق كل من ينتمي إلى تلك الكنيسة في أن يمتلك أي ممتلكات عقاريَّة في المملكة المتحدة، سواء بالشراء أو الميراث، وهي أشياء ما أبعدها عن اهتمامات الجموع وانشغالاتهم، فلربما ينجح الداعي إلى ذلك في أن يجمع إليه مائة من الناس. لكن حين تتسرَّب إلى خارج البلاد إشاعات ملتبسة مفادها أنَّ قوة سرية كانت تحشد الناس في هذه الرابطة البروتستانتية ضد الحكومة لأغراضٍ خطيرة غير محددة، وحين يمتلئ الهواء بالتهامس على أنَّ تحالفًا من القوى البابوية يعمل على إذلال واستعباد إنگلترا وتأسيس محكمة تفتيش في لندن وتحويل حظائر سوق (سمثفيلد) إلى خوازيق ومراجل لحرق البروتستانتيين، وحين يثير متحمِّس واحد باستمرارٍ قلاقل كهذه وأسبابًا للفزع لا يفهمها أحدٌ، داخل البرلمان وخارجه، ولا يفهمها هو نفسه، وحين تُبعَث همومٌ قديمة ظلَّت دفينة لقرون لتؤرِّق الجهال والسذَّج، حين يحدث كلُّ هذا في الظلام، وتنثر في الطرق العامة وتدفع إلى داخل الدور من أسفل الأبواب المغلقة وتقذف عبر النوافذ وتلقى في أيدي من يعبرون الشوارع ليلًا دعواتٌ سرية للانضمام إلى الرابطة البروتستانتية الكبرى للدفاع عن الدين والحياة والحرية، وحين تطلُّ هذه الدعوات من كلِّ جدارٍ وتسطع في كلِّ عمودٍ وقائمٍ حتى إن الحجارة والطوب لتبدو كأنَّ عدوى الخوف المتفشِّية قد انتقلت إليها، داعية كل الناس إلى التشابك معصوبي العينين ليقاوموا شيئًا لا يفهمون ما هو ولماذا ينبغي لهم أن يقاوموه، حينذاك ينتشر الجنون حقًّا، ولقد وصل عدد الأتباع إلى أربعين ألفًا، وما زال يتزايد.

هكذا على الأقل قال لورد (چورج غوردن) رئيس الرابطة في آذار عام ١٧٨٠م. ولا يعرف إلا قليلون ما إذا كانت هذه هي الحقيقة أو غير ذلك، وأقل منهم من اهتموا بالتأكد من الأمر. والحق أن هذا الأمر لم يُعلَن أبدًا على الملأ، ولم يُسمَع به من طريقٍ غير طريق (غوردن) إلا نادرًا، ولم يُرَ أبدًا، وقد افترض كثيرون أنه محض اختلاق خيال (غوردن) المريض. كان من عادته أن يتوسَّع في الحديث عن أعداد الرجال، وكان يستنتج أن ما يحفزه إلى ذلك هو بعض الاضطرابات الناجحة التي حدثت في أسكتلندا العام السابق، والناجمة عن الموضوع نفسه، وكان ينظر إلى (غوردن) باعتباره عضوًا مختلَّ العقل في مجلس النوَّاب يهاجم كلَّ الأحزاب ولا ينضمُّ إلى أيِّها، ولم يكن يقام له كبير وزن. كان معروفًا أن هناك استياءً في الخارج، وهو شيء موجود دائمًا، وكان هو معتادًا أن يخاطب الناس من خلال الملصقات والخطب والمنشورات، وكانت جهوده السابقة لم تتمخَّض عن شيء ذي بالٍ في إنگلترا، ولم يكن يخشى أن تحدث جهوده الحالية أيَّ أثرٍ كذلك. وكما باغت (غوردن) قارئ هذه الصفحات بعد توقُّف خمسة أعوام كاملة، كان يباغت الجمهور في زمنه من آن إلى آخر لينسى في اليوم نفسه، وها هو قد فرض نفسه وفرضت أفعاله نفسها في تلك الفترة على ملاحظة الآلاف ممن كانوا منخرطين في نشاط الحياة طيلة هذه الأعوام الخمسة، أولئك الذين لم يخطر لهم (غوردن) ببال من قبل رغم أنهم ليسوا صمًّا ولا عميانًا إزاء ما يحدث من حولهم.

همس (غاشفورد) في أذنه وهو يزيح ستائر الفراش مبكّرًا: «سيدي اللورد، سيدي اللورد».

«أجل، من هناك؟ ما الأمر؟».

ردَّ صاحب سرِّه بكفَّين معقودتين في وداعة: «لقد دُقَّت الساعة التاسعة، أنمت جيدًا؟ أتمنَّى ذلك. إذا كانت صلواتي قد أجيبت فقد أعاد إليك النوم نشاطك».

قال لورد (چورچ) وهو يفرك عينيه وينظر إلى الغرفة من حوله: «الحق أني قد نمتُ نومًا هنيئًا، لدرجة أني لا أتذكَّر تمامًا، أيَّ مكان هذا؟».

صاح (غاشفورد) مبتسمًا: «سيدي اللورد».

ردَّ سيده: «أوه! أجل، أنت لست يهوديًّا إذن».

صاح صاحب السر التقي منكمشًا: «يهودي!».

«لقد حلمت أننا يهود يا (غاشفورد). أنت وأنا، كلانا، يهوديَّان بلحيتين طويلتين».

«لا قدَّر الربُّ يا سيدي اللورد، يمكن كذلك أن نكون بابويين».

ردَّ الآخر بسرعة: «أفترض أنه يمكن، أليس كذلك؟ أتظن ذلك حقًّا يا غاشفورد؟».

صاح صاحب السر بنظراتٍ ملؤها الدهشة: «أظنُّ ذلك بالطبع».

غمغم: «همم! أجل. يبدو ذلك معقولًا».

شرع صاحب السر يقول: «أتمنى يا سيدي اللورد.».

ردَّد خلفه مقاطعًا: «تتمنَّى! لماذا تقول إنك تتمنَّى؟ ليس ثَمَّ ضرر من التفكير في مثل هذه الأشياء».

ردَّ صاحب السر: «ليس في الأحلام».

«في الأحلام! لا، ولا حتى في اليقظة».

قال (غاشفورد) وهو يتناول ساعة لورد (چورچ) من على مقعدٍ، كما لو كان يقرأ النقش على ختمها شارد اللب:

«نودي فاجتبي فوفَّى».

كان هذا فعلًا بالغ التفاهة لا يرقى إلى الملاحظة، وكان من الواضح أنه نتيجة شرود لحظة. لكن بمجرد نطق هذه الكلمات توقَّف لورد (چورچ) بغتة وقد كان ماضيًا في طيشه، واحمرَّ وجهه وصمت. تنحَّى صاحب السر الداهية قليلًا متظاهرًا بأنه لم ينتبه لِمَا اعترى اللورد من تغيُّر، متذرِّعًا برغبته في رفع ستار النافذة، ثمَّ ما لبث أن عاد بعد أن كان الآخر قد استعاد رباطة جأشه، فقال:

«قضيَّتنا المقدسة ماضية في طريقها في شجاعة سيدي اللورد. لم أغفل عنها، ولا حتى الليلة الماضية. لقد أسقطت منشورين قبل أن آوي إلى فراشي، وقد وجدتهما قد اختفيا هذا الصباح. لم يذكر أحدٌ ممن بهذا المنزل أنه قد عثر عليهما رغم أني كنتُ بالأسفل نصف ساعة كاملًا. أتوقَّع أن تكون أوَّل ثمرة لهما مجنَّدًا أو اثنين، ومن يدري كم يضاف فيما بعد بمباركة السماء لجهودك الملهمة!».

ردَّ لورد (چورچ): «لقد كانت وسيلة شهيرة في البداية، وسيلة ممتازة، وقد آتت أكلها في أسكتلندا. وكنت جديرًا تمامًا بها. أنت تذكِّرني بألَّا أتكاسل يا (غاشفورد) حين يتهدَّد الدمار الكرمة وربما تطأها أقدام البابويين. لتسرج الخيل في بحر نصف ساعة. علينا أن ننشط لأغراضنا!».

قال ذلك محمرَّ الوجه في حماسٍ متوهِّج حتى إنَّ صاحب سرِّه اعتبر أنه من غير الضروري أن يحثَّه أكثر مما فعل، وانسحب. ثم قال مفكرًا وهو يغلق باب غرفة النوم:

«رأى نفسه يهوديًّا. ربما يصل إلى ذلك قبل وفاته، يبدو ذلك كافيًا. حسنًا! بعد وقتٍ إذا لم أخسر شيئًا، لا أدري لم لا يناسبني هذا الدين كأي دين آخر. هناك يهود أغنياء، والحلاقة أمرٌ مزعجٌ للغاية. نعم، سيناسبني تمامًا! أمَّا الآن فينبغي لنا أن نكون مسيحيين حتى النخاع، وسيناسب شعارنا النبوي كل طائفة في دورها. هذا مريحٌ[1]».

وبينا يتأمَّل هذا الأمر المريح كان قد وصل إلى غرفة الجلوس، وقرع الجرس طالبًا إفطاره. وسرعان ما أتمَّ لورد (چورچ) لباسه، فقد كان هندامه البسيط سهل الإتمام. ولم يكن في مأكله بأقل زهدًا منه في لباسه، فأعدَّ نصيبه من الوجبة سريعًا. غير أنَّ صاحب سرِّه الذي كان منذورًا أكثر منه لطيِّبات الحياة الدنيا، أو أكثر تصميمًا على حفظ قوته وروحه لأجل القضية البروتستانتية، ظلَّ يأكل ويشرب إلى آخر دقيقة، واحتاج إلى ثلاثة أو أربعة تذكيرات بالفعل من (چون غروبي) ليستطيع أن ينفصل عن وليمة (چون ولت) الغنية.

أخيرًا نزل إلى الطابق السفلي، وبعد أن مسح فمه المشحَّم وسدَّد فاتورة (چون ولت)، قفز إلى سرجه. وكذا امتطى لورد (چورچ) -الذي كان يتمشَّى أمام المنزل ذهوبًا وجيئةً ويحدِّث نفسه بإشاراتٍ جادَّة- صهوة جواده. وبعد أن جاوبوا انحناءة العجوز (چون ولت) المهذَّبة وكذا التحيَّات المودِّعة التي وجَّهها إليهم حفنة من المتسكِّعين الذين جمعتهم حول الرواق إشاعة أنَّ أحد اللوردات الأحياء على وشك مغادرة (مايپول)، انطلقوا مبتعدين، و(چون غروبي) في ذيل الركب.

(١) من المعروف أنَّ اللورد چورچ غوردن قد تحوَّل حقًّا إلى اليهودية قبل وفاته، وقد استغلّ ديكنز هذه المعلومة لينقش هذا المشهد.

وإذا كان لورد (چورچ غوردن) قد بدا لعيني (چون ولت) في الليل رجلًا نبيلًا ذا مظهرٍ عجيبٍ غريبٍ إلى حدٍّ ما، فإنَّ الانطباع قد تأكَّد في الصباح وأصبح أقوى مائة مرة، فلو رآه المرء جالسًا مستقيم الظهر على صهوة جواده الناتئ العظام وشعره الطويل المستقيم متدلّ حول وجهه يخفق في الريح، وأطرافه بارزة العظام جامدة، ومرفقاه بارزان للخارج في غير رشاقة، وهيكله كلُّه يهتزُّ مع كلِّ حركة من أقدام حصانه، فلن يستطيع أن يتصوَّر منظرًا أكثر شذوذًا وخرقًا. كانت يده ممسكة بعصا ذهبية الرأس بدلًا من السوط، كبيرةً كأيّ عصا يمسك بها جنديٌّ من المشاة هذه الأيام، وكانت طرائقه المتنوعة في الإمساك بهذا السلاح الصعب المراس -فهو تارة ممدودٌ على استقامته أمام وجهه كسيف أحد جنود الخيَّالة، وتارة على كتفه كبندقية، وتارة بين إبهامه وسبَّابته، لكنَّه في كلِّ حالٍ على هيئة خرقاء مرتبكة- تسهم بقدرٍ معتبرٍ في سخافة مظهره. متيبِّسًا مهزولًا رصينًا غريب الهندام عارضًا في بذخٍ -سواء عن تصميمٍ أو بمحض الصدفة- كلَّ غرائب اللباس والحركة والسلوك، وكل ما يميِّزه عن غيره من الناس، طبيعيّه ومكتسبه، كان حريًّا بأن يثير ضحك أشد الناظرين وقارًا، وابتسامات ونكات مهموسة شيَّعت مغادرته خان (مايپول).

غير أنَّه في غفلة تامة عمَّا أحدثه من أثرٍ كان يخبُّ إلى جوار صاحب سرِّه، متحدثًا إلى نفسه طيلة الطريق تقريبًا، حتى أصبحا على مبعدة ميل أو اثنين من لندن، حيث يمرُّ كل حين مسافرٌ يعرفه بمجرد النظر، ويشير إليه لشخصٍ آخر، وربما وقف يتابعه بنظراته بعد أن يجاوزه، أو صاح هازلًا أو جادًّا كيفما اتفق: «حيِّيت يا (چوردي)! لا للبابوية!» ليرد صاحبنا بأن يرفع قبَّعته في رصانة وينحني. وحين وصلا إلى المدينة وواصلا ركوبهما في

الشوارع تزايدت هذه الملاحظات، فكان البعض يضحك والبعض يتهامس والبعض يدير رأسه ويبتسم، وكان من الناس من يتساءل عمَّن يكون، ومنهم من يركض إلى جواره على الرصيف هاتفًا. وحين كان ذلك يحدث في زحامٍ من العربات والكراسي والمركبات كان يتوقَّف بغتة ويصيح رافعًا قبَّعته: «أيُّها السادة، لا للبابوية!» ليرد السادة بأصواتٍ متحمِّسة ثلاث مراتٍ، ثم يواصل طريقه مجدّدًا، وعلى أثر حوافر حصانه عشرون أو ما يقارب هذا العدد من الشعث الغبر، يتصايحون إلى أن تجفَّ حلوقهم.

وكذا العجائز، فقد كان في الشوارع عددٌ كبيرٌ من السيدات العجائز، يعرفنه جميعًا. وكان منهنَّ -لا أولئك المنتميات إلى الطبقات العليا، وإنما من يحملن سلال الفواكه ليبعن منها، ومن على شاكلتهنَّ- من يصفِّقن بأيديهنَّ المتغضِّنة ويصحن بأصواتٍ حادَّة زاعقة: «حيِّيت سيدي اللورد». وكان منهنَّ من يلوِّحن بأيديهنَّ أو مناديلهنَّ أو يهززن مراوح أيديهن أو مظلَّاتهنَّ، أو يرفعن مصاريع النوافذ وينادين من في داخل البيوت ليهرعوا ويروا مَن المار. وكان هو يستقبل كلَّ علامات التقدير الشعبي هذه برصانة واحترامٍ عميقين، فيبالغ في الانحناء، وكان يكرر ذلك كثيرًا حتى إن قبعته كانت لا تستقر على رأسه إلا قليلًا، وكان ينظر إلى أعلى صوب المنازل حيثما مرَّ، بطريقة من يحيِّي الجماهير، ومع ذلك فلم يكن يفعل ذلك في كبرٍ أو غرورٍ.

هكذا ركبوا -على رغم الازدراء العميق الذي لا تكاد الكلمات تنجع في التعبير عنه من جانب (چون غروبي)- عابرين (وايتّشاپل) وشارع (لدنفال) و(تشيپسايد)، إلى أن دخلوا فناء كنيسة (سان پول). وحين اقتربوا من الكاتدرائية توقف متحدثًا إلى (غاشفورد) وناظرًا إلى

أعلى صوب قبَّتها العالية وهو يهز رأسه كما لو كان يقول «الكنيسة في خطر!» ثم إنَّ المتفرجين على الجانبين بدأوا يتصايحون، فواصل طريقه ثانية تشيِّعه صيحات الجموع العالية، ويردُّ عليها بانحناءاتٍ أخفض من ذي قبل.

هكذا عبر طريق (ستراند) ثم شارع (سوالو) إلى طريق أكسفورد، ومن هناك إلى منزله في شارع (ولبك) قرب ميدان (كاڤندش) حيث أقبل عليه ثلَّة من المتسكِّعين، استأذنهم على درج بيته بتحية موجزة: «أيها السادة، لا للبابويّة! طاب يومكم، فليباركُم الرب». وحيث كان هذا الخطاب أقصر مما توقعوه، فقد استقبلوه في غير رضا، وما لبثوا أن صاحوا: «خطبة! خطبة!»، وكان هو على وشك الانصياع لطلبهم لولا أن (چون غروبي) هجم عليهم هجومًا مجنونًا بالجياد الثلاثة في طريقه إلى الحظائر ففرَّقهم إلى الحقول المتاخمة، حيث انغمسوا على الفور في ألعاب العملة المعدنية و(زوجي أم فردي) ومصارعة الكلاب وغيرها من التسليات البروتستانتية.

في الظهر خرج لورد (چورچ) مجدّدًا، مرتديًا معطفًا مخمليًّا أسود، وبنطالًا وصدارًا منقوشين بمربعات (غوردن)[1] ، وكلها من الطراز

(١) مربّعات (غوردن) Of the Gordon plaid نسبةً لترتان غوردن Gordon Tartan وهو قماش منقوش بخطوط أفقية ورأسية متقاطعة بألوان عدّة، وقد ارتبط أوّلًا بالصّوف ثمّ أصبح يصنع من خامات أخرى، كما أنه مرتبط بأسكتلندا بخاصّة، إذ إنّ التنّورة الأسكتلنديّة تأتي دائمًا منقوشةً بهذه الطريقة، أمّا النسبة إلى (غوردن) فتعود إلى عشيرة (غوردن) Clan Gordon الأسكتلنديّة التي يرأسها إيرل مدينة هنتلي Earl of Huntly، وقد ساندت العشيرة (وليم والاس) في حرب تحرير أسكتلندا في القرن الثالث عشر، وقد اشتهروا بهذا النمط من النقوش على أرديتهم.

الصاحبي نفسه[1]، وفي هذا الزي الذي جعله يبدو أغرب وأشذ بكثيرٍ من ذي قبل سار على قدميه إلى (وستمنستر). خلال ذلك انكبَّ (غاشفورد) على مسائل متعلِّقة بالعمل، ظلَّ منشغلًا بها إلى أن دخل (چون غروبي) بعيد الغروب معلنًا مقدم زائر.

قال (غاشفورد): «دعه يدخل».

زمجر (چون) ليسمع شخصًا بالخارج: «هنا. ادخل! أنت پروتستانتي، أليس كذلك؟».

ردَّ صوت فظٌّ عميقٌ: «أعتقد ذلك».

قال (چون غروبي): «تبدو كذلك، حيثما لقيتك كنت سأعرف أنك پروتستانتي»، وبهذه الملاحظة أذن للزائر بالدخول، ثم انسحب وأغلق الباب.

كان الرجل الواقف في مواجهة (غاشفورد) الآن بدينًا ضخم الجثة، ذا جبين غائر وشعر مهوَّش خشن وعينين صغيرتين قريبة كل منهما من الأخرى، حتى إنهما تكادان تلتقيان لتكوِّنا عينًا واحدة من المقاس المعتاد

---

(١) الطّراز الصّاحبيّ Quaker Cut نسبةً إلى جمعيّة الأصحاب الدّينيّة The Religious Society of Friends التي ضمَّت تاريخيًّا مجموعةً من الفرق المسيحية الپروتستانتية التي تميَّز أعضاؤها باعتقادهم في قدرة كل إنسان على أن يخبر نوره الداخلي أو أن يرى نور الله داخله. وهو اعتقادٌ بشَّر به مؤسس الجمعية (چورچ فكس George Fox ١٦٢٤ - ١٦٩١). ويقول (چفري پارندر Geoffrey Parrinder) في كتابه (أديان العالم: من أقدم العصور إلى الآن) إنَّ الصاحبيّين الأوائل اشتهروا بالجلوس في صمتٍ لتأمُّل كلمات الكتاب المقدّس حتى يشعروا بنور الله الداخليّ يسطع عليهم وبالرّوح القدس تكلّمهم. وبعضهم يبشِّر بكهانة كلّ المؤمنين، استنادًا إلى نصّ الآية التاسعة من الإصحاح الثاني من رسالة بطرس الرسول الأولى: "وأمّا أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكيّ، أمّة مقدّسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الّذي دعاكم من الظّلمة إلى نوره العجيب».

لولا أنفه الأقنى بينهما. وكان ثَمَّ منديل قذر ملفوف حول رقبته كالحبل، تاركًا أوردته الكبيرة مكشوفة للناظرين، وقد كانت هذه منتفخة نابضة كما لو كانت قد ابتلعت عواطف قوية ملؤها الحقد والضغينة. كان لباسه من القطن المخملي الخلق، أسود مبيضًّا شاحبًا صدئًا كرماد غليون أو حريق فحم بعد إطفاء يوم، أحالت لونه قاذورات جلسات فسق مبتذلة، وتفوح منه روائح الماخور. وفي مكان مشابك الركبة كان يرتدي عروتين غير متساويتين من السلك، وكان يمسك بيديه الوسختين عصا ذات عقد، مقبضها منحوتٌ على شكلٍ يشبه وجهه الكريه بدرجة ما. هكذا كانت هيئة الزائر الذي خلع قبعته الثلاثية الأركان في حضرة (غاشفورد) وأخذ ينتظر أن ينتبه له وهو ينظر شزرًا.

صاح صاحب السر: «آه! (دنس)! اجلس».

صاح الرجل وهو يحرك إبهامه ناحية الزاوية التي يتحدث عنها: «لقد رأيت سيدي اللورد بالأسفل هناك، وقد قال لي إن لم تكن منشغلًا بشيء يا (دنس) فاصعد إلى منزلي وتكلم مع السيد (غاشفورد). وبالطبع لم يكن لديَّ ما أفعله كما تعرف؛ فهذه ليست ساعات عملي. هاها! كنت أشم الهواء حين رأيت سيدي اللورد، ذلك ما كنت أفعله. أنا أشم الهواء بالليل كما تفعل الذئاب يا سيد (غاشفورد)».

قال صاحب السر: «وأحيانًا بالنهار، أليس كذلك؟ حين تخرج في جنازة».

زمجر الرجل وهو يضرب ساقه: «هاها! لأن سيدًا مثلك يقول شيئًا مبهجًا بطريقة مبهجة فأنا أفضِّل السيد (غاشفورد) على لندن ووستمنستر

كلهما! ليس سيدي اللورد سيِّئًا في هذا الأمر، لكنه أمامك يكون أحمق. آه، حقًّا حين أخرج في جنازة».

قال صاحب السر: «وتكون معك عربتك وكاهنك، إيه؟ وبقية الأشياء».

صاح (دنس) مزمجرًا ثانية: «ستكون سبب موتي» ثم سأل في فظاظة: «لكن ما الأخبار الآن يا سيد (غاشفورد)؟ هل سنتلقَّى أوامر بهدم إحدى كنائس البابويين الصغيرة؟ أم ماذا؟».

صاح صاحب السر آذنًا لشبح ابتسامة خافت أن يلعب على وجهه: «شش، شش. فليباركني الرب يا (دنس)! أنت تعرف أننا نجتمع لأغراضٍ سلمية قانونية تمامًا».

ردَّ الرجل دافعًا لسانه في خدِّه متهكِّمًا: «أعرف ذلك، بوركت، وقد دخلت غرضًا من قبل، أليس كذلك؟».

قال (غاشفورد) مبتسمًا ثانية: «بلا شكٍّ» وحين قالها زمجر (دنس) ثانية وضرب ساقه ضربة أعنف ثم ارتجَّ جسده ضاحكًا وأخذ يمسح عينيه بطرف منديل رقبته وصاح: «السيد غاشفورد يهزم إنكلترا كلّها!».

قال (غاشفورد) بعد برهة: «كنَّا نتحدث بشأنك البارحة، لورد چورج وأنا، يقول إنك رجلٌ مخلصٌ جدًّا».

ردَّ الشَّانق: «هكذا أنا».

«وإنك تكره البابويين بصدقٍ».

ردَّ مؤكدًا قوله بيمين مغلَّظة: «حقًّا أكرههم» ثم أضاف واضعًا قبَّعته وعصاه على الأرض قبل أن يضرب ببطء راحة إحدى يديه في أصابع

الأخرى: «انظر يا سيد غاشفورد، انتبه لِمَا أقول. أنا موظفٌ تنفيذي أعمل لأكسب عيشي، وأنفِّذ مهمَّاتي على الوجه الأكمل، أليس كذلك؟».

«بلا شكٍّ».

«جيد جدًّا، توقف دقيقة. هذا العمل صحيح وپروتستانتي ودستوري وإنـگـليزي. أليس كذلك؟».

«ليس لأحدٍ على وجه البسيطة أن يرتاب في ذلك».

«ولا حتى في باطن البسيطة. والپرلمان يقول: لو أنَّ أيَّ رجلٍ أو امرأة أو طفلٍ فعل شيئًا ضد أحد قوانيننا -كم عدد قوانين الشنق الآن يا سيد غاشفورد؟ خمسون؟».

ردَّ (غاشفورد) مستندًا إلى ظهر مقعده وهو يتثاءب: «لا أعلم بالضبط كم عددها، غير أنَّه عددٌ كبيرٌ».

«حسنًا، لنقل إنه خمسون. يقول الپرلمان: لو فعل أيُّ رجلٍ أو امرأة أو طفلٍ شيئًا ضدّ أحد هذه القوانين الخمسين، فإن (دنس) سينهي حياة هذا الرجل أو الطفل أو تلك المرأة. وها هو (چورچ الثالث) يتدخَّل حين يصل عدد المحكوم عليهم في نهاية جلسة إلى رقمٍ كبيرٍ ليقول: إنهم كثيرون جدًّا على (دنس)، سأتولَّى أمر نصفهم وليتولَّ (دنس) أمر النصف الآخر. وأحيانًا يلقي بأحدٍ في طريقي بطريقة لا أتوقَّعها، كما فعل منذ ثلاثة أعوام حين كانت في قبضتي (ماري چونز)، تلك المرأة الشابة ذات الأعوام التسعة عشر التي جاءت إلى (تايبرن) برضيعٍ على صدرها، وأُعدِمت لأخذها قطعة قماش من على منضدة أحد الحوانيت في (لدغات هل) ثم إعادتها إيَّاها إلى مكانها حين رآها البائع، والتي لم ترتكب أيَّ جرمٍ قبل ذلك في حياتها، ولم تُقدِم على ذلك الصنيع إلَّا كنتيجة لتجنيد زوجها

بالإكراه قبل ذلك بثلاثة أسابيع وتركها بلا حيلة، إلا أن تستجدي الناس بطفلين صغيرين كما ثبت في المحاكمة. هاها! حسنًا! هذا هو قانون إنكلترا المعمول به، مجد إنكلترا، أليس كذلك يا سيد غاشفورد؟».

قال صاحب السر: «بالتأكيد».

تابع الشانق: «وفي المستقبل إذا فكَّر أحفادنا في زمن أجدادهم ووجدوا أنَّ هذه الأمور قد تغيَّرت، فسيقولون: يا لها من أيامٍ، إننا ننحدر منذ ذلك الوقت. ألن يقولوا ذلك يا سيد غاشفورد؟».

قال صاحب السر: «لا أشك في ذلك».

قال الشانق: «حسنًا إذن، انظر الآن. لو وصل هؤلاء البابويُّون إلى السلطة وشرعوا يسلقون ويشوون بدلًا من الشنق، فما يكون مصير عملي؟! لو لمسوا عملي الذي هو جزء من قوانين كثيرة جدًّا، فما يكون مصير القوانين عمومًا، وماذا سيحدث للدين وللبلد؟ هل ذهبت عمرك إلى الكنيسة يا سيد غاشفورد؟».

كرَّر صاحب السر في شيء من الاستياء: «عمري! بالطبع».

قال الهمجي: «حسنًا، أنا ذهبتُ مرة، مرتين إذا عددنا المرة التي عُمِّدت فيها. وحين سمعت الصلاة من أجل البرلمان وفكرت كم قانون شنق جديدًا أقرَّه البرلمان في كل جلسة، اعتبرت أنني قد صلّي من أجلي».

ثم أردف وهو يتناول عصاه ويهزها بطريقة وحشية: «والآن انتبه يا سيد غاشفورد! لا ينبغي لي أن أسمح بأن يمسَّ عملي البروتستانتي، ولا بأن تتغيَّر الحالة البروتستانتية التي عليها الأمور قيد شعرة، ما كان ذلك في مقدوري. لا يجب أن أسمح لأيِّ بابويٍّ بأن يتدخَّل فيما أفعل، إلا إن جاءوا ليُنفَّذ فيهم حكم الإعدام بالقانون، ولا يجب أن أسمح بسلق ولا

شيّ ولا قلي، لا شيء إلا الشنق. لسيدي اللورد أن يسمِّيني رجلًا مخلصًا. ولأساند المبدأ البروتستانتي العظيم الذي يقضي بالكثير من هذا الأمر، فأنا على استعدادٍ لأن.» وهنا ضرب الأرض بعصاه قائلًا: «أحرق. أقاتل. أقتل. أفعل أيَّ شيء تأمرني به ولو كان جريئًا شيطانيًّا إلى أبعد مدى، ولو كانت نهايته أن أشنق أنا نفسي، هكذا يا سيد غاشفورد!».

وعن حق تبع هذا الانتهاك المتكرر للكلمة النبيلة إلى أن وصل بها إلى أرذل غرض بأن حلف في جنون عشرين يمينًا مغلَّظة على الأقل، ثم مسح وجهه الساخن بمنديل رقبته ثم صاح: «لا بابوية، أنا رجلٌ متديِّن وحق الرب!».

كان (غاشفورد) مستندًا إلى ظهر مقعده، ينظر إليه بعينيه غائرتين تمامًا يظلِّلهما حاجباه الكثَّان، حتى إن الشانق لم يكن يرى منهما شيئًا، ولو رأى لعمي. ظلَّ مبتسمًا في صمتٍ برهة أطول، ثم قال في بطء ووضوحٍ:

«أنت حقًّا رجلٌ مخلصٌ يا (دنس)، رجلٌ ثمينٌ تمامًا، أوفر من معنا حظًّا من الإخلاص. لكن عليك أن تهدِّئ نفسك، عليك أن تكون مسالمًا، ملتزمًا بالقانون، وديعًا كأي حمل، لكني واثق بأنك ستكون كذلك».

ردَّ الآخر هازًّا رأسه: «هيه، سنرى يا سيد غاشفورد، سنرى. لن يكون عليك أن تشكو من ناحيتي».

قال صاحب السر باللهجة الوادعة نفسها والتأكيد نفسه: «أنا واثق بذلك. نعتقد أنه بحلول الشهر القادم أو في أيّار حين يُعرض مشروع قانون العفو عن البابويين على البرلمان، سيكون على أعضاء رابطتنا جميعًا أن يجتمعوا معًا للمرة الأولى. لدى سيدي اللورد أفكارٌ تدور حول خروجنا

في تظاهرة في الشوارع، كاستعراضٍ بريء للقوة فحسب، ولنصاحب التماسنا إلى باب مجلس النواب».

قال (دنس) بيمينٍ أخرى: «كلما اقترب وقت ذلك كان أفضل».

واصل (غاشفورد) مصطنعًا أنه لم يسمع مقاطعته: «سيكون علينا أن ننتظم في فرقٍ، إذ إن عددنا كبيرٌ جدًّا، وأظن أنه يجوز لي أن أقول –رغم أني ليست لديَّ تعليمات مباشرة تقضي بذلك– إن لورد (چورچ) قد فكر فيك كقائدٍ ممتازٍ لإحدى هذه الفرق، وإنني لواثق بأنَّك ستكون قائدًا خليقًا بالإعجاب».

قال الرجل بغمزة قبيحة: «جرِّبني».

تابع صاحب السر مبتسمًا ما زال ومشغِّلًا عينيه بحيث يستطيع أن يراقبه من كثبٍ من دون أن يرى الآخر عينيه: «أعرف أنك ستكون جيدًا، مطيعًا للأوامر ومعتدلًا تمامًا. أنا واثق بأنك لن تورد فرقتك موارد التهلكة».

اندفع الشانق يتكلم في غير رويَّة: «سأقودهم يا سيد غاشفورد.» فما لبث (غاشفورد) أن أسرع نحوه ووضع أصبعه على شفتيه وتظاهر بأنه منشغلٌ بالكتابة حين فتح الباب وظهر (چون غروبي).

قال (چون) وهو ينظر إلى الداخل: «أوه! لدينا پروتستانتيٌّ آخر».

صاح (غاشفورد) بألطف لهجة ممكنة: «في غرفة أخرى يا (چون)، أنا منشغلٌ الآن».

غير أنَّ (چون) أحضر ذلك الزائر الجديد إلى الباب، فدخل من دون إذن بينما تنطق الكلمات السابقة، لنرى فيه قوام (هيو) وملامحه ولباسه الخشن وتهوُّره.

الفصل الثامن والثلاثون

وضع صاحب السِّرّ يده أمام عينيه اتِّقاء وهج المصباح، وأخذ ينظر إلى (هيو) لحظات بجبينٍ مقطَّب، كما لو كان يذكر أنه قد رآه مؤخَّرًا وإن كانت ذاكرته لا تسعفه بمكان اللقاء ولا مناسبته. ولم تطل حيرته، فقبل أن ينبس (هيو) ببنت شفة قال بينما تنفرج ملامحه: «نعم نعم، أذكر. لا بأس يا (چون)، لا حاجة بك إلى الانتظار. لا تذهب يا (دنس)».

قال (هيو) بينما ينسحب (غروبي): «خادمك يا سيدي».

رد صاحب السِّرّ بأسلوبٍ يفيض نعومةً: «تحت أمرك أيها الصديق، ما أتى بك إلى هنا؟ أرجو ألا نكون قد تركنا شيئًا من متاعنا عندكم».

أطلق (هيو) ضحكة قصيرة ثم وضع يده في صدره مخرجًا أحد المنشورين، متَّسخًا ملوَّثًا من وضعه في الشارع طيلة الليل، وبعد أن فرده على ركبته وشدَّ تجاعيده براحة يده الثقيلة وضعه على مكتب صاحب السر.

«لا شيء سوى هذا يا سيدي، لقد وقع في أيدٍ أمينة كما ترى».

قال (غاشفورد) وهو يقلِّب المنشور في إيحاء بدهشة طبيعية تمامًا: «ما هذا؟ من أين حصلت عليه يا صديقي الطيب؟ ماذا يعني هذا؟ أنا لا أفهم ذلك على الإطلاق».

أما وقد أربك (هيو) هذا الاستقبال، فقد نقل بصره من صاحب السر إلى (دنس) الذي نهض وكان يقف إلى جوار المنضدة هو الآخر مسترقًا النظر إلى الغريب، وعلى سيماه أقصى درجات الرضا لرؤية مظهره وأسلوبه. اعتبر (دنس) نفسه مخاطبًا في صمتٍ بهذا الفعل من جانب (هيو)، فهزَّ رأسه ثلاثًا كما لو كان يقول عن (غاشفورد): «لا، هو لا يعرف أي شيء على الإطلاق عن ذلك. أنا أعرف أنه لا يعرف، أقسم على ذلك»، وما لبث أن أخفى جانب وجهه عن (هيو) بطرف طويل لمنديل رقبته الكريه، وأخذ يومئ ويضحك من خلف منديله في رضا تامٍّ عمَّا يفعله صاحب السر.

سأله (هيو): «هو يطلب ممَّن يجده أن يأتي إلى هنا، أليس كذلك؟ إنني لستُ متعلِّمًا لكني أطلعت عليه صديقًا فأخبرني بذلك».

قال (غاشفورد) فاتحًا عينيه على أقصى اتِّساعهما: «بالتأكيد، إنَّ هذا حقًّا أكثر ظرف قابلته في حياتي جدير بالالتفات إليه، كيف عثرت على هذه القصاصة يا صديقي الطيب؟».

خرج صوت الجلَّاد كالأزيز الهامس: «سيد غاشفورد ضد (نيوغات) بأكمله!».

وسواء كان (هيو) قد سمعه أو رأى من أسلوبه أنه يتحوَّل إلى ألعوبة في أيديهما أو أدرك ما يفعله به صاحب السر، فقد وصل على الفور إلى النقطة المهمة بطريقته المباشرة، فقال وهو يمدُّ يده ويستعيد المنشور:

«هاته، لا تلقِ بالًا إلى المنشور ولا إلى ما يقوله أو ما لا يقوله. أنت لا تعلم شيئًا عنه يا سيدي، ولا أنا، ولا هو». ناظرًا إلى (دنس)، ثم تابع:

«لا أحد منَّا يدري ما يعنيه، ولا من أين أتى، انتهى الأمر. والآن أنا أريد أن أنضمَّ إلى من هم ضد الكاثوليك. أنا رجل ضد البابوية، ومستعدٌّ لأن أُجنَّد، هذا ما جئت لأجله».

قال (دنس) في استحسانٍ: «أدرج اسمه في القائمة يا سيد غاشفورد، هذه هي الطريقة المثلى للعمل، مباشرةً إلى الهدف على الفور، من دون كثير كلام».

صاح (هيو): «ما جدوى المواربة والخبط؟ هه يا رفيقي العجوز؟!».

ردَّ الجلَّاد: «لقد فاضت عواطفي! هذا هو نوع الشباب المناسب لفرقتي يا سيد غاشفورد. فليسقط يا سيدي! سجِّله في القائمة. سأكون أبًا روحيًّا له إذا عُمِّد في محرقة لأطلال مصرف إنكلترا».

ربت مستر (دنس) ظهره في حماسٍ وهو يطلق هذه الجمل وأشباهها من نفس النوعية المفعمة بالثناء والثقة، فما لبث أن ردَّ (هيو) بتربيتة مماثلة.

صاح الجلَّاد: «لا للبابوية يا أخي».

ردَّ (هيو): «لا للملكيَّة يا أخي!»[1].

قال صاحب السر بأسلوبه اللطيف المعتاد: «البابوية، البابوية».

صاح (دنس): «إنهما نفس الشيء! صحيح تمامًا. فليسقط يا سيد غاشفورد. فليسقط كلُّ إنسان وليسقط كلُّ شيء! هورّاه للدين البروتستانتي! هذا هو الوقت المناسب من اليوم يا سيد غاشفورد!».

نظر إليهما صاحب السر بتعبير وجه مفعم بالرضا بينما هما منخرطان

---

(١) قال (دنس): No Popery, brother فردّ (هيو) ظانًّا أنه يكرر ما سمعه وهو لا يفهم تمامًا: No property, brother!

في التعبير عن همِّهما الوطني بأمثال هذه الجمل، وكان على وشك أن يدلي بملاحظة بصوتٍ عالٍ لولا اقترب منه (دنس) مخفيًا فاه بيده وهامسًا بصوتٍ أجش وهو يلكزه بمرفقه:

«لا تفش مهنة موظف تنفيذي يا سيد غاشفورد، هناك تحامل من العامة كما تعرف، وربما لا يعجبه أن يعرف مهنتي. انتظر إلى أن يألف كلٌّ منَّا صاحبه، إنه شابٌّ جيد البنية، أليس كذلك؟».

«رجلٌ قويٌّ حقًّا!».

همس (دنس) بنوعٍ مخيفٍ من الإعجاب كذلك الذي ربما ملأ نظرة آكل لحوم بشر إلى صديقه الحميم وهو جائع: «هل رأيت عمرك يا سيد غاشفورد.. هل رأيت عمرك.» وهنا اقترب أكثر من أذنه وأحاط فمه بكلتا يديه مواصلًا:

«رقبةً كرقبته؟ ألق نظرةً عليها. ثم رقبة تستحق أن تمد يا سيد غاشفورد!».

وافق صاحب السر على هذا المقترح بأفضل ما أوتي من سماح – فمن الصعب أن يتظاهر المرء بتذوُّق صادق لمتطلِّبات مهنة الشانق، حيث يبدو مثل هذا التذوُّق بالغ الغرابة أحيانًا– وبعد أن سأل المتقدِّم للانضمام قليلًا من الأسئلة غير المهمَّة بادر إلى تسجيله عضوًا في رابطة إنگلترا البروتستانتية العظمى. ولو أنَّ شيئًا يمكن أن يفوق سعادة مستر (دنس) بالنهاية البهيجة لهذا الطقس، فهو الغبطة التي تلقَّى بها الإعلان عن أنَّ العضو الجديد لا يجيد القراءة ولا الكتابة، فقد كان هذان الفنّان –كما يقسم على ذلك مستر (دنس)– أكبر لعنة يمكن أن يعرفها مجتمعٌ

متحضِّرٌ، كما كانا يناهضان مخصَّصات الوظيفة التنفيذية الكبيرة التي كان يشرف بشغلها ويناهضان منافعها أكثر من أي ظروف أخرى عكسية يمكن أن يتخيَّلها.

وبعد إتمام التسجيل، وبعد أن أخبر (غاشفورد) (هيو) بطريقته الغريبة بالأهداف السلمية الملتزمة تمامًا بالقانون، تلك الأهداف التي تتحرَّاها الرابطة التي أصبح الآن ينتمي إليها -وقد كان مستر (دنس) خلال ذلك لا يني يلكز (غاشفورد) بمرفقه ويقلب سحنته إلى أشكالٍ غريبة متنوعة- أفهمهما صاحب السر أنه يبغي أن يُترَك الآن لحاله. لذا استأذنا في التَّوِّ وخرجا من المنزل معًا.

قال (دنس): «هل ستمشي يا أخ؟».

ردَّ (هيو): «أجل، حيثما شئت».

قال صديقه الجديد: «هذا مؤنسٌ، أي طريق نأخذ؟ هل نلقي نظرةً على أبواب سنطرقها طرقًا عنيفًا عمَّا قريبٍ؟ إيه يا أخ؟».

وإذ ردَّ (هيو) بالإيجاب فقد مضيا على مهلٍ إلى (وستمنستر) حيث كان مجلسا البرلمان آنذاك. أخذا يتسكَّعان مختلطين بزحام العربات والأحصنة والخدم وحاملي الكراسي والصبية حاملي المشاعل والحمَّالين والعاطلين من كل نوعٍ، بينما يشير لـ(هيو) صديقه الجديد إلى الأجزاء الضعيفة من المبنى، وكيف هو سهل أن تقتحم ردهته، ومنها إلى باب مجلس النواب ذاته، وكيف سيسمع الأعضاء بالداخل زمجرتهم وصياحهم في وضوحٍ حين يسيرون هناك متظاهرين في جمهرة عظيمة، وأخذ يفيض في عبارات تدور حول الغرض نفسه، تلقَّاها (هيو) جميعًا بسعادة واضحة.

وأخبره كذلك بهوية بعض اللوردات ونواب العموم بالاسم إذ هم يدخلون إلى المبنى أو يخرجون منه، وما إذا كانوا يوادُّون البابويين أو غير ذلك، وأمره بالانتباه لحاشياتهم وبطاناتهم حتى يكون واثقًا من هويّاتهم إذا ما دعت الحاجة. وكان أحيانًا يجرُّه ليقترب من نوافذ عربة مارَّة ليرى وجه سيدها في ضوء المصابيح، وكان على الجملة عارفًا بكل ما يحيط بهما من بشرٍ وأماكن، حتى بات واضحًا أنه قد درس المكان كثيرًا من قبل، كما اعترف بنفسه حين أصبحا أكثر حميمية فيما بينهما.

ربما كان أكثر شيء صادم في كلِّ ذلك هو عدد الناس الذين لم يتجمَّعوا في مجموعات أكبر من اثنين أو ثلاثة، والذين كان يبدو عليهم أنهم يسيرون مستخفين بين الجمهور لغرضهما نفسه. كانت إيماءة بسيطة أو نظرة من رفيق (هيو) تحية كافية بالنسبة إلى الجزء الأكبر من هؤلاء، لكن بين الفينة والفينة كان أحدهم يأتي ليقف إلى جواره وسط الزحام، ثم يقول كلمة أو اثنتين في صوتٍ خافتٍ من دون أن يدير رأسه أو يظهر ما يدلُّ على أنهما يتواصلان، ليرد (دنس) بالأسلوب الحذر نفسه. ثم ما يلبثان أن يفترقا كغريبين. وكان بعض هؤلاء يعاود الظهور بغتة في الزحام قريبًا من (هيو)، ليصافحه وهو يمرُّ به أو ينظر إلى وجهه في صرامة، لكنَّ أحدًا منهم لم يكلِّمه ولم يكلِّم هو أيًّا منهم كذلك، ولا كلمة.

كان لافتًا كذلك أنَّهما حيثما تصادف أن يقفا في زحامٍ ضاغطٍ من الناس، وتصادف أن ينظر (هيو) إلى أسفل، كان يرى دائمًا ذراعًا ممدودة، ربما تحت ذراعه هو أو عبر ذراعه، لتدفع بورقة في يد أو جيب أحد الواقفين، ثم تسحب بغتة حتى إنه ليصبح من المستحيل أن يجزم المرء من أين أتت تلك الذراع، كما لم يستطع أن يرى في أي وجه -متى ألقى نظرة

خاطفة على من يحيطونه- أقل علامة على الارتباك أو الدهشة. كانوا كثيرًا ما يدوسون ورقة كتلك التي يحملها في صدره، لكنَّ رفيقه كان يهمس إليه بألَّا يلمسها ولا يرفعها، ولا حتى ينظر إليها، وهكذا تركا هذ الورق ملقىً ومضيا لشأنهما.

وبعد أن طافا بالشارع وبكل طرقات المبنى بهذه الطريقة لما يقرب من ساعتين، دارا على عقبيهما، وسأله صديقه عن رأيه فيما شهده، وعمَّا إذا كان مستعدًّا لبعض العمل الساخن الجيد إذا ما دعت الحاجة. قال (هيو):

«كلما كان أسخن كان أفضل؛ أنا مستعدٌّ لأي شيء».

قال صديقه: «كذلك أنا، وكذا كثيرٌ منَّا».

وهكذا عقدا الخناصر على ذلك بقسمٍ مغلَّظٍ وكثير من اللعنات الرهيبة صبَّاها على البابويين. وإذ كان العطش قد بلغ منهما الآن مبلغه، اقترح (دنس) أن يذهبا معًا إلى (البوت) حيث الرفقة الجيدة والنبيذ الشديد. وما إن أعلن (هيو) موافقته الجاهزة حتى لويا عنان خطاهما إلى ذلك الاتجاه.

كان هذا (البوت) حانة منعزلة، في الحقول الواقعة خلف بيت اللقطاء[١]، وهي بقعة شديدة العزلة في تلك الآونة، مهجورة تمامًا بعد حلول الظلام. كانت هذه الحانة على مبعدة من أي طريق رئيسة، ولم يكن من الممكن أن يوصل إليها إلا عبر حارة ضيقة مظلمة، حتى إن (هيو) دهش كثيرًا حين وجد كثيرين مكبِّين على الشراب هناك، ومرحًا جاريًا

(١) بيت اللّقطاء The Foundling Hospital أسَّسه القبطان المحسن (توماس كورام) عام ١٧٣٩ في لندن لتعليم ورعاية اللقطاء، وكلمة Hospital في اسمه لا تعني المستشفى بالتحديد كما هي الآن، وإنما هي مشتقّة من المعنى الأوسع للجذر اللغوي المتعلّق بكرم الضيافة Hospitality.

على قدمٍ وساقٍ. وكان الأكثر إدهاشًا له أن يرى بينهم تقريبًا كل الوجوه التي استرعت انتباهه في الزحام، غير أنَّ رفيقه قد همس في أذنه وهما على الباب أن إظهار الفضول بخصوص الرفقة لا يعد سلوكًا مقبولًا في (البوت)، فما كان منه إلَّا أن احتفظ بأفكاره لنفسه ولم يظهر ما يدلُّ على تعرُّفه على من حوله.

وقبل أن يتذوَّقا الشراب الذي أحضر لهما، قال (دنس) بصوتٍ عالٍ إنه يشرب نخب لورد (چورچ غوردن) رئيس الرابطة الپروتستانتية الكبرى، فما لبث (هيو) أن شرب النخب نفسه بحماسٍ مماثلٍ. ثم أخذ عازف كمان كان يبدو أنه المنشد المعيَّن للرفقة يعزف في التوِّ موسيقى شعبية أسكتلندية في أنغام منعشة، حتى إنَّ (هيو) وصديقه بعد أن شربا نهضا من مقعديهما في الوقت نفسه كما لو كان بينهما اتفاقٌ مسبقٌ، وارتجلا رقصة (لا بابوية) أعجبت الضيوف المجتمعين أيَّما إعجاب.

* * *

الفصل التاسع والثلاثون

قبل أن يخمد التصفيق الحار الذي أثاره أداء (هيو) وصديقه لدى الرفقة المجتمعة في (البوت)، وبينما الراقصان يلهثان مما بذلا من جهدٍ بالغ العنف والشدة، عضَّد الحفل وصول ضيوفٍ جددٍ، استقبلوا بآيات الثناء والاحترام والإطراء لكونهم فصيلًا من الكلاب الثيران المتحدين.

كان قائد هذه الفرقة الصغيرة –فإنهم لم يكونوا يزيدون عن ثلاثة بما فيهم هو نفسه– هو أحد معارفنا القديمة، مستر (تاپرتت) الذي بدا من حيث بنيته كما لو كان قد ازداد ضآلة بمرور السنوات، لا سيَّما فيما يتعلَّق بساقيه اللتين صارتا نحيلتين إلى درجة مذهلة، لكنَّه من وجهة النظر الأخلاقية قد انتفخ في عزة نفسه وتقديره لذاته فصار عملاقًا. ولم يكن من العسير بحال على أقل الناس لمّاحيّةً أن يلاحظ هذا الشعور في الصبي السابق، فإنه لم يعبِّر عن نفسه بدرجة مدهشة لا تحتمل الخطأ في مشيته الجليلة وعينه المتَّقدة فحسب، لكنَّه تعدَّى ذلك إلى أن أظهر ذاته بطريقة مذهلة في أنفه الشامخ الذي يزدري كل ما ينتمي إلى الأرض ازدراءً عميقًا ويبحث عن الالتحام بأقاربه السماوات.

رافق مستر (تاپرتت) بصفته رئيس أو قبطان الكلاب الثيران ملازماه، أحدهما رفيق صباه الطويل، والآخر من الفرسان الصبيان في الأيام الخوالي، وهو (مارك غلبرت) الذي كان صبيًّا لتوماس كرزن صاحب

(الصوف الذهبي). كان هذان السيدان مثله تمامًا، قد تحرَّرا من عبودية حياة الصبيان، وتحوَّلا إلى عاملين باليومية، غير أنهما في محاولة متواضعة لاحتذاء مثاله العظيم كانا روحين شجاعين مقدامين، وكانا يطمحان إلى منزلة مرموقة في الأحداث السياسية الكبرى. ومن هنا جاء ارتباطهما برابطة إنگلترا الپروتستانتية، وقد أجازهم اسم لورد (چورچ غوردن)، ومن هنا تأتي زيارتهم الحالية (للبوت).

قال مستر (تاپرتت) وهو يخلع قبَّعته كما قد يفعل لواء عظيم وهو يخاطب قواته: «أيها السادة! استقبلتمونا جيدًا، لقد شرَّفني وشرَّفكم سيدي اللورد بإرسال تحياته إليكم بنفسه».

قال (دنس): «لقد رأيت سيدي اللورد أنت أيضًا، أليس كذلك؟ لقد رأيته ظهر اليوم».

رد مستر (تاپرتت) بينما يجلس هو وملازماه: «لقد دعاني الواجب إلى التوجُّه إلى (اللوبي) بعد أن أغلق محلّنا، ورأيته هناك يا سيدي. كيف حالك؟».

قال الآخر: «في خير حال أيها السيد، في خير حالٍ» ثم أضاف صائحًا وهو يربِّت ظهر (هيو): «إليك أخًا جديدًا، سجِّله رسميًّا السيد غاشفورد، وهو دعم لقضيتنا، من النوع الذي لا يثنيه عن عزمه شيء، مثلي تمامًا. أتراه؟ هل يبدو رجلًا يعتمد عليه في اعتقادك؟».

قال (هيو) وهو يشيح بذراعه في سكر: «أبدو أو لا أبدو، أنا الرجل الذي تريده، أنا أكره البابويّين جميعًا. يكرهونني وأكرههم. يؤذونني بما يقدرون عليه، وأنا سأؤذيهم بما أقدر عليه. هورّاه!».

قال (دنس) مقلِّبًا بصره في الغرفة إذ اختفى صدى صوته الهادر: «هل رأيت قبل ولدًا بهذه الشجاعة؟ أنا أقصد أن أقول أيها الإخوة إن السيد غاشفورد لو سار مائة ميل وجمع خمسين رجلًا من الطراز المعتاد، فإنهم لن يساووا جميعًا هذا الرجل».

كان الجزء الأكبر من الرفقة يرى هذا الرّأي ضمنيًّا، وقد صدَّقوا على إيمانهم بـ(هيو) بإيماءات ونظرات دالَّة. جلس مستر (تاپرتت) وأخذ يتأمَّله وقتًا طويلًا في صمتٍ كما لو كان يعلِّق حكمه، ثم اقترب منه قليلًا، وأخذ يتفرَّسه بمزيدٍ من الاهتمام، ثم اتجه إليه مباشرة وأخذه على انفرادٍ في ركنٍ مظلمٍ، ثم شرع يقول بجبين قطَّبه التفكير:

«أقول ألم أرك من قبل؟».

قال (هيو) بطريقته اللا مبالية: «ربما، لا أدري، ولا يجب أن أعجب إن كنت رأيتني».

ردَّ (سم): «لا، لكن من اليسير أن نقطع بإجابة. انظر إليَّ. هل رأيتني من قبل؟ تعرف أنه من غير المحتمل أن تنسى ذلك إن كنت قد رأيتني. انظر إليَ، لا تخف فأنا لن أؤذيك بأي طريقة، املأ عينيك مني بثباتٍ الآن».

كانت الطريقة المشجِّعة التي طلب بها مستر تاپرتت هذا الطلب، والتي قرنها بتأكيده على ألَّا حاجة بـ(هيو) للخوف، كانت مسلية للغاية بالنسبة إلى (هيو)، حتى إنه استغرق في نوبة ضحك من قلبه، هزَّت عطفيه العريضين الكبيرين إلى أن آلماه، وأغلقت عينيه تمامًا فلم يعد يرى شيئًا من الرجل الضئيل الجالس أمامه.

قال مستر تاپرتت بشيء من نفاد الصبر بعثته هذه المعاملة المفتقرة إلى الاحترام: «هيَّا! هل تعرفني يا أخ؟».

صاح (هيو): «لا، هاهاها! لا، لكن أحب أن أعرفك».

قال مستر تاپرتت عاقدًا ذراعيه ومواجهًا إيَّاه بساقين متباعدتين مزروعتين في الأرض بثباتٍ: «رغم ذلك أنا مستعدٌّ أن أراهن بقطعة بسبعة شلنات على أنك كنت ذات يوم سائس خيل في مايپول».

فتح هيو عينيه إذ سمع ذلك، ونظر إليه في دهشة بالغة، فقال مستر تاپرتت وهو يدفعه بعيدًا ممازحًا إيّاه في تنازل:

«وهذا ما كنته بالفعل، متى خانتني عيناي من قبل إلا إن كان في الأمر امرأة شابة! ألا تعرفني الآن؟».

تردَّد هيو: «ليس..».

قال مستر تاپرتت: «ليس ذلك؟ هل أنت واثق؟ ألا تذكر غابرييل ڤاردن؟».

بالتأكيد يذكره هيو، كما يذكر (دلّي ڤاردن) كذلك، لكنه لم يخبره بذلك. قال مستر تاپرتت:

«ألا تذكر مجيئي إلى هناك قبل أن أنهي خدمتي مع ڤاردن، لأسأل عن متشرِّد هرب تاركًا أباه المهموم نهبًا لأمر المشاعر، إلى آخر ذلك؟ ألا تذكر؟».

صاح هيو: «بالطبع أذكر، ولقد رأيتك هناك».

قال مستر تاپرتت: «رأيتني هناك! أجل، أظن أنك قد رأيتني هناك. سيضطرب المكان إن قدِّر له أن يستمرَّ من دوني. ألا تذكر اعتقادي أنك كنت تحب ذلك المتشرد، وإقدامي على الشجار معك لهذا السبب، ثم ذهابي للشراب معك حين اكتشفت أنك كنت تكرهه أكثر مما تكره السم؟ ألا تذكر ذلك؟».

صاح هيو: «بالتأكيد!».

قال مستر تاپرتت: «حسنًا! أما زلت على نفس الرأي الآن؟».

زمجر هيو: «أجل!».

قال مستر تاپرتت: «أنت تتكلَّم كرجلٍ، وأنا سأصافحك».

وبهذه التعبيرات المسترضية قرن الفعل إلى القول، وأسرع هيو مقابلًا خطواته إليه ليؤدِّيا طقس المصافحة في عرض حماسيٍّ عظيم، ثم قال مستر تاپرتت وهو يقلِّب بصره في الضيوف المجتمعين:

«لقد اكتشفت أن الأخ –ما اسمه؟!– وأنا معرفة قديمة. أظن أنك لم تسمع بأي جديد عن ذلك الوغد، أليس كذلك؟».

رد (هيو): «ولا حرفًا، لا أريد أن أسمع، وأعتقد أني لن أسمع أبدًا. أتمنى أن يكون قد مات منذ زمن».

قال مستر تاپرتت وهو يفرك راحته على ساقيه وينظر إليها كلَّ حين: «يرجى أن يكون كذلك لأجل البشرية بعامة ولسعادة المجتمع. هل يدك الأخرى أنظف؟ إنها كأختها. حسنًا، لك في ذمَّتي مصافحة أخرى، وسنفترض أنَّنا تصافحناها إن لم تمانع».

قهقه هيو ثانيةً في استسلامٍ تامٍّ لمزاجه المجنون حتى لقد بدت أطرافه مخلوعة وهيكله كله على وشك الانهيار إلى أشلاء، لكنَّ مستر تاپرتت الذي لم تشب استقباله لهذا المرح المتطرِّف أثارة من غضب كان يسرُّه أن ينظر إلى ضحك هيو بالكثير من الاستحسان، بل أن يشاركه إياه بقدر ما تسمح بذلك رصانته ومنزلته، مراعيًا الحشمة واللياقة اللتين يتوقَّع ممن هم في المنازل العليا أن يراعوهما.

لم يكتفِ مستر تاپرتت بذلك كما يتوقَّع من كثير من الشخصيات العامة، وإنما نادى ملازميه وقدَّم هيو إليهما بكثيرٍ من الثناء، معلنًا أنه رجلٌ لا يكثر عليه الإعزاز ولو كثر، خصوصًا في زمن كالذي هم فيه. وفوق ذلك شرَّفه بأن قال إنَّه مكسب يشرِّف الكلاب الثيران المتحدين أنفسهم أن يكسبوه، ولما اكتشف بعد أن جسَّ نبضه أنه كان مستعدًّا راغبًا تمامًا في دخول الجمعية (إذ إنه لم يكن ملتفتًا بحالٍ إلى التفاصيل، وكان مستعدًّا في تلك الليلة إلى الانضمام إلى أي شيء أو أي إنسان لأي غرض) أجرى الإعدادات الضرورية لذلك في اجتماعهم هذا. ولم يكن هناك من هو أسعد من مستر (دنس) بذلك الاعتراف بكفاءة هيو العظيمة، كما صرَّح هو بكثيرٍ من الأيمان النادرة المدهشة، والحق أن ذلك أرضى الجمع كله رضا تامًّا.

صاح هيو متمنطقًا بالصفيحة التي أفرغها في جوفه أكثر من مرة: «اجعلني ما تشاء! أسند إليَّ أيَّ واجب تحبه، أنا رجلك، سأقوم به. ها هو قبطاني. ها هو قائدي. هاهاها! دعه يعطيني الأمر وسأقاتل الپرلمان كله وحدي أو أحرق عرش الملك نفسه بمشعلٍ موقدٍ!» قالها ضاربًا ظهر مستر تاپرتت بعنف لدرجة أنَّ جسده الضئيل بدا كما لو كان ينكمش إلى لا شيء، ثم زمجر ثانية فأفزع اللقطاء أنفسهم في فرشهم القريبة من هذه البقعة.

والحق أن مخَّه البسيط قد تملَّكه تمامًا شعور بشيء غريب في رفقتهما. فإن محض حقيقة أنَّ راعيه الآن رجل عظيم يستطيع هو أن يسحقه بيد واحدة بدا لعينيه شيئًا بالغ الغرابة باعثًا على الضحك، حتى ساده نوعٌ من البهجة الوحشية، وأخضع طبيعته المتوحشة تمامًا. أخذ

يزمجر ويزمجر، وشرب نخب مستر تاپرتت مائة مرة، وأعلن نفسه كلبًا ثورًا حتى النخاع، ونذر أن يظل مخلصًا له إلى آخر رمقٍ.

استقبل مستر تاپرتت كلَّ هذه الإطراءات باعتبارها شيئًا مفروغًا منه، بها ما بها من التقريظ بالطبع، وإن كان تفوّقه العظيم هو الباعث عليها بالكامل. ولم تكن رصانته المغرورة تزيد هيو إلا ابتهاجًا، وباختصارٍ فقد نشأت صداقة بين هذا القزم وذاك العملاق، أثبتت مقاومتها للزمن فطال أجلها، إذ اعتبر القزم أن من حقِّه أن يأمر، واعتبر العملاق أن من دواعي سروره العظيم أن يطيع. ولم يكن هيو بحالٍ تابعًا سلبيًّا، فقد كان يخايله أن يعمل دون أوامر دقيقة قاطعة، فحين اعتلى مستر تاپرتت برميلًا فارغًا كان يقوم مقام المنبر في الغرفة وتطوَّع بإلقاء خطبة بشأن الأزمة المقلقة الحالية، وضع هيو نفسه إلى جوار الخطيب، ورغم أن ضحكته كانت ترتسم على وجهه من الأذن إلى الأذن مع كلِّ كلمة يسمعها، فقد كان يرمي المتهكِّمين بإشاراتٍ معبِّرة بهراوته، جعلت أولئك الذين كانوا في البداية أكثر الحضور ميلًا إلى المقاطعة يصيخون السمع في انتباه ويستحسنون ما سمعوه بأعلى الأصوات.

غير أن ما دار في (البوت) لم يكن كلُّه صخبًا وهذرًا، ولم يكن كلُّ الرفاق مستمعين للخطبة فحسب. فقد كان في الطرف الآخر من الغرفة الطويلة المنخفضة السقف بعض الرجال المنخرطين في حوارٍ جادٍّ طيلة الوقت، وحين كان أيٌّ من هؤلاء يخرج، كان يدخل جددٌ ليجلسوا مكانهم، كما لو كان السابقون يريحونهم في نوبة مراقبة أو واجب ما، وقد كان من الواضح جدًّا أن هذا ما يحدث حقًّا، فقد كانت هذه التغييرات تحدث بالساعة، كلَّ نصف ساعة بالتحديد. كان هؤلاء يتهامسون كثيرًا

فيها بينهم، وبقوا منعزلين ينظرون إلى ما حولهم من آنٍ لآخر، كما لو كانوا يغارون على حديثهم أن يتنصَّت عليه، وقد عكف اثنان أو ثلاثة منهم على التسجيل في دفاتر لما بدا تقارير من الآخرين، وحين يتصادف أنهم غير منشغلين بهذا الأمر كان أحدهم يلتفت إلى الجرائد المفروشة على المنضدة، ومن (سان چيمس كرونكل) إلى (الهيرالد) إلى (كرونكل) إلى (پبلك أدڤرتايزر) يقرأ للباقين بصوتٍ خفيضٍ فقرةً تمتُّ بصلة إلى الموضوع الذي يتشاركون جميعًا الاهتمام العميق به. غير أن محور الاهتمام الأكبر كان رسالة تسمى (الراعدة)، تتبنَّى آراءهم، ويفترض أنها صادرة مباشرة عن الرابطة. كانت هذه الرسالة مطلوبة دائمًا، وسواء قُرئت بصوتٍ عالٍ على دائرة من المستمعين المتشوِّقين أو قرأها رجلٌ منعزلٌ لنفسه، كانت تتلوها دائمًا عاصفة من الكلام والنظرات المتحمِّسة.

ووسط مرحه هذا كله وإعجاب قائده به، أيقظت هيو من سكرته هذه الإشارات وغيرها إلى وجود جوٍّ من الغموض كذلك الذي أثَّر فيه أيَّما تأثير خارج الأبواب. كان من المستحيل أن يتجاهل الشعور بأنَّ شيئًا خطيرًا يحدث، وأنَّ أمرًا جليلًا خافيًا يكمن تحت المرح الصاخب في الحانة. غير أنه لقلَّة تأثُّره بذلك الشعور كان راضيًا تمامًا عن مستقرِّه وكان يطيب له أن يبقى فيه إلى الصباح، لولا نهض مرافقه بعد منتصف الليل ليعود إلى بيته، واحتذاه مستر تاپرتت فنهض هو الآخر، فلم يتركا له عذرًا للبقاء. وهكذا تركوا الحانة معًا، وهم يزمجرون أغنية ضد البابوية حتى ردَّدت الحقول أصداءها الصاخبة الكئيبة.

صاح هيو وقد تقطَّعت أنفاسهم من الزَّمجرة: «روِّح عن نفسك يا قائد، مقطع آخر».

وإذ لم يكن لدى مستر تاپرتت مانعٌ، فقد بدأ مجدّدًا، وهكذا مضى الثلاثة في طريقهم يترنَّحون ويتصايحون كالمجانين، يتأبَّط كلٌّ منهم ذراع صاحبه، متحدِّين الحارس الليلي بشجاعة عظيمة. والحق أن ذلك لم يكن يتطلَّب شجاعة استثنائية أو جرأة، إذ إنَّ حرَّاس ذلك العهد الذين كانوا يختارون لتلك الوظيفة على أساس تقدُّمهم في السن وعجزهم البالغ قد نشأت لديهم عادة أن يغلقوا عليهم كبائنهم جيِّدًا متى لاحت بشائر الاضطراب، ثم يظلُّوا فيها إلى أن يختفي الاضطراب. وخلال هذا النشاط برّز مستر (دنس) بين صاحبيه بما أوتي من صوت أجشّ ورئتين قويتين، وحظي بتقديرهما.

قال مستر تاپرتت: «ما أغربك من رجلٍ! إنك ماكرٌ وكتومٌ، لماذا لا تخبرنا أبدًا بمهنتك؟».

صاح هيو ضاربًا رأسه بقبَّعته: «أجب القائد على الفور، لماذا لا تخبر أبدًا بمهنتك؟».

«أنا صاحب مهنة نبيلة يا أخي كأي رجل في إنكلترا، عمل خفيف كذلك الذي يتمنَّاه كل إنسان».

سأله مستر تاپرتت: «هل كنت صبيًّا متدرِّبًا عليه؟».

قال مستر (دنس): «لا، موهبة فطرية، لا تدريب. يأتي بطريق الفطرة. السيد غاشفورد يعرف مهنتي. انظر إلى يدي، إنها يدٌ نفَّذت الكثير والكثير من العمليات، بأناقة ومهارة لم تُعرف من قبل» ثم أردف وهو يهزُّ يده في الهواء: «حين أنظر إلى هذه اليد، وأتذكَّر الأعمال الرائعة التي أنجزتها، أشعر بكآبة عميقة حين أتصوَّرها وقد أصبحت عجوزًا ضعيفة. لكن هكذا الحياة».

وأطلق تنهيدة حرّى وهو غارق في هذه التأملات، ثم ما لبث أن وضع أصابعه على رقبة هيو وهو شارد اللب، بالتحديد أسفل أذنه اليسرى، كما لو كان يدرس تشريح هذا الجزء من هيكله، ثم هزَّ رأسه مغتمًّا وذرف دموعًا بالفعل.

قال مستر تاپرتت: «أفترض أنَّك فنَّانٌ من نوعٍ ما، أليس كذلك؟!».

ردَّ (دنس): «نعم، نعم. لي أن أسمِّي نفسي فنَّانًا، عاملًا فنيًّا. الفن يهذِّب الطبيعة، هذا شعاري».

قال مستر تاپرتت وهو يأخذ عصاه من يده: «وماذا تسمَّي هذه؟».

ردَّ (دنس): «هذه صورتي في أعلاها، ألا تعتقد أنها تشبهني؟».

قال مستر تاپرتت: «آه هي على قدرٍ من الوسامة، من صنعها؟ أنت؟».

كرَّر دنس وهو يحملق إلى صورته بشغفٍ: «أنا؟! لكم أتمنَّى لو كانت لديَّ الموهبة. هذه نحتها صديقٌ لي لم يعد موجودًا. قبل وفاته بيومٍ نحتها بمطواته من الذاكرة! قال سأموت وأنا أعمل! ولحظاتي الأخيرة سأنفقها في عمل صورة لدنس، هكذا».

قال مستر تاپرتت: «كان هذا خيالًا غريبًا، أليس كذلك؟».

ردَّ الآخر وهو يزفر على أنفه الخيالية ويجلوها بكمِّ معطفه: «كان خيالًا غريبًا حقًّا، لكنه كان شخصًا غريبًا على الجملة، غجريًّا من نوعٍ ما، واحدًا من أفضل من يمكن أن تراهم من الرجال وأكثرهم استقامة. آه! لقد أخبرني ببعض الأشياء التي ربما تفزعك بدرجة ما، صديقي ذلك، صبيحة اليوم الذي مات فيه».

قال مستر تاپرتت: «لقد كنتَ معه إذ ذاك، أليس كذلك؟».

أجاب بنظرة غريبة: «أجل، كنتُ هناك. أوه! بالطبع كنتُ هناك، لم يكن له أن يموت بمثل ما مات به من راحة من دوني، ولقد كنت في رفقة ثلاثة أو أربعة من عائلته في الظروف نفسها، كانوا جميعًا أشخاصًا جيِّدين».

قال مستر تاپرتت وهو يرمقه بنظرة جانبية: «بالتأكيد كانوا شغوفين بك».

قال دنس بقليلٍ من التردُّد: «لا أعرف أنهم كانوا بالضبط شغوفين بي، لكني كنتُ إلى جوارهم جميعًا حين قضوا. كما ساعدتُ في صوان ملابسهم كذلك. هذا المنديل الذي تراه ملفوفًا حول رقبتي كان ملك ذلك الذي كنتُ أتحدَّث عنه، ذلك الذي صنع تلك الصورة لي».

نظر مستر تاپرتت إلى الشيء المشار إليه وبدا أنه يفكر أنَّ أفكار ذلك المتوفَّى بشأن اللباس كانت غريبة بعيدة كل البعد عن التكلفة العالية، غير أنه لم يعلِّق على هذه النقطة، آذنًا لرفيقه الغامض أن يواصل من دون مقاطعة.

قال دنس وهو يفرك ساقيه: «هذا البنطال التحتي نفسه كان لصديقٍ لي ترك هذه الأحمال إلى الأبد. كذلك هذا المعطف، لطالما مشيت وراء هذا المعطف في الشارع وتساءلت عمَّا إذا كان سيؤول إليَّ ذات يوم. هذا الحذاء رقص رقصة المزمار لرجلٍ غيري أمام عينيَّ هاتين ست مرات على الأقل، ثم أردف وهو يخلع قبعته ويديرها على قبضته: «أمَّا بالنسبة إلى قبَّعتي، رباه! لقد رأيت هذه القبعة تصعد إلى (هولبرن) في عربة أجرة، أيامًا كثيرة!».

قال مستر تاپرتت وهو يتأخر عن خطوته قليلًا: «أرجو ألا يكون قصدك أن لابسي هذه الأشياء قبلك قد ماتوا جميعًا؟».

رد دنس: «كلهم، كلهم بلا استثناء!».

كان ثَمَّ شيء مخيفٌ في هذا الأمر، وقد بدا أن هذا الشيء يبرِّر بطريقة بالغة الغرابة والكآبة شحوب لباسه الذي بدا على هذه الخلفية الجديدة كما لو كان لونه قد حال بفعل تراب القبور، حتى إن مستر تاپرتت اكتشف فجأة أن طريقه مختلفة عن طريق دنس، فما لبث أن توقف بغتة وتمنى له ليلة طيبة بأقصى ما أوتي من مودة. وحيث تصادف أنهم كانوا قريبين من محكمة (أولد بايلي)، وكان مستر دنس يعرف بوجود حراس في بيوتهم هناك يستطيع أن يمضي الليل معهم ويناقش في دفء النار أمورًا مهنية يشاركهم الاهتمام بها، فقد انفصل عن رفيقيه من دون كثير أسف، مصافحًا هيو في حرارة وضاربًا ميعادًا مبكرًا للقائهم في (البوت)، ثم تركهما ليتابعا طريقهما.

قال مستر تاپرتت وهو يراقب قبعة صاحب عربة الأجرة وهي تهتز مبتعدة: «نوعٌ غريبٌ من الرجال، لا أدري على أي نحوٍ أفهمه، لماذا لا يستطيع أن يحصل على بنطال تحتي مصنوع لأمره هو؟ أو أن يرتدي ملابس للأحياء بأي طريقة؟».

صاح هيو: «إنه رجلٌ محظوظٌ يا قائد، وإني يطيب لي أن يكون لي أصدقاء كأصدقائه».

قال مستر تاپرتت متأمِّلًا: «أرجو ألا يكون قد دأب في حثِّهم على كتابة وصاياهم ثم ضربهم على رؤوسهم. لكن هيَّا، إن الكلاب الثيران المتحدين ينتظرونني، هيَّا! ما الأمر؟».

قال هيو الذي أجفل حين سمع دقَّ ساعة قريبة: «لقد نسيت تمامًا، لديَّ من أراه الليلة، عليَّ أن أدور على عقبيَّ فورًا. لقد أنساني الشراب والرقص هذا الأمر، من الخير أنني تذكَّرته!».

حدجه مستر تاپرتت بنظرة من هو على وشك التفوُّه ببعض العبارات الفخمة معلِّقًا بها على هذا الهجر، لكن حيث كان واضحًا من عجلة هيو أن الأمر كان عاجلًا فقد تسامح معه في لطفٍ، وأذن له في الانصراف في التوِّ، ما شكره هيو بقهقهة مزمجرة ثم صاح:

«طابت ليلتك أيها القائد، أنا رجلك حتى الموت، تذكَّر ذلك!».

قال مستر تاپرتت ملوِّحًا بيده: «الوداع! كن جريئًا ويقظًا!».

زمجر هيو: «لا للبابوية أيها القائد!».

صاح قائده المستيئس: «إنگلترا في الدم أولًا!» فقهقه هيو في مرحٍ وأخذ يركض ككلبٍ سلوقيٍّ.

قال (سايمن) وهو يدور على عقبيه مفكرًا: «سيثبت هذا الرجل أنه ذخرٌ لقواتي، ولأرتقب. في حالة أخرى للمجتمع ستتلو ما نحن فيه لا محالة إن ثرنا وانتصرنا، حين تصبح ابنة صانع الأقفال ملكي، سيصبح من الضروري التخلُّص من مـگز بطريقة ما، وإلا فستدسُّ لي السم في برَّاد الشاي ذات مساء وأنا خارج الدار. ربما أزوِّجه مـگز إذا شرب حتى ثمل. سيحدث هذا، سأسجِّله في دفتري».

* * *

الفصل الأربعون

لم يخطر ببال (هيو) شيء من خطة استقراره السعيد في الحياة، تلك الخطة التي اقترحت نفسها على عقل قائده الراعي المشغول، فلم يتوقف لحظة في سيره إلى أن دقَّ عملاقا سان دنستان[(١)] الساعة فوق رأسه، وإذ ذاك عالج بقوة شديدة يدَ مضخة قريبة منه، ودفع رأسه تحت فوَّهتها تاركًا الماء ينهمر عليه إلى أن فاضت كلُّ خصلة شعثاء من شعرة بسيلٍ صغيرٍ، وابتلَّ إلى خصره. وبعد أن أنعش هذا الاغتسال عقله وجسده وأيقظه من السُّكر، جفَّف نفسه بقدر المستطاع، ثم عبر الطريق ودقَّ باب (المدل تمپل).

نظر الحارس الليلي بعينٍ حادة من خلال فرجة ضيقة بالباب صائحًا: «هالوا!»، فردَّ هيو التحية بمثلها وطلب منه أن يفتح سريعًا، صاح الرجل:

«لا نبيع الجعة هنا، ماذا تريد غير ذلك؟».

ردَّ هيو راكلًا الباب بقدمه: «أن أدخل».

(١) Saint Dunstan's Giants عملاقا سان دنستان هما تمثالان منصوبان في ساعة كنيسة سان دنستان في الغرب، في شارع فليت Fleet Street في لندن، وهي منسوبة إلى أسقف لندن وكبير أساقفة كانتربري، دنستان (٩٠٩-٩٨٨م)، والتمثالان ربما يمثّلان جوج وماجوج المذكورين في الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر حزقيال وفي سورتي الكهف والأنبياء في القرآن. وهما يقرعان أجراس الساعة بانتظام.

«إلى أين؟».

«أبنية الورق».

«إلى شقة من؟».

«سير چون تشستر» وكان هيو يؤكد كل إجابة من هذه بركلة للباب.

وبعد قليلٍ من التذمُّر على الناحية الأخرى فتح الباب، فعبر داخلًا والبواب يتفحَّصه من كثبٍ قبل أن يقول هذا الأخير:

«أنت تريد سير چون في هذا الوقت من الليل؟».

قال هيو: «نعم، ماذا في هذا؟».

«إذن فعليَّ أن أرافقك حتى تفعل، لأنني لا أصدِّقك».

«تعال إذن».

سار الرجل إلى جانبه وهو يرمقه بنظراتٍ ملؤها الارتياب وفي يده المفتاح والمصباح، مرافقًا إيَّاه إلى باب سير چون تشستر، وإذ ذاك دقَّ هيو الباب دقة واحدة ردَّد الدرج المظلم صداها كنداءٍ شبحيٍّ، وارتجف لها الضوء الخافت المنبعث من المصباح الناعس، قال هيو:

«أتعتقد أنه يريدني الآن؟».

وقبل أن يواتي الوقت الرجل ليجيب سمع وقع خطىً بالداخل وظهر ضوء، ثم فتح سير چون الباب في ملابس نومه وخفَّيه. أسرع البواب قائلًا وهو يخلع قبعته:

«أستميحك العذر يا سير چون، هناك شابٌّ يقول إنه يريد التحدُّث إليك، الوقت متأخِّر بالنسبة إلى استقبال غرباء، لذا فكرت أن أطمئنَّ بنفسي».

صاح سير چون رافعًا حاجبيه: «أها! إنه أنت أيها الرسول، أليس كذلك؟ استمر، حسنًا فعلت أيها الصديق. إنني أثني على حسن تصرُّفك، أشكرك. فليباركْ الربُّ، طابت ليلتك».

كان هذا كثيرًا بالنسبة إلى بوَّابٍ، أن يثني عليه ويشكره ويدعو له بالبركة ثم يتمنى له ليلة طيبة شخصٌ يحمل لقب (سير) قبل اسمه ويكتب نفسه (عضو البرلمان) فضلًا عن ذلك. انسحب بكثيرٍ من الاحترام والتواضع، بينما تبع سير چون زائره المتأخِّر إلى غرفة الملابس ثم استوى جالسًا في مقعده المريح أمام المدفأة وأخذ يحرِّكه ليستطيع النظر إلى الزائر الواقف إلى جوار الباب وقبَّعته في يده، وأخذ ينظر إليه من رأسه إلى أخمص قدمه.

الوجه العجوز بهدوئه وسروره المعتادين، والبشرة الشابة في ينعها وصفائها، والابتسامة نفسها، ودقة اختيار اللباس وأناقته، والأسنان البيضاء الحسنة الاصطفاف، واليدان الرقيقتان، والأسلوب الرصين الهادئ، كل شيء كما كان: لا علامة شيخوخة أو انفعال، لا علامة حقد أو كراهية أو تبرُّم، بل طمأنينة ورزانة ومنظر يسرُّ الناظرين.

كان يكتب نفسه (عضو البرلمان)، لكن كيف؟ لِمَ العجب؟ هكذا! لقد كانت عائلة ذات شمم، شمَّاء أكثر بكثير مما هي ثرية. كان مهدَّدًا بالقبض عليه والوقوع في قبضة المحضرين ثم في السجن. وهو سجن فظٌّ يذهب إليه ذوو الدخول المتواضعة من الدهماء. وليست للسادة سليلي العائلات العريقة مزيَّة الإعفاء من مثل هذه القوانين القاسية، إلا إن كانوا

ينتمون إلى بيتٍ عظيمٍ بعينه، فحينذاك يتمتَّعون بهذه المزيَّة. وكانت عند أحد ذوي قرابته ونسبه المتغطرسين الوسيلة التي تمكِّنه من إرساله إلى البرلمان. عرض عليه -لا أن يسدِّد عنه ديونه، وإنما أن يجعله يمثِّل دائرة انتخابية جيبية إلى أن يبلغ ولده سنَّ الرشد[١]، وهو ما سيحتاج إلى عشرين عامًا ليحدث إن عاش. لم يكن ذلك يقل فاعلية عن قانون الإعسار[٢]، وإن كان أكثر تهذيبًا منه بما لا يقارن، وهكذا صار سير چون تشستر عضوًا بالپرلمان.

لكن كيف أصبح (سير) چون؟ لا أبسط ولا أسهل من إجابة هذا السؤال، لمسة واحدة بسيف الدولة وتحوَّل إلى (سير). جناب چون تشستر[٣] عضو الپرلمان حضر جلسة وتصدَّى لإلقاء خطاب ثم رأس وفدًا مفوَّضًا. ولم يكن من الممكن أن يمر مثل أسلوبه المهذب ولطائف سلوكه وقوة محاورته من دون أن يُلتفَت إليها جميعًا. غير أن هذا السيد كان بحكم مولده أقلَّ من أن ينعم عليه بمثل هذا الشرف. وإنَّ رجلًا على هذا القدر من النُّبل كان ينبغي له أن يولد دوقًا، لولا غرابة أطوار الحظ، تمامًا كما كان ينبغي لبعض الدوقات أن يولدوا عمَّالًا. استطاع أن ينال

---

(١) الدائرة الانتخابية الجيبية Pocket Borough هي إقليم قليل الناخبين إلى أقصى حدٍّ، وكان يستخدم لكسب النفوذ غير التمثيلي في مجلس النواب في بريطانيا والمملكة المتحدة قبل أن يلغي قانون إصلاح البرلمان هذه الدوائر Reform Act ١٨٣٢.

(٢) قانون الإعسار Insolvency Act هو قانون يسقط عن المدين المعسر ديونه شريطة أن يسلِّم لدائنيه كلَّ ثروته.

(٣) John Chester Esquire اللقب اللاحق في العرف الإنـكليزي يعني مرشَّحًا لرتبة فارس، وهو من كان يحمل دروع الفارس وعدّته قديمًا، وقد اخترت أن أترجمه إلى (جناب) لأنَّ الكلمة العربية تعني مصون الجانب، وهو المراد باللقب الإنـكليزي باختصارٍ.

حظوة لدى الملك، فجثا أمامه دودة ونهض فراشة. هكذا ضمَّ جناب چون تشستر إلى رتبة الفرسان وأصبح سير چون.

بعد صمتٍ طويلٍ قال سير چون: «لقد ظننتُ بعد أن تركتني هذا المساء يا رفيقي المحترم أنك كنت تنوي العودة على جناح السرعة».

«هكذا نويت حقًّا سيدي».

ردَّ ناظرًا إلى ساعته: «وهل عدت على جناح السرعة؟ هل هذا ما تنوي أن تقوله؟».

وبدلًا من أن يردَّ هيو، بدَّل الساق التي يتَّكئ عليها، وبدَّل قبَّعته من يدٍ إلى أخرى، ونظر إلى الأرض والجدران والسقف وأخيرًا إلى سير چون نفسه، ثم خفض عينيه أمام وجهه الدَّمث مجددًا وثبَّتهما على الأرض.

قال سير چون وهو يضع ساقًا فوق أخرى في تكاسلٍ: «وبم كنت تشغل نفسك في تلك الأثناء؟ أين كنت؟ أي أذى فعلته؟».

قال هيو في تذمُّرٍ ذليلٍ: «لا أذى أبدًا يا سيدي، لم أفعل إلا ما أمرتني به».

ردَّ سير چون: «إلَّا ماذا؟».

قال هيو في ارتباكٍ: «حسنًا إذن، كما نصحتَ أو قلت إنني ينبغي لي أن أفعل، أو بإمكاني أن أفعل، أو كما قلت إنَّ ذلك ما كنت ستفعله لو كنت مكاني، لا تقسُ عليَّ هكذا يا سيدي».

هنا بدا لوهلة على محيَّا الفارس شيء يشبه تعبير الانتصار مجسَّدًا فيما نجح فيه من سيطرة تامة على أداته البشرية الفظَّة هذه، لكنَّ هذا التعبير ما لبث أن تبخَّر وهو يقول بينما يقلِّم أظافره:

«حين تقول إنني قد أمرتُك بشيء يا صديقي الطيب، فإنك توحي بأنني وجَّهتك إلى فعل شيء لأجلي، شيء أردتُ أن يُفعَل، شيء يخدم أهدافي وأغراضي، أرأيت؟ والآن أنا واثق بأنني لستُ مضطرًّا إلى الاستفاضة في بيان مدى سخافة هذه الفكرة وإن كانت غير مقصودة. والآن أرجوك.»، وهنا أدار عينيه إليه مواصلًا: «كُن أكثر حذرًا، هل ستكون كذلك؟».

قال هيو: «لم أقصد أن أضايقك، لا أعرف ما ينبغي لي أن أقول، أنت تمسك بلساني بعد كلماتٍ قليلة».

ردَّ راعيه في هدوءٍ: «يومًا ما سيمسك بلسانك بعد كلمات أقل يا صديقي الطيب، أقل بكثيرٍ، ثق بذلك. بالمناسبة، بدلًا من أن أتعجَّب لسبب تأخُّرك البالغ، فإنَّ عجبي الآن من سبب مجيئك أصلًا، لماذا جئت؟».

قال هيو: «أنت تعرف يا سيدي أني لم أستطع قراءة المنشور الذي عثرت عليه، وأنني لمَّا افترضت أنه شيء مهمٌّ من طريقة طيِّه أحضرته إلى هنا».

قال سير چون: «ألم يكن في مقدورك أن تسأل أيَّ شخصٍ آخر أن يقرأه لك أيها الدب؟»[١].

«لم أكن لآتمن شخصًا آخر على الأسرار يا سيدي. منذ فقد أثر بارنابي ردج إلى الأبد، وكان هذا منذ خمسة أعوام، لم أتحدث مع أحدٍ غيرك».

«أنا واثق بأنك قد شرَّفتني بذلك».

---

(١) هنا يناديه سير چون باسم Bruin وهو اسم إنـگليزيّ للدب البنّي، مشتقٌّ من كلمة Bruin الهولندية التي تعني (بنّيًّا). والأهم أنه اسم شخصية الدب في دائرة الحكايات الخرافية المسمَّاة (رينارد الثعلب Reynard the Fox).

قال هيو والكلمات تندفع من فيه بعد صمتٍ مرتبكٍ: «لقد رحتُ وجئتُ كثيرًا سيدي طيلة ذلك الوقت، كلما ظهر لي شيء يمكنني إخبارك به، لأنني عرفتُ أنك ستغضب مني إن بقيت بعيدًا، ولأنني أردت أن أسعدك كلما استطعت، وأردت ألَّا تعاديني، هذا هو السبب في مجيئي الليلة. أنت تعرف ذلك يا سيدي، أنا متأكِّد».

ردَّ سير چون مثبِّتًا عينيه عليه: «أنت رجلٌ مخادعٌ بوجهين تحت غطاء رأسك، مخادعٌ لا يقل عن أفضل المخادعين. ألم تعطني في هذه الغرفة الليلة سببًا آخر، ككراهية شخص ما أهانك مؤخَّرًا، أو أساء إليك ذات مرة، أو عاملك بوقاحة أو تصرَّف معك كما لو كنت كلبًا هجينًا لا إنسانًا مثله؟».

صاح هيو في انفعالٍ متزايدٍ كما أراد الآخر له: «فعلتُ هذا حقًّا، وأكرِّره كله الآن. أنا مستعدٌّ أن أفعل أيَّ شيء لأنتقم منه، أيَّ شيء. وحين أخبرتني بأنه هو وكلَّ الكاثوليك سيعانون من أولئك الذين انضمُّوا إلى بعضهم بعضًا بحكم ذلك المنشور قلت إنني سأكون واحدًا منهم، ولو كان سيدهم الشيطان نفسه. أنا واحدٌ منهم. وانظر بنفسك ما إذا كنت سأحفظ كلمتي وأظهر كواحدٍ من أبرزهم أم لا. ربما أنا لستُ ذكيًّا جدًّا سيدي، لكني ذكيٌّ بما يكفي لأن أتذكَّر أولئك الذين يسيئون إليَّ. سترى وسيرى هو وسيرى مئاتٌ غيره كيف تساندني روحي حين يحين الوقت. أنا لستُ جعجاعًا بلا طحنٍ. بعض من أعرفهم تمنَّوا أن يكون بينهم أسدٌ متوحِّشٌ ولا أكون أنا بينهم متحررًا من كلِّ قيدٍ، حقًّا!».

نظر الفارس إليه بابتسامة أعمق في مغزاها مما هو معتاد، ثم أشار

إلى الدولاب القديم وهو يتبعه بعينيه بينما يملأ لنفسه كأسًا من الشراب ويعبُّها، وحين أدار هيو ظهره ابتسم ثانية بمغزى أعمق وأعمق، ثم قال حين واجهه هيو مجدَّدًا:

«إنك في مزاجٍ منذرٍ يا صديقي».

صاح هيو: «لستُ أنا يا سيدي! أنا لا أقول نصفَ ما أعنيه، لا أستطيع. ليست لديَّ تلك الموهبة. بيننا متكلِّمون بما فيه الكفاية، أمَّا أنا فسأكون من الفاعلين».

قال سير چون بلهجة مفعمة باللا مبالاة: «أوه! إذن فقد انضممتَ إلى أولئك الرفاق؟».

«نعم، لقد ذهبت إلى المنزل الذي أخبرتني به، ووقفت أمام القائد، كان هناك رجلٌ آخر يُدعى دنس.».

صاح سير چون ضاحكًا: «دنس، ياه! نعم نعم، شخصٌ لطيفٌ حسبما أظن».

«كلب صخَّاب يا سيدي، يشبهني، متحمس للأمر إلى درجة السخونة».

ردَّ سير چون في لا مبالاة: «هكذا سمعت، أنت لا تعرف مهنته، أليس كذلك؟».

صاح هيو: «لم يكن ليقول؛ يحتفظ بها سرًّا».

ضحك سير چون: «هاها! يا له من مزاجٍ غريبٍ! نقطة ضعف عند بعضهم. أستطيع أن أقسم أنك ستعرف مهنته يومًا ما».

قال هيو: «لقد أصبحنا بالفعل حميمين».

تابع سير چون: «طبيعيٌّ جدًّا، وشربتما معًا، أليس كذلك؟ هل قلت اسم المكان الذي ذهبت إليه برفقته حين غادرت منزل لورد چورج؟».

لم يكن هيو قد قاله ولم يكن قد فكر في قوله، لكنه أخبره به، وحيث أتبع هذا السؤال بقطارٍ طويلٍ من الأسئلة فقد حكى كلَّ ما دار بين الجدران وخارجها، وأخبره بأنواع الناس الذين رآهم وأعدادهم وما يبدو من مشاعرهم وطريقة كلامهم وما يظهر من توقُّعاتهم ونواياهم. كانت طريقة الأسئلة محبوكة بحذقٍ حتى لقد بدا لعيني نفسه كما لو كان يتطوَّع بالإدلاء بكلِّ هذه المعلومات، لا يستدرج إلى الإخبار بها، وقد وصل إلى هذا الشعور بطريقة طبيعية تمامًا، حتى إنَّ مستر تشستر حين تثاءب في النهاية وأعلن أنه متعبٌ للغاية لم يسع هيو إلا أن يعتذر في فظاظة عن الإطالة.

قال سير چون وهو ممسك بالباب مفتوحًا: «هيَّا، اذهب، لقد أدَّيت عملًا مسائيًّا رهيبًا، لقد أخبرتك بألا تفعل مثل ذلك، ربما تتورَّط في متاعب. غير أنك ستحظى بفرصة للانتقام لنفسك من صديقك المتكبِّر هاردال، وأظنك مستعدًّا للمغامرة بأي شيء لأجل ذلك؟».

ردَّ هيو وهو يتوقَّف في عبوره إلى الخارج وينظر خلفه: «نعم، لكن بماذا سأغامر؟ ماذا لديَّ لأخسره يا سيدي؟ الأصدقاء؟ البيت؟ لا يهمُّني من ذلك شيء. ليس لديَّ منه شيء ولا يعني لي شيئًا. أعطني عراكًا جيدًا ودعني أصفِّي حسابات قديمة في اشتباكٍ جريء فيه رجال يمكن أن يقفوا بجانبي، ثم استخدمني كما يحلو لك، ولا تهمُّني الأهداف كثيرًا!».

قال سير چون: ماذا فعلت بتلك الورقة؟».

«إنها لديَّ هنا يا سيدي».

«ارمِ بها ثانية وأنت ماشٍ، فمن الجيد ألا تحتفظ بمثل هذه الأشياء معك».

أومأ هيو موافقًا، ثم لمس قبَّعته بكلِّ ما استطاع استجماعه من احترامٍ وغادر. وبعد أن أغلق سير چون الباب وراءه عاد إلى غرفة ملابسه وجلس مجددًا أمام المدفأة وأخذ يحدق إليها وقتًا طويلًا في تأمُّلٍ جادٍّ، ثم قال مبتسمًا:

«من حسن الحظ أن يحدث هذا، وهو واعد بخيرٍ، لنر إذن. قريبي وأنا أكثر الناس پروتستانتية في العالم ونتمنَّى لقضية الروم الكاثوليك أسوأ الأماني، كما أنَّ لديَّ اعتراضي الشخصي على (ساڤيل)[1] الذي يتقدَّم بمشروع قانونهم. لكن حيث إنَّ كلًّا منَّا يرى نفسه الركن الأول في الإيمان فإننا لا نستطيع أن نورِّط أنفسنا بالانضمام إلى مجنون بالغ التطرُّف كذلك الـ(غوردن) الذي لا شكَّ في جنونه. والآن حقًّا، أن يثير المرء جنونه سرًّا من خلال أداة بالغة الكفاءة كصديقي المتوحِّش هذا، فلربما يخدم هذا أهدافنا الحقيقية، وأن نعبِّر في كل الأوقات المناسبة بعبارات لطيفة مهذبة عن استهجاننا لطرائقه رغم اتفاقنا معه من حيث المبدأ، فإنَّ هذا لخليقٌ بأن يكسبنا سمعة الشرف واستقامة الغرض، ما لا يمكن ألا يخدمنا خدمات عظيمة ويزيد أهميتنا، جيد! الكثير لأجل الأهداف العامة. أما بالنسبة إلى الاعتبارات الشخصية، فأنا أعترف بأنَّ هؤلاء المتشرِّدين إذا أقدموا على

(١) سير چورچ ساڤيل Sir George Savile سياسيٌّ إنـگـليزي خدم في مجلس النواب بين عامي ١٧٥٩ - ١٧٨٣ وهو الذي تقدَّم بمشروع قانون رفع المعاناة عن الكاثوليك The Catholic Relief Act.

بعض التظاهرات المشاغبة -وهو ما لا يبدو مستحيلا- وألحقوا بهاردال شيئًا من العقاب بصفته ليس أحد الخاملين بين طائفته، فإن هذا سيقع من مشاعري موقعًا حسنًا للغاية، وسيسلِّيني تسلية عظيمة. جيِّد حقًّا، وربما أفضل مما كنت أتصوَّر!».

حين وصل إلى هذه النقطة أخذ مقدارًا من السّعوط وشرع يخلع ملابسه في تؤدة مستأنفًا تأمُّلاته، قائلًا بابتسامة على شفتيه:

«أخشى، نعم أخشى جدًّا أن يكون صديقي ماضيًا في أثر أمه سريعًا، قربه من مستر دنس منذرٌ للغاية. غير أني واثق بأنه لم يكن ليصل إلى نهاية بخلاف هذه على أي حالٍ. إذا ساعدته فإن الفارق الوحيد الذي سيتحقق بمساعدتي إياه أنه ربما يشرب على الجملة من الغالونات أو البراميل أقل مما كان سيشربه في هذه الحياة. ليس هذا من شأني، إنه أمرٌ قليل الأهمية!».

وهكذا أخذ مقدارًا آخر من السعوط وأوى إلى فراشه.

* * *